المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

هارى سينت فيلبى

قلب الجزيرة العربية

سجل الأسفار والاستكشاف

الطبعة الثانية

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

مراجعة : رءوف عباس

الجزء الثانى

2/608



القســـم الأكبر من هذا الكتاب يغطى الفترة من شهر يونيو من عام 1918 الميلادى إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبى فى فترة متأخرة، فى عام 1921-1922 الميلادى.

وتـرجع الأهمـية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم - من ناحية - صورة حية لفراسة فيلبى ونفاذ بصيرة بريطانيا فى مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد - من ناحية ثانية - قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبى إلماماً وثيقاً ودقيقاً بالشئون العربية، كما توضح - من ناحية ثالثة - رأيه الشخصى والصريح فى أولئك الناس الذين تعرّفهم تعرفاً جيداً ووثيقاً، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبى فى استكشاف المناطق المجهولة، وإبراز مشاعر الود والاحترام والولاء التى كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية فى بداية تأسيسها، ومع ذلك يظل كتاب "قلب الجزيرة العربية" موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من بين كل أعمال وكتابات فيلبى.

تصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى

قلب الجزيرة العربية

(سجل الأسفار والاستكشاف)

الجزء الثانى

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٠٨ / ٢
- قلب الجزيرة العربية (سجل الأسفار والاستكشاف) الجزء الثانى
- هارى سينت فيلبى
- صبرى محمد حسن
- رءوف عباس
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

The Heart of Arabia
A Record of Travel & Exploration
By: H. ST. Philby
Volume 2

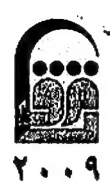
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

قلب الجزيرة العربية

(سجل الأسفار والاستكشاف)

الجزء الثانى

تأليــــــف: هارى سينت فيلبـــــى
ترجمـــــة: صبرى محمد حســن
مراجعـــة: رءوف عبـــاس



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيلبى، هارى سينت، ١٨٨٥ - ١٩٦٠.
قلب الجزيرة العربية: سجل الأسفار والاستكشاف ج٢، تأليف: هارى سينت فيلبى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة: رءوف عباس. ط٢ - القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٣٨٨ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات
٢- الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- عباس، رءوف (مراجع)
ج- العنوان
٩١٥،٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٢
الترقيم الدولى: 0 - 188 - 479 - 977 -978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

فهرس الملاحق

(١) مقتطفات من تقرير عن مجموعة من الحفريات .

(٢) قائمة بالمصطلحات العربية التي وردت في الكتاب .

(٣) قائمة الصور :

١ - ليلى، عاصمه الأفلاج.

٢ - عين سامحة، واحد من البحيرات "السحيقة" في الخرج.

٣ - بقايا اليمامة، هي والتلال الرملية التي تكاد تلامس حزام النخيل.

٤ - العقير - جيتي ، المخازن والميناء.

٥ - حطام فرزان وبقاياها.

٦ - البحيرة الكبرى في أم الجبل في الأفلاج.

٧ - خزان مقران، وجمال الدواسر تشرب منه.

٨ - هجرة الحنيش في واحة السليل.

٩ - قرية تمرة في وادي الدواسر.

(٤) الخرائط :

جنوبي نجد : الطرق فيما بين الرياض ووادي الدواسر. من واقع مسح قام به فيلبي.

وسط الجزيرة العربية : الطريق من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر. من واقع مسح قام به فيلبي.

تقديم الجزء الثانى من الترجمة(*)

يشتمل هذا الجزء الثانى على أربعة فصول ، هى : الفصل الثامن الخرج ، والتاسع الأفلاج ، والعاشر وادى الدواسر ، والحادى عشر حاجز هضبة الطُّوَيِّق .

وينهى فيلبى هذا الجزء الثانى بملحق ، عبارة عن مقتطفات من تقرير أعده ر. ب . نيوتن ، من المتحف البريطانى ، عن مجموعة من الحفريات جرى الحصول عليها من وسط الجزيرة العربية (جبل طُوَيِّق) ، ويضيف ملحقًا آخر بالمصطلحات والكلمات والتعبيرات العربية التى وردت فى الكتاب . وإمعانًا من فيلبى فى تأكيد الحقائق التى أوردها يعزز هذا الجزء الثانى بتسع صور التقطها هو شخصيًا لبعض الأماكن والمعالم التى تخدم موضوع كتابه القيِّم .

لم يغب عن بال فيلبى أن يعزز ذلك المجلد بخارطتين ؛ إحداهما لجنوب نجد ، وتبين الطرق والمسارات فيما بين الرياض ووادى الدواسر ، وذلك من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيًا . والخارطة الثانية لوسط الجزيرة العربية ، وفيها يبين الطريق الذى سلكه من الخليج العربى إلى البحر الأحمر ، وذلك أيضًا من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيًا. وإمعانًا أيضًا من فيلبى فى نسب الفضل إلى أهله ، أقر فى تصدير المجلد بأن أساتذة وفنيِّى الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية هم الذين ساعدوه على الوصول بخرائطه إلى الشكل الذى هى عليه فى الكتاب .

صبرى محمد حسن

(*) هذا التقديم مقتبس من مقدمة الترجمة فى الجزء الأول . ولمزيد من المتابعة : راجع التصدير ومقدمات المؤلف فى الجزء الأول. (التحرير)

الفصل الثامن

الخرج

١- مع مجرى وادى حنيفة

الصحة المعتلة، التى نتجت عن الأخطار والإرهاق اللذين تحملهما دوتى Doughty(١) بجلد شديد، هما اللذان أجبراه على التنازل عن إغراء شديد، عندما اقترحوا عليه بجدية كاملة، أنه إذا كان يجول بخاطره أن يطيل تجواله فى الجزيرة العربية، فإن ذلك التجوال يفضل أن يكون فى اتجاه الجنوب ناحية كل من وادى بيشة و وادى الدواسر، وأنه سيكون مسلحًا بإذن كتابى بضمان سلامة وصوله، صادر عن حسين باشا - الذى كان شريفًا ، وأميرًا على مكة فى تلك الأيام - كان ذلك منذ حوالى أربعين عامًا، أى منذ أن زاد فضول المتحمسين الجغرافيين إلى معرفة طبيعة الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية، ولكن لم يبذل أى جهد جاد أو ناجح لاستكشاف أسرار الجنوب، إلى أن جاء عام ١٩١٧ الميلادى، إذ شاهدت عن بعد فى أثناء الرحلة التى قمت بها من الرياض إلى الطائف، من منطقة سهل السبيع، ذلك الجزء الجبلى الذى يطلقون عليه اسم "هضب Hadhb الدواسر، والذى قالوا لى عنه إنه يطل على وادى الدواسر من جهة الشمال. كنت قد أعددت العدة فى ذهنى للعودة من الطائف سالكًا فى ذلك طريقًا جنوبيا من الطريق المعتاد الذى سار فيه كلٌ من دوتى وهيوبر Huber وتناولاه بالوصف، أو إن شئت فقل الطريق الرئيسى من القصيم إلى الحجاز؛ وقد زاد منظر تلكم الجبال العجيب من تصميمى على العودة سالكًا طريقًا جنوبيا، وعندما وصلنا الطائف كان رفاقى قد تم الاتفاق فيما بينهم وبينى على أن تكون عودتنا من طريق تربة Turaba

ووادى رانية Ranya إلى وادى الدواسر، ثم من وادى الدواسر عن طريق السليل Sulaiyil ومنطقة الأفلاج إلى الرياض. على كل حال، لم أحسب حساباً لمضيفى. ولم أجد فى الحسين بن على، شريف مكة وأول ملك من ملوك الحجاز، ذلك الحليف المقيم لبريطانيا العظمى، والذى وجدته هو مجرد شىء قليل من تلك الكياسة المعتدلة، التى أعرب دوتى عن إعجابه بها فى سميِّه سالف الذكر. ولما كان الملك قد وبخنى على جرأتى فى المرور عبر الأراضى المقدسة ذات مرة، ونظراً لاحتجاجى الشديد دون جدوى، على تصميم الملك على منعى من فعل ذلك مرة ثانية فى الاتجاه العكسى، وجدتنى مضطراً إلى ركوب الباخرة من جدة، وأنا فى أشد الأسف على الفرصة التى ضاعت منى فى ظل تلك الظروف التى أثارت شخصى وأثارت انزعاجى، ورحت أخطط لمشروع زيارتى للجنوب إذا ما أصبحت تلك الزيارة أمراً ممكناً.

بناء على ما تقدم جئت إلى ابن سعود فى مخيمه فى شوكى وكلى أمل ألا أجده محبطاً تماماً للنتيجة التى أسفرت عنها مفاوضاتى مع الشريف حسين، الأمر الذى قد يجعله يقترح علىَّ العودة إلى البصرة على وجه السرعة، وفى أفضل الأحوال، إذا ما وافق ابن سعود على بدء العمليات العسكزية ضد ابن الرشيد، وتلك فرصة لتنفيذ الخطة التى كنت قد وضعتها لزيارة الجنوب، على أن تكون تلك الزيارة فى ضوء ما يمكن أن تسفر عنه تلك العلميات العسكرية التى ستدور فى الشمال. وهنا أخذت الجهل بعين اعتبارى ووضعته فى حسبانى. وعلى الرغم من عدم رضا ابن سعود عن مقدار المساعدة التى رأت الحكومة البريطانية أنه يستحقها فإنه وافق على القيام بدوره فى تلك الخطة، مستهدفاً من ذلك فقط إثبات أن بريطانيا العظمى لن تقدِّر الخدمات، التى يمكن أن يقدمها ابن سعود لقضية الحلفاء، حق قدرها. وبعد التوصل إلى ذلك القرار، لم يكن صعباً إشعال جذوة الحماس لدى العرب كلهم للقيام بالعمليات شبه العسكرية، ولكن العربى متلكئ بطبيعته – وابن سعود ليس استثناءً من تلك القاعدة العامة – إذ طلب المزيد من الوقت كى يتمكن من مراجعة خططه والتأكد منها. وكان من الضرورى قبل كل شىء ألا يظهر ابن سعود أمام شعبه وكأنه ينفذ اقتراحاتى. ولذلك اقترح علىَّ ابن سعود العودة إلى البصرة أو الكويت، وأن أتركه وحده يطور خطته وعملياته على انفراد؛ ولم يعطنى ابن سعود وعداً ببدء العمليات الحقيقية والفعلية قبل حلول شهر رمضان،

وكنا لا نزال في بداية شهر رجب؛ هذا يعني عودتي بعد شهرين للوقوف على ما أسفرت عنه أعماله.

سبق أن أوضحت مدى معارضتي ذلك الاقتراح غير المستساغ الذي يقضي بعودتي إلى الساحل[٢]، وكيف استطعت إقناع ابن سعود بالموافقة على تمضية الفترة الزمنية، التي يتعيَّن قضاؤها قبل بدء العمليات، في زيارة أقوم بها إلى الجنوب. وكنا قد توصلنا إلى ذلك الاتفاق في اليوم الثاني عشر من شهر أبريل في مخيم ابن سعود في شعب شوكي. كان ربيع الجزيرة العربية يسر الخاطر وسط منخفضات هضبة عارمة المتدرجة، ولكنى كنت واثقًا من محدودية أيام الربيع، وراح ذهني يتخيل مناظر صيف مرهق شديد الحرارة في الجنوب الذي أوشكت على زيارته. كنت أتعجل الرحيل كي أغتنم الأسابيع القليلة المتبقية من ذلك الطقس البرَّاد الجميل. وفي إحدى المناسبات استجمعت شجاعتي واقترحت على ابن سعود أن سفري إلى الرياض لا مبرر له، وأن من المناسب جدا أن أسارع بالقيام بتلك الزيارة على وجه السرعة، قدر المستطاع. ولكن ابن سعود واجهني برفض قاطع؛ إذ كانت لديه أسباب جيدة، وأوضح لي ابن سعود، الأسباب الداعية إلى مرافقته إلى العاصمة ثم أبدأ منها سفري إلى الجنوب. وعلى أي حال، فإن الإبل لن تكون جاهزة قبل أن يعود أتباعه ومعهم الأدوات اللازمة إلى الرياض؛ ولم يكن أمامي سوى الصبر على تلك التمضية القاسية لذلك الفصل المعتدل بهذه الطريقة، هذا في الوقت الذي دفعتني الغريزة فيه – أكثر من أي من الدلائل الإيجابية الأخرى – إلى الشك في أن ابن سعود ربما ندم على تلك الصفقة أو ذلك الاتفاق الذي أبرمه في لحظة من لحظات كرمه. وشكِّي هذا لم يكن خاطئًا تمامًا؛ فقد وصلنا الرياض في اليوم التاسع عشر من شهر أبريل، وراحت الأيام تمر عليَّ دون أن أرى علامات واضحة على الاستعداد للقيام بالرحلة المنتظرة. وهنا بدأت أتحرى بحذر من خلال القصر، أي من إبراهيم، ومن الجنيفي ، ومن القصيبي، وكذلك من العبيد المعينين لخدمتي، بل وفي واقع الأمر، من كل ركن يمكن أن أستخلص منه المعلومات المطلوبة. بدأت أتحرى من تلك المصادر كلها المعلومات المطلوبة، دون الإساءة إليها أو جعلها تقف على قلقي واستعجالي. وها هي الإبل بعد أن عادت من معسكر التدريب، أعيدت من جديد لتجديد طاقاتها، منذ يومين أو ثلاثة، في مراعي الربيع. ومما لا شك فيه، أنه

جرى اختيار أفضل تلك الإبل للقيام بالرحلة الموعودة؛ وما عليَّ سوى أن أصبر قليلاً حتى تعود تلك الإبل. ومع ذلك لم يكن هناك من يستطيع أن يؤكد لى أن الأوامر قد صدرت بالفعل، بل أصبح واضحاً لى أن تلك الأوامر لم يصدرها ابن سعود بعد. وفى إحدى المناسبات، وعندما نزلت ضيفًا على تركى لشرب القهوة، تحدثنا عن الزيارة المرتقبة وأنها جرى عمل الترتيبات اللازمة لها، ومما لا شك فيه أن ابن سعود وصلته أصداء تحرياتى العجلة عن طريق أولئك الذين أسريت إليهم بها، وانصرف شهر مايو بعد شهر أبريل دون ظهور أية إشارة من الإشارات المشجعة، وهنا عزمت على البت فى الأمر على الفور.

كانت الخطوة الأولى تتمثل فى معالجة الموضوع مع ابن سعود نفسه، وفى نهاية لقاء من لقاءاتنا المسائية سألت ابن سعود سؤالاً عابراً حول ما إذا كان يذكر ذلك الاتفاق الذى سبق أن اتفقنا عليه، ورد الرجل بأنه مازال يذكر ذلك الاتفاق جيداً، وذكرته بأن الصيف سوف يدخل علينا خلال فترة قصيرة. وردَّ عليَّ ابن سعود قائلاً: "أنا أذكر كل شيء، وأنا لم أنس شيئًا بعد، ولكن ما يدور فى ذهنى هو أنك "سوف تعانى الكثير من المتاعب فى هذا الفصل من العام، أليس من الأفضل أن نرجئ ذلك المشروع إلى ما بعد الصيف وأرسلك إلى أى مكان تريده؟ يضاف إلى ذلك، أن مشكلات الحصار القائمة فى الكويت تجعلنى أتطلع إلى وجودك إلى جوارى كى أستشيرك، ولكن إذا كنت تود زيارة الجنوب، بطبيعة الحال، فليس هناك ما يحول دون ذلك، إضافة إلى أن الإبل جاهزة للقيام بتلك الرحلة". ورددت عليه قائلاً: "حسن، وبعدها تقرر لى القيام بالرحلة، ولم أشغل بالى بعد ذلك بالأمر، اعتقاداً منى أن لديك مجموعة من الأمور المتسلسلة، وأنك سوف تبلغنى عندما تكتمل الترتيبات التى يجرى اتخاذها. وفيما يتعلق باضطرابات الكويت، فقد انتهى الأمر وأصبح مستقراً تماماً ولن تطرأ هناك أية متاعب جديدة. لقد سبق أن وعدتك وقطعت عهداً بذلك، ولكن، أيها الحكيم، يبدو لى أنك ربما لا تود لى القيام بتلك الرحلة. فإذا كان الأمر كذلك، صارحنى وسوف أتفهم كل شيء، هذا على الرغم من تطلعى إلى القيام بتلك الرحلة طبقًا لما سبق الاتفاق عليه". ولارتباط الأمر بالوعد وكلمة الشرف وافق ابن سعود على قيامى بالرحلة مع تأكيد غير قاطع من جانبه مفاده أن اعتبارات راحتى هى التى أخرته عن

اتخاذ المزيد من الإجراءات حول ذلك الموضوع. ثم جرى بعد ذلك الإرسال فى طلب حضور الإبل على الفور.

وفى اليوم الرابع عشر من شهر مايو، صحوت فى الصباح لأكتشف عدم حدوث أى تقدم فى الموضوع، ورأيت إبراهيم بمظهره المعتاد الذى ألفته مع استقبالى صباح كل يوم، ورآنى هو أيضًا فى أسوأ حالاتى النفسية. والعربى الذى سرعان ما ينسى أحداث الماضى السيئة، يشعر دائمًا بالتفاؤل بالمستقبل، هذا العربى ينهار يأسًا بفعل أعباء متاعب الحاضر، لذا فقد انسحب إبراهيم سريعًا أمام وابل الشتائم والسباب الذى انهال منى على أسلوبه البطىء. وبعد ذلك بلحظات قليلة، ظهر تامى، الذى كان دومًا من الزوار المقبولين، مدافعًا عن تفهم أفضل لموقف إبراهيم. وهنا وجدتنى أشكو له عيوب صديقه، وشرحت لتامى أننى منذ عودتى للإقامة بينهم حاولت نسيان ذلك الانطباع السيئ الذى تكون لدى عن إبراهيم فى أثناء الرحلة التى قمنا بها إلى الساحل الغربى، كما شرحت له أيضًا كيف كنت أواجه النفاق والتستر عند كل منعطف من المنعطفات – على الرغم من عنادى وإصرارى – وذلك من باب المعارضة لكل فكرة من أفكارى. ورجوته أن يبذل قصارى جهده من أجل ضمان الإسراع فى تنفيذ مطالبى قدر المستطاع، وطلبت منه أيضًا أن يتخذ من الترتيبات مع إبراهيم ما يعينه على تنفيذ المهمة الموكلة إليه على وجه السرعة. وبعد محاولة فاشلة لإقناعى بأننى أسأت فهم الموضوع رحل تامى عنى مستاءً ليظهر إبراهيم بعده بفترة قصيرة جدا. واستقبلته بصمت متبلد حاولت به إخفاء انفعالاتى إحساسًا منى أن اللحظة الحرجة باتت وشيكة، وأن تحويل مشروعى إلى واقع مادى يعتمد على محاولات التقارب وإعادة الود والصداقة بكل أشكالها قد رفض رفضًا باتًا. وانقطع ذلك الصمت الطويل بمجىء عطا الله الذى سألنى عن إمكانية تناول طعام الإفطار، ورددت عليه بأنى لن أتناول طعام الإفطار، وهنا جلس العبد مع إبراهيم ليحوِّل جوعى إلى خضوع. تظاهرت بأنى مستغرق تمامًا مع كتاب من الكتب، ثم انسحب عطا الله بعد حوالى نصف الساعة، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف كانت قدرتى على التحمل قد دامت مدة ساعتين، ووقف إبراهيم وهو يتنهَّد بشدة وخرج من الغرفة، وهو يجرجر وراءه ملابسه الفضفاضة، وقراب (جراب) سيفه، وهو مجروح الكبرياء. ومع ذلك حدث أن وضعت قدرتى على الاحتمال

موضع الاختبار، عندما أطل ابن مسلم على غرفتى ووجهه يحمل تعبيرًا غريبًا وهو يطلب منى تحديد موعد تقديم طعام الإفطار، ورددت عليه قائلاً: " ليس اليوم "، لينسحب الرجل بعد ذلك.

وعند الساعة الواحدة ظهر إبراهيم للمرة الثالثة وكأن شيئًا لم يكن. قال إبراهيم: "ابن سعود يرسل لك تحياته، ويأمرنى أن أبلغك أن الإبل جاهزة". ورددت عليه قائلاً: "حسن، الأرجح أننا سنبدأ رحلتنا خلال عشرة أيام". قلت هذا الكلام وأنا أحاول إخفاء أية علامة يمكن أن توحى بنجاح مناورتى. قال إبراهيم: "أنت تسخر منى، ولكن أكرر إن الإبل جاهزة ومستعدة". وهنا قلت له: "حسن إذن، وأنا جاهز أيضًا؛ فلنبدأ رحلتنا باكرًا مع طلوع الفجر". ورد على إبراهيم قائلاً: "هذا مستحيل؛ هناك استعدادات كثيرة لابد من إنجازها". ورددت عليه قائلاً: "حسن، يا إبراهيم، إذن دعنا من الكلام عن هذا الأمر بعد ذلك، هاأنت ترى أنى جاهز ومستعد، وإذا ما استعدت الإبل وأصبحت جاهزة فما عليك إلا أن تبلغنى بذلك؛ وعندها سأكون جاهزًا للركوب". وبناء على ذلك اتفقنا على أن نبدأ تحركنا فى اليوم السادس من شهر مايو، وأمضينا الفترة المتبقية على الرحيل ببعض الاستعدادات والتجهيزات. وشاهدنا الإبل المخصصة للقيام بالرحلة وهى تقف أمام القصر تزمجر وتتأوه فى يأس واضح، وفى مساء اليوم الخامس من شهر مايو، كما هبت آخر عواصف الربيع بزمجرتها وبرقها، قبل الرياح الجنوبية الغربية على الجزء الخلفى الواسع من الطويق فى اتجاه الشمال.

وفى اليوم المحدد استيقظت مع الفجر وسرعان ما أصبحت جاهزًا لبدء الرحلة، غير أن الاستعدادات النهائية للرحلة حتمت علينا شيئًا قليلاً من التأخير الذى انتهزته فى تناول طعام الإفطار، فضلاً عن ثلاث مقابلات للتوديع قبل سفرى، اثنتان منها مع ابن سعود نفسه والثالثة مع أحمد بن ثنيان، وكانت فحوى تلك المقابلات الثلاث واحدة. قال ابن سعود موجهًا كلامه إلىَّ: "ستبدأ الرحلة إلى الجنوب ، الرحلة الأولى لأول واحد من نوعك يزور تلك الأجزاء من البلاد ، توكل على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ليس هنالك ما يخيفك أو سيخيفك حيثما ذهبت وأينما حللت فى ممتلكاتى. العظمة لله ، وكلمتى مجابة ومسموعة حيثما ذهبت ، وفى كل مكان ستذهب إليه سيرحب الناس بك نيابة عنى . أنت تعلم أننى عينت لك إبراهيم الذى تعرفه منذ زمن بعيد ليكون مسئولاً

عن الجماعة المرافقة لك. اترك له التصرف في الأمور كلها واستمع إلى إرشاداته ، وهذا هو ابن جلهم Jilham الذي ليس له مثيل في فهم شئون الجنوب وأهل الجنوب أيضًا. بين يدى الله أولاً ثم بين أيدى هذين الاثنين ، يجب ترك كل الأمور المتعلقة بمغامرتك. يمكنك أن تتجول حيث تشاء، في الأفلاج، وفي السُلَيِّل Sulaiyil، وفي وادي الدواسر، ولكن إيَّاك وتخطى حدود وادي الدواسر، نظرًا لأن الأرض في تلك المنطقة ليس فيها أمن أو أمان. أخيرًا، تحاشى الفرع AlFara، وعلى الرغم من أنها من ممتلكاتي، وعلى الرغم من أن أهلها يدينون لي بالطاعة والولاء، فإن أهل الحوطة Hau-ta وأهل الحريق Hariq جهلة، وصعاب المراس، وغير متحضرين، ومشاكسون ويتحرشون بالغير. اتركهم على جانب ولا تحاول الاقتراب منهم. إلى اللقاء والسلام عليك." وأردف أحمد ابن ثنيان قائلاً: "أهل الفراع، هل سمعت ذلك الذي قاله ابن سعود عنهم ؟ الواقع أن ما قاله هو الحق وهو الواقع أيضًا، إنهم ثيران ولا يفهمون أو يتفاهمون، لا تحاول الاقتراب منهم."

ونزلت إلى بوابة القصر، وكلمات مضيفاى تدوى في أذني وتحذرني من سكان الحوطة القساة الغلاظ، ثم ركبت راحلتي مع رفاقي الموجودين في فناء القصر، الذي خرجنا منه إلى الشارع المؤدي إلى البوابة الشمالية الشرقية في المدينة. وعند البوابة اتجهنا جنوبًا ثم شرقًا ورحنا نسير في مجرى سيل الشمسية الرملي وتجاوزنا المقابر الملكية ثم تجاوزنا أيضًا حزام النخيل إلى أن وصلنا إلى سطح سلسلة جبال دريبات الخيل ، التي سرنا بحذائها في اتجاه الجنوب إلى أن تجاوزنا منفوحة Manfuha وأنقاض المدينة العظيمة التي جرى تخريبها، والتي كانت تحمل ذلك الاسم في يوم من الأيام، ثم تجاوزنا قرية المصانع Masana التي تقع إلى الوراء منا وسط النخيل، إلى أن وصلنا إلى بيت مزعال Miz'al الريفي الكبير المسوَّر والذي يقع في الركن الجنوبي من الواحة. وفي هذه المنطقة يبدأ سيل الشمسية في الاتحاد مع وادي حنيفة العظيم ، الذي يخرج عن مجراه الصخري ليمر خلال هضبة الطويْق في منطقة الباطن The Batin وبالتحديد في الجزء الشمالي الشرقي من تلك النقطة، لينساب بعد ذلك على شكل وادٍ يبلغ اتساعه ميلاً، متجهًا إلى الجنوب الشرقي فيما بين صخرة الطويق المنخفضة على الجانب الأيمن ومنحدر دريبات الخيل السهل على الجانب الأيسر الذي يعرف عند هذه النقطة باسم حشاة الداكنة Hishat al Dakina .

عند هذه المرحلة,كنا فى منتصف وادى حنيفة تمامًا، شبكة متداخلة من القنوات الزلطية الصغيرة، بدأت تتداخل وتتحد مكونة مجرى سيل واحد على بعد مسافة نصف ميل أسفل الحطام المنسى وجذوع النخيل المتحللة فى منطقة جزاع 'Jiza، التى تعد علامة مميزة من علامات عهد مملكة اليمامة القديمة التى كانت تشتهر بالنخيل. هذه المملكة التى كانت قرية وواحة مزدهرة فى يوم من الأيام، يقال إن الأتراك، سووا تلك المملكة بالأرض، منذ قرن من الزمان، عندما حاول إبراهيم باشا إقامة سلطة له فى نجد. يضاف إلى ذلك، أن اليمامة، كانت خلال الأيام الأخيرة مسرحًا لصراع دام بين أبناء (الملك) فيصل، دار بينهم حول تولى عرشه بعد وفاته، وبعد حياة مفعمة بجهد حقيقى للحيلولة دون تصارع طباعهم المتنافرة، وفشل الجهود المبذولة لاحتواء أحقادهم الدفينة، ذلك الغليان الذى سجله بالجريف Palgrave بدقة بالغة مشيراً إلى مسار الأحداث المستقبلى، وذلك خلال كتابه عن أسفاره فى الجزيرة العربية[٣]. وعلى ذلك، فإن جزاع 'Jiza، يذكرها الناس على أنها واحدة من ميادين القتال الكثيرة، التى تحارب فيها كل من عبد الله وسعود طلبًا لعرش السيادة على الأراضى الوهابية، الأمر الذى جعلهما يخسران تلك الأراضى ويسيطر عليها مغتصب أجنبى من جبل شمر، استطاع إدخال إمبراطورية فيصل ضمن ممتلكاته إلى أن جرى استرداد تلك الإمبراطورية فى مطلع القرن العشرين على يدى ولد صغير لابن أصغر من أبناء الملك، لم يلعب أى دور فى الصراع الذى دار بين شقيقيه الكبيرين. فقد مات عبد الله ، ولد فيصل، بلا خلف، أما سعود فقد ترك من خلفه أبناءً وأحفادًا، راحوا يحقدون على حظ الفرع الأصغر الأفضل، بل وصل بهم حقدهم أحيانًا حد الصراع مع ذلك الجيل على الجائزة الموعودة، وتاريخ جزاع 'Jiza القديم لا يُعرف منه شىء على وجه اليقين، ولكن الموروث الغامض غير الواضح أن جزاع كانت فى الماضى خيطًا مستمراً أو سلسلة مستمرة من القرى والواحات الزاهرة التى كانت تمتد بلا انقطاع بطول حوض وادى حنيفة وذلك بدءًا من العيينة Áyaina قلب العارض إلى اليمامة Yamama فى الخرج، إلى أن جرى تخريب ذلك الوادى عن طريق أسراب الجراد من ناحية ومرض الطاعون من الناحية الأخرى، واختفت مستوطناته التى بلغت كثافتها السكانية – فى وقت من الأوقات – حدًّ نشر خبر مولد طفل واحد من أعيان العيينة فى مدينه اليمامة، فى مساء

ذلك اليوم الذى وقع فيه ذلك الميلاد، عن طريق تناقل ذلك الخبر مشافهة من منزل إلى آخر فى كل أنحاء الوادى عبر تلك المسافة، التى يقطعها المراسل السريع، فى ظل الظروف الراهنة، فى مدة لا تقل عن ثلاثة أيام. هذا هو ما ترדده الأساطير التى تعيد إلى الأذهان ذكريات منارات (مآذن) الكوس Kos أيام الهند المغولية Mughal ، تلك المآذن التى شيدت - إذا ما صدقنا القصة - كى تنذر سيدات الحريم الإمبراطورى فى لاهور فى الوقت المناسب بموعد تقديم العشاء للإمبراطور فى دلهى، وذلك مخافة أن تسئن إلى قواعد الإيتكيت، التى كانت تحتم عليهن عدم تناول الطعام قبل مليكهن وزوجهن. ومما لا شك فيه، أن هناك شيئًا من الحقيقة فى الاقتناع العام الذى مفاده أن الوادى القفر الحالى شهد فى الماضى غير السحيق ازدهاراً كبيراً، ولكن غياب الانقاض والحطام - اللهم باستثناء بعض الأنقاض فى بعض الأماكن القليلة جدا والمبعثرة فى مساحات واسعة - هو الذى يجعلنا لا نقبل الموروث الحالى الذى مفاده أن العقاب الإلهى لليمامة الوثنية على خطاياها جاء على شكل وباء مرضى وأسراب الجراد. أما فيما يتعلق بالبحث عن أسباب خراب الوادى وقحولته الحالية فيجب البحث عنها فى اتجاه واحد فقط من اتجاهين: إما أن تكون المستوطنات الحالية هى وحقول الأنقاض مواقع المستوطنات القديمة كلها، أو واحات أخرى كانت موجودة من قبل ولكنها اندثرت وعفى عليها زمان النسيان؛ وإن ذلك حدث نتيجة الجفاف الذى حاق بالمنطقة نظراً لغياب الأمطار الموسمية عنها فترة طويلة أو مرور فيضان سريع مدمر بتلك المنطقة. وكل اتجاه أو نظرية، من هذين الاتجاهين، أو إن شئت فقل النظريتين ، له ما يبرره. وأنقاض شجرة أبو قبس Shajara Qubas[٤] فى وادى العمارية تدل على تصحر وتحلل واحة خالية تماماً من الماء. ومع ذلك، فإن قصة ازدهار مملكة اليمامة فى الزمن القديم لا يمكن إغفالها - نظراً لأن اكتشاف حفريات الآبار، فى السنوات الأخيرة، والتى اندفنت ونسيها الناس فى أجزاء مختلفة من الوادى - كلها تعد دلائل على وجود مستوطنات فى ذلك المكان فى الزمن الماضى، ولكن أنقاض تلك المستوطنات وبقاياها ليست موجودة. وإذا ما أخذنا بعين اعتبارنا مسألة الحذر الذى يجب أن نتوخاه فى مثل هذه الحالة، فأنا أميل إلى تصديق نظرية الفيضان المدمر، نظراً لأنه أمر ممكن الحدوث، بل وجرى تسجيله فى بعض الحالات القليلة، وذلك عندما عجزت

أحواض الأنهار الجافة والضيقة فى الجزيرة العربية، التى اعتادت على تصريف مياه الأمطار العادية، عن استيعاب وابل (المطر الغزير جدا) خرافى وغير طبيعى بالمرة. والفيضان الذى يكون من هذا القبيل يعد أمراً نادر الحدوث فى الجزيرة العربية، وبخاصة فى منطقة جبل طويق Twaiq، ولكنه عندما يحدث فإنه يكفى، كما تقول الأسطورة، لمحو إمبراطورية بكاملها.

وتتميز النقطة التى تتجمع عندها قنوات الوادى مكونة حوضًا أو مجرى واحداً بنمو مجموعة من أشجار الحور القزمة سريعة النمو، ثم ينساب المجرى الواحد بعد ذلك منحنيًا إلى اليمين صوب حوض دائرى، ينضم إليه فرعان آخران هما: شعب دكنة Dakina من جهة اليسار وشعب باقرة Baqra من منحدر الطويق الهين فى الجهة اليمنى. ويوجد فى هذه المنطقة بعض البيوت الريفية الكبيرة المقامة وسط حقول القمح، وتلك البيوت مملوكة لقبيلتى السبيع 'Subai والسهول Suhul ، اللتين تمتد أرضاهما شرقًا من وادى حنيفة ممتدة عبرَ مراعى الجبيل Jubail، وعارمة، والدهناء. وقيل لى هنا أيضًا، إن ابن سعود حاول مؤخراً محاولة باءت بالفشل عندما حاول إقامة مستوطنة من مستوطنات الإخوان فى هذه المنطقة. ثم توقفنا وقفة قصيرة هنا، عند منتصف النهار، على ضفتى شعب باقرة الصخرتين، وذلك بعد أن قطعنا مسافة ثمانية أميال بدءًا من نقطة البداية. وعن اليمين وعن اليسار كانت تمتد سهوب كلية رمادية اللون تبعث الملل فى النفوس، وتنحدر وهى قادمة من جانبى الوادى نحو الأعلى؛ وها هى حافة الجبيل Jubail الحادة تبرز من خلف سلسلة جبال داكنة Dakina الوعرة ، هذا هو المنظر الذى شاهده بالجريف Palgrave، من المدخل الشمالى الغربى للرياض، والذى ضخمه عندما قال: "التلال الزرقاء، سلسلة جبال اليمامة المنخفضة والمسننة(٥)" .

وبعد أن تجاوزنا بروزاً صخريا ضيقًا من بروزات منحدر الطويق دخلنا من جديد الوادى فى المنطقة أسفل دكنة، وكان ذلك بعد استئناف مسيرنا فى فترة العصر، وبعد مرورنا خلال غابة كثيفة من أشجار الحور، الذى يطلقون عليها هنا اسم الغاف Ghaf، وصلنا أرض الضفة اليسرى المرتفعة وصعدنا إليها، نظراً لأن أحجارها الجيرية تآكلت إلى ما يشبه درج السلم الذى يَسهُل ارتقاؤه. وبقى طريقنا الذى كنا نسير فيه بعيداً

تماماً عن قناة العاصفة فترة من الوقت، كما كنا نلقى نظرات خاطفة على مسار تلك القناة بين الحين والآخر، وهى تشق لنفسها طريقًا خلال وهاد ضيقة عميقة، وبعد ذلك انضم مسار الطريق الذى كنا نسير فيه إلى مسار طريق قناة العاصفة بعد أن سرنا مسافة ميلين فى طريق منخفض بجوار مضيق حفنة Hifna، الذى هو عبارة عن شق عميق يقع بين صخور تآكلت بفعل الطقس ويصل ارتفاعها إلى ثمانية وأربعين قدمًا وتتخلله فجوات تشبه الكهوف لتجعله يبدو مثل قرص العسل بفتحاته الكثيرة.

ومن تلك النقطة سلكنا طريق مجرى السيل المتعرج، خلال هوة عميقة تنمو فيها أشجار الحور بشكل كثيف، وكذلك أشجار السنط، وأشجار الأثل، ويتردد عرض تلك الهوة بين ٣٠ و ١٠٠ ياردة بين الصخرة والتى تليها، والتى وصل ارتفاع كل صخرة منها فى البداية إلى حوالى خمسين قدمًا أخذت تتزايد بعد ذلك طوال عملية الهبوط. وهذا خط مزدوج من الأعشاب الطافية يعطى مؤشراً للارتفاع الذى وصله فيضان العام السابق. وقد فاض مجرى وادى حنيفة سبع مرات خلال موسمى الفيضان فى الشتاء و الربيع من ذلك العام؛ وفى إحدى المناسبات وصل حجم ذلك السيل إلى ما يزيد على مياه مجموعة من الأبيار تضم سبعة أبيار هى مجموعة أبيار قلبان حفنة Qulban Hifna، التى قال عنها بناة أحجارها إنها تبلغ من المتانة حدًا تستطيع معه مقاومة الفيضان أو السيل. وها هى أحجار تلك الأبيار وقد تناثرت على مسافة ميل أو أكثر من القناة الزملية. ولاحظت هنا وهناك بعض الخلجان الضحلة – لاحظت حوالى أحد عشر خليجًا(٦) فيما بين مدخل هوة حفنة والحائر Hair – التى كانت تقاطع انتظام الصخور على الضفتين، اللتين كانت تنزل المنحدرات الحاملة للمياه منهما إلى الوادى. وتلك مبان قليلة خربة، من الواضح أنها كانت أبراجًا للمراقبة فى الأزمان السالفة، وتقف شامخة فوق الجرف العالية، وفى المنعطف الأخير من الوادى وقبل الحائر Hair مباشرة يوجد حطام تسعة أبيار يطلقون عليها اسم عرير Árair، والتى لقيت مصير أبيار حفنة.

وقبل الساعة السادسة مساءً بقليل وصلنا الحائر Hair وصاحبت وصولنا زخة مطر دامت فترة قصيرة بعد مسير قطعنا خلاله حوالى ستة عشر ميلاً بدءًا من مدينة الرياض. ومدينه الحائر تقع فى حوض قطره حوالى مائتى ياردة عند ملتقى قناتين

مهمتين بالوادى، الذى يغير مساره فجأة ليتجه من الجنوب إلى الشرق – والقناتان المذكورتان هما شعب الحاة al Ha وشعب البعيجة Ba'aija – الذى ينساب إلى الحوض الأوسط قادمًا من الغرب ومن أقصى الجنوب الغربى بين صخور متحدرة. هذان الشعبان – الأول على وجه اليقين والثانى أيضًا على وجه التأكيد، إذا ما صدقت الشواهد المحلية – عبارة عن هوتين عميقتين تسيران عبر حاجز الطويق العظيم من الغرب إلى الشرق، ورأساهما موجودتان فى خليج الطويق الصخرى الموجود فى جرفه الغربى، الذى تقع فيه مستوطنات الغطغط، والمزاحمية، وبقية تلك المستوطنات، والذى تنصرف فيه مياه صرف كلٍ من المحمل Mahmal والعارض عن طريق وادى البوتن Butin . أو إن شئت فقل: وادى ضرمة Dhruma . والصخور المحيطة بذلك الجرف يتردد ارتفاعها بين ١٥٠ أو ٢٠٠ قدم، وأعلى جزء فى تلك الصخور هو ذلك الجزء الذى يصل بين مصبى الشعبين. وتحت ذلك الجرف، توجد قرية الحائر Hair الصغيرة المقسمة إلى قسمين غير متساويين يفصل بينهما شريط ضيق من الأرض. وهناك أربعة من أبراج المراقبة فوق قمة ذلك المكان، منها ثلاثة أبراج تقع فوق قرية الحائر مباشرة، أما البرج الرابع فيقع فوق الزاوية الناتجة عن التقاء الضفة اليسرى من شعب الحاة al Ha مع ضفة الوادى اليمنى عند التقائهما معًا. ومن الواضح أن تلك الأبراج بطل استعمالها فى الأغراض التى شيدت من أجلها؛ وأمن ابن سعود وسلامه يعمان البلاد كلها، يضاف إلى ذلك، أن ظهور شخص غريب عند الأفق لم يعد أهل المنطقة يحسبونه إشارة إلى غزو مسلح .

والقسم الرئيسى من قرية الحائر، أو إن شئت فقل: القسم القريب من مصب شعب الحاة al Ha، مربع وتصل مساحته إلى حوالى مائة ياردة، ويحيط به سور منخفض ومقوس بشكل كبير؛ ويشتمل ذلك القسم على حوالى سبعين أو ثمانين كوخًا بنيت من اللّبن، يبرز من بينها منزل الأمير المحلى، وهو مبنى طويل مستطيل الشكل وكذلك مسجد صغير، له رواق ذو أعمدة عند مدخله، وبه عقود من صميم العمارة الوهابية فى كل أنحاء البلاد. وسور ذلك القسم خال من زينات البوابة العامة، ومكسر على بعد مسافات على شكل فجوات صغيرة غير منتظمة، يدخل الضروريون منها ويخرجون من وإلى أكواخهم. أما القسم الثانى فهو عبارة عن تجمع يضم خمسة

وعشرين كوخًا عديمة الشكل وبلا سور أيضًا ، أو إن شئت فقل: إن هذا القسم الثانى ليس سوى مجرد ملحق للقرية الأصلية. والقسمان يقعان فى عكس اتجاه الصخرة ليكونا فى الظل بعيداً عن شمس الظهيرة وشمس فترة العصر.

ويوجد أمام القرية شريط ضيق من أراضى القمح، ويمتد مسافة طويلة بطول شعب الحاة al Ha، الذى شاهدنا فيه، فى صبيحة اليوم التالى لوصولنا، نساء القرية وهن تغربلن أكوام الشعير المدروس. لم يكن موسم الحصاد فى الرياض متقدمًا على نظيره فى الحائر بفترة زمنية طويلة، إذ إلى ما قبل مغادرتنا الرياض بفترة قصيرة كانت عملية الحصاد تسير على قدم وساق. وفيما عدا ذلك فإن قناة العواصف الرملية تبرز على بعد مسافة قصيرة أسفل الحائر، فى اتجاه المنطقة التى نصبنا فيها خيامنا، مكونة بذلك غابة كثيفة من النخيل، وأشجار الحور، وأشجار الأثل. وأشجار السنط أيضًا، التى تملأ منطقة الحوض كلها، وتزحف بصورة غير منتظمة إلى مسافة قصيرة إلى أعالى شعبى الحاة al Ha والبعيجة Baáija، كما تزحف تلك الغابة بصورة كثيفة فى اتجاه مصب وادى حنيفة. وقد أسفر البحث والتفتيش الدقيقان وسط تلك الخضرة المدارية الوفيرة والغزيرة عن وجود غدير مياه كبير يتراوح عرضه ما بين ثلاثين وأربعين ياردة، فى حين يصل طوله إلى حوالى ١٠٠ ياردة، ويصل عمقه إلى حوالى قدم واحد، وماؤه صاف مثل البللور، وما يزال جاريًا، إذا رأيت عند نهاية المجرى عند المصب نهراً صغيراً جاريًا، كان يتحول إلى بحيرات ضحلة على بعد مسافات متساوية ، يصل عمق البحيرة الواحدة منها إلى عدة بوصات، ويستمر ذلك المجرى الصغير على ذلك الحال بلا انقطاع مسافة ميل واحد فى اتجاه المصب لينتهى إلى بركة عميقة صغيرة أو إن شئت فقل: غدير صغير عند بداية المنطقة التى يطلقون عليها اسم العافجة Al Áfja . هذا الغدير، الذى يخدم سكان الحائر ، باعتباره خزان للمياه طوال القسم الأكبر من فصل الصيف – يقول الناس هنا إن ذلك الخزان يحتفظ بالماء إلى مجىء الأمطار فى العام التالى – يتغير ماؤه ويمتلئ بالماء من جديد بفضل فيضانات وادى حنيفة. ومن حول ضفاف ذلك الغدير كانت تفوح رائحة طيبة من بشائر فصل الصيف، وكانت تلك الرائحة الطيبة تنبعث من الأعشاب العطرية الموجودة فى الأسفل وأشجار الحور الكثيفة فى الأعلى؛ وتشهد تلك المنطقة طنينًا كبيراً صادراً عن الحشرات التى

تعيش فيها، ويقف الإنسان عليها عندما يتسلل خلال تلك الغابات الكثيفة؛ الأهم من ذلك، إننى سمعت أثناء الليل أغنية البعوض المشئومة تتردد أكثر من مرة خلال الليل.

والحائر مستوطنة بدوية بمعنى الكلمة، وهى من نوعية مستوطنة الخورمة Khurma – أى أنها مستوطنة من النوع النادر، إن لم يكن موجودًا أصلاً فى وسط نجد، على الرغم من شيوع ذلك النوع من المستوطنات، كما أن تلك المستوطنة تحظى بنوع من الهيمنة والسيطرة، كما سيتضح ذلك لنا من سياق القصة، التى سنرويها عن مناطق الجنوب وبخاصة فى كل من خيبر Khaibar وتيمة Taima(٧) فى الشمال. والسكان فى القسم الأكبر من تلك المستوطنات هم من الزنوج، الذين معظمهم أحرار، ومن أصول أفريقية حقيقية على الرغم من حياتهم العربية المتواصلة على امتداد أجيال كثيرة، ولا يوجد بين هؤلاء الزنوج سوى قلة قليلة من رجال العشائر الذين فضلوا المشاريع الزراعية والاستقرار على الحياة الرعوية بكل متاعبها ومغامراتها غير المضمونة. والأرض فى هذه المنطقة مملوكة لرجال القبائل، سواء أكانوا من المستوطنين أم المترحلين دون تفرقة، وأن يكون لكل رجل نصيب طبقًا لقانون الوراثة، أما العبيد، كما يسميهم الناس هنا، على الرغم من أن تلك التسمية قد فقدت مغزاها ومعناها الحقيقى عند تطبيقها عليهم، فهم ليسوا سوى فلاحين يفلحون الأرض، أو إن شئت فقل الكداديد Kaddadid(٨)، وهم يحرثون، الأرض ويزرعونها لصالح الآخرين، وطلبًا للحصول على حصة المستأجر من الإنتاج. ويجب التنويه هنا، إلى أن تلك الحصة لا تحسب إلا على التمور فقط هى والقمح، أما الحاصلات الأخرى مثل الخضروات، والبرسيم الحجازى ، وكذلك الفواكه فيجرى إعطاؤهم أو تسويتها بما يخدم مصلحة المستأجر، باعتبار ذلك حافزًا ومكافأة لذلك المستأجر على الجهود الإضافية التى يبذلها، وعمله بجد وعن طيب خاطر فى تلك البيارات التى تحتاج خصوبتها إلى ذلك العمل ، وهذا الجهد فى الجزيرة العربية التى تعانى من شح الماء. وفى الحائر نجد اختلافًا طفيفًا عن ذلك النظام، والسبب فى ذلك أن سكان الحائر كلهم من الزنوج، بما فى ذلك أمير الحائر نفسه، ويبلغ عدد سكان الحائر حوالى ٤٠٠ نسمة، فى حين نجد أن ملاك الأرض البدو الرحل، كلهم وبلا استثناء، يجوبون المراعى الصحراوية مع قطعانهم ويزورون عاصمتهم القبلية فى وقت

حصاد التمور فقط، لتحصيل مستحقاتهم، ولقضاء شهر رمضان، الذى ثبت على مدار السنين الماضية بل والسنين القادمة، أنه يجيء فى وقت من عام يخلو من الأمطار. وعندما عدنا إلى الحائر فى رحلة العودة، كان ذلك فى منتصف شهر رمضان(٩)، كان البدو يتجمعون استعداداً لزيارتهم السنوية. ولعل السبب وراء عدم إقامة أولئك البدو إقامة دائمة فى تلك المنطقة يتمثل فى المناخ الذى لا بد أن يكون غير صحى وغير مناسب فى ذلك الوادى الضيق الذى تحيط به الصخور من كل جانب، تطوق شريط الماء الذى يكفى الجزيرة العربية، ولكنه يتعرض لأشعة الشمس الحارقة.

هؤلاء البدو هم من قبيلتى السبيع والسهول Suhul، وهاتان العشيرتان كانت لهما ذات يوم أهمية كبيرة فى المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية، ولكن تلك الأهمية قلت وانحسرت إلى حد ما، وجرى طردهما فى اتجاه الشرق أمام الاندفاع الذى جاء من الغرب متمثلاً فى قبيلتى قحطان وعتيبة. وخسر السهول تماماً مواطئ أقدامهم فى تلك المستنقعات فى كل أنحاء بلاد الحمرة Al Hamra الجبلية، التى لا يمثلهم فيها حالياً، كما سبق أن أوضحت، سوى قله قليلة منهم استقرت فى الرويضة واستوطنتها، إضافة إلى بعض الكفور (الهجر) القليلة جدا التى تعتمد على الرويضة Ruwaidha . أما بقية القبيلة فتعيش حالياً فى خط يقع إلى الشرق من وادى حنيفة، وفى تحالف وثيق مع السبيع، رفاقهم فى الضراء. ومعروف أن السبيع استطاعوا مقاومة الغزو القحطانى إلى حد أنهم نجحوا فى الاحتفاظ بمساحة كبيرة من أراضيهم فى الغرب، من بينها وادى السبيع ووادى رانية، اللذين مازالوا يحتفظون بهما، ولكن القسم من السبيع الذى لم يستطع الصمود فى وجه الغزو القحطانى فى المنطقة الوسطى فقد جرى اجتياحهم وطردهم فى اتجاه الشرق مع السهول. وبناء على ذلك، فإن السبيع فى الوقت الراهن مقسمون تماماً - بفعل رقعة صحراوية مترامية الأطراف - إلى قسمين: أحدهما شرقى والآخر غربى. وقد تناولت القسم الغربى عندما تحدثت عن الخورمة Khurma(٩) وعن مراعى السبيع الموجودة حولها؛ والحد الغربى للقسم الأول من السبيع هو وادى حنيفة بدءاً من الرياض إلى الحائر Hair أو مع مجرى السيل فى الحائر، وهى المنطقة التى تتفرع عندها تلك الحدود لتتجه شرقاً عبر منخفضات الجبيل (الجبيلة) وعارمة لتصل إلى رمال الدهناء Dahana ثم إلى سهوب الصمان خلف الدهناء. والتقدير

المحلى، يقدر عدد سكان القسم الشرقى من السبيع بحوالى ٣٠٠ خيمة ، ويقدر عدد سكان السهول بحوالى ٢٥٠ خيمة، الأمر الذى يجعلنا نخرج من تلك الأرقام بحوالى ١٥٠٠ نسمة من السبيع وحوالى ١٢٥٠ نسمة من السهول. وهؤلاء السكان من السبيع والسهول لهم حقوق مكتسبة تقادمية فى مسقى المياهية Miyahiyya فى عارمة.

وسكان الحائر الأحرار المستقرين أفظاظ فيما يتعلق بمسألة الكرم والضيافة، وقد تأكدت لنا سمعتهم هذه عندما تجاهلوا رحلتنا القصيرة التى قمنا بها إلى بلادهم. وأنا لم أندم على ذلك، نظراً لأن اليوم الأول من الرحلة، بعد أن تسترخى العضلات بفعل سلاسة الحياة العصرية، تستاء على حد سواء من الأماكن الصعبة على سرج الجمل ومن التمايح الذى ينتج عن حركة الإبل، اللذين يسببان التعب والإرهاق، وبخاصة عندما يسير الإنسان ساعات طويلة خلال جو حار للغاية. وهنا وجدتنى أجنح إلى الراحة بعد أن أصابنى صداع خفيف كان ينذر بالحمّى، ولكنهم أغرونى بالخروج من خيمتى لتناول العشاء، وهنا وجدت أن كبسة الأرز ولحم الضان الذى يتصاعد منه البخار ، تشدنى إليها وتنتزع الحمى من داخلى، لأعود إلى خيمتى بعد ذلك وأنا غارق فى بحر من العرق.

وفى فجر اليوم التالى هبت ريح شمالية عاتية وهى تنثر حبات الرمل فى كل أنحاء الوادى فى حين كانت السماء مكفهرة، عندما استأنفنا مسيرنا عبر الواحة وبطول المجرى المائى الصغير إلى أن وصلنا إلى أبعد بركة Pool فيه، حيث ملأنا قرب الماء، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشرق أسفل الوادى، الذى يصل عرضه هنا إلى حوالى ٢٠٠ ياردة، ويحده من الجانبين صخور يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً. وشاهدنا هنا حوالى خمسة عشر بئراً تنتشر على مسافة ميل واحد، ويطلقون على كل هذه الأبيار اسم واحد هو الأفج Al Afje، الذى يمر خلاله شعب سُليم Sulaim قادماً من الجانب الأيسر. وبعد ذلك بميل واحد تقريباً، أو إن شئت فقل وبعد ثلاثة أميال بطول مجرى الحائر بدأ المنظر يتغير إلى حد ما؛ إذ بدأ الوادى يتجه صوب الجنوب الشرقى، وزاد اتساعه ليصل إلى حوالى ميل وتتخلله الكثبان الرملية المنخفضة، كما تنتشر فيه أشجار الأثل، التى شاهدنا بينها جماع الحطب التابعين لابن سعود وهم يقومون بقطع الأخشاب وتحميلها على ظهور الإبل لتنقلها من أجل الوفاء باحتياجات المطبخ الملكى

من الحطب والأخشاب. وهذه هى ضفة الوادى اليمنى التى لم تعد تتكون بعد من الصخور، تنحدر انحداراً هيناً مبتعدة عن الوادى متجهة إلى سلسلة جبال منخفضة من جبال الطويق التى يطلقون عليها اسم عريمة Araima؛ أما عن شمالنا فما تزال ضفة الوادى واضحة ومحددة، فهى هنا عبارة عن سلسلة جبلية منخفضة تقف وراءها سلسلة أخرى أعلى منها قليلاً، وهذه هى البدايات الأولى لسلسلة جبال الزويليات Zuwailiyat، التى تمتد موازية للوادى على امتداد أميال عدة. وهنا عند المنحنى يدخل الوادى شِعْبُ الرمّانتين Rummanatain الذى سمى بذلك الاسم لوجود رابية فى سلسلة جبال الزويليات لها حلمتان تشبهان حلمتى الصدر، ويهبط الشِّعب من تلك الرابية مشكلاً بذلك الطريق السريع الذى يستعمله المسافرون إلى الأحساء Hasa وإلى الساحل.

ومشينا على ذلك الحال مسافة ثلاثة أميال، بدأت تتزايد خلالها كميات الرمال فى الوادى، كما كثرت به أيضاً أشجار سنط جيدة النمو بنوعيها الطلح وأشجار الصمغ التى تزايدت أعدادها إلى أن غطت على أشجار الأثل. وعند تلك النقطة تحاشينا فى الوادى عن طريق الصعود على منحدر الضفة اليسرى المنخفض، ثم سرنا حول الحافة الخارجية لسلسلة جبال الزويليات إلى أن وصلنا إلى الارتفاع المخروطى الرئيسى الذى يطلقون عليه اسم السوق Al Suq؛ واعتباراً من ذلك الارتفاع المخروطى، يطلق على سلسلة الجبال اسم طوال السوق Tawal Al Suq .وواصلنا مسيرنا إلى ما يزيد على أربعة أميال مشيناها على طول الوتر الناشئ عن انحناء الوادى انحناءً خفيفاً إلى ما بعد ضفته البعيدة حيث توجد سلسلتى جبال سدير Sudair والدويرة Duwaira ؛ ويبرز من سلسلة جبال سدير رابيتان: إحداهما تسمى أم عنيق Mmm Ánaiq والثانية أم رغيبة Mmm Rughaiba، فى حين الكوم الرملى مخروطى الشكل، الذى يسمونه نقاع المطوع Niqá Mutawwá عند سفح سلسلة جبال الدويرة. ثم دخلنا الوادى من جديد، وسرنا فيه مسافة ثلاثة أميال، وعندما تركنا الوادى لنواصل مسيرنا فى اتجاه الشرق، صعدنا فوق ضفته الرملية اليمنى ونصبنا خيامنا طلباً لاستراحة الظهيرة فيما بين بعض الكثبان المواجهة لسلسلة جبال الدويرة فى بعض أجزائها وتطمسها وتغطيها فى بعض الأجزاء الأخرى؛ ومن فوق قمة تلك الكثبان الرملية أتيحت لى فرصة مشاهدة المنظر الذى كان يحيط بى ، امتداد موحش من السلاسل الجبلية القفرة المنخفضة،

التى تطبق، من الجانبين وبصورة متدرجة،على مجرى وادى حنيفة الواسع غير محدد المعالم، قادمة من ضفتيه، وتمتد ناحية الجنوب الشرقى على مرمى البصر. وعن يسارنا شاهدنا سلسلة جبال الزويليات التى اتصلت بسلسلة جبال طوال السوق Tawal Suq، ومن خلف سلسلة جبال طوال السوق، كانت توجد سلسلة جبال أشقر المراغة Ashqar Maragha ، التى يوجد بها شعب يسمونه المراغة، ينساب نازلاً إلى وادى حنيفة من بين سلسلتى جبال الزويليات وأشقار المراغة. وفى الخلف شاهدنا أيضًا حافة الجبيل Jubail واضحة المعالم، وهى تحرس الجناح الشرقى من وادى السُّلىّ Sulaiy ، الذى توجد نقطة اتصاله بوادى حنيفة على بعد أميال عدة. وعلى الجانب الأيمن شاهدنا مجموعة من سلاسل الجبال، التى تفصلها عن بعضها وديان ضحلة واسعة، وتمتد من الشمال إلى الجنوب: سلسلة جبال حفيرة Hufaira، وسلسلة جبال السويدة Suwaida وسلسلة جبال فرزان Firzan التى تنتهى بربوتين منخفضتين مخروطيتين، تشكلان مدخل الخرج. وكانت الكثبان الرملية التى أقمنا فيها مخيم وقفة الظهيرة قد بدأت على امتداد ميل واحد أو ميلين فى اتجاه أعالى مجرى الوادى بدءًا من منطقة المخيم التى تقع فى المنطقة المحيطة بنقاع المطوَّع Niqà Mutawwà، وواصلت امتدادها بطول مجرى الوادى على شكل سلسلة متصلة من الكثبان الرملية، التى كانت ترتفع حينًا، وتنخفض حينًا آخر إلى ما يشبه الارتفاع القليل وفق سطح الأرض، أو على شكل كثبان رملية فى مجرى الوادى نفسه، أو فى حين رابع على شكل أكوام من الرمال على ضفة الوادى اليمنى، إلى أن تصل إلى حدود الخرج.

كنت خلال مسير الصباح قد أحرزت تقدمًا فى إعداد قائمة فكرية أو إن شئت فقل جردًا فكريًا بالمرافقين لى من رحلة الجنوب، الذين بدأت شخصياتهم تتفرد متميزة عن جماهير الرياض - وبخاصة بعد مغادرتهم لها - بصفتهم مرافقين. فقد أصبح كل من إبراهيم وناجى شخصيتين أساسيتين فى حكايتى؛ وهما وحدهما اللذان كانا معى من بين كل أولئك الذين رافقونى إلى جدة، شأنهم فى ذلك شأن سعيد القحطانى الذى انطلق نحونا مهرولاً وبصورة مفاجئة ليعبِّر لنا عن تحياته الودية عندما تجاوزنا بوابة المدينة فى قناة الشمسية، والذى وعد ، بعد دعوتى له، بأن يلحق بنا فى الحائر قادمًا من محل إقامته فى المزاحمية Muzahimiyya، التى كان متجهًا إليها، ومع ذلك، فشل

سعيد رغمًا عنه في البرِّ بالوعد الذي قطعه على نفسه. وهذا رويشد، أو إن شئت فقل أخو حسانة، كما يسميه أصدقاؤه باعتبار أن تلك لمسة من لمسات الإعجاب والمحبة لأخته، بدأ يحتل مكان سعد اليميني، مثلما قدر له أن يحتل مكانه إبراهيم، دون أن تكون فيه ميزة تؤهله لذلك. لقد ظهر رويشد في هذه القصة[١٠] وسوف يظهر فيها مرارًا بعد ذلك. وهذا هو سعد بن جهام Jiham، دوين doyen الجماعة، يحتل مرتبة متأخرة، وأثبت وجوده حول نار المخيم وبخاصة في أثناء الليل، وذلك على العكس من مسير النهار وبخاصة في وقت الظهيرة. وهذا محمد، واحد من الدواسر، شاب مبتسم، ولكنه كسول ومتراخ، يبدو أنهم انتزعوه من بين ذراعي عروسه الأولى، التي تزوجها مؤخرًا وتتمتع بجمال فائق، ولذلك فهو شارد الذهن دومًا، ومنزعج تمامًا لغيابه فترة طويلة عن بيته الجديد، الذي عرفت من خلال حديثه معي في الأيام الأولى أنه (بيته الجديد) يتجول مع البدو على حدود الخرج – على بعد مسافة قريبة – وهذا نصير Nasir، واحد من العتبان ، وهذا عبيد Óbaid واحد من القحاطين، يرافقانا تحسبًا من وقوعنا في أيدي جماعات تنتمي إلى القبيلتين اللتين ينتميان إليهما، ومعروف أن نصيرًا كان من الذين رافقوا النقيب شكسبير. ونصير هو ولد طلق Talaq، الذي رافق هو و تامي شكسبير في رحلته من الرياض إلى بريدة في عام ١٩١٤ الميلادي، وبالتالي أنقذاه من مواجهة سيئة وعنيفة مع واحدة من جماعات الغزو في قبيلة عتيبة.

كانت جماعتنا مكونة من اثنين وعشرين شخصًا بما فيهم أنا شخصيًا، وكانت مقسمه إلى قسمين – قسم المرافقة وقسم الخدمات. وأنا لست بحاجة إلى الحديث هنا عن قسم الخدمات حديثًا مفصلاً، نظرًا لأن ذلك القسم لم يكن لي اتصال كبير به في أثناء المسير، كما أن تحركات ذلك القسم كانت تعطي له يومًا بيوم وبأقصى سرعة ممكنة. أما فيما يتعلق بقسم المصاحبة فيكفي ما قلته عنه حاليًا على سبيل التقديم ، ولقد حذفت من ذلك القسم أسماء ثلاثة أعضاء يستحقون التنويه عنهم بطريقة خاصة وهم عبد الرزَّاق Ábdulrazzaq واحد من الأفراد العاملين في البلاط الملكي ، ومن المتمرسين ، نوعية رائعة من الزنوج الخلَّص ، طويل الساقين ، وغليظ الشفتين ، ميَّال إلى العراك والشجار إلى أبعد الحدود وأخطرها، متهور في شجاعته ، ومخلص لابن سعود إلى أبعد الحدود في أية مهمة من المهام التي يكلفه بها. كنت قد تمنيت أن

يرافقنى أما منوار Manawar أو عطا الله، وهما من الشخصيات المعتدلة الذى سبق لى أن خبرتها فى القيام بدور الملاك الحارس، ولكن ضياع ذلك الأمل هو الذى جعلنى أقبل تعيين عبد الرزاق كنوع من التكريم، وبخاصة أن عبد الرازق هو الذى كان يعهد إليه بحماية الأميرين الصغيرين محمد وخالد، فى أثناء تجوالهما فى الرياض، يضاف إلى ذلك أننى طوال الرحلة لم أصادف من ذلك الرجل ما يجعلنى أشكو منه، فيما عدا بعض الأزمات المحددة ،التى سوف أتناولها فى مرحلة لاحقة، التى ثبت فيها أن حماس عبد الرازق كان يسبق فكره وعقله. كان عبد الرازق يرافقنى إلى كل مكان أذهب إليه، وهو مدجج بالسلاح، ويجلس إلى جانبى يقظًا فى أثناء تجوالى من ربوة تل من التلال إلى ربوة تل آخر؛ وعندما كنت أنسل فى هدوء خارجًا بعيدًا عن المخيم كى أتمتع بالاختلاء بنفسى، لم يكن يمضى وقت طويل قبل أن أرى عبد الرزاق إلى جانبى محتجًا علىّ بألا أعود إلى فعل ذلك الذى فعلته مرة ثانية. الشخص الثانى من أولئك الأشخاص الثلاثة كان بليد الحس، أشعث الشعر من قبيلة مرّة ويشبه الكلب البوليسى الضخم، وقد تجاوز عمره منتصف العمر، ويظهر فى وجهه المجعد خليط عجيب من المكر الشديد والشفقة التى توحى بالمرح والسرور ، كان ذلك هو حال جابر Jabir بن فرج Faraj ، شيخ السويحيت Suwaihit، أحد الفخوذ الفرعية من قبيلة أهل مرة Ahl Murra، أشرس قبائل وسط الجزيرة العربية وأشدها بداوة، والتى تحتل تلك الصحراء الشاسعة، التى تصبح اسمًا على مسمى عندما يطلق الناس عليها اسم الربع الخالى. ولقد صدّقت جابر بن فرج هذا، ولم يراودنى شك فيما قاله، عندما أخبرنى أنه عبر رمال الجنوب ثلاث مرات، إلى أن وصل البحر الجنوبى، الذى نظر إليه عندما كان النجم القطبى وراء ظهره أو إن شئت فقل: خلفه؛ وكان الهدف الذى حدده أهله فى تلك المرات الثلاث هو الوصول إلى القبائل الساحلية مثل الوهيبة Wuhiba، والعوامير Áwamir وكذلك الدروع Duru كى ينشلوا منهم بعض الإبل العمانية الشهيرة مثل إبل الفرحة Farha (البيضاء) وإبل الصفار Safar (الرمادية). حدثنى جابر بن فرج كثيرًا عن حياة قبيلته وأخلاقياتها فى واحة جبرين وفى الخيران أو إن شئت فقل: فى منطقة الأبيار المالحة الموجودة وسط الرمال، وسوف أعود، فى مرحلة لاحقة، إلى الحديث من جديد عن تلك الأماكن. أما الشخص الثالث فهو مترك Mitrak بن عمارة Ámara وهو من الشامر

Shamir ، وهى قبيلة تشترك، من حيث الأصل، مع قبيلة عجمان، وتدعى أن لها صلة قرابة مع قبائل اليام Yam فى نجران Najran وفى الجنوب الغربى أيضاً. والمكان الذى يعيش فيه أولئك الشامير هو سلاسل جبل عالية Alaiya ووديان العميقة، أو إن شئت فقل إنهم يعيشون فى ذلك القسم من حاجزى الطويق الذى يقع فى جنوب العارض وفى شمال الفراع Al Farà . كان مترك كبير مرشدينا فى المراحل الأولى من المسيرة ثم بعد ذلك خلال الأيام الأخيرة منها؛ وتأسيساً على ذلك، أصبح ذلك المترك رفيقاً دائماً لى، وعلى الرغم من الخلافات الكثيرة التى دارت بينى وبينه، فإننى كنت أقدر صداقته حق قدرها، فضلاً عن كونه معيناً لا ينضب للمرح والإضحاك، إضافة أيضاً إلى حسِّه المرهف، كما كان لديه أيضاً قدر كبير من المعلومات عن النباتات التى تتجلى فى بلاد العرب، والسبب فى ذلك أن كل عربى مثلما يولد ومعه غريزة ركوب الدواب، وغريزة السيطرة على الإبل، يولد أيضاً وكأنه خبير فى اقتصاديات النباتات. وتسمين دوابه وحيواناته يعتمد على معرفته الواسعة بأعشاب الصحراء؛ من هنا فالعرب عندما يسيرون فى الصحراء، تتركز عيونهم على الأرض، أما ألسنتهم فلا تتوقف عن مناقشة مزايا هذا النبات أو ذاك باعتباره صالحاً أو غير صالح علفاً للإبل. والعرب لا يعرفون من الطيور والحشرات سوى أسماء القليل منها ، ومعرفتهم بذوات الأربع البرية ضئيلة ومحدودة للغاية. ونظراً لأن مترك كان ضخماً ذا بنية قوية ، فقد كان صلباً مثل المسمار ، وقد أمضى مترك القسم الأول من شبابه اعتباراً من سن العاشرة وما بعدها فى كسب عيشه عن طريق اللصوصية وقطع الطريق فى تلك البلاد نفسها التى يقوم فيها هو بنفسه بدور المرشد ، كان مترك فى ذلك الوقت فى مطلع الثلاثين من عمره ، وكان قد تخلى عن اللصوصية وقطع الطريق منذ فترة وجيزة ، قبل بعدها العمل فى خدمة ابن سعود الذى جعل مهنة اللصوصية غير مربحة أو مفيدة لمن يمارسها ، بأن وضع سياسة قاسية وصارمة التزم الجميع بها فى مواجهة كل من يخرج على القانون. وحدث فى اليوم الثانى من مسيرنا ، وبينما كنت أجلس مع مترك على قمة سلسلة جبال دويرة Duwaira ، أن كشف لى ذلك الرجل عن بعض الأشياء الحسنة فى داخله ؛ فقد لمع خداه وأنفه حماساً وهو يحكى لى شيئاً عن بعض المآزق التى وقع فيها فى شبابه ، كما حكى لى أيضاً عن زوجته الوحيدة وأسرته المكونة من أطفال صغار عندما

تركهم فى خيام أهله فى عارمة ، كما حكى لى أيضًا عن النباتات والأعشاب المحيطة بنا ، التى جمع لى منها مجموعة كى أستفيد بها ، وأصر أن أدوّن عن لسانه ، اسم كل نبات من نباتات تلك المجموعة والاستخدامات التى يستعمل فيها. ولم أر طوال ترحالى و جولاتى عربيًا مثل ذلك المترك ، على استعداد أن يعطى الغير ما عنده من معلومات ، وأنا لم أحب أحدًا مثلما أحببت ذلك الرجل ، وقد بقى ذلك الرجل رفيقًا من رفاقى فى كل الرحلات التى قمت بها داخل الجزيرة العربية ، التى تركتها وأنا آسف تمامًا لأن الظروف لم تمكّنى من تلبية الدعوة التى وجهها لى مترك لقضاء فترة من الزمن معه فى خيام عرب الشامير.

واستأنفنا مسيرنا فى العصر ، وكان خط سيرنا يمر عبر الوديان وسلاسل الجبال الواقعة فى جنوب الوادى ، وقطعنا مسافة اثنى عشر ميلاً تقريبًا إلى أن حان وقت وقفة المساء على الجانب القريب من القمم الموجودة على أطراف جبال فرزان Firzan . وفى منتصف الطريق وبالقرب من الحافة الشرقية لسلسة جبال الحفيرة Hufaira وصلنا بئر الحفيرة الوحيدة الذى يصل عمقها إلى خمس قامات وسط قطعة أرض واسعة ودائرية الشكل وتربتها من الحجر الجيرى. كانت مياه تلك البئر راكدة ومتغيرة اللون ، وتفوح منها رائحة غير طيبة ، ويبدو أن أحدًا لم يقربها منذ شهور. وهذا المسقى مخصص لفخذين فرعيين من فخوذ عرب الشامير ، وهما على وجه التحديد الفرسان Al Fursan والجنيفير Al Junaifir ، ومترك ينتمى إلى الفرع الأول. ومن حول البئر كانت هناك دائرة سوداء من مخلفات الأغنام التى كانت تلمع فى ضوء الشمس.

والوادى بين هذه النقطة وسلسلة جبال فرزان Firzan، التى بدأت تطبق على الطريق الذى نسير فيه ، يسمونه شعب الخرج . وهذا الشعب ينحدر نحو الوادى ، ولكن يبدو أنه مسدود تمامًا على نحو يمنع الوصول إليه عن طريق خط الكثبان الرملية التى سبق أن أشرت إليها، والتى تنتشر على مساحة واسعة على الرغم من انخفاضها. أما بقيه المسيرة ونحن نقترب من أوليات نخيل الخرج ، أو إن شئت فقل واحة السليمية Sulaimiyya ، فلم تسترع انتباهنا ، وعندما أخذت الشمس تختفى وراء الأفق احترمنا تقوُّل العرب على طلب الكرم فى المساء ، ونصبنا خيامنا عند مدخل الخرج ، على بعد مسافة قليلة من روابى فرزان ، مؤجلين دخولنا إلى الضاحية إلى صبيحة اليوم التالى.

٢- شمالى الخرج

صعدت مع مترك وقلة من الأفراد الآخرين إلى قمة الرابية الأعلى من بين القمة التوأم كى ألقى نظرة على الأرض قبل أن يرخى الليل سدوله علينا. وشاهدت منظراً واسعاً متنوعاً. وها هو مشهد وادى حنيفة الكئيب غير الواضح يتراءى لنا عن بعد وهو يمتد من الشمال إلى ناحية الغرب ، كما نشاهد أيضًا حدوده البعيدة المتمثلة فى سلسلة جبال فرزان ، التى تمتد إلى ناحية الغرب من نقطة الملاحظة التى نقف فيها ، وذاك هو جرف الجبيل (الجبيلة) الذى تحول إلى منخفض متموج تموجاً قليلاً لا يبعد كثيراً عن اتجاه الشمال ، فى المنطقة التى ينحدر السلىٌّ Sulaiy عندها ليتصل بوادى حنيفة، الذى يواصل مسيرة بين ضفتين غير واضحتين إلى أن يصل إلى منطقة شديدة Shadida ، تلك السلسلة الجبلية الطويلة ، التى تمتد من الغرب إلى الشرق ، والتى تشكل مع سلسلة جبال تغطيها الرمال ، ويطلقون عليها اسم سارة Sara بارقة Barqa، ما يمكن أن يكون الضفة اليسرى للوادى. وعن بعد فى اتجاه الشمال الشرقى وعبر الفجوة الواسعة بين طرفى كل من الجبيل Jubail وشديدة Shadida، شاهدنا وادى الترابى Turabi ومن خلفه حدود عارمة غير الواضحة ؛ وهذه مرتفعات جبل عاقلة Áqla ، التى خيمنا بالقرب منها فى شهر نوفمبر ونحن فى طريقنا إلى الرياض ، تستثير فى مشاعر الفرح التى تستثيرها العلامات الأرضية فى الغرباء الذين سبق لهم أن شاهدوها. ومن هذا المنطلق تعد شديدة صديقًا قديمًا أيضًا ، نظراً لأنى سبق أن رأيتها فى المناسبة ذاتها ، بعد أن خرجنا من هضبة عارمة . وقد أبلغنى رفاقى أن الخرج تقع خلف شديدة ، وكانوا على حق فيما قالوا. وفى اتجاه الجنوب الغربى والجنوب الشرقى أيضًا توجد الحدود الواضحة لجبل عالية Álaiya وكذلك الحدود الخارجية لمنخفضات القصيعة Qusai'á، التى بدت لنا وكأنها تتصل بالطرف البعيد من وادى الخرج فى المنطقة المجاورة لخشم خرطام Khashm Khartam، ذلك الامتداد الأرضى الصخرى المل ، الذى يمتد مثل أنف الجبل من بين السهب الصحراوى الواسع ، ذلك السهب الذى تحجبه عنا سلسلة جبال القصيعة Qusai'á التى تقع فيما بيننا وبينه ، والذى يطلقون عليه فى تلك المنطقة اسم البياض Al Biyadh،

أو إن شئت فقل الأرض البيضاء ، ويشكل فى حقيقة الأمر بداية الربع الخالى ، الذى لا يوجد فيه ماء أو حياة بشرية على امتداد طوله وعرضه أو حتى فى الرمال الموجودة خلفه.

تلك كانت القشرة الخارجية ، التى تكمن وراءها منطقة الخرج ، التى كانت فى يوم من الأيام مركزًا لأمبراطورية عظيمة كانت تمتد من وادى الدوسر فى الجنوب إلى القصيم ، ولكنها الآن، مثل المحمل Mahmal، أصبحت مجرد تابع من توابع المنطقة المركزية فى العارض Áridh' . والوادى عبارة عن غدير ضحل على شكل مثلث متساوى الساقين ، قاعدته وادى حنيفة ويمتد ناحية الجنوب فى اتجاه رأسه عند خشم خرطام Khashm Khartam ، وساقا المثلث تنبعجان انبعاجًا خفيفًا غير منتظم ناحية الغرب. ويصل ساق المثلث من الشمال إلى الجنوب حوالى خمسة وثلاثين ميلاً ، فى حين يتناقص عرضه بصورة مضطردة من ثمانية أميال عند قاعدة المثلث إلى أقل من نصف الميل عند الفجوة التى بين بروز الخرطام وهضبة الطوابق ؛ تلك الفجوة التى يجرى خلالها واحد من "الأنهار" الثلاثة العظيمة ، التى تجعل الخرج مرتكزًا لكل مشاريع المسح المائى فى وسط الجزيرة العربية.

هذا هو شعب العجيمى 'jaimi ؛ أما الشعبان الآخران فهما: شعب نيساح Nisah - الذى لاحظت فى أثناء رحلتى إلى المنطقة الغربية عبر نفود القنيفدة، أنه ينبع من تلال بخارة Bukhara ومن تلال خشم الضيبى Dhibi، ويشق طريقه خلال الطويق ليدخل الخرج عند أقصى طرفها الشمالى الغربى بطول منحدرات سلسلة جبال فرزان الجنوبية ، ووادى حنيفة. وشعب العجيمى يعدان مثالاً ممتازًا على ارتباك المسميات العربية الفرعية، التى وقفت على مثال لها فى الأقسام الفرعية الكثيرة من مسميات وادى فاطمة. وهذا الاسم يطلق فى الخرج على الثلث فقط من قطاع الطويق ، من وادٍ أكبر من وادى حنيفة نفسه، سبق أن صادفناه والتقينا به فى الجزء الغربى من مرتفعات نجد ، حيث ينطلق من منبعه فى سلسلة جبال علام Álam'، ليسير حاملاً اسم وادى سرَّة Sirra[11] فى بداية اتجاهه نحو الجنوب ، ثم يتجه شرقًا بعد ذلك بطول الحافة الشمالية لجبل سابهة Sabha ورمال نفود ضاحى Nafud Dahi إلى أن يصل إلى حافة الطويق ؛ وعند حافة الطويق يتغير اسم وادى سرة إلى شعب بيرك Birk، الذى

يمتد خلال الحاجز ليمتد مع الوادى مثل شعب العجيمى. والعربى ينتفع تماماً بكل الأشياء ولكنه لا يفعل ذلك فى منظومته الخاصة بالمسميات الجغرافية، نظراً لأن تشابه تلك المنظومة المحير يصيب المسافر فى الجزيرة العربية بالدهشة والارتباك. فتراه حيناً يقتصد ، وتراه حيناً آخر يفرط فى تلك المسميات والتسميات ، وهو يسلك فى ذلك مبدأ واحد من مبدأين أساسيين تمليهما عليه خصائص بلاده الطبيعة. والماء هو أثمن ما فى الجزيرة العربية ، إذ بدونه يفنى الإنسان والحيوان ، ومع ذلك فالماء لا يوجد فى كل مكان ، وحيثما وجد الماء يعطى له اسم وهنا يطلق اسم ذلك المسقى Watering على جميع المناطق أو الأراضى المحيطة به ؛ من ذلك على سبيل المثال ، يوجد على بعد مسافة قريبة من جنوب الخرج مصدر من مصادر المياه يطلقون عليه اسم مشاش النسوان Mishash al Niswan، ومن خلف ذلك المصدر توجد صخرة منخفضة هى قسم من سلسلة جبال البياض، وهذه الصخرة تنتهى ببروز ينبثق منه غدير صغير يتجه صوب شعب العجيمى؛ وهذه الصخرة، هى والامتداد الأرضى، وكذلك غدير الماء الصغير تطلق عليها أسماء: ضلاع مشاش النسوان ، وخشم مشاش النسوان، وشعب مشاش النسوان. والذى يلى الماء فى الأهمية هو المراعى فى أرض يعنى الجفاف فيها هلاك قطعان المواشى والأغنام؛ وفى وادٍ طويل كهذا، يندر أن يفيض النهر، قد تجف بعض أجزائه، بينما قد تهب العواصف المحلية على الأجزاء الأخرى من ذلك الوادى فتنبت فيها الحشائش والأعشاب؛ وتلك الأجزاء الخضراء قد يفصلها عن بعضها البعض مسير عدة أيام، الأمر الذى قد يؤدى إلى تفوق القطيع إذا لم يوجه التوجيه الصحيح ؛ من هنا فالعربى يقسم الوادى الذى يعيش فيه إلى أقسام يعطى كل منها اسماً، يسهل له التعرف عليه، ولذلك عندما تصل أخبار عن رعى هنا أو هناك فى وادٍ يصل طوله إلى مئات الأميال، أو فى أى رافد من روافد ذلك الوادى، يكون بوسعه (العربى) الوصول بمنتهى الدقة إلى ذلك المكان الذى حفره فى ذاكرته، على الرغم من وجود قلة قليلة هى فقط التى تستطيع تجميع النتف المتناثرة لتكون منها كلاً متكاملاً، أو إن شئت فقل قلة قليلة هى التى تفهم وتدرك أن تلك النتف المتناثرة ليست سوى أقسام من كيان واحد.

فى المنطقة الشمالية الشرقية من الركن الشرقى من واحة اليمامة، نجد أن شعب الجعيمى، وشعب النساح ووادى حنيفة تتكتل كلها مكونة منخفض السحابة Sahaba،

ذلك المنخفض الواسع الذى يحتوى على الطمى المشبع بالأملاح الذى تغطيه قشرة من الرمل فى القسم الأكبر من المنخفض الذى يمتد إلى مسافة كبيرة فى اتجاه الشرق. والناس هنا يقولون إن مجرى النهر القديم هذا يمكن رده إلى حاجز الدهناء الرملى غير المعروف فى القدم، وبخاصة فيما يتعلق بمروره عبر الرمال، ثم بعد ذلك فى تحوله إلى غدير ضحل - شأنه شأن غدير الباطن - عبر ذلك السهب، الذى يمر من فوقه وعند منتصفه الطريق المعتاد الواصل بين الأحساء وجبرين Jabrin، ومنها إلى الساحل الشرقى إلى الجنوب من شبه جزيرة قطر. وفى ذلك المجرى توجد أبيار الواسعة Wasi'ā المنطقة التى يمر خلالها ذلك المجرى فى منخفضات عارمة Ārma . وإلى الجنوب ذلك الخط توجد أراضى أهل مرة Murra، التى تسير حدودها الغربية - إن جاز لنا القول هنا - بحذاء الحافة الغربية لسلسلة جبال البياض Biyadh، وذلك اعتباراً من رأس منخفض السحابة Sahaba إلى امتداد مشاش النسوان، ثم تسير بعد ذلك متجهة صوب الجنوب بطول الخط الموازى لخط٤٧ْ شرقًا إلى أن تصل إلى حدود حضر موت. ويواكب وادى الدواسر تلك الحدود فى مسيرها إلى أقصى حدودها الجنوبية على خط وادى الدواسر نفسه، ثم بعد ذلك حدود قبائل اليام Yam والتى تمتد فى تلك المنطقة فى اتجاه الجنوب.

ونقلاً عما قيل فإن الجزء الظاهر من سلسلة جبال قصيعة يجرى خلفه شعب ثليمة Thulaima الذى يصرف مياه المنخفضات فى منخفض السحابة الواسع؛ وخلف شعب ثليمه توجد أربعة أبيار صغيرة يطلق عليها اسم القبيشات Qubishat التى تقع بالقرب من تلتين بارزتين منخفضتين. وعلى الجانب القريب من هاتين التلتين توجد أبيار الأمغار Al Amghar التى يوجد بها سقيا العميدى Al 'Āmaidi والتى تقع فى الجنوب الشرقى من تلك الأبيار، وفى أقصى جنوب أبيار الأمغار، توجد أبيار أبو حداد Hadad، وهى عبارة عن ستة أو سبعة أبيار الماء فيها على عمق خمس قامات أسفل سفح تل أم الغربان Mmm al Ghurban وفى مجرى شعب يطلقون عليه اسم الخوار Al Khawwar . وظهير هذه المنطقة هو سلسلة جبال البياض Biyadh .

كان الليل براداً ويهب خلاله نسيم شمالى عليل، وفى صبيحة اليوم التالى استيقظنا مبكرين حتى يتسنى لنا المرور على المستوطنات المتناثرة فى أنحاء الوادى

اعتباراً من ربوة فرزان. لقد صحوت من النوم وفى داخلى إحساس بالضيق وعدم الارتياح كما لو كنت قد أصبت بالحمى؛ فقد سجل الترمومتر درجة حرارة مقدارها ٥٩ْ فهرنهيتية عند الساعة الخامسة صباحًا، ولذلك كنت أتطلع إلى حرارة الشمس، ولكن الدفء المتزايد فشل فى العلاج، هذا فى الوقت الذى أدى إكرام أميرى السليمية Sulaimiyya واليمامة لنا إلى زيادة الاضطراب المعوى الذى كنا نعانى منه، فقد أدَّى بنا ذلك الكرم، عندما خيمنا لوقفة المساء، إلى التزام علاج جذرى مفيد تمثل فى الصوم، والنوم وشرب البراندى، بعد أن عرفت عن طريق مقارنة حالى بأحوال رفاقى، أن الغالبية منهم كانت تعانى مما أعانيه أنا، الأمر الذى جعلنى أخلص إلى أن ماء الحائر، الذى جلبوه لم يكن ماءً جارياً وإنما من البحيرة الراكدة عند نهاية المجرى المائى، ولذلك تسبب فى كل الاضطرابات التى نعانى منها. وعلى حد علمي، كانت تلك المناسبة الوحيدة التى عانيت خلالها ألامًا بسبب الماء، كما كانت أيضًا المناسبة الوحيدة التى شربت فيها من مكان لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون سوى بالوعة للقرية. والسيول هنا فى الجزيرة العربية تجلب الصحة للواحات الواقعة فى مجاريها لأنها تغمرها فتخلصها من الأقذار التى تعلق بها طوال الموسم، ولكن الخطر يكمن فى البرك التى تتكون بالفعل من مياه السيول غير الصالحة بالقرب من المستوطنات. وكانت الخبرة التى اكتسبتها من ذلك اليوم درسًا وعيته واحتفظت به للمستقبل.

وعندما هممنا بركوب دوابنا، أحسست وأنا أضحك ضحكة مكتومة، أن انتباهى بدأ يتحول ناحية مترك، الذى كانت ناقته قد نهضت واقفة بالفعل، وراحت تفرد أرجلها فى ملل مثلما تفعل عندما تنهض من نومها، فى حين راح مترك ينحنى إلى الأمام كى يتلقى زخة بول الناقة على رأسه، ثم انشغل بعد ذلك فى تصفيف خصلات شعره وتمشيطه مستخدمًا فى ذلك يديه والمشط. ورأيت وجهه الأسمر يتهلل فرحًا وهو ينهض واقفًا بعد تلك العملية ليمشط خصل شعره إلى الخلف ويفرقها، موضحًا لى أن تلك الطريقة من طرق تنظيف الشعر تشيع بين البدو وفى الحياة البدوية؛ فقد أخبرونى أن بول الإبل، فى إطار الصيدلانيات العربية التى تعرفت على البعض منها[١٢]، يقضى تمامًا على الطفيليات الزاحفة ويمنعها ، ولم أتصور فى يوم من الأيام أن يكون غسول الشعر مُنَفِّرًا وغريبًا إلى مثل هذا الحد.

وعلى بعد ياردات قليلة من مخيمنا مررنا من بين رابيتى فرزان من فوق سرج منخفض يصل بينهما، وعلى المنحدر الواقع عن يسارنا مباشرة شاهدنا نبع فرزان، مصدر قناة مياه الرى السطحية التى تمتد شرقًا فى اتجاه نخيل السُّلَيمية Sulaimiyya التى تبعد عن هنا مسافة ثلاثة أميال. وتطوير القسم الشمالى من الخرج يحظى باهتمام خاص من الإمام عبد الرحمن، الذى سبق أن أبلغنى فى أثناء حديثى معه، أن نبع فرزان الذى قام والده فيصل بصيانته وإصلاحه تماماً، بدأ يعانى الكثير جراء الإهمال والإتلاف الذى حاق به خلال فترة الفوضى والاضطراب اللذين جرّهما شقيقاه عبد الله وسعود على البلاد. أما هو نفسه، فقد أمسك بتلابيب الأمر، وكان يتمنى إعادة البيارات الملكية فى السليمية إلى شىء قريب من ازدهارها القديم. وقد أعرب الإمام عبد الرحمن فى هذا الصدد، عن رغبته فى أن تتاح لى فرصة الاطلاع على ما فعله الإمام هناك على أن أكتب له تقريراً عن ذلك. وفى مساء بدء رحلتى إلى الجنوب أرسل إلىَّ رسائل مع كل من أحمد الثنيان وإبراهيم يذكرنى فيها بوعدى له، كما أبلغنى أيضاً أن عماله فى شمالى الخرج ونبع فرزان قد اكتشفوا بعض المكاتيب أو إن شئت فقل النقوش القديمة. وقد شعرت بالرضا عندما وجدت أن ريِّس العمال Foreman، الذى كان على رأس العمل ومعه حوالى أربعين عاملاً من عمال اليومية، كانت لديه تعليمات لمعاونتى فى أبحاثى، وبناءً على ذلك استطعت عن طريق مرافقته لى هو وقلة قليلة من الرجال، فحص النبع فحصاً كاملاً ودقيقًا، كما فحصنا أيضًا قناة النبع والحطام الموجود فى المنطقة المحيطة به، والمحزن حقًا أننى فشلت فى العثور على أى أثر من آثار النقوش، أو المكاتيب فى تلك المنطقة. وعندما قدمت تقريرى لابن سعود لتوصيله إلى والده أرفقت بالتقرير بعض النصائح الخاصة بأمور الرى، كما أضفت إلى التقرير توصية أخرى مشجعة مفادها أن إجراء المزيد من التنقيب بين الأنقاض قد يسفر عن اكتشاف حجر مكتوب يكشف عن موقع المصادر المخبأة وعن أسرار أخرى لا تقدر بثمن تتعلق بمنظومات الرى عند القدماء. ومبلغ علمى أن أحداً لم يقم بتلك الحفريات، ويبدو أن الإمام اكتفى ببرنامجه المتواضع الخاص بطبقة الطمى التى وضع عليها يده.

هذا النبع ينبثق من الأرض عند قاع نفق عمودى غير مبطن محفور فى جانب التل إلى عمق حوالى أربع قامات. والنبع فى الوقت الراهن معلق تنفيذه أو الاستفادة

منه بفعل كومة كبيرة من أحجار الدبشة ومن التمور ومن المُلاط، تضغط على النبع على شكل طبقات متتالية داخل ذلك النفق العمودى ؛ الأمر الذى يكبح انسيابه ويقلله. وبناء على ذلك فإن قناة النبع، باستثناء بعض البرك التى تنتشر هنا وهناك على طول مجراه، كانت جافة، وإن العمال كانوا يعملون فيها خطوة بخطوة فى اتجاه المنبع، بدءاً من السليمية، وكانوا فى أثناء زيارتى قد وصلوا إلى منتصف المسافة بعد شهرين من العمل. ومجرى النبع عندما يكون سالكًا يجرى على شكل نفق سطحى، قطره حوالى ثلاثة أقدام أو أكثر من ذلك، وهذا النفق من النوع الفارسى المعتاد أو من نوع الكاريز kariz الذى يسمونه هنا خراز Kharaz أو ساقى Saqi. وعلى بعد مسافات تتردد بين عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة يجرى حفر آبار عمودية دائرية واسعة من مستوى الأرض بحيث تنزل عبر المحيط الخارجى للنفق، وذلك لتسهيل التفتيش على النفق وإصلاحه بين الحين والآخر، أما فى اتجاه أعالى القناة فتوجد سلسلة من الممرات المفتوحة مقطوعة فى الصخر الصلب فى جانب التل إلى عمق أربع قامات، وتؤدى إلى ارتفاع مستوى سطح الماء بصورة مطّردة مع انحدار سطح الأرض إلى حوالى قامتين ونصف القامة فقط عند نهاية المجرى.

ورداً على التساؤلات التى دارت حول الحفريات والنقوش توجهت شمالاً من منطقة الساقى صوب بروز من سلسلة الجبال شبه دائرى تغطيه الرمال، وببعد مسافة ربع ميل عن الساقى. وهنا وجدتنى وسط رقعة من الأرض الرملية، التى تتخللها قطع من الصخور المكسّرة وتمتد بطول كنف السلسلة الجبلية، إلى مسافة نصف ميل تقريبًا ويقل عرضها، فى الوقت ذاته، عن نصف الميل أيضًا. قال مرشدنا: "لا توجد نقوش هنا، لم نعثر على أية كتابة، ولكن هذا هو ماكتبناه للإمام. انظر إلى البقايا الأثرية التى تحيط بك." ومع خيبة الأمل المرة، تحولت ناحية منظر الأحجار المبعثرة من حولى، الأرجح أنه مكان مقبرة حديثه، وهى لا تختلف كثيراً عن مقابر الرياض اللهم إلا باستثناء كتل أحجارها الكبيرة. ونزلت من فوق دابتى كى أقنع نفسى بما خطر على بالى، وصدق توقعى. فقد شاهدت الصخور وهى تنتظم فى شكل دائرى من حولى لتستر أكوامًا من الحطام التى لاحظت خلالها كتلاً من مادة تشبه الملاط الأبيض، الأرجح أنها من الجبس. من المؤكد أن هذه المنطقة كان فيها حطام عمل من صنع يدى الإنسان فى

عصر من العصور القديمة، ربما كانت فقيرة، ولكنها ليست من طراز حديث، والمرجح أكثر أن تكون موقعًا لبلدة قديمة[١٢]، ما تزال أسرار هويتها، وأسرار تاريخها، وكذلك أسرار الكارثة التى ألمت بها مخبأة إلى الآن، وقد تكون مخبأة بين هذه الأنقاض.

فى ذلك الحقل من الأنقاض يتوزع عدد لا يحصى ولا يعد من الدوائر مختلفة الأشكال والأحجام والأنماط توزعًا عشوائيًا خاليًا من التوازى والتقابل. والقسم الأكبر من تلك الدوائر يتراوح قطر الواحدة منها بين خمس ياردات وعشر ياردات؛ وهنا وهناك، وبخاصة فى اتجاه القسم الشرقى من تلك المنطقة، كنا نلاحظ دائرة كبيرة، ولكن عند الحافة الشرقية، حيث يغطى الرمل المنجرف من وادى حنيفة الأطراف الخارجية لسلسة الجبال، شاهدنا أكبر دائرة بين كل تلك الدوائر، دائرة مهيبة يصل قطرها إلى حوالى خمس وأربعين ياردة. أما الدوائر الصغيرة فكانت تشتمل على تل صغير من الرماد تحيط به على مسافات متساوية فى محيطه الخارجى كتل غير منظمة مقطوعة من الحجر، موضوعة على أحد جانبيها ويتراوح ارتفاعها بين قدمين وثلاثة أقدام؛ وفى داخل ذلك الفضاء كانت هناك كتلاً من مبان مماثلة مدفونة فى كتلة من الحجر الدابش، وأحجار صغيرة، وملاط، ولكن الجزء الأوسط من ذلك الفضاء كان يرتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالى ثلاثة أو أربعة أقدام، وفى بعض الحالات الأخرى لاحظنا غياب ذلك البناء المركزى.وفى تلك الدوائر الكبيرة، كان يظهر خط عمودى على المحور مكون من كتل صخرية كبيرة، وينصِّف الدائرة من أحد جوانبها إلى الجانب الآخر، وفى أكبر الدوائر لاحظنا أن ذلك الخط العمودى على المحور كان شديد الوضوح، كما لاحظنا أيضًا وجود دوائر أصغر، كل واحدة منها فى ربع من أرباع المحيط الكبير. كانت الدائرة الكبيرة تتميز بكتل من الحجر يتراوح ارتفاع الواحدة منها بين ثلاثة أقدام وخمسة، وموضوعة على بعد مسافة ياردة واحدة أو ياردتين مع توسيع الفجوات بين الحين و الآخر؛ والقسم الأوسط من الفضاء الداخلى كان يرتفع حوالى أربعة أو خمسة أقدام عن مستوى سطح الأرض وكان يتعامد عليه خط من الجلاميد الصخرية يتردد ارتفاعه بين أربعة أقدام وخمسة، أطول منه، يتجه شمالاً وجنوبيًا، مع وجود فجوة فى منتصفه تواجه الشرق والغرب. وبينما كنت أقف فى تلك الفجوة أواجه الشمس التى كانت ما تزال عند الأفق، دار فى خاطرى وصف

بالجريف[١٤] عجائب الأحجار فى منطقة عيون Úyun فى القصيم، وسرحت أنا بدورى، لأرجح أن تكون الأنقاض التى أمامى حطامًا لنوع مماثل من ذلك الحطام الأثرى الذى يعود إلى تلك الأيام التى عبد العرب خلالها الأجرام السماوية.

وأنا لا أجرؤ على القطع بصحة أو عدم صحة تلك الفرضيات والآراء؛ وأنا أميل إلى تحرير رؤية عن أناس، أو إن شئت فقل: شعب كان يعيش فى منازل لها قباب أو تشبه خلية النحل، مبنية من اللبن وعلى أسس من الحجارة ولها دعامة مركزية من الحجر أيضًا؛ أو قد تربط - وهذا أدعى إلى العقل والمنطق - سكان ذلك المكان القديم ببناة الكاريز Kariz الذى سبقت الإشارة إليه، ثم تربط الاثنين معًا باسم السلسلة الجبلية التى يقعان فيها ، فرزان Firzan أو إن شئت فقل: فرسان Fursan التى معناها "الفرس". وقد لاحظ دوتى Doughty ملاحظة دقيقة مفادها أن "العربى مشتق وقح"، ولأسباب تتعلق بالاشتقاق وحده، يجب ألا نتردد فى قبول النظرية المتبعة هنا، إذا ما ثبتت عملية استخدامها لأسباب أخرى. فالعربى عندما يبدأ اشتقاقًا يستهله بالنطق الخاطئ للكلمة، ثم يبرر ذلك بالهجاء الخاطئ أيضًا، ثم يواصل بعد ذلك عملية جريئة يفسر بها خطأه المزدوج ، أخذها من علم الأسباب والعلل. واسم الخرج نفسه، هو أو قد يبدو لى كذلك، مثال جيد من الأمثلة التى توضح ذلك الخطأ الثلاثى، أو إن شئت فقل: الاتجاه الثلاثى ، والمنطقة نفسها، وهذا رأى ابن سعود، تسمى بذلك الاسم لأنها كانت فى الأزمان القديمة مخرجًا لإمدادات القمح إلى كل من مكة و المدينة، وهذا تفسير أنا لا أرى فيه خطأً على الإطلاق اللهم باستثناء أن ذلك التفسير يفترض قدرًا من السذاجة يندر أن يوجد فيمن يعيشون خارج الجزيرة العربية، يجعل صاحبه يسلم بعبارة عامة كهذه دون سند أو دليل. وأنا أرجح اشتقاق ذلك من ملمح من الملامح الطبيعية داخل المنطقة نفسها، ومع ذلك فأنا أنتظر بعض العواقب التى تترتب على كلامى هذا.

وأنا مدين لجابر المرِّى، فى المفتاح الذى أوحى لى بالأصل الفارسى لتلك الأنقاض. فبينما كنا واقفين بالقرب من الكريز Kariz (ساقى) نتفحص القناة والأعمدة النازلة، قال لى جابر المرى، إنه شاهد منظومة مماثلة تمامًا لتلك المنظومة أثناء عمله فى القطيف، التى كانت تحت السيطرة الفارسية - وهذا مؤكد تمامًا - فى العصور

الوسيطة. وعند هذه المرحلة، وكما سنرى بعد فترة فى منطقة الأفلاج وفى منطقة السر Alsirr وأيضًا فى منطقة القصيم، أن الكريز Kariz معروف فى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية، التى لا تتوافر فيها أدلة محددة أو محتملة على الاختراق الفارسى، ولكن تواجد منظومة رى مكونة من قناة وبلدة - إذا كان ذلك هو الحال - والتى ليس لها، على ما أعلم مثيل فى الجزيرة العربية إلا بالقرب من الكريز، أمر له مغزاه ومعناه - صحيح إن مواقع الأنقاض تعد معالم شائعة تمامًا فى منظر الجزيرة العربية، وصحيح أيضًا إن البقايا التى تخلفت عن تداول الناس الانتصار والهزيمة على امتداد سنين طويلة تعد أيضًا معلمًا شائعًا فى الجزيرة العربية، إلا أنه فى جميع الأنقاض التى يمكن للمرء أن يطلق عليها اسم الفترة التاريخية من تاريخ وسط الجزيرة العربية، أو إن شئت فقل: فترة القرنين أو القرون الثلاثة الأخيرة، يستطيع الإنسان أن يقف على خاصتين شائعتين أو عاقبتين من خصائص تلك الفترة، ومن خصائص المستوطنات التى أنشئت خلالها، والتى بقيت إلى يومنا هذا أو التى يجرى إنشاؤها، وأولى هاتين الخاصتين هو أن المبانى بلا استثناء كانت مبنية من اللبن أو الصلصال، ويندر فيها اتباع فن البناء، ولم يكن الموقع الذى تقام عليه تلك المبانى مجرد جانب قاحل من جوانب أحد التلال وإنما كانت تقام فى وسط الواحة نفسها. والنتيجة الطبيعية لذلك أن أولئك الذين بنوا مساكنهم من الحجر على منحدرات سلسلة جبال فرزان على بعد مسافة من البيارات ومن الحقول التى كانوا يزرعونها فى غدير الوادى كانوا أناسًا ذوى أسلوب معيشة مختلف اختلافًا كبيرًا عن أسلوب حياة العرب الرُّحَّل، القدامى والمحدثين فيها ، هؤلاء الناس من المفترض ألا يكونوا عربًا وإنما أجانب كانوا يتجولون فى أرض غريبة، وإذا ما كانوا أجانب، فالأرجح أن يكونوا فرسًا، اخترقوا وسط الجزيرة العربية يوم أن كانوا يحتلون الساحل.

ورجعنا من حطام فرزان إلى المجرى المائى مرة ثانية، بعد أن تتبعناه مسافة نصف ميل، ثم اتجهنا شرقًا عبر السهل الرملى الواقع بين المجرى المائى وغدير وادى حنيفة. ثم مررنا فى تلك المنطقة، عبر حقول القمح فى البداع 'Bidà ، والتى تتخللها على مسافات أنقاض صلصالية من بيوت ريفية، كما مررنا أيضًا بمجموعة من الآبار تضم حوالى خمسة عشر بئرًا غزيرة المياه ، ويستخرج الماء منها على عمق أربع

قامات أو خمس ،أو إن شئت فقل: مستوطنة لا يوحى شكلها بالازدهار وتصل مساحتها إلى ما يتراوح بين ١٥٠ فدان أو ٢٠٠ من الأرض الزراعية. وفى أعالى الوادى وعلى الضفة نفسها تقع المستوطنة الصغيرة الأخرى التى يطلقون عليها اسم البديعة Budai'a ، التى شاهدناها من مسافة قريبة فى مخيمنا فى الليلة السابقة.

ونظراً لأننا عند تلك المرحلة كنا نتجه صوب بيارات نخيل السليمية، التى كانت تبعد عنا مسافة نصف ميل، فإن سلسلة جبال شديدة الانحدار كانت تمتد موازية لنا على الضفة اليسرى، مكونة بذلك الحافة الأخيرة لوادى حنيفة، فى حين كانت ربوة ضباع dhabà' تطل على الجزء الأمامى من تلك الحافة، والناس هنا يقولون إن ربوة ضباع يفصلها عن حافة وادى حنيفة منخفض روضة هنية Raudha Haniyya المعشوشب.

وبيارات نخيل السليمية، التى يحيط بها سور متهالك قليل الارتفاع مصنوع من اللَّبن، تمتد من الشمال إلى الجنوب على شكل بيضاوى غير منتظم يصل طوله إلى حوالى الميل تقريباً أما عرضه فيقدر بحوالى نصف ميل ، والكاريز (الساقى) يدخل ذلك البيضاوى من ركنه الجنوبى الغربى، حيث توجد البساتين الجيدة، وكلها مملوكة للأسرة المالكة، وتروى خلال وقت قصير، فى حين تعتمد بقية المستوطنة فى الرى على عدد من الآبار التى يصل عمقها إلى حوالى أربع قامات تعمل بواسطة الحمير، والأبقار، ونادراً ما تعمل بواسطة الإبل. والقرية، أو إن شئت فقل الكفر، يشغل زاوية يتكون ضلعها الشمالى الغربى من النخيل الذى نتجه صوبه الآن. ولم يكن بين ذلك النخيل أى شىء يمكن أن يستوقفنا أو يعطلنا، ودخلنا من بوابة بارزة عند الطرف الشمالى، ثم تجاوزنا بسرعة ذلك الذى بدا لنا وكأنه الشارع الوحيد فى تلك القرية، إلى طريق يؤدى إلى بوابة أخرى فى الناحية الجنوبية من القرية، وبعد أن تجاوزنا تلك البوابة وجدنا أنفسنا وسط بساتين النخيل. ثم واصلنا مسيرنا بطول حارة متعرجة إلى أن وصلنا إلى قصر الأمير، الذى هو عبارة عن مبنى من الطين يتميز تميزاً قليلاً عن أكواخ الفلاحين العادية الحقيرة، ويقع عند حافة بيارة نخيل طيبة ، واتضح أن تلك البيارة كانت واحدة من البيارات الملكية. ونزلنا عن دوابنا، ليقتادنا أحد خدم الأمير إلى سكن كبير وواسع ولكنه قذر للغاية، اكتشفنا فيه بعد أن اعتادت أعيننا على الظلام، مجرد

ثلاث حصر من البوص الشائع فى تلك المنطقة، وموزعة حول وجار للقهوة. لم يكن فى ذلك السكن ضوء أو هواء سوى ذلك الضوء الذى كان يتصارع عند الباب الذى دخلنا منه، والذى تهيأت لرفاقى عنده الفرصة كى يتهامسوا معلقين على المظهر المنفر لذلك المكان، قبل أن يواجهنا فيه صاحبه.

كان سليمان بن عقيصان Affaisan شاباً بليداً، مترهل الجسد، يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وجرى استدعاؤه مؤخراً ليقوم على أمر شئون القرية، فى أثناء غياب والده، سعد بن عقيصان Affaisan ، أحد رجال نجد الشهيرين، والذى تشرفت بلقائه بعد ذلك بأيام قلائل، عندما كان يتولى إمارة منطقة الأفلاج. وسرعان ما تأكد ذلك الانطباع السيئ الذى تركته تلك الغرفة فى نفوسنا، عندما بدأنا نستمع إلى صاحب المنزل، وعلى الرغم من أن العرف يحتم عليه أن يقدم الكرم، ويحتم علينا أيضاً قبول ذلك الكرم، متمثلاً فى دور أو دورين من القهوة، فإننا أحسسنا بالفرح عند ما راح سعد بن عقيصان يمرر المبخرة فى إشارة منه لإنهاء شرب القهوة، وإيذاناً بالرحيل. وبعد أن خرجنا من ذلك البهو الكئيب وأصبحنا نقف فى ضوء الشمس الساطعة، وبعد أن ركبنا دوابنا، سرت بيننا نوبة من المرح عندما أعلن تامى على الملأ فشله فى مهادنه جوعه الشديد.

وسكان قرية السليمية، بما فى ذلك سكان المساكن المتناثرة فى بيارات النخيل، يقدر بحوالى ٥٠٠ نسمة، معظمهم من القحطان من فخذ عايض Aidh ، الذى تنتمى إليه أسرة الأمير. ولقد لاحظت فى أراضى بيارات النخيل بعض الأراضى المزروعة بالزعفران، وبعض أشجار الرمان، ومناطق كبيرة مزروعة بالشعير، وخضراوات مختلفة الأنواع، كما لاحظت أيضاً أشجار القطن وهى تنمو متناثرة بطول حواف قنوات الرى.

عبرنا الواحة بعد ذلك، لنشاهد خلف سورها المهدم الذى تتخلله أبراج المراقبة، خطاً منفصلاً من النخيل، كما شاهدنا أيضاً منطقة تنمو فيها أشجار الأثل التى كانت تتدلى فوق سلسلة رملية تمتد من ضفاف وادى حنيفة إلى المنطقة الأمامية متحولة بعد ذلك تحولاً تدريجياً إلى نفود. كان الهواء والأرض من حولنا عامرين بالجراد الصغير ، أو إن شئت الجخاخ Jakhakh كما يسمونه عند تلك المرحلة، أى المرحلة التى لا يصلح عندها لأكل العرب.

وبين قرية السليمية وبالتحديد فى منتصف الطريق كانت هناك بئر واحدة، جرى حفرها فى منطقة منخفضة من النفود. وخلف تلك البئر سببت لنا أمواج الرمال بعض المتاعب ونحن نسير فى طريقنا الذى كان ينحرف قليلاً صوب الجنوب الشرقى فى اتجاه الشمال الغربى لواحة اليمامة التى لم يتبق من عظمتها السابقة سوى أطلال قليلة جداً. واليمامة القديمة، عاصمة المملكة العظيمة، لابد أنها كانت تشغل مساحة كبيرة فى الزاوية المحصورة بين اتصال قنوات وادى حنيفة والنساح. والذى يتبقى حاليًا من اليمامة لا يعدو أن يكون مجرد كتلة صلبة من النخيل على جانب النساح، ربما لا تزيد مساحتها على ميل واحد مربع به حوالى خمس قرى أو كفور فى منتصفه. أما بقية اليمامة فقد طمستها الرمال، التى تتوالى موجاتها فى اتجاه الجنوب قادمة من حافة وادى حنيفة؛ والذى يمنع تلك الموجات من جرف المستوطنات الحديثة هو ذلك الحاجز الضيق المكون من صفوف النخيل التى جرى زرعها على الجانب الشمالى. وتطل هنا وهناك - بدءًا من تحت سطح بحر الرمال وفى اتجاه الشمال - أنقاض القصور المدفونة. ومجموعات بيوت الفقراء التى لا سقف لها، وكلها مبنية من اللَّبن، ولكن الانتشار الواسع لكل تلك القصور والبيوت يدل على أنها وجدت فى زمن عاش فيه مجتمع مزدهر كبير بين جدران تلك المنشآت؛ كما نشاهد هنا أوهناك حفرة عميقة تحضن تحتها بئرًا مدفونة محاطة من أعلاها بحاجز من الأسمنت ، وخلف هذه المنطقة وفى اتجاه الشرق لا يوجد شىء سوى الرمال المتنقلة التى تمتد إلى منطقة سحابة Sahaba ، التى تتجمع عندها قنوات السيول الكبيرة الثلاث، لتكوّن فيضانًا، يتخيل سكان المنطقة، أنه قادر على الانسياب خلال حاجز الرمال فى الدهناء، متجهًا إلى البحر بعد ذلك.

وأيًا كانت أسباب الدمار الذى نزل باليمامة، فقد أدى مرور الزمن هو والاضطراب الذى حدث خلال السنوات الماضية إلى ضياع وطمس كل تلك الأسباب من الذاكرة، ولم يعد يتبقى من كل ذلك سوى القصة التى تحكى أسطورة يغفلها المؤرخون. ومن الواضح تمامًا، أن تلك العاصمة العريقة لم تكن فريسة للطاعون والجراد؛ وقصة تدمير اليمامة تصبح مستساغة ومقبولة إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا أننا نتعامل مع قلب منظومة الصرف فى وسط الجزيرة العربية؛ وهنا لا يتبقى لنا سوى القول بأن فيضانًا

كبيراً هو الذى تسبب فى دمار واحدة من المدن التى كانت عظيمة فى يوم من الأيام؛ يضاف إلى ذلك أنّ الدراسة المتأنية يمكن أن تثبت أن تفسيراً من هذا القبيل ليس محتملاً وإنما مستحيلاً. والبقية الباقية من مستوطنة اليمامة موجودة فى موقع بعيد عن وادى حنيفة، على ضفاف النساح، يضاف إلى ذلك أن الأنقاض الموجودة على جانبى وادى حنيفة هى التى قلّت عنها إنها أصابتها كارثة مفاجئة، الأمر الذى حول ازدهارها القديم إلى أنقاض. والمعروف أن الفيضانات القادرة على إحداث شىء من هذا القبيل تعد ظواهر نادرة الحدوث فى الجزيرة العربية، ومن غير المحتمل تماماً حدوثها فى قناتين فى آن واحد، لأن ذلك يرتبط بمصادر منفصلة عن بعضها انفصالاً كبيراً. أليس من المعقول إذن، أن نفترض أن فيضاناً قوياً فى قناة وادى حنيفة كان هو المسئول عن خراب المستوطنات فى الأجزاء العليا من الوادى، وفى تخريب مستوطنات اليمامة أيضاً، وأن يبرز ذلك الفيضان أيضاً أنقاض اليمامة باعتبارها دليلاً إيجابياً على أن فيضاناً من ذلك القبيل يعد حقيقة تاريخية؟

وواصلنا مسيرنا من الركن الشمالى الغربى فى المستوطنة بطول حافته الشمالية فوق الرمال المكوّمة، التى لاحظنا فيها وجود قبور صغيرة، شاهدناها بالقرب من شاهد غير واضح لواحد من تلك القبور ، سنبلة صغيرة من سنابل القمح، يبدو أن أباً مفجوعاً أو زوجة ثكلى قد وضعتها تخليداً لعزيز عليها. ومن ذلك الجانب، ومن منتصفه على وجه التقريب، كانت هناك حارة موصلة إلى فجوة بين مجموعة الأشجار الأمامية، تؤدى إلى أرض فضاء ، مقام عليها القرية الأولى من بين القرى الأربع الموجودة فى تلك الواحة. ومن خلف تلك القرية، وعلى مقربة منها، كانت تقف القرى الثلاث الأخرى على شكل شبه دائرة وسط ظلال النخيل، ووجدنا خط سيرنا يمر خلال تلك القرى من الحافة الغربية للواحة، ولا يسكنها سوى الأمير وأقرب أقاربه. وفى تلك المنطقه. تركنا إبلنا لكى نسلّم على ابن فواز Fawaz، أمير الواحة الذى أوفد ولده عبد الله، ليعتذر عن غياب والده بسبب المرض وأن يقوم هو باستضافة القادمين نيابة عن والده. كنا فى ذلك الوقت جوعانين ومتعبين إلى الحد الذى جعلنا نقبل الكرم المقدم لنا على علاّته، وأن نرضى على الرغم من احتجاجنا بالطعام ، بسيط المكونات ، وفير الكمية؛ كان الطعام مكوناً من تمر من نوعية ممتازة،ولبن دسم من ألبان الأبقار، ومعهما القهوة والبخور.

وأبقار هذه المنطقة من النوع البائس ، بطيء النمو. والسبب في ذلك يرجع إلى المراعي الهزيلة القريبة من المستوطنة البشرية، التي ينتظر الناس فيها من تلك الأبقار أن تشارك، إضافة إلى إدرار الألبان، في الأعمال التي تقوم بها الحمير والإبل ضمن الأعمال المعتادة التي يقوم بها أهل القرية. وقد لاحظت هنا وجود مجموعة مخلطة من الأبقار والحمير ، وهي تدوس على سنابل القمح وسيقانه، كي تفصل الحب عن التبن، وهذا هو ما يطلق عليه درس القمح عند مدخل الواحة، كما لاحظت قطعانًا مخلطة أخرى من تلك الحيوانات تستعمل في جلب الماء من الأبيار، التي يتراوح عمقها بين أربع وخمس قامات، والتي يعتمد عليها وحدها ازدهار المستوطنة في حالة عدم توفر مصدر آخر من مصادر الري. وبيارات نخيل اليمامة أكثف وأفضل من بيارات نخيل السليمية، وتتباهى بتعدد أنواع نخيلها كما تنتج اليمامة بعض الحاصلات الفرعية الأخرى ؛ القطن، والزعفران، والباذنجان، والبازلاء، والتين، والرمان. كما تنتشر فيها أيضًا حدائق الكروم هنا وهناك، فضلاً عن وجود بعض الأراضي التي يزرع فيها القمح بين الحين والآخر وذلك على أطراف الواحة. وقد وجدنا في منطقة اليمامة وفي أجزاء أخرى من منطقة الخرج أن محصول القمح فيها (وكذلك الشعير) أكثر تقدمًا عن مثيله في الرياض؛ وكان محصولي القمح والشعير قد جرى حصادهما تمامًا في اليمامة في ذلك الوقت وجرى نقلهما إلى منطقة الدرس، بينما تركنا محصول الرياض في فترة النضج.

وقرى اليمامة الأربع، التي يحيط بكل واحدة منها سور غير مكتمل، يمكن أن تحتوي هي والقصور (البيوت الريفية) المنعزلة التي تنتشر في أنحاء بيارات النخيل، على ما يقرب من ٢٠٠٠ نسمة ، القسم الأكبر منها يتمثل في ثلاثة مصادر: فخذ الزعب Z'àb من قبيلة المرة Al Murra ، التي ينتمي إليها الأمير؛ وفخذ عايض Áidh من قبيلة قحطان، وهم من أقارب وأهل السليمية؛ ثم بني هاجر Hajir . وهؤلاء السكان إضافة إلى أراضيهم الخاصة بهم - يقومون أيضًا بزراعة أراضي القمح التابعة للهياثم Al Hayathim وكذلك أراضي المنيصيف Al Munaisif الواقعة على بعد أميال قليلة ناحية الجنوب في وادي نساح Nisah .

وبعد أن خرجنا من الواحة من طرفها الغربي بالقرب من قرية الأمير غيَّرنا خط سيرنا إلى أقصى الجنوب الغربي صوب قلعة القرين Qurain التي تبعد عن الواحة

حوالى ثلاثة أميال. وبعد أن عبرنا مجرى نساح مباشرة، الذى يسير بطول محاذاة الحافة الجنوبية لليمامة إلى أن يصل إلى سحابة Sahaba ، ثم وصلنا إلى أنقاض برج قديم من أبراج المراقبة، يطلق عليه اسم مفتول السيح Maftul Al Saih، ويقع وسط الحقول المهجورة. وهناك بيت ريفى آخر مهدم يقع على بعد مسافة نصف ميل، هو الذى يميز الطرف الشمالى لقطعة كبيرة من الأرض ، مخصصة لزراعة البرسيم الحجازى ويطلق عليها اسم القرين Qurain أى باسم القلعة سالفة الذكر أو قد يطلق على تلك القطعة من الأرض اسم السيح Saih تيمناً باسم مجرى الرى، الذى يغذيها. ومنخفضات القصيعة Qusai'a تنحدر انحداراً خفيفاً من الشرق إلى ناحية الحقول ثم إلى حوافها الخارجية بالقرب من الضفة اليمنى لقناة السيح Saih وعلى بعد مسافة تقدر بحوالى ميل ونصف الميل قبل نهاية قناة السيح توجد القلعة ، التى قررنا نصب خيامنا عندها لقضاء اليوم. وفى الناحية الغربية توجد مستوطنتا الهياثم Al Hayathim والمنيصيف Al Munaisif ومن خلفهما سلسلة جبال فرزان Firzan؛ وفى الناحية الجنوبية، وعلى بعد مسافة تقدر بحوالى ثلاثة أميال يوجد منبع مجرى السيح المائى، الذى يتكون من ثلاثة خزانات كبيرة تحصل على مياهها من الينابيع الطبيعية، وهذا هو الملمح البارز الذى يميز منطقة الخرج كلها ، هذا الملمح الذى لا تدين الخرج له برفاهيتها فى الزمن الماضى فقط، وإنما تدين له أيضاً - وأنا على قناعة تامة بذلك - باسمها الذى يطلق عليها.

والخزانات الثلاثة تقع على بعد مسافة قريبة، عند نقطة تبرز فيها منخفضات قصيعة إلى الأمام متجهة صوب الغرب، ثم ترتفع بعد ذلك عن السهل بشكل حاد ومفاجئ مكونة بذلك سلسلة من الجبال يتردد ارتفاعها بين مائة قدم أو أكثر من ذلك فوق مستواها المعتاد. وعين Ain' سمحة، أو إن شئت فقل العين الأولى تقع بعيداً عن سفح المنحدر ، وهى مكونة من شق أو صدع عميق فى واحدة من الصخور الجيرية، وهذه العين بيضاوية الشكل ، ويصل طولها حوالى ثمانين خطوة وعرضها حوالى أربعين خطوة. وماء العين الصافى الداكن يوجد على بعد عشرين قدماً تحت مستوى سطح الأرض، الذى تنحدر منه كل جوانب العين انحداراً مفاجئاً نحو حافة الماء؛ وهناك فجوة واحدة ضيقة جداً ، الواضح أنها من عمل الإنسان ، موجودة فى الركن

الشمالى الغربى من العين، هى بمثابة المخرج الوحيد الذى يخرج منه الماء إلى السَّيح. أما عين الضلاع Áin Dhilà ، التى هى العين الثانية من بين العيون الثلاثة، فهى تتميز بأنها تقع فى صدع عميق فى جانب التل نفسه، وهى أكبر من العين الأولى وأقل انتظاماً منها من حيث الشكل، وتتصل بقمة المنخفضات عن طريق نفق صخرى منحدر يشبه المدخنة. ومتوسط طولها وعرضها يصل إلى حوالى مائة ياردة وسبعين ياردة كل على حدة؛ وهذه العين تكاد تكون شبه دائرية، فى حين أن جدران تلك الحفرة الجيرية يتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح الماء تراوحاً كبيراً من نقطة إلى أخرى، ويصل أعلى ارتفا ع لتلك الجدران إلى حوالى أربعين قدمًا فى الناحية الجنوبية والناحية الشرقية أيضًا، أما فى الناحية الشمالية فلا يزيد ارتفا ع تلك الجدران على ثلاثين قدمًا؛ وفى الجانب الغربى تنحدر الأرض انحداراً متدرجًا إلى أن تصل إلى حافة الماء. أما عين مخيسة Áin Mukhisa، الخزان الثالث، فتقع على مسافة أكثر من نصف ميل إلى الجنوب الغربى من عين الضلاع، وبعيداً تمامًا عن حافة المنخفضات. ومياه عين مخيسة لا تبعد عن مستوى سطح الأرض سوى قدم واحد أو قدمين، وهى بالمقارنة مع الصخور المنحدرة فى العينين الأخريين، نجد أن أرضها تنحدر انحداراً خفيفًا إلى حافة الماء، وهذه العين تزينها الأجمات ، والشجيرات ، والبوص، والحشائش؛ وأبعاد هذه العين أكبر من أبعاد العينين الأخريين، إذ يصل طولها إلى حوالى ١٥٠ خطوة أما عرضها فيصل إلى حوالى ٨٠ خطوة.

تجثم فوق مياه تلك العيون الساكنة شديدة السواد ظلمة حالكة Stygian(*)، وسط ذلك الجدب، فضلاً عن أن الناس يقولون هنا، إن أحداً لا يعرف مدى عمق تلك العيون، أو إن شئت فقل البرك. ويسود اعتقاد بين العرب، الذين يدفعهم فضولهم إلى التعجيل بسبر أعماق سرهم الخفى، الذى مفاده أن تلك العيون لا عمق لها، وإنها تمتد فى عمقها إلى أن تصل إلى البحر الموجود فى باطن الأرض. ولكن عدم وجود حبل طويل يمكنهم من مراجعة حكايتهم تلك، وكذلك عدم وجود وسائل أخرى لتعرية سذاجتهم، هو الذى جعلنى أشاركهم ذلك الاعتقاد، ورحت أتعجب بدورى من شفافية تلك المياه التى

(*) الإشارة هنا إلى نهر أسطورى من أنهار جهنم ، يشير إلى الظلمة الحالكة. (المترجم)

تشبه شفافية المعادن ولمعانها، وبخاصة عندما وجدت رفاقى، يغوصون مثلما يفعل العرب كلهم، إلى أعماق تلك البحيرات ويلهون ويمرحون فيها، وجعلتهم يتتبعون الفقاقيع الناجمة عن التقاء الجلاميد الكبيرة فى تلك البرك إلى أن تختفى تلك الفقاقيع تماماً فى الأعماق. وكل ما يمكن قوله بشىء من الدقة واليقين هو أن تلك العيون كانت تستخدم على مدى أجيال - وربما كان ذلك منذ بداية الزمن نفسه - فى رى حقول الخرج، التى أدى ازدهارها الزراعى المؤكد فى سالف العصر والأوان إلى ابتكار الأسطورة الشعبية التى مفادها أن اسم الخرج يعيد إلى الأذهان ذكريات تلك الأيام التى كانت الخرج تشكل فيها المصدر الرئيسى (مخرج) Makhraj لتموين مكة والأراضى المقدسة بالقمح. نحن نعرف من القرآن ومن المصادر الأخرى أن حاجات أهل مكة المتزايدة والملحة فيما قبل الإسلام هى التى حتمت تنظيم خدمة قوافل منتظمة إلى المراكز التجارية الكبيرة فى الجزيرة العربية، ونعرف أيضاً أن النبى (ﷺ) نفسه شارك مشاركة فاعلة فى مناسبات كثيرة فى المشاريع التجارية التى كان يقوم بها إخوانه المواطنون فى اتجاه سوريا ودمشق، كما نعرف أنه كان هناك اختلاط غير واضح بين مكة واليمن، ولكننا لم يصلنا أى دليل يؤيد النظرية التى مفادها أن منطقة الخرج بل وحتى مملكة اليمامة كانتا فى موقف يسمح لهما بالمشاركة على نطاق واسع فى إعاشة مركز عبادة الأوثان فى الجزيرة العربية. وبناء عليه، ومن منطلق هذا السبب، وفى ضوء الأبعاد الصغيرة لمنطقة الخرج، أجدنى أرفض التفسير الذى يفسرون به اسم (الخرج)، الذى راق للخيال الشعبى واتفق مع التباهى المحلى، وأجدنى أستبدل ذلك التفسير بتفسير آخر فرض نفسه علىَّ تماماً عندما رأيت عيون المياه الكبيرة لأول مرة، تلك العيون التى سبق أن تناولتها بالوصف. لقد لاحظت بالفعل ميل المسميات العربية إلى التركيز على السمات والخصائص الطبيعية التى لها علاقة بإمدادات المياه فى بلدهم الصحراوى، وسوف تتاح لى الفرصة فى الوقت المناسب كى أوضح أن منطقة الأفلاج Aflaj وكذلك منطقة السر Sirr إنما يُشتق اسماهما من أشياء غريبة من ذلك القبيل. وفى مثل هذه الظروف، قد لا يكون من الغريب عندئذ، أو من الشواذ بأى حال من الأحوال، أن نجد أن المنطقة التى تقع فيها هاتان المنطقتان كان لابد من تسميتهما باسم سمة أو خاصة بارزة وواضحة مثلما هو الحال فى تلك العيون، ولكن

المشكلة تكمن في إيجاد نوع من التوافق بين الاسم - بالصورة التى هو عليها - والظواهر التى يمكن أن نشتقه منها. وعلى كل حال، فتلك العملية ليست أمرًا صعبًا كما تبدو لنا، وبخاصة عندما نتذكر: أولاً، أن عيون الخرج تقع فى شقوق أو صدوع أو شروخ صخرية من النوع الذى يستثير الخيال. ثانيًا، أننا يمكن أن نعثر، فى أماكن كثيرة أخرى من الجزيرة العربية، على عيون شبيهة بعيون الخرج وتقع أيضًا فى شقوق أو صدوع صخرية ، على الرغم من أنها قد يكون لها فى واقع الأمر، طابعًا مختلفًا ، وأن الخيال المحلى راح يعزو وجود تلك العيون إلى فعل النجوم المتهاوية، التى جاءت منها أسماؤها كما هو الحال فى الاسم خُفس Khafs أو الشق Crack. ثالثًا، أن النطق الحديث عند العرب يلفظ الصوت " J" وكأنه "ق" أو "ج" كما هو الحال فى اسم العلم "قاسم" Jasim ، الذى يتهجّاه العرب "جاسم" ليدل على "قاسم" Qasim. وأخيرًا، فإن كلمة "خرق" Kharq هى مرادف لكلمة "خفس"Khafs، بمعنى "شرخ" أو "شق"، وهذا موجود أيضًا فى اسم تل الرياض الذى على شكل كهف ويقولون له مخروق Makhruq .
لقد ضاع من العرب إحساسهم باللغة ولياقتها الأدبية التى تميَّز بها أسلافهم فى العصر الجاهلى، وقد وصل بهم الأمر إلى حد قبول اشتقاق غير محتمل كما هو الحال فى اسم الخرج، فى الوقت الذى يتيسر لهم اشتقاق قريب آخر هو الأكثر ترجيحًا. لقد أحدث الزمن تغييرات كبيرة فى نطق اللغة العربية القديمة، كما أن انحطاط المعرفة، الذى لم تفعل الحركة الوهابية فى الوقت الراهن شيئًا من أجل القضاء عليه هو الذى سمح للقلم أن يكتب مثلما ينطق اللسان، مما أسفر عن نتائج قد تكون مؤسفة فى نظر باحث العربية الفصيحة، ولكنها مهمة الباحثين فى مجال تطور اللغات. ومبلغ علمى أنه ليس هناك اعتراض عملى أو اشتقاقى على النظرية التى مفادها أن اسم الخرج مشتق من كلمة "خرق" Kharq بمعنى "شق أو صدع"، وأن تلك المنطقة اشتقت اسمها من العيون (البرك) التى تمثل حاليًا - مثلما كانت فى الماضى - أبرز معلم من معالم الخرج. هذه النظرية تنطوى على تغيير فى الهجاء - إذا كنا ننشد اللغة الفصيحة - وليس تغييرًا فى النطق، وأن تلك النظرية لا تفى فقط باحتياجات القوانين المعمول بها، وإنما تلقى أيضًا تأييدًا قويًا من القياس على أسماء منطقتى السر Sirr و الأفلاج Afla .

وعلى كل حال، هناك عينان من تلك العيون توقفتا عن العمل، أو ماتتا كما يقول العرب. ولسبب أو آخر توقفت تلك الينابيع، التى اعتادت أن تغذى هاتين العينين، عن العمل أو ربما تكون قد وجدت لنفسها مخرجًا آخرًا تحت سطح الأرض، الأمر الذى أسفر عن انخفاض مستوى الماء فيها مما أثر فى مستوى الماء عند رءوس القنوات التى ما زال الناس يرونها فى أجناب تلك الينابيع، كما أن العين السمحة Samha وحدها ما تزال تؤدى المهمة نفسها التى كانت تقوم بها فى الماضى مع بقية العيون. وقناة السيح Saih يوجد منبعها، كما سبق أو أوضحت، فى الركن الشمالى الغربى من تلك العين (السمحة) على عمق حوالى ٢٠ قدمًا تحت مستوى سطح الأرض، ثم تنساب من ذلك المكان فى اتجاه الشمال لتروى طوال مسيرها إلى مسافة أربعة أو خمسة أميال. وفى الزمن الماضى كانت تلك العين متصلة بعين الضلاع Al Dhila' وعين مخيسة Mukhisa عن طريق ممرات مائية من طراز الكريز Kariz، والتى مازالت موجودة على شكل أنقاض. هذه القنوات كلها محفورة فى صخور الأرض الجيرية المرتفعة، التى ينبثق منها نبع السيح Saih نازلاً إلى السهل عند مستوى الأرض ليسير بعد ذلك فى المنحدر الطبيعى للأرض متجهًا إلى منخفض وادى النساح.

وعلى الرغم من أن الرى من عيون الخرج Uyun Kharj، أو إن شئت فقل: ينابيعها، كما يسميها الناس فى هذه المنطقة لابد وأن يكون المستوطنون القدماء قد مارسوه هنا بالفعل، فإننى أرجح أن منظومة القنوات الأساسية التى بقيت إلى يومنا هذا، لابد وأن تكون مثل منظومة فرزان Firzan، أى أنها من عمل المستوطنات الفارسية الحديثة نسبيًا. واستعمال الكريز Kariz دليل قوى على ذلك، وفى هذه المنطقة، نجد مثيلاً للأنقاض الدائرية التى سبقت الإشارة إليها. وبعد أن ارتقينا منحدر المنخفضات فى المنطقة المجاورة لعين الضّلاع شعرت بالارتياح عندما وجدت فوق قمة ذلك المنحدر أكومًا من الحطام تشبه الرُّجم (التلال)، التى على الرغم من عدم وضوحها تمامًا كما هو الحال فى بقايا المبانى الموجودة فى فرزان، فإنها كانت تكشف عن دلائل التوازى، التى ينتظر الإنسان أن يراها فى مستوطنات البشر المتحضرين، أو فى المقابر وما إلى ذلك، وأيضًا فى مواقع تلك المستوطنات فوق الأراضى المرتفعة، وهو ما يوضح بقوة الأصل غير العربى لتلك المستوطنات. وفيما يتعلق ببقية الدوائر الأخرى، وقد لاحظت

تشابهًا كبيراً بين أبعادها، التى لا يزيد قطر الواحدة منها على عشر ياردات بأى حال من الأحوال، وأنها كانت مكونة من أكوام أو رجم من الحجارة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وخمسة أقدام، وأنها لم تكن من الصخر، كما هو الحال فى فرزان وإنما من قطع صغيرة من الدبش أو الحجر الجيرى، ومن ملاط الجبس. وهناك أيضًا بقعة من الانقاض تقع إلى الغرب مباشرة من العين المخيسة Mukhisa عند مستوى السهل، ولكن تلك الأنقاض كانت كلها من الصلصال والجبس، ونرجح لها أن تكون أنقاض مستوطنة عربية حديثة العهد.

المساحة المنزرعة التى تعتمد على مياه عين السيح تمتد إلى مسافة أربعة أميال من الجنوب إلى الشمال ويصل عرضها إلى حوالى ميل تقريباً وتعد جزءًا من ممتلكات تاج ابن سعود، الذى خصصها بكاملها للإسطبلات الملكية التى أنشأها فى هذه المنطقة لإقامة ورعاية وحماية الأفراس السلالية وذكور الخيل، فضلاً عن الخيول الأخرى التى لا يستعملها هو أو أسرته فى زمن السلم أو الحرب. وقصر القرين الذى بنى باعتباره قلعة ضرورية للوقاية من الهجوم المفاجئ؛ عبارة عن مبنى بيضاوى الشكل، السلم مبنى من الطوب اللَّبن طوله ١٥٠ ياردة وعرضه ١٠٠ ياردة؛ ويحيط به من الخارج سور مرتفع به عدة أبراج على بعد مسافات متساوية على كل جانب من جانبيه وله بوابة بارزة متينة على الجانب الغربى. والقصر من الداخل مقسم إلى قسمين. جدار مستعرض، القسم الجنوبى الذى يمكن الدخول إليه بواسطة البوابة الرئيسية، ويصل طوله إلى حوالى ١٠٠ ياردة وعرضه حوالى ٥٠ ياردة ويحتوى على المخازن الضرورية ومحل إقامة الكلاَّف Steward وأسرته، فضلاً عن السُيَّاس الذين يأتمرون بأمره. والقسم الثانى، الذى يمكن الدخول إليه عن طريق بوابة فى حائط التقسيم، عبارة عن مربع كبير يشغل بقية القلعة ، ومقسم إلى قسمين مكشوفين لترويض الخيل ، ويفصلهما عن بعضهما البعض ممر ، جداراه المنخفضان مصنوعان من الطين. ويوجد بئر عند الطرف الشمالى لذلك القصر، وعمق ذلك البئر حوالى أربع قامات، وملحق به مسقى تشرب منه الدواب. وكل قسم من قسمى ترويض الخيل مزوَّد بصفوف دائرية من المعالف المصنوعة من الطين، والتى يُجلب لها البرسيم الحجازى من المزرعة، ويوضع على شكل أكوام ، مرتين كل يوم، والذى تطلق عليه الخيول بلا قيود، فى حين

توجد تعريشة بحذاء الجدران يجرى وضع الخيول فيها لحمايتها من حرارة الشمس الشديدة. وفى أثناء زيارتى لذلك المكان كان يحتوى على خمسين حيوانًا ، حوالى خمسة خيول ذكور أو ستة، وحوالى اثنى عشر مُهْرًا، والباقى عدد من الأفراس مختلفة السلالات، إضافة إلى جملين وبغل أيضًا. ومبلغ علمى أن تلك الحيوانات لا تلقى أى شكل من أشكال الرعاية أو الاهتمام؛ إذ لا يجرى تدريبها مطلقًا، فضلاً عن أنها لا يسمح لها تحت أى ظرف من الظروف بمغادرة المكان الذى تعيش فيه؛ وأماكن الترويض لا يجرى تنظيفها من الفضلات إلا على فترات طويلة، كما أن هذه الدواب التعيسة - خلاصة السلالة النجدية - تقف طوال اليوم على معالفها ومداودها وسط أكوام من الزبالة والمخلفات. ومع ذلك، فإن تلك الدواب لا تعانى كثيرًا من تلك المعاملة الشاذة، وهى عندما تذهب لتشارك فى الحرب أو القتال تكون جلودها سميكة، كما أن لها قدرة عالية على تحمل الإرهاق والتعب والحرمان من الطعام فترة طويلة، ولكنى لاحظت مرضًا واحدًا ينتشر بين تلك الدواب، وهذا المرض واضح ولكن لا ضرر منه، وهم يطلقون هنا على ذلك المرض اسم الدبّاس Dabbas، ويعزونه إلى طفيل يجىء مع البرسيم الحجازى الذى تأكل منه تلك الدواب. ويقال إن ذلك المرض يقصر نفسه تمامًا على اللون الأبيض، ومن فحصى للحيوانات الموجودة فى القلعة أستطيع تأكيد تلك المقولة، والسبب فى ذلك أن الخيول البيضاء هى والخيول الرمادية هى وحدها من بين الخيول التى كانت توجد على أجسامها كتل كبيرة من التقيحات المفتوحة غير المنظورة، وتلك التقيحات هى أعراض ذلك المرض، أما الحيوانات التى لم تكن بيضاء اللون فقد كانت تحظى بمناعة كاملة ضد ذلك المرض، ويستثنى من ذلك تلك الحيوانات التى تكون فى أجسامها بقع بيضاء أو حتى خصلات من الشعر الأبيض، لأن تلك المناطق فقط هى التى تصاب بالمرض. ولم يقدم راعى الإسطبلات أو العرب الآخرين - الذين كانوا يرافقونى - أى تفسير لذلك المرض العضال وبخاصة فى معاداته للون الأبيض فقط ، وضعفه الكامل ، وقلة حيلته أيضًا فى التأثير فى الظلال اللونية الأخرى، ومع ذلك كان أولئك العرب واثقين تمامًا من معلوماتهم التى مفادها أن المرض لم تترتب عليه أية آثار أخرى سوى التأثير على نظر الحيوان المصاب، وأن ذلك هو ما شاهدوه فى الحيوانات المصابة فى المنطقة المجاورة للإسطبلات. وأنا لا أستطيع القطع إن كان الأطباء

البيطريون يعرفون أو لا يعرفون ذلك المرض بالاسم الذى يطلقونه عليه، ولكنى يمكن أن أضيف هنا أننى عندما كنت فى بغداد بعد ذلك بأشهر قليلة، تطرق حديثى مع داود بك الداغستانى Daghistani، ذلك المربى المتحمس الذى يحب الخيل، ليثبت لى أنه كان يعرف المرض ولكنه كان يطلق عليه اسماً آخراً، يؤسفنى أننى نسيته.

البرسيم الحجازى هو المحصول الوحيد الذى يزرع فى القرين، وهو يشكل، بل هو فى واقع الأمر الغذاء الوحيد لحيوانات الإسطبل، التى قد تحصل على وجبة من الشعير بين كل حين وحين. يضاف إلى ذلك أن السلالات الصغيرة الواعدة تعامل برقة زائدة عن الحد طوال فترة نموها، ولقد شاهدت بعض الخيول الصغيرة التى عمر الواحد فيها عامًا واحداً، وهم يطعمونها الشعير بعد أن كانت تربى على حليب النياق وعلى التمور، مثلما يحدث فى إسطبلات عبد الله بن جلوى فى الهفوف. وعشب النوسى Nussi الصحراوى الطرى يحتل المرتبة الثانية بعد البرسيم الحجازى فى غذاء الخيول فى الجزيرة العربية.

٣- جنوب الخرج

فى صباح اليوم التاسع من شهر مايو تركنا العين المخيسة وسرنا غربيًا عبر بقعة جرداء من التربة الطرية المشبعة بالملح، والتى تفصل حطام اليمامة التى ازدهرت فى يوم من الأيام، عن مجموعة من المستوطنات، التى استطاع أهلها على الرغم من الظروف غير المواتية، وعلى الرغم أيضًا من الصراع المستمر طوال العقود الأخيرة من القرن الماضى إعادة بناء ذلك النشاط الزراعى والتجارى المتواضع الذى اشتهرت به تلك المستوطنات فى يوم من الأيام فى الجزيرة العربية.

هذه قناة رملية ضيقة تعبر ذلك السهل القفر، والناس يطلقون عليها هنا اسم وادى السيح Wadi Saih، وهى تعرقل آخر جهود سيل العجيمى 'Ajaimi فى الوصول إلى مخرجه الطبيعى عند رأس سحابة Sahaba، وبعد ذلك بحوالى ميل تقريبًا وصلنا الى أول بل وأحدث مستوطنات الخرج. فى ذلك المكان، وعلى موقع واحد من القرى

التى جرى تهديمها فى الأزمان الحديثة، ووسط مساحة مترامية الأطراف من أراضى القمح، التى تتخللها بقع من الأرض التى تنمو فيها أشجار الأثل، تقف قرية الضبّاعة Daba'a، التى تعد واحدة من أحدث المستوطنات التى أنشأها ابن سعود داخل أراضيه لتوسيع حركة الإخوان. وفى الوقت الذى زرنا فيه تلك المستوطنة، كان قد مضى حوالى اثنى عشر شهراً على وصول حرس المقدمة فى فخذ بنى عمير من قبيلة السبيع Subai ، والذى خصص له ابن سعود ذلك المكان، لينشئ عليه أساس مسجد كبير فخم، كانت واجهته جميلة، التى تضم سبعة عشر عقداً من العقود المدببة المميزة للطابع الوهابى، على النقيض تماماً من الأكواخ البائسة المبنية من الطين على شكل مربع، ليقيم فيها حوالى مائة فرد أو أكثر فى المنطقة المجاورة، بلا نظام أو تناغم فى إقامة السكان أنفسهم. أما تكاليف إنشاء المسجد، فقد تحملته خزانة الدولة، كما هو متبع فى مثل تلك الأحوال، يضاف إلى ذلك، أن أبعاد ذلك المسجد تدل على أنه كان مخصصاً لخدمة عدد من المصلين أكبر من جمهور القرية؛ ولكن القرين كانت ما تزال صغيرة جداً فى ذلك الوقت، مما جعل ابن سعود يفكر فى الإسراع بتنميتها، إذ قدّر لى ابن سعود عدد سكان تلك القرية بحوالى ٥٠٠ رجل من الرجال الأشداء الذين كانوا فى سن العسكرية، وقيل إنه وزع ٢٠٠ بندقية على ذلك المجتمع من الناس. كان رؤساء تلك المستوطنة: مبارك بن دليم Dulaim، وفارس بن راقص Raqis، وغنيم Ghunaim بن هويهد Hudaihid، وكلهم من فخذ بنى عامر ، الذين شاهدتهم وهم يطردون من المنطقة المجاورة للخورمة Khurma فى غربى نجد على أيدى بنى ثور Thaur فى قسم سابق[١٥] من هذا السرد. وأنا أقدر سكان الضبعة Dhaba'a الحاليين بما لا يزيد على ٥٠٠ نسمة، ولكن قد يكون هناك ما يزيد على ١٥٠٠ نسمة آخرين يتحينون فرصة إقامة مسكن لهم هنا، على أثر تقسيم الأرض هنا بين الزراعة والبناء، حتى يمكن أن يضمنوا لأنفسهم كسب العيش والإقامة؛ والسكان يتجولون هم وقطعانهم كما هو حالهم حتى الآن. والمنطقة هنا خالية من النخيل، ولكننى مررت بمناطق كثيرة مزروعة بأشجار الرمان، والقطن، والزعفران، والبصل وما إلى ذلك، أما فيما يتعلق بمحصول الشعير فيبدو من مساحة الأرض أنه وفير جدا. ويبدو أيضاً أن الماء وفير فى كل أنحاء المستوطنة، إضافة إلى أن أشجار الأثل توفر قدراً كبيراً من الأخشاب التى يحتاجها الناس فى عملية البناء.

وقرية وواحة النعجان Na'jan تقع على بعد حوالى نصف ميل إلى الجنوب من مستوطنة الضبعة[1]، التى يفصلها عنها مجرى سيل شعب العين الضيق، الذى ينبع من منحدرات الطويق المجاورة، ويمر خلال غابة من أشجار الأثل التى يطلقون عليها اسم روضة غريفة Raudha Ghuraifa التى تبعد عن واحة النعجان حوالى ثلاثة أميال فى اتجاه الغرب. وقد أشار لى أحد المرافقين إلى الموقع السابق لتلك المستوطنة بين مجموعة صغيرة من الأنقاض الموجودة على الناحية اليسرى، ومع أن المستوطنة الجديدة صغيرة الحجم والأبعاد، فقد دهشت لازدهارها. وهذه المستوطنة مكتنزة تماماً وبيضاوية الشكل، إذ يصل طولها إلى حوالى ١٢٠ خطوة وعرضها حوالى ٧٠ خطوة، ولكنها محاطة بسور سميك من اللَّبن لا يوجد به سوى مدخل واحد فى الجانب الغربى. وقد يبلغ عدد سكان قرية الغريفة حوالى ٢٠٠ نسمة، وهى تقع فى الأرض الفضاء الموجودة ضمن واحدة من مجموعتى النخيل التى تتكون القرية منها.

وفى عام ١٩٠٢ أو ١٩٠٤ الميلاديين حاول عبد العزيز بن الرشيد - فى المحاولة الفاشلة التى كان يرمى من ورائها إلى الاستيلاء على الخرج - القيام بانقضاض مفاجئ على قرية النعجان Na'jan، وهزم المدافعين عنها وأقام هو وجيشه فى بيارات النخيل الكثيفة الموجودة فى الواحة، استعداداً للهجوم فى صبيحة اليوم التالى على الديلم Dilam، عاصمة المنطقة، التى تقع على مسافة أربعة أميال، ناحية الجنوب. وعندما عجز أهل المدينة عن مقاومة الاقتحام الذى قام به عبد العزيز بن الرشيد، حاولوا إبلاغ بعض المصادر الاستخباراتية عن وصوله وعن نواياه إلى الرياض؛ وبناء على تلك المعلومات انطلق ابن سعود على الفور ومعه قوة مسلحة ومر من خلال المخيم دون أن يعرفه ابن الرشيد، إلى أن وصل إلى واحة الديلم ووزع أفراد قوته على شكل كمين على طول حدود واحة الديلم ، وجرى كل ذلك قبل طلوع الفجر. وحكى لى إبراهيم الذى كان فى خدمة ابن الرشيد فى تلك الأيام، كيف تقدمت قوات الشمر بثقة الواثق من النصر مع طلوع الفجر، عبر حقول المحمدى Muhammadi المفتوحة، تلك الحقول التى كانت تقع فيما بين المسافة التى كانت تفصل بينهم وبين عدوهم، وكيف راح الشمر يهنئون أنفسهم على السرعة والسرية اللتين نفذ بها رئيسهم خطة الحملة التى قام بها، وكيف أنهم وصلوا إلى بعد ياردات قليلة عن حافة بيارات النخيل التى كانت تبدو خالية من

الدفـاع، وهنا نزل عليـهم وابل من طلقـات البنـادق التى لم يكونوا يتـوقـعـونـهـا. وهرب الشمر على الفور، مخلفين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى فى ميدان القتال، هذا فى الوقت الذى جمع فيه ابن سعود قوة كبيرة من المقاتلين المحليين، الذين أخرجتهم شجاعة ابن سعود وانتصاره من الأماكن التى كانوا يختبئون فيها، وراحوا يطاردون القوات المنسحبة ويتعقبونها، بعد أن خلفت وراءها معداتها وأدواتها، وفرت هاربة فى اتجاه أعالى وادى السُلى Sulaiy عائدة إلى أراضيها. وهكذا تم إنقاذ الخرج، ولم يعد ابن الرشيد يفكر فى غزوها مرة ثانية.

والديلم Dilam عاصمة الخرج الحالية، تضم علاوة على المدينة نفسها، مساحة كبيرة من الأرض الزراعية، التى تنقسم إلى قسمين ، واحة الديلم نفسها وحقول المحمدى التى يزرع فيها القمح. وحقول زراعة القمح التى تقع بين الواحة وبين قرية نعجان، تتكون من مساحة كبيرة من تربة اللُّهم الخصبة، التى يصل إجمالى مساحتها حوالى ٢٥٠٠ فدان إنجليزى، وتتخللها قصور وأبيار، وهى مخصصة كلها لزراعة القمح والشعير فيما عدا قلة قليلة من بيارات النخيل المجاورة للواحة. وكانت المحاصيل قد جرى حصادها قبل مرورنا على تلك المنطقة، ولكن أجران درس الحبوب التى تنتشر هنا وهناك، والمكدسة بعيدان القمح والشعير والتبن تشهد على جودة المحصول ووفرته، وهذه الأراضى، فى معظمها مملوكة لسكان الديلم، ولكن القصور، التى ربما وصل عددها إلى مائة قصر، يقيم فيها عدد من السكان الدائمين والخدم والعمال، يقدر بما لا يقل عن ١٠٠٠ نسمة على وجه التقريب. ومستوى الماء فى الأبيار يتردد بين ست قامات وسبع. وهناك شريحة من الرمال تفصل حافة الديلم الشمالية عن قرية نعجان، فى الوقت الذى تحدها منخفضات القصيعة من ناحية الشرق. ومنخفضات القصيعة لا تبعد سوى ميل عن الديلم، كما أن تلال أبو ولد Abu walad هى وخشم الكلب يحدان الديلم من ناحية الغرب. وحدود الديلم الجنوبية تشترك مع الحافة الشمالية لواحة النعجان، وهى عبارة عن كتلة متراصة من بيارات النخيل التى تتخللها حقول القمح والخضراوات، وتمتد مسافة ميلين من الشمال إلى الجنوب ويصل عرضها إلى حوالى ميل تقريباً. وهى تستمد خصوبتها من الحقيقة التى مفادها أنها تقع عند ملتقى كثير من المجارى المائية المنحدرة من مرتفعات الطويق وكذلك شعب سوط Saut القادم من

الحوطة Hauta والعجيمى، والذى يعوق مجراه هنا امتداد شريط النفود الضيق المرتفع الذى يطلقون عليه اسم عرق ضاحى Arq Dhahi'، الذى يغطى الوجه الخارجى لمنخفضات القصيعة، ويصل أيضًا إلى الطرف الشمالى لمنطقة النخيل. واكتشفت أن من المستخيل علىَّ أن أحاول خلال مسيرنا، فك طلاسم شبكة المجارى المائية المعقدة، وردها إلى مكوناتها الرئيسية؛ ولكن مسيرنا عبر الواحة جعلنى أفهم منظومة الصرف فى البلاد، وأصل إلى نتيجة مفادها أن شعب العجيمى يستقبل فى الديلم آخر مظهر من مظاهر قوته قبل أن يختفى فى سلسلة جبال سحابة. وأبيار الديلم، يتراوح عمقها بين ست وسبع قامات، مثل أبيار المحمدى، كما أن تلك الأبيار يجرى تشغيلها بواسطة الجمال ، وهذا مظهر من مظاهر الرفاة والازدهار، والذى تؤكده أيضًا كثافة البيارات الكبيرة، كما يؤكده أيضًا انتشار المحاصيل الثانوية، التى تجد لها سوقًا رائجة فى المدينة. والقطن هنا وفير على الرغم من استمرار زراعته على حدود البيارات وعلى حدود الحقول؛ كما تكثر هنا أيضًا الخضروات على اختلاف أنواعها؛ كما توجد الفواكه هنا أيضًا بوفرة ومنها الرمان، والعنب، والليمون، والتين، والمشمش، والخوخ، وما إليها.

وتنتشر هنا وهناك مجموعات صغيرة من المنازل فى كل أنحاء الواحة، ولا يمكن لنا أن نطلق على تلك المنازل اسم كفور أو حتى القصور المنعزلة، ولكن القسم الأكبر من سكان هذا المكان يتمركز فى المدينة، أو إن شئت فقل الحلة Hilla التى تقع على الجانب الشرقى من مربع النخيل فى حزٍّ عميق من ذلك المربع. والمدينة تمتد فوق مساحة كبيرة على شكل سداسى أبعاده على النحو التالى: الجدار الشمالى طوله حوالى ٥١٠ خطوة وله بوابة على بعد ١٣٠ خطوة من طرفه الشرقى وعليه أيضًا أبراج ناتئة عند كل طرف من طرفيه وبرجين آخرين فيما بين البرجين الأولين، والجدار الغربى لذلك السداسى طوله حوالى ٤٠٠ خطوة، وبه بوابتان تفصل بينهما مسافة قصيرة، وهاتان البوابتان قريبتان من منتصف الجدار، كما أن به برجين ناتئين عند طرفيه، وبرجين آخرين ، كل واحد منهما فوق بوابة من بوابتى ذلك الجدار، والجدار الجنوبى للسداسى طوله حوالى٥٣٠ خطوة، وله بوابة عليها أبراج على بعد مسافة حوالى ٢٤٠ خطوة من طرفه الشرقى، كما أن به برجين آخرين: كل واحد منهما عند

طرف من طرفيـه؛ والبعد الأخير لذلك السداسى عبارة عن جدارين على شكل حرف اللام الإنجليزية، ويتصلان بطرفى الجدارين الشمالى والشرقى؛ والجدار الذى يمتد من الشمـال إلى الجنوب طوله ١٧٠ خطوة، أمـا الجدار الذى يمـتد من الشـرق إلى الغرب فيصل طوله إلى حوالى ١٠٠ خطوة. والبلدة أو إن شئت فقل الحلة، تحيط بها أسوار متينة وقوية يصل ارتفاعها إلى حوالى خمسة وعشرين قدمًا، ويوجد عند أطراف كل منها أبراج ناتئة، كما توجد تلك الأبراج أيضًا على بعد مسافات متساوية فوق تلك الأسوار. والبلدة (الحلة) ليس لها مخرج على الجانب الشرقى، أما جناحها من ناحية النفـود فمكشوف تمامًا. وإطار المدينة من الداخل غـاية فى البساطة والانتظام، فهو عبـارة عن شارع طويل يربط بين الجانبـين الشمـالى والجنوبى، ويتصل ذلك الشارع نفسه بالبوابتين على الجانب الغربى بواسطة شوارع جانبية، فى حين إن هناك عددًا من الحـارات الجـانبيـة التى تصل كل جـزء من أجـزاء البلدة بشـارع أو بآخر من تلك الشـوارع العـامـة. وهناك قلعة كبيرة تحتل الركن الجنوبى الشرقى من البلدة، التى تشكل أجـزاء من جداريها الجنوبى والشرقى الجدران الخارجية للقلعة، كما تم تكملة هذين الجدارين بجدارين داخليين مماثلين لهما الطول نفسه، ووصلت كل تلك الجدر إلى بعضـها كيما يكتمل السور. والجدار الداخلى الأول يمتد من البوابة الجنوبية محـاذيًا للشـارع الرئيسى، أما الجـدار الداخلى الثـانى فيتصل طرفه الشمـالى مع الجدار الشرقى المقابل له. والأرض الفضاء الكبيرة التى تتوسط المسافة بين واجهة القلعة من الناحية الشمـالية هى والمنازل الموجودة على ذلك الجانب. هذه الأرض الفضـاء التى تمتد أيضًا من الشارع الرئيسى إلى أن تصل إلى الجدار الشرقى يستعملها أهل البلدة سوقًا لتلبية احتياجاتهم من خلال عدد من المحلات والدكاكين التى توجد فى الشـارع الرئيسى وفى الشـوارع الفرعيـة التى تصل ذلك الشارع بالبوابات الغربيـة والجامع، أو إن شئت فقل المسجد الكبير، يقع فى الشـارع الرئيسى بالقرب من البوابة الجنوبية ويواجه مدخل القلعة تمامًا. أما المسـاجد الأخرى فهى تنتشر فى أرجاء البلدة، التى استـخدم الجزء المتبقى منها فى إقامـة المنازل السكنية التى تتكون غالبيتها من طابقين، وبنيت بطريقة جيـدة وواسعة وفسيحـة بشكل غير عـادى ويدل على البذخ. والمكان كله يوحى بالثراء والسعة، وسكانه والمقيمون فيه يتمتعون بقدر كبير من التشدد

المزهو بقدر بنفسه، والتعصب المعجب بنفسه أيضًا. وعدد السكان هنا قد يصل إلى حوالى ٨٠٠٠ نسمة، بما فى ذلك سكان الكفور والقصور المنعزلة، والقسم الأكبر من أولئك السكان من قبيلة الدواسر، مع خليط من بنى تميم، ومن القحطان، والزنوج، إلخ.

كان ظهورى أمام بوابات أولئك السكان مرفوضًا رفضًا واضحًا ولكن بطريقة سلبية من أغلبية ذلك المجتمع السكانى، ولكن الأمير، ناصر بن عبد الله، وهو من الدواسر، بعد أن تسلم من إبراهيم خطاب التركيز المرسل من ابن سعود، راح يعاملنى معاملة فيها الكثير من الأدب والاحترام، وأتاح لى كل التسهيلات اللازمة للاطلاع على البلدة والمناطق المحيطة بها، كما رحَّب أيضًا بمن كانوا يرافقوننى فضلاً عن استقباله لى أيضًا فى مقهى القلعة الفسيح عند وصولنا أول مرة، عندما ذهبنا للسلام عليه والتعبير له عن احتراماتنا الرسمية، كما رحَّب بنا أيضًا فى المساء. وفى المرة الثانية سمح لى الأمير بالصعود إلى سطح المبنى لإلقاء نظرة على البلدة، فى الوقت الذى ذهب فيه المرافقون الآخرون إلى المسجد لأداء صلاة المغرب. وخيَّم على المكان صمت رهيب لفترة قصيرة، ولم يكن يكسر ذلك الصمت سوى أصوات المؤذنين التى كانت تنبعث من ستة مساجد وأصوات المصلين وهم يؤمِّنون على ما يتلوه الإمام من القرآن. كانت الشوارع خالية تمامًا من المارة، ولكنى لاحظت أن جماعات صغيرة من النساء كن يتجمعن فوق أسطح المنازل المجاورة هنا وهناك، ليراقبن بفضول عجيب ذلك الغريب الكافر الذى لا يؤدِّى الصلاة فى وقتها المحدد.

وأمير الديلم يشرف – بالإضافة إلى رعايته لشئون بلده – إشرافًا عامًا على أمراء القرى الأخرى فى الخرج، وبخاصة فيما يتعلق بالمنازعات بين المواطنين وفى الأمور التى تتصل برفاهية المنطقة ككل، هذا فى الوقت الذى يعهد إليه وحده بمسئولية إدارة شئون المنطقة البدوية. وهو لا يحمل مطلقًا اسم أمير الخرج، ولكنه مع ذلك، يعد الأول بين أقرانه من الأمراء الآخرين، وهو يحظى بشىء من الاحترام، والتقدير الذى يحظى به منصب من هذا القبيل، فى ضوء الأهمية الكبيرة للمسئولية الملقاة على عاتقه، وفى ضوء السلطات الخاصة والمسئوليات المخوَّلة له. والديلم باعتبارها مركزًا من مراكز البدو تصبح مهمة شاقة ومسئولية إدارية مهمة نظرًا لأن الديلم مركز وملتقى تجتمع فيه عناصر كثيرة مختلفة دومًا، ومنهم الدواسر الذين يحتلون وادى العجيمى،

والشامير Shamir من فخذ عالية Aliya فى الطريق، وكذلك السهول Suhul والسبيع من منطقة وادى حنيفة. وكل الأعمال ذات الصبغة الشرعية يوكل بها إلى قاضى المنطقة، الذى يوجد مقره أيضاً فى بلدة الديلم ، والأمير مسئول فقط عن توقيع وتنفيذ الأحكام التى تصدر عن القاضى سواء أكانت أحكاماً جنائية أم مدنية، أما الأعمال الخاصة بتحصيل الزكاة، وكل الأعمال الأخرى سواء أكانت تنفيذية أم إدارية، فهى من مسئولية الأمير، الذى له سلطة واسعة وبسيطة وتتمثل فى البت فى الأمور كلها، إذا ما استطاع ذلك، وأن يحيل الأمور التى لا يستطيع البت فيها إلى مركز الرئاسة فى الرياض.

نصبنا مخيَّمنا خارج البلدة فى طرفها الجنوبى الغربى على شريحة من الأرض الرملية تقع بين المقابر (الجبانة) المحلية وقطعه منعزلة من أراضى القمح تحيط بها غابة من أشجار الأثل. فى هذه المنطقة، وتحت التندة (المظلة)، التى كانت تُنصب دوماً لكل من كانوا معى، خلال الوقفات الطويلة أثناء حرارة النهار، قدمنى إبراهيم إلى شاب دوسرى صغير، اسمه محمد، يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، جاء إلى مخيَّمنا أملاً فى بيع خروفين، أحضرهما معه من خيام فخذ القبيلة التى ينتمى إليها والموجودة على هضبة عارمة البعيدة، لأنه فشل في بيعهما فى البلدة، التى عاد منها مبعوثًا دون أن يحضروا معهم اللحم المطلوب لمضُيِّنا قدماً فى رحلتنا. وطوال إقامتى فى الجزيرة العربية لم أر قط رجلاً له مثل هذا الكمال الجسدى، الذى كانت ملامحه تشبه ملامح النساء، وكان له جسم مرن ورشيق وقوى فى ذات الوقت، فضلاً عن أن سلوكياته وكلامه كان يتسم بالصراحة ويسر الخاطر وخال من أى شكل من أشكال التعصب، الذى يجده الغريب على الأراضى الوهابية حاجزاً فى وجه الدخول فى حميمية سريعة. وقد قطع ذلك الشاب تلك المسافة الطويلة أملاً فى التخلص من الخروفين نظير بضع ريالات ، ولكنه عندما سمع أننا ننوى مواصلة رحلتنا إلى الأفلاج، وأننا كنا بحاجة إلى شخص يعرف المنطقة التى سنمر بها، فقد تطوَّع لمرافقتنا مرشداً لنا وبالتالى أدرجناه على الفور ضمن جماعتنا. وبقى ذلك الشاب معى وإلى جانبى طوال الأيام القليلة التى أمضاها معنا، وكانت قيمته عندى أكبر بكثير مما تقاضاه بعد انتهاء عمله معنا؛ فقد أعطانا ذلك الشاب كمّاً هائلاً من المعلومات عن الأماكن التى مررنا خلالها والتى كان يعرف كل بوصة منها معرفة دقيقة.

وفى المساء وبينما كنت أتجول حول مخيَّمنا قبل اختفاء وهج الشمس من السماء، شاهدت أربعًا من النساء، كانت كل منهن تحمل جرة مملوءة بالماء، ويذهبن إلى مكان معين فى المقبرة (الجبانة) كان عنده حفر قبر جديد وسط الرمل. وقيل لى، إن أولئك النسوة تمثلن طليعة مجموعة الدفن ، ومهمتهن تتمثل فى وضع قوالب اللبن التى تستعمل فى تغطية الحفرة التى يوضع فيها الجثمان، قبل أن يُهال التراب على القبر. والقبور فى هذا البلد تحفر على عمق يتردد بين أربعة وخمسة أقدام بالنسبة للرجال، وستة أقدام بالنسبة للنساء، وحُفَّار القبور هم الذين يحددون العمق فى الحالين فى ضوء حجم الجثة وطول القامة، وارتفاع الصدر عند الذكور وارتفاع فروة الرأس عند النساء، وسبب التميز بين الجنسين يتمثل فقط فى أن الأب، أو الأخ، أو أقرب الأقارب هم المسموح لهم بالنظر إلى الأنثى بعد موتها، يضاف إلى ذلك أن زيادة عمق الحفرة لا يمكن العابر الطارئ من الجنس الخشن، من النظر إلى الجثمان وهو مُسَجًّى داخل القبر. وبعد حفر الحفرة إلى العمق المطلوب يجرى حفرها من منتصفها لعمل أخدود؛ ثم يجرى إنزال الجثمان بعد ذلك ووضعه فى ذلك الأخدود، على الجانب بحيث تكون الرأس فى اتجاه الشمال والوجه فى اتجاه القبلة ، وجثث الرجال والنساء تكفَّن كلها فى كفن أبيض، عبارة عن منديل أو إن شئت فقل غترة، وقميص، أو أن شئت فقل ثوب وسروال، ويجرى إخاطة كل تلك الأجزاء إلى بعضها بشكل يستر كل أجزاء الجسم ؛ اليدين والقدمين والوجه عن الأنظار، والاستثناء الوحيد من تلك القاعدة يكون فى الأطفال، الذين يجرى كشف جزء من وجوههم. وتوضع الجثة فى وضع تغطى فيه بطبقة من قوالب الطوب اللبن التى يجرى رصها فوق الأخدود، ثم يهال التراب بعد ذلك فوق القبر ويكبس جيداً ويرش بالماء بطريقة تسمح له بالبروز قليلاً فوق مستوى سطح الأرض. وعند تلك المرحلة يجرى تمييز آخر بين الجنسين، يتمثل فى أنه إذا كانت مقابر الرجال تميز بوضع حجر عند الرأس وآخر عند الرجلين، فإن مقابر النساء تميز بوضع حجر ثالث فى المسافة بين الحجرين السابقين. وهذا العمل من أعمال التمييز، الذى لا يتمشى أو يتفق مع المبادئ العامة للمذهب الوهابى، يبدو لى وكأنه قريب جدا من الخرافات، والتفسير الوحيد لذلك التمييز مفاده أن النساء عندما تمتن تكنَّ فى موتهن متقلبات وغير مستقرات أكثر من الرجال، وأن أزواجهن تحتجن إلى وزن أثقل

كى يبقيهن فى القبر، وإذا ما أهمل الدافنون ذلك التحوط، فقد تعود تلك الأرواح لتذيق أزواجهن المر نظير نسيانهم. وإذا كان الأمر كذلك، فليس من الغرابة فى شىء أن نرى تلك الخرافة تنتشر بين أناس سذّج وجهلة، لا يمكن أن تنتظر منهم، على الرغم من تأكيدات العقيدة الراسخة، أن يحرروا أنفسهم من كل آثار المخاوف المتبقية لديهم والخرافات التى ورثوها عن عبادة الأوثان عند إسلامهم.

استيقظنا مبكرًا فى صباح اليوم التالى، وغادرنا المكان ومن خلفنا نسيم شمالى منعش. وكان مقياس الحرارة (الترمومتر) قد سجل ٥٣° فهرنتهية فى الصباح السابق، ويسجل حاليًا ٥٧° فهرنتهية عند الساعة الرابعة صباحًا، ولكن ساعات البراد فى هذا الفصل من العام تكون قصيرة جدا وبالتالى كان الجزء الباقى من مسيرة الصباح مرهقًا ومملاً تمامًا. وطوال ابتعادنا عن حافة الواحة، التى يعرف القسم الجنوبى من نخيلها باسم عيضار **Ídhar** كان طريقنا يسير محاذيًا لعرق الضاحى **Ára Dhahi** فوق سهل واسع، تتجلى فيه على بعد مسافات آثار الزراعة، وتَحُفُّه من الجانب الغربى سلسلتى جبال خشم الكلب وأبو خيالة **Abu khayala**، ومن ورائها سلسلة جبال شعرة المعتم **Sha'ra**، إضافة إلى أن القصور كانت تنتشر خلاله على الجانب الأيسر فى اتجاه عرق ضاحى، الذى كانت تقف من ورائه صخرة البهيث **Buhaith** العالية؛ التى تعد امتدادًا لسلسلة جبال قصيعة. كان خط سيرنا يمر بالقرب من أو خلال ثلاث مناطق من مناطق النخيل: منطقة نخيل بليسة **Bulaisa** التى تبعد حوالى ميلين عن نقطة البداية؛ ومنطقة نخيل زميقة **Zumaiqa** التى تبعد عنا مسافة نصف ميل، وتشتمل على قرية صغيرة مسوَّرة يحيط بها عدد من المنازل المهدمة وبقع غير كثيفة من النخيل، ومساحة كبيرة من أراضى القمح؛ وأخيرًا تجىء منطقة نخيل فريح **Furaih**، التى تعد أبعد مستوطنات الخرج فى الناحية الجنوبية، أما فيما يتعلق بمنطقة مشيرفة **Mushairifa**، التى تبعد حوالى ميل واحد عن منطقة نخيل فريح فى اتجاه الغرب فهى لا تعدو أن تكون مجرد مجموعة من الخرائب.

بعد مسير ساعتين دخلنا صحراء النفود، التى تتداخل مع السهل بطريق غير مباشر وتغطيها شجيرات الغاطة و أدغالها. والرمال هنا عميقة وتنتشر على شكل

سلسة من الروابى العالية الجرداء، التى يمر خط سيرنا بين اثنين منها، مقتفياً الأعلى منها إلى قمة النفود، ثم نزل بعد ذلك فجأة إلى بركتين مائيتين كبيرتين ولكن ضحلتين، تكونتا بفعل مياه الفيضان، ويطلق عليها اسم خبر الكدان، وهى تعد منتجعاً مفضلاً عند البدو. ويقال إن هاتين البحيرتين هما السمتان المميزتان لسطح الأرض فى هذه المنطقة. ونظراً لأن الرمال تحيط بهاتين البحيرتين من جميع الجوانب، ونظراً لأن أبعاد إحداهما هى ١٠٠ خطوة طولاً و٥٠ خطوة عرضاً، وأبعاد الأخرى ٥٠ خطوة طولاً و٥٠ خطوة عرضاً، فهما تحصلان على مائهما من بركة مياه شعب العجيمى الموازية لهما، والتى تجرى بين الحافة الشرقية للرمال وصخرة الدغرة Al Daghara الجيرية المنحدرة إلى أن يسد مجراها الحاجز الرملى الذى يصل بين الاثنين. وأنا لم أستطع التأكد مما إذا كانت تلك القناة بقية فرع قديم من أفرع شعب العجيمى، الذى ربما يكون قد اخترق منخفضات القصيعة إلى شعب ثليمة Thulaima، الذى يصرف ماءه فى شعب السحابة فى نقطة ما عند منبعه، ولكن الآراء أجمعت على ذلك الرأى. والذى لاشك فيه أن ثليمة Thulaima هى مركز منظومة الصرف فى المنخفضات، وهناك رافدان هما شعب أبا الضَّر Abal Darr وشعب جدعان Jidan، قُدِّما لى هنا على أنهما ينبعان من أقصى الجانب البعيد فى صخرة الدغارة ويصبان ماءهما فى شعب ثليمة. وتوقفنا لجلب شيء من الماء من تلك الغدران التى وقف عندهما بعض رعاة الدواسر ليسقوا أغنامهم.

وسرنا بحذاء حافة النفود إلى مسافة ميلين تقريباً، ثم تجاوزنا تلك النقطة خارجين من الرمال إلى امتداد من الأرض الطينية المتشققة بفعل حرارة الشمس التى تقع فى المسافة بين الرمال والصخور. ولاحظنا فى المنطقة المجاورة للغدران (برك) قطيعاً من الغزلان وهى تولى الأدبار عبر التلال الرملية، كما شاهدنا أيضاً طيور الطيهوج. وهى تحوِّم حول الماء وتفر هاربة منه، غير أن مرورى عبر تلك المنطقة سيظل يرتبط فى ذهنى دوماً بصرأرات الليل على اختلاف أنواعها – والعرب يطلقون على صرأر الليل اسم وِجُيِّج Wijuij – التى تستشرى بين أدغال شجيرات الفاضة، والتى كانت أصواتها تنبعث من حولنا صادرة من تلك الأدغال، كما كانت تطير لتستقر فوق ملابسنا وفوق إبلنا دون أن تتوقف عن إصدار موسيقاها الحادة والعالية.

ولم ننته بعد من عجائب الخرج، لأننى اكتشفت عند سطح صخرة الدغارة – التى اقتادونى إليها الآن – شقين فى الصخرة نفسها: أحد هذين الشقين صغير ولكنه مهم، لأنه، على الرغم مما يقال عن امتلائه بالماء فى الأزمان الخالية، وعلى الرغم من أن طوله يصل إلى حوالى ثلاثين خطوة وعرضه حوالى عشرين، فإن القسم الأكبر من ذلك الشق مملوء حالياً بحطام الصخور الذى يأتى من جانب الصخرة؛ والشق الثانى، الذى يقع على بعد ياردات قليلة إلى يمين الشق الأول، ويطلقون عليه اسم خفس دغارة، إشارة إلى اعتقاد مفاده أن ذلك الشق يعد ظاهرة مهمة. إنه غور سحيق يفغر فاه فى جانب الصخرة؛ التى تشكل قوساً فوق نصفه الداخلى، أما بقية ذلك الغور فيحيط بها جدار من الصخور يهبط من ارتفاع أربعين قدماً إلى مستوى الماء الأسود الرائق الذى يملأ الحفرة ويغطيه الزبد إلى حد ما. وتلك الحفرة دائرية الشكل تقريباً ويصل قطرها إلى حوالى سبعين ياردة، ويوجد على جانب تلك الحفرة البعيد عن التل سبع مقامات أو إن شئت فقل: أعمدة مزودة ببكر لجلب الماء. وقد استطاع العرب المتيمون دوماً بمعرفة حقائق تلك الأشياء الغامضة، أن يكتشفوا تحت ذلك العقد نفقاً، يبدأ من تحت مستوى سطح الماء ويوصل إلى أحشاء الصخرة، ولم يكتشفه أحد حتى الآن.

نحن نرى أمامنا حالياً مثلث الخرج الجنوبى، الخالى من الزراعة والإسكان، ولا يوجد به سوى وادى العجيمى هو والقنوات الصغيرة التى تصب ماءها فيه قادمة من السلاسل الجبلية التى تطبق بسرعة على جانبى ذلك الوادى. وفى الناحية القريبة تقع صخور الشعارة Sha'ra وصخور أم الرياشة Umm al Riyasha الوعرة ومن خلفها الطويق، وفى الناحية الشرقية، يقع امتداد للنفود يطلق عليه اسم حليوة على نسق واحد مع كل من فزّار Fazzar وخرطم Khartam ، وكلاهما سلسلة من الجبال، يبرز عند طرفها البعيد امتداد خشم الخرطام الأرضى العظيم، متجهاً صوب خط الطويق البارز، محدداً بذلك النقطة التى يهبط عندها شعب العجيمى من المرتفعات الواقعة خلفها، إلى حوض الخرج. ورمال عرق ضاحى تنتهى عند خفس دغارة المقابل، على شكل قمة رملية كبيرة تعرف باسم مبدة الخفس Mabda al Khafs، ولكن هناك شريحة من الكثبان الرملية يطلقون عليها اسم عرق المرداسية 'Arq Murdassiyya'، مررنا خلالها، وهى التى تصل عرق ضاحى بطرف نفود حُليوة، وبذلك تسمح بمرور شعب

نُعَيم Nu'iyim ، الذى يهبط من بين نفود حليوة وسلسلة جبال دغارة ليتصل بشعب العجيمى .

عبرنا السهل – القفر الحجرى – الذى تغطيه نباتات الرمض، وأشجار السنط، طوال ساعات عدة، وبعد وقفة ترحيب وقفناها فى مجرى شعب الأرطاويةArtawiyya خلال حرارة النهار، استأنفنا المسير عبر ذلك المشهد الذى يثير الملل ويبعث عليه، طوال فترة العصر. وعندما وصلنا إلى رأس المثلث ازداد تكسر الوادى، وشاهدنا قنوات سيول روافد شعب العجيمى وهى تتشابك خلال ذلك الوادى؛ ورحنا نعبر تلك القنوات الواحدة بعد الأخرى: النهيديد Nuhaidid، والبهلة المطيرية Mutairiyya ، والخويش the Khuwaish، إلى أن وصلنا فى النهاية إلى القمة الضيقة التى يصب شعب العجيمى فيها ماءه فى موسم الفيضان.

وعند تلك النقطة تعبر السماريات Samariyat، تلك المثلثات الجرداء القاحلة، التى تبرز من منحدر الطويق نحو الشرق، تعبر فوق تلك المسافة الضيقة المحصورة بين الطويق وسلسلة جبال الخرطم، التى تمثل الحدود الغربية لصحراء الرياض الكبيرة. هنا كان امتداد خشم الخرطام يطل علينا متشامخًا من فوق الطرف الجنوبى لسلسلة الجبال، التى تبدأ فى الاتجاه شرقًا بعد ذلك. ويشق شعب العجيمى – حاملاً صرف المرتفعات الموجودة خلفه – طريقه عبر ذلك الحاجز ليصل إلى قناة ضيقة ملتوية منحدرة نحو رأس السهل، التى تكون عندها وسط الصخور المحيطة بها، خليج متعدد الأذرع، بفعل السيل الدوام، والذى تشهد نباتاته وأشجار السنط المتينة، على توالى الفيضانات منذ زمن بعيد جدا، والتى يشكل مرورها خلال المضيق منظراً مشهوداً. لقد جاءت الفيضانات أربع مرات خلال الموسم المنتهى، والناس هنا لا ينتظرون مجىء الماء قبل حلول الشتاء القادم. واعتباراً من رأس المضيق وما بعدها فى اتجاه أعالى المجرى بدأت مسيرتنا فى اليوم التالى تسلك تعرج والتواء القناة التى كان حوضها الرملى والزلطى ينحصر بين ضفتين واضحتين يصل ارتفاع الواحدة منهما حوالى أربعة أقدام ولا تزيد المساحة الفاصلة بينهما على ثلاثين أو أربعين ياردة، ولكن عندما وصلنا إلى تلك النقطة كنا قد أوشكنا تمامًا على دخول فترة المساء، وهنا من المناسب أن نقيم مخيمنا لقضاء الليل ونحن نحتمى بصخور الخشم البارزة، التى كانت قمتها تعلو فوقنا بما يتراوح بين ٥٠٠ قدم أو ٦٠٠ قدم.

وفى الوقت الذى ساقوا فيه الجمال لترعى، وسارع رجالنا هنا وهناك بحثًا عن الحطب اللازم لشب النار، اصطحبت كلاً من مترك ومحمد إلى قمة تل صغير كان قريبًا منا، ومن فوق قمة ذلك التل ألقيت نظرة على ما خلفناه وراءنا وعلى ذلك الذى سنمشيه فى اليوم التالى. كنا عند تلك المرحلة قد تجاوزنا منطقة الخرج هى ومستوطناتها، بل إن رمال عرق ضاحى أصبحت تحجب عنا تلك المنطقة. وشاهدت عند الطرف البعيد لعرق ضاحى تل مبدة الخفس Mabda al Khafs يقف علامة أرضية بارزة. ولكن السهل المرتفع الكبير، الذى بدأ يظهر أمامنا فى اتجاه الجنوب، لابد من النظر إليه فى ضوء المرحلة الحالية من رحلتنا هذه، وذلك من منطلق أن ذلك السهل يشتمل على الجزء العلوى كله من شعب العجيمى، ثم يمتد بعد ذلك إلى مستجمع المياه الواقع بين منظومة صرف شعب سحابة ومنظومة صرف الأفلاج. وبعد أن نظرنا إلى السهل من نقطة الأفضلية التى انتخبناها، وجدناه بيضى الشكل يصل عرضه إلى حوالى عشرين ميلاً فى أوسع أجزائه وينحصر تمامًا بين التلال. وشاهدنا خشم الخرطام خلفنا وسلسلة جبال خرطام التى تمتد من الخشم فى اتجاه الشرق صوب سلسلة جبلية مزدوجة القمة وقصيرة يسمونها القريبين Al Quraibain وتنحنى ناحية الجنوب لتنتهى فى تل أم العضمان Umm al Ádhman المستدير. واعتبارًا من نهاية تل أم العضمان يبدأ خط صخور الحليليات Al Hulailiyyat المنخفضة الذى يميل ميلاً قليلاً ناحية الغرب مبتعدًا قليلاً عن اتجاه الجنوب، ليصل إلى امتداد أرضى يطلقون عليه اسم خشم دغامة Khashm Daghama، الذى يقع فى نسق واحد مع امتداد خشم المشاش الأرضى البعيد، عند نهاية سلسلة من الجبال فى اتجاه الشرق، كانت تظهر أمامنا عن بعد لتلتقى مع المنحدرات الخارجية لجبال الطويق، التى تفصل الوادى من جانبه الشرقى عن السماريات الموجودة إلى جوارنا وعلى مدد شوفنا. وكان مستوى ارتفاع ذلك السهل الذى يبعث الملل فى النفوس ينكر بين الحين والآخر بفعل جبل منخفض هنا أو هناك، على امتداد ذلك السهل الذى يصل إلى ما يقرب من أربعين ميلاً، الأمر الذى أوحى لنا برحلة متعبة مضنية يتعين علينا القيام بها خلاله.

وعقب وصولنا إلى حدود الخرج، حصل مرشدنا محمد الدوسرى - الذى كان قد تزوج مؤخرًا[١٦]- على إذن منى بالقيام بزيارة خاطفة إلى عروسه التى كانت تتجول مع

أهلها فى المنطقة المجاورة لنا إلى أن يحين الوقت المناسب الذى يستطيع زوجها خلاله العودة إلى منزله. ويبلو أن محمداً لم يواجه أية صعوبة فى الوصول إلى هدفه أوفى الوقوف على تحركاتنا، والسبب فى ذلك أنه على الرغم من ترك برنامجنا تماماً للظروف المحيطة بنا، فإنه استطاع الوصول إلينا خلال مسيرة اليوم، وهو سعيد تماماً بالإجازة التى لم يكن يتوقعها أو ينتظرها، ولم يخجل من عاصفة النكات البذيئة الفاضحة التى واجهته عند عودته. وتولى تامى بحكم تمرسه فى تلك النكات - دور القيادة - بأن أبرز أمام الجميع بقعتين من الطين على قميص محمد الداخلى عند منطقة الكتف، فى إشارة منه إلى تمتع محمد بشهر عسل جميل ، وقد وجد محمد عروسه على النحو الذى يرضيه، وبعد أن أخبرها بالمهمة المكلف بها، فقد زودته - وكان ذلك لصالحى - بقائمة طويلة من نواقص دولاب ملابسه وملابسها.

وفى صباح اليوم التالى استأنفنا مسيرنا فى وادى العجيمى، الذى كانت الفيضانات الأخيرة قد تركت دلائل على مرورها ليس فقط على الأعشاب الطرية التى تزين ضفتى القناة، وإنما على شكل برك من المياه تنتشر هنا و هناك، والتى رحنا نرتاح بجوار واحدة منها تحت ظل مجموعة من أشجار الأثل وأشجار السنط ونتناول إفطاراً على شكل وليمة من لحم الضأن البارد والأرز، جرى طهوها أثناء الليل. كان الوقت ما يزال مبكراً، ولكن كنا قد قطعنا بالفعل مسافة تقدر بحوالى تسعة أميال، على خط سيرنا، الذى يسير محاذياً للقناة حينا، ويعبرها حيناً آخر متجاوزاً أول مدقين من مدقات الإبل المطروقة، والتى تجيء من المنطقة المجاورة للحوطة متجهة إلى صحراء الرياض، التى يذهب إليها جمّاع العشب والحشائش بحثاً عن العلف لمواشيهم فى كل من الحوطة والحلوة Hilwa . وأحد تلك المدقات يسير محاذياً لخط شعب أم عضمان، الذى ينزل من تل يحمل الاسم نفسه، ويُعَدُّ أيضاً أثرى مناطق وادى العجيمى فى هذه المنطقة. وفى تلك المنطقة لاحظنا أيضاً آثار ذئبين، بقيا فترة طويلة يلهوان فى مجرى القناة الرملى بعد أن شربا من الغدير (بركة) الذى توقفنا إلى جواره لتناول الإفطار.

وبعد مسير خمسة أميال فى الوادى، بعد أن تجاوزنا فتحات ثلاث من المناطق الموسرة فى وادى العجيمى ؛ منطقة الخريسة Khuraisa من ناحية الشرق، ومنطقتا المزعب Niz'ab والحزيمية Huzaimiyya من ناحية الغرب ، وصلنا إلى أول غدير من

الغُدْران الثلاثة، أو إن شئت فقل: ثقوب المياه، التى يطلق عليها هنا اسم، غدران الحلفاوى Ghudran Halfawi، وهذا الاسم مشتق من شعب الحلفاوى، الذى يتصل بشعب العجيمى بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الجنوب، فى المنطقة التى ينبع منها عند سفح خشم المشاش. وهنا انحرفنا عن الخط الذى كنا نسير فيه، أو إن شئت فقل: خط العجيمى، الذى يسير فى الاتجاه الجنوبى الغربى نحو الطويق، وبدأنا نسير عبر سهل قفر متموج، تاركين الغدير رقم اثنين، الذى يقع عند ملتقى الحلفاوى والعجيمى، على يميننا متجهين إلى أكبر الغدرين الثلاثة، الذى تحدد موقعه بواسطة صف من أشجار السنط الذى يقع على بعد مسافة قليلة من أمامنا فى مجرى الحلفاوى.

كانت الأشياء المحيطة بنا لا تستحق التأخير، وكنت أتطلع إلى أن يكون الغدير هو المكان الذى نتوقف عنده طلبًا لراحة الظهيرة، وأن تكون مع حلول الليل فى وضع نثق معه من الوصول إلى حدود الأفلاج فى مساء اليوم التالى. وتبددت آمالى، والسبب فى ذلك أن رفاقى خارت قواهم مع ازدياد درجة الحرارة، وسرعان ما وجدت نفسى ومعى قلة من الرفاق نستبق القافلة بمسافة كبيرة. ومع ذلك، واصلت السير متجاهلاً رغبة الجميع فى نيل قسط من الراحة. ولكن بلغ السيل الزبى عندما أغفلت بقعة صغيرة من الأرض المغرية التى كانت تغطيها ظلال أشجار السنط، لتكون مكانًا ننال فيه قسطًا من الراحة. وكنت قد تجاوزت تلك البقعة بمسافة كبيرة عندما لحق بى ابن جلهم ليرجونى التوقف لنيل قسط من الراحة. قال لى ابن جلهم: "هذا أحسن للمقيل، والماء بعيد، يا صاحب، خلينا ننزل بهذا ونستريح، ونمريح الماء"(١٧) ولكن محمد الدوسرى كان قد أكد لى أن العذير لا يبعد كثيرًا عن هذا المكان، ولكن تخوفى من أن تحبط آمالى نتيجة عدم تجاوز الغدير قبل وقفة الظهيرة هو الذى جعلنى أرفض رجاء ابن جلهم وأجبرته على العودة بخفى حنين وكسير الخاطر إلى رفاقه ليبلغهم بقرارى. وبدأت تظهر علامات التمرد العلنى، وهنا توجه كل المتأخرين إلى المكان الذى اتفقوا عليه. وهنا صاح إبراهيم قائلاً: "يا صاحب، نُقيِّل بهذا"(١٨) قالها إبراهيم وكأنه يوجه إلىَّ إنذارًا. ورددت عليه، وأنا أدير إليه وجهى من فوق السرج: "قيِّلوا بكيفكم، وأنا واللى معى بكيفنا"(١٩). وفى تلك اللحظة كنت على بعد مسافة كبيرة من الآخرين، وحدى، وعلى شكل أقلية من فرد واحد، ولكنى لم أندم على الانفصال الذى حدث بينى

وبين إبراهيم، والذى تأجل بسبب عدم وجود الفرصة المناسبة لذلك طوال مسيرنا فى الخرج، هذا الانفصال ظهر فى شكل عمل من أعمال التحدى السافر من جانبه. وواصلت المسير بصحبة مترك، الذى أرسله إلىَّ إبراهيم، بعد أن فشل محمد فى التأثير علىَّ، ليقنعنى بالعودة، بعد أن كنت تجاوزت المتمردين بحوالى ميل كامل، وهنا وجدت من الحكمة ألا أواصل المسير أكثر من ذلك، والسبب فى ذلك أن نظام السفر العربى يقضى بعدم الاقتراب من مناطق السقيا فى الصحراء إلا بعد التفتيش واتخاذ الاحتياطات المناسبة، ولأن منظر القطعان التى ترعى بالقرب منا تعد إشارة إلى وجود بعض رعاة الدواسر فى المنطقة المحيطة بنا. وهنا برَّكنا جمالنا فى السهل القفر، وفردنا فراشنا تحت ظل شجرة واحدة من أشجار السنط، وأعددنا العدة لقضاء ساعات النهار الحارة فى المكان الذى كنا فيه، معتمدين على البقية الباقية من الماء التى كانت فى زجاجة المياه الخاصة بى، والتى رحنا نستعملها على حد سواء، إضافة إلى أننى رحت أدخن غليونى. ولما كان مترك، شأنه شأن أى إنسان آخر متعوداً على الأشياء الجميلة فى الحياة، ولكنه كان فى نفس الوقت متعوداً أيضًا على كل مصاعب الحياة بحكم حياته العملية الخشنة، فقد تحمل فى رجولة كاملة غياب القهوة، التى تطوَّع بإحضارها من المخيَّم الآخر، وقضيت أنا وهو فترة العصر فيما بين الحديث والنوم، أما المحمدان فقد تناوبا الحضور معنا تارة والحضور مع القوة الرئيسية تارة أخرى.

كانت الساعة الثالثة مساءً عندما سجل مقياس درجة الحرارة (الترمومتر) حوالى ١٠٤ْ فهرنهيتية، وهنا اضطرب النائمون عندما وصل إبراهيم ومعه بقية القوة الرئيسية إلى المكان الذى نرتاح فيه هو ومرور الحملة Hamla، إذ كان من عادتنا أن نرسل شيئًا ما أمامنا من المقيل ليتأكد من وصول الحملة إلى مكان وقفة المساء قبل أن نصل نحن إليه. ومع ذلك، تظاهرت بعدم إدراكى لحضورهم، وتظاهرت بأنى نائم كى أسمع الحديث الذى يدور بينهم، وقد سعدت كثيراً عندما سمعت الكثير عن تهورى. وأخيراً صحوت من نوم منعش، وبعد أن عبَّرت عن مفاجأتى بوصولهم، طلبت إلى مترك أن يفتح خيمتى ويعد القهوة، وبينما كان يجرى عمل الاستعدادات اللازمة لذلك الموضوع بدأت الحديث إلى الجمع الموجود، وبدأت حديثى على النحو التالى: " ما رأيكم فى سلوككم اليوم، وبخاصة أن ابن سعود عندما ودعنى، أصدر أوامر قاطعة لكل من

إبراهيم وابن جلهم بأنهما مسئولان عن سلامتى وراحتى، وأنهما غير مسموح لهما تحت أى ظرف أن يتركانى وحدى، وأن يطيعا أوامرى كما لو كانت أوامره هو؟ ومع ذلك، فأنتم عندما تعرضتم لخيار اتباعى أو اتباع إبراهيم، أجمعتم على اتباعه هو؛ وأنتم عندما فعلتم ذلك، اعترفتم أنه هو رئيس البعثة وليس أنا؛ والآن، وبعد ما حدث، واعتباراً من الآن فصاعداً اتبعوه فى العطية ولا تتبعونى. ولكن لماذا جئتم إلىَّ الآن؟ وما الذى تنوون عمله؟ أنا لا أريد أحداً منكم وأنا راض عن قرار حتمية تحركنا منفصلين عن بعضنا، وأن نخيِّم منفصلين أيضًا. اذهبوا إلى حيث شئتم أنتم وإبراهيم، ولكنى قررت تمضية الليل فى هذا المكان. جشعكم وكسلكم هما اللذان يحثانكم على التوقف، بينما الجو يكون مناسبًا لمواصلة السير؛ والآن وبعد أن أخذتم بغيتكم من الطعام ومن النوم، فإنكم تحسون رغبة فى مواصلة للسير على الرغم من أننا حاليًا فى أشد ساعات النهار حرارة. وطلبًا للتوقف تظاهرتم باعتنائكم الشديد بالتعلل بالإبل، التى لم نجد شيئًا ترعاه فى المقيل الذى اخترتموه وأنتم تريدون الآن ركوب الإبل والسير عبر السهل الحارق فى أشد ساعات النهار حرارة. افعلوا ما يحلوا لكم، أما أنا فسوف أقضى الليل هنا، ولن تجد الإبل ما يبرر شكواها على أى حال. ولكن الأمر لم ينته بعد؛ فأنا أدعوك، يا تامى، للشهادة، بأنى عندما كنا فى الطائف وفى جدة أسررت إليك بما عانيته على يدى إبراهيم طوال مسيرنا هناك، وتشهد أيضًا بأنى قبل أن نشرع فى رحلتنا هذه أبلغتك أنه قد يثير المتاعب من جديد. وعلى كل حال، فقد تعهدت أنت بعدم حدوث أية متاعب، ومع ذلك، تحققت توقعاتى وتخوفاتى مع أول فرصة تهيأت لذلك. إن إبراهيم هو الذى أضلكم وسوف يضلكم؛ ولذلك أرى ألا نتحرك، إلا بعد أن نقرر إن كانت أوامرى أو أوامره هى التى ستنفذ. اسمحوا له بالقيادة كيفما يشاء، وسوف أتبعه إلى أن تنتهى هذه الرحلة، ولكن يجب أن تتبعوه هو ولا تتبعونى فيما يتعلق بالمكاسب والأرباح، وسوف يحكم ابن سعود بيننا فى النهاية".

وعدت بعد ذلك مباشرة إلى خيمتى متجاهلاً كل الجهود التى بذلوها لامتصاص غضبى، كما تجاهلت أيضًا التماس الجماعة طلب استئناف المسير. ولم يقترب منى خلال فترة العصر سوى مترك ومحمد، فقد أحضر محمد لى غزالاً صغيراً، عمره لا يزيد على يوم واحد، استطاعوا الإمساك به أثناء المسير. وتحدى ذلك الحيوان الصغير

كل المحاولات المبذولة لتغذيته بالحليب، وأسعدني ذلك الحيوان الصغير بمحاولاته المتمردة طلباً للهرب من الطول الذى كان يربطه إلى وتد داخل الخيمة، وعلى الرغم من التحول الذى أحدثه ذلك الحيوان فى المخيم، فإننى قررت أنه من الأفضل بالنسبة لتعاملنا المستقبلى، أن أحافظ على موقف الرفض الذى وقفته وبخاصة فيما يتعلق بالقيادة، وبعد تناول وجبة المساء، التى تناولناها فى صمت يشوبه التوتر، انسحبت إلى وحدتى فى خيمتى، وأنا أتعجب للأثر الذى يمكن أن تتركه تلك العاصفة التى ثارت بفعل أحداث النهار، على أعمالنا المستقبلية. وعلى أى حال، فالواضح أن إبراهيم كان لديه ما يتأمله ويفعله أثناء هجومى عليه أمام الجميع، وأنه على الرغم من كل ذلك، كان عليه أن يلوم نفسه. وهنا عقدت العزم على حسم الأمر، ثقة منى بأن كراهية العرب لإطالة الأحداث المؤلمة يمكن أن يسهم، فى أضعف الأحوال، فى تحقيق هدفى، الذى يتمثل فى الالتزام المعقول أثناء السير وبخاصة فى المناطق شديدة الجدب والقحولة فى بقية الرحلة التى تنتظرنا.

وثبتت صحة تقديرى للموقف، ولكن العراك لم ينته بعد. وفى صباح اليوم التالى، وبعد الاغتسال، انضممت إلى الجالسين حول نار المخيم المعتادة، ولكنى تعمدت ترك إعطاء الأمر ببدء السير إلى إبراهيم. كانت القفزة الأولى من المسيرة قصيرة، والسبب فى ذلك أن الغدير الذى سنجلب منه الماء لم يكن يبعد عن المكان الذى توقفنا فيه سوى ثلاثة أميال فقط. كان خط سيرنا إلى تلك النقطة يمر عبر سهل قاحل متموج يكاد يطبق بصورة متدرجة على صف أشجار السنط على ضفة شعب الحلفاوى الذى كان يبعد مسافة ميل واحد عن النقطة التى بدأنا منها سيرنا، ويسير موازياً لخط سلسلتى جبال الدغامة والمشاش اللتين كانتا تبعدان عنا مسافة ثلاثة أميال فى اتجاه الشرق، فى حين كانت تقع فى الناحية الغربية مساحة واسعة من مرتفعات الطويق، التى أشاروا لى فيها إلى مخروطين منتصبين باعتبارهما النقطة التى يواصل شعْب بيرك Birk عندها مسيره إلى السهل. ثم عبرنا شعب بيرك من على بعد نصف ميل من اتصاله بشعب الحلفاوى، قبل أن نصل الغدير بوقت قصير؛ ذلك الغدير الذى يوجد فى مجرى شعب الحلفاوى على مسافة نصف ميل قبل اقترانه بشعب بيرك Birk .

كانت الحملة سبقتنا بالفعل إلى البركتين الكبيرتين ، اللتين تستمدان ماءهما من مياه السيول والفيضانات، وتكوّنان ذلك الذى يطلق الناس عليه هنا اسم الغدير. كانت الحملة تجلب من ذلك الغدير الماء اللازم للطهى والمطبخ، ونزلت أنا عن ظهر الجمل طلبًا للتدخين فى جو هادئ، بينما راح رفاقى يملأون قرب المياه. ومجرى الماء، الذى يقع بالقرب من منبعه، عند سفح الامتداد الأرضى الذى يسمونه خشم المشاش، مسقى دائم من مساقى الدواسر، مكوّن من مجموعة من الأبيار غير المبطنة أو إن شئت فقل: حفر المياه، ويطلقون عليها اسمًا غريبًا هو مشاش النسوان Mishash-al Niswan، هذا المجرى يحيط به من جانبيه صف من أشجار السنط جيدة النمو، يمتد إلى مسافة معقولة فوق وأسفل البركتين الكبيرتين؛ وحوض ذلك المجرى المائى مكوّن من قراميد كبيرة من صخور الحجر الرملى ، التى تغطيها هنا وهناك بقع من الزلط والرمل، أو تنتشر فيها جلاميد الصخور التى تعطى - فى وجود الماء والحياة النباتية الغزيرة حول حدودها الخارجية - منظرًا يسر الخاطر ويشرح الصدر وسط تلك الصحراء القاحلة.

واستأنفنا مسيرنا على ضفة شعب الحلفاوى اليمنى إلى مسافة ميل على وجه التقريب إلى أن وصلنا إلى نقطة ينحنى فيها ذلك الشعب عائدًا إلى الخلف فجأة فى خشم المشاش ويقترن به من الضفة اليسرى سيل كبير قادم من منحدرات الطويق، يطلقون عليه اسم شعب تيها Tiha . وعند هذه النقطة عبرنا القناة الصخرية التى ما تزال تكسوها الأشجار الغابية، والتى لاحظت فيها من حين لآخر بركًا من المياه وسط الصخور، وبعد أن تجاوزنا تلك البرك، سرنا بحذاء شعب تيها Tiha، مرة فى مجراه الذى يغطيه الزلط، ومرة أخرى على ضفة من ضفتيه، إلى أن يقترن به شعب آخر اسمه شعب بُعْيجة Ba'ija . ومن تلك المنطقة التى تركنا عندها شعب بُعْيجة يتجه يمينًا نحو الطويق، واصلنا مسيرنا عبر السهل الضخم الواسع الذى يتكون القسم الأكبر منه من أشد أنواع اللُّهم (الغرين) نعومة. أما القسم الباقى من ذلك السهل فقد تتخلله، بين الحين والآخر، بقع من الزلط، وواصلنا طريقنا صوب منخفضات إنسالة Insalah، التى هى قطعة من المرتفعات الجرداء المكسرة، التى تصل الجناح الغربى من البياض Biyadh بأطراف الطويق الشرقية مكونة بذلك الحدود الشمالية ومستجمع مياه قنوات شبكة الصرف الشاسعة التى تتبع منظومة سحابة Sahaba .

ومشينا بخطوات بطيئة ومتخافتة عبر تلك الأرض القاحلة الخالية من التضاريس وأى شكل من أشكال الخضرة والتى تكاد تحترق تحت أشعة الشمس القاسية.كان النسيم الجنوبى الخفيف الذى بدأ يهب علينا مع بداية السير، قد بدأ ينتهى ويختفى مخلفًا وراءه ركودًا مملاً فى الهواء؛ واستطلقت الحرارة المتزايدة هى والأمعاء الخالية فى رفاقى نظرات التلصص على الحملة، التى كانت تحمل معها - كما هو معتاد - طعامًا مكون من أرز ولحم مطبوخ أثناء الليل كى نتناوله فى الإفطار؛ وبقى الجميع فترة طويلة دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة طلبًا للتوقف ، بل كانت هناك على العكس من ذلك رغبه قوية لمواصلة السير وزيادة معدلة. والتزامًا بقرارى، كان لابد أن أكون تابعًا لا قائدًا ، كما أن ناقتى التزامًا منها بتوافق تحركاتى مع مخططاتى، راحت تبطئ، إلى حد أنها كانت فى مؤخرة الحملة فى بعض الأحيان. وتأخر كل من مترك ومحمد بالتناوب ليحثانى على إسراع الخطى، وذلك لمصلحة النياق فى درجات الحرارة المرتفعة. أما تامى Tami الذى لم يقو على تحمل الجوع الذى كان يستعر داخله فقد رجع إلىَّ ليخبرنى أنه سيموت إذا لم يأكل، ولكنى أجبته بأن ينقل آلامه وأوجاعه إلى إبراهيم، الذى كانت بيده مقاليد أمور تحركنا وذلك انصياعًا للقرار الذى اتخذناه بالأمس، كما أبلغته أيضًا أن القرار الذى اتخذته بعدم التدخل فى اختصاصات إبراهيم يعد قرارًا نهائيًا. والعرب بحكم تعودهم على تحمل غياب الطعام، قرروا الامتناع عن الأشياء الطيبة التى فى متناولهم، وانقلب الرأى العام عندئذ على إبراهيم باعتباره مصدرًا لكل متاعبهم. وهنا وجدت إبراهيم يرجع إلى الخلف إلى المكان الذى كنت أنا فيه، ليقول لى: إننى أسأت فهمه، ويؤكد لى التزامه بطاعتى المطلقة مستقبلاً، ولكنى أبلغته إنى لا أود مناقشة الأمر معه أكثر من ذلك، بعد أن وصلت إلى قرار نهائى وحاسم وغير قابل للتغيير مفاده إنه (إبراهيم) من الآن فصاعدًا سيكون القائد الوحيد، وعندما أصرَّ على مناقشة هذا الأمر رحت أستحث ناقتى طلبًا للسرعة، مخلفًا إياه ورائى وهو ينادينى بصوت عال يطلب منى الصفح والغفران.

عند هذا الحد كنا نقترب بسرعة من تخوم منخفضات إنسالة Insalah، التى كانوا يسمونها فى الماضى أم الركبان Umm al Rukban ، نتيجة لظرف مفاده أن تلك المنطقة كانت ملجأً مفضلاً عند عصابات اللصوص، التى كانت تختفى بين ثنيات تلك

المنخفضات لتنقض منها على القوافل المسافرة بين الحوطة والخرج وجنوب البلاد، وتعمل فيها السلب والنهب. في تلك الأيام، كان الدواسر هم والشامر، وآل - مرة في بعض الأحيان، هم الذين يثيرون الرعب والفزع في الريف عن طريق السلب والنهب؛ ولكن الأمن والسلام بدأ يعم تلك المناطق الخطيرة مؤخراً بفضل الإجراءات الحاسمة التي اتخذها ابن سعود لكبح جماح تلك القرصنة واستغلال الطاقة التي كانت تتبدد في ذلك الاتجاه، في اتجاهات أخرى مفيدة. والرجال من أمثال مترك هو و آخرين في جماعتي - الذين كانوا يعيشون على حساب المواطنين الذين ينعمون بالمزيد من الأمن والازدهار - أصبحوا الآن قانعين وراضين تماماً عن رواتبهم المنتظمة التي يحصلون عليها من خزانة الدولة لقاء عملهم كمراسلين أو مندوبي استخبارات.

والتلال الخارجية في منخفضات إنسالة، أو أن شئت فقل: أم الركبان، يطلقون عليها اسم المدحيات Mudahaiyat في الناحية الشرقية، واسم البرقية Barqiyya من ناحية الغرب، والوادي يدق بينهما إسفيناً غليظاً. ويقع الرمال التي تتخلل تلك المناطق بين الحين و الآخر، والتي تنتشر فيها أدغال الشر Sharr، وتغطيها الأعشاب الخضراء، وكذلك أدغال العضير Adhir' هي التي أكسبت الوادي في تلك المنطقة اسم الشعب، كما أن مياة صرف المنخفضات يبدو أنها تمر خلال ذلك الشعب متجهة إلى شعب الحلفاوي. وتتبعنا ذلك المنخفض إلى أن وصلنا في النهاية إلى مجموعة من الكثبان الرملية، التي صعدنا من خلفها مباشرة ممراً ضيقاً أوصلنا إلى المنخفضات نفسها، في المنطقة التي يخرج عندها طريق القوافل القادم من الجنوب ليتفرع إلى طريقين أحدهما متجه إلى الخرج والآخر إلى الحوطة. وواصلنا المسير لنعبر مجرى مائي صغير يطلقون عليه اسم قريع الذيب Qurai' al Dhib ثم بعد ذلك شعب إنسالة نفسه، وكلاهما له خلفية كريهة من الجبال الصغيرة التي تغطيها الأحجار الجرداء، ولكن شعب إنسالة عبارة عن حوض منحدر من أحواض السيول الواسعة ينساب على شكل انحناءات واضحة بين ضفتين واضحتين. ومبلغ علمي، أن ذلك المجرى المائي ينتهي في شعب المدحيات Mudahaiyat على الرغم من أنه يحمل قليلاً من الماء، وذلك لا يحدث إلا نادراً. وبركة الماء القريبة من المكان الذي عبرنا عنده ذلك المجرى المائي تعد شاهداً على فيضان حدث مؤخراً، ولكن حفر المياه التي جرى حفرها في الرمل فوق ذلك

المستوى كانت جافة، هذا على الرغم من أن الماء يمكن العثور عليه بسهولة عن طريق حفر ثقوب جديدة فى أى مكان من القناة. وهناك سلسلة من الجبال المنخفضة تفصل شعب إنسالة عن وادى الخابى Khabi، الذى بدأنا ننزل فى اتجاهه منحدرًا طويلاً، لطيفًا قاحلاً. لم يكن يتبقى على وقت الظهيرة سوى ساعة واحدة فقط عندما وصلنا منطقة من أشجار السنط عند بداية شعب خابى، الذى يقترن فى النهاية بشعب إنسالة، وهنا كنا قد سرنا خمس ساعات أو ما يزيد على ذلك، وبدون توقف منذ أن غادرنا غدير الحلفاوى. وحاولوا أن يناشدونى التوقف ولم ينجحوا فى ذلك، وهنا أعطى إبراهيم إشارة التوقف وهو يشعر باليأس.

وجاءنى وفد برئاسة ابن جلهم وتامى Tami، ليعربوا لى عن طلب إبراهيم العفو والسماح، وأصروا على صفحى عنه، مع وعد منه ألا يسىء التصرف مرة ثانية. كان الأمر عند هذه المرحلة قد وصل إلى مالا تحمد عقباه، إضافة إلى أن الجهود التى بذلت أثناء النهار كانت دليلاً كافيًا على روح الندم الذى ساد الجميع، وبناء عليه، ارتضيت لنفسى أن يضمن لى كل من ابن جلهم وتامى على الملأ و أمام الجميع سلوك إبراهيم المستقبلى، مقابل أن أعلن أنا بدورى عفوى عنه وأتغاضى عن تصرفاته السابقة، وأن يفهم أنه لن تكون هناك ازدواجية فى القيادة ولا تذمر منها. وهنا جاء إبراهيم الذى كان يقوم بنصب خيمتى ليسألنى خجلاً إن كنت قد عفوت عنه. وأعقب ذلك كلام كثير، وتأسست علاقات الحب والود من جديد على أثر ظهور الوجبة التى طال انتظارها، والتى التهمناها تمامًا.

الهوامش

(١) انظر سى . إم . دى المجلد الثانى ص ٥٢١ – ٢ .

(٢) انظر المجلد الأول ص ٣١٢ .

(٣) للمزيد عن هذا الكتاب انظر الترجمة العربية الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربيه. ومترجم الكتاب هو الدكتور / صبرى محمد حسن.

(٤) انظر المجلد الأول ص ١١٥ .

(٥) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الأول الفصل التاسع ص ٣٩٠ .

(٦) شعب مراسلة Murasila، وغويفان، وأم الطليح، وثلاثة شعاب أخرى بلا أسماء من الضفة اليسرى وخمسة شعاب أخرى بلا أسماء أيضًا من الضفة اليمنى.

(٧) وكذلك أيضا فى مستوطنات السر Alsirr .

(٨) كان ذلك فى ١٣ رمضان الموافق للثالث والعشرين من شهر يونيو.

(٩) انظر المجلد الأول ص ١٧٠ .

(١٠) انظر المجلد الأول، ص ٢٣٤ .

(١١) انظر المجلد الأول ص ١٥١ .

(١٢) انظر المجلد الأول ص ٢٣٠ .

(١٣) لقد تركت المقطوعة المتعلقة بتلك الأنقاض بشكلها الأصلى (الذى كتبته فى مطلع عام ١٩١٩ الميلادى) والسبب فى ذلك عدم وجود الوسائل التى تساعد على كشف أسرار تلك الأنقاض؛ ولكن السيد دى. جى. هوجارث أوضح بلا أدنى شك، وبشكل حاسم، أن تلك الأنقاض لم تكن أنقاض مستوطنة من المستوطنات، وإنما هى أنقاض جبانة من الجبانات، كما أوضح أيضًا أن المادة المكوِّنة فوق الأساسات الصخرية جرى تآكلها بفعل الطقس إلى أن كشفت عن الأساسات (انظر مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، عدد مارس ١٩٢٠). الذى وافق بدوره على أن تلك الأنقاض تنتمى إلى مصدر غير عربى، ولكنه يؤكد أنه فى ضوء الأدلة المتيسرة أمامنا، لا يمكن لنا أن نتجه وجهة أخرى، كما أن فرضية وجود أصل فينيقى لتلك الأنقاض تثير مصاعب كثيرة يتعذر قبولها أو التسليم بها فى ظل المعلومات المتوفرة لدينا حاليًا. وقد تقدم بتلك الفرضية السير توماس هولديك، فى ضوء تشابه دوائر الخرج الحجرية تلك مع أنقاض أخرى جرى استخراجها من البحرين بواسطة تيودور بنت Bent، الذى قام أيضًا بوصفها أمام الجمعية الجغرافية

الملكية فى عام ١٨٩٠ الميلادى (انظر مجلة الجمعية الجغرافية الملكية عدد يناير ١٨٩٠ صفحة ١ وما بعدها)، ولكن السيد هوجارث يرى أن هناك بعض الاعتراضات على قبول الرأى الذى يقول به بنت Bent والذى مفاده أن دوائر البحرين من أصل فينيقى (انظر مجلة الجمعية الجغرافية الملكية عدد ديسمبر من عام ١٩٢٠ صفحة ٤٦٣ - ٤).

(١٤) وليام جليفورد بالجريف، المجلد الأول، الفصل السادس، صفحة ٢٥١ لاحظ بالجريف وجود آثار مماثلة فى الرس وفى الحناكية، ولكن مبلغ علمي أن الذين زاروا عيون بعد ذلك رفضوا تأكيد مسألة الدوائر الحجرية التي ادعى أنه زارها. انظر أيضاً الفصل التاسع، ص ١٤٠ - ٤١ وما بعدها.

الإشارة هنا إلى نهر أسطورى من أنهار جهنم ، يشير إلى الظلمة الحالكة . (المترجم)

(١٥) انظر المجلد الأول ص ١٦٧ .

(١٦) انظر صفحة ١٧ وما بعدها.

(١٧) " هذا أفضل لاستراحة الظهيرة والماء بعيد عنهما، سيدى: دعنا ننزل هنا ونرتاح وسوف نحصل على الماء فى المساء ".

(١٨) " سوف نتوقف هنا ".

(١٩) " توقفوا مثلما تحبون، وأنا ومن معى سوف نتوقف مثلما نحب ".

الفصل التاسع

الأفلاج

١- الوصول

تقع قمة مستجمع المياه الحقيقى على بعد حوالى ثلاثة أميال جنوبى مخيم الظّهرة على امتداد صخور منخفضة واضحة المعالم، وتمتد شرقًا و غربًا فيما بين طرفى البياض The Biyadh والطُّويِّق، مكونة بذلك حدًا طبيعيًا بين منخفضات إنسالة المتداعية وصحراء ظهرة Dhahrat الرياض السهوبية الناعمة التى تنحدر إلى الخلف منهما انحدارًا هيِّنًا فى اتجاه سهل الأفلاج. وعند ذلك الحد كنا على ارتفاع حوالى ٢٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وحوالى ٤٠٠ قدم فوق مستوى ظهرة الرياض، التى كنا نقع إلى الجنوب منها، كما كنا على ارتفاع حوالى ٩٠٠ قدم فوق مستوى اليمامة فى أكثر نقاط وادى الخرج انخفاضًا، والتى صعدنا منها دون أن نلاحظ ذلك وبلا توقف. ولكن "شعب خالى" كان آخر الوديان المتجهة صوب الشمال، أو إن شئت فقل: كان آخر روافد شعب العجيمى فى اتجاه الجنوب، واعتبارًا من ذلك الحين فصاعدًا كان يتحتم علينا الهبوط إلى مسار فى اتجاه الجنوب وإلى الممرات المائية القادمة من الطويق والتى تسير فى الاتجاه نفسه وهى البياض عن يسارنا، بعيدة وغير واضحة المعالم، على شكل ساحل منخفض يمتد ناحية الجنوب قادمًا من نقطة خشم المشاش البارزة والشهيرة، ونظرًا لأن أرض البياض لها منظر خادع تبدو فيه كما لو كانت أكثر ارتفاعًا مما هى عليه بالفعل، فالناس هنا يسمونها الأحقاف AL Ahaqaf أو إن شئت فقل: الصخرة؛ وقد استثار سماعى لتلك الكلمة أول مرة كثيرًا من التساؤلات فيما يتعلق بتلك البقاع الرملية الخرافية الواردة فى خرائط الجزيرة العربية والواردة أيضًا

فى العديد من المؤلفات الجغرافية المتعلقة بذلك البلد، وتحت الأحقاف Al Ahqaf أو الأحكاف Al Ahkaf[١] . والتشابه والتماثل بين الاسمين - نظراً لأن العرب المحدثين ينطقون الاسمين "هجف" Hagaf - هو الذى أوحى لى بذلك، لأننى شاهدت بالفعل سلسلة من سلاسل الجبال الرملية فى الربع الخالى، ولكن سرعان ما تخلصت من تلك الصورة على أثر التغيرات التى ساقها رفاقى، الذين أوضحوا لى أنهم لم يستعملوا سوى اسم الصخرة الواضحة، أو الحافة الخارجية للسهب الواسع الذى يعرف باسم البياض، ذلك المكان القفر الجدب، الثابت، المنبسط، الذى ينتشر فيه الزلط والحصى، والذى يشبه ظهرة الرياض نفسها، على الرغم من أنه أكبر منها مساحة ونطاقاً. ولم يكن للعرب (رفاقى) أى علم بتلك البقاع الرملية سالفة الذكر، بما فى ذلك جابر المرِّى نفسه، الذى كان يعرف الرمال Al Ramal أو إن شئت فقل: بحر الرمال الأعظم، وتقسيماته ومسمياته الفرعية مثل جافورة Jafura والخيران Khiran، ولكنه لم يسمع قط عن الأحقاف.

كانت الحرارة شديدة جدا خلال الساعة الأولى من توقفنا، إذ سجل جهاز قياس الحرارة فى خيمتى حوالى ١٠٦ْ فهرنهيتية عند الظهيرة، ولكن ريحاً شمالية هى التى خففت عنا بعد ذلك؛ إذ انخفضت درجة الحرارة انخفاضاً كبيراً إلى حوالى ١٠٠ْ فهرنهيتية عند الساعة الثالثة مساء. مع بدء استئناف سيرنا ، كانت الصحراء الجافة تنتشر هنا وهناك وتتخللها بقع الزلط الأسود، وتكثر فيها الضِّباب؛ والضب Dhab نوع غريب من السحالى الدرقية، وهو سريع بصورة مذهلة، إذ عندما يرانا وهو يتشمس، يفر هارباً بأقصى سرعة ليأوى إلى جحره الذى يعيش فيه تحت الأرض. وأكثر تلك الضِّباب حكمة، هو ذلك الذى يخاطر بالابتعاد عدة أقدام عن جحره الذى يأوى إليه عندما يلمح عدواً محتلاً يقترب منه، ولكن ضباً من تلك الضباب - كان أكثر حكمة من ذويه - شكل لنا فترة ممتعة دفع حياته ثمناً لها، إذ إن محمداً عندما رآه من وراء، مخبئه، يقف فى قطعه من الأرض المفتوحة، قفز من على سرج الجمل وراح يطارد ذلك الضب الذى كان يجرى أمامه. بدأ الضب بداية جيدة، وهو يعرف جيدا موقع جحره، وتمدد محمد بكامله كى يمسك بذلك الضب، ومع ذلك لم تنته اللعبة عند ذلك الحد، والسبب أن ذلك الحيوان الصغير لجأ إلى المكر اليائس بكل أشكاله، فقد راح وجاء، وتلوَّى هناك، ودار هنا ودار هناك، من حول محمد الذى كان يطارده بمهارة فائقة.

والضب لديه ميزة أخرى، فالويل لمن يضع يديه على تلك الحيوانات بدون حذر معرضًا نفسه لعضها الوحشى، الذى يخشاه العرب تمامًا ويتحاشونه. ولكن الضب فقد فى النهاية إحساسه بالاتجاه، وسقط أخيرًا ضحية لمناورات محمد الفائقة، الذى أمسك به من خلف كتفيه ليحضره معه لنراه قبل أن يذبحه ويضع السكين حدًا لحياته ومتاعبه. كان طول ذلك الضب يزيد على قدم واحد، فقد صنفوه على أنه جيضة Jidha، أى يبلغ من العمر عامين، والعرب يتخذون من الضب طعامًا لهم. والضب، الذى رأيت منه أنواعًا يصل طول الواحد منها إلى حوالى قدمين ومحيط جسم مناسب، والذى يلزم جحره فى أغلب الأحيان، ويجرى إخراجه عن طريق حفر الجحر، يعتبره العرب طعامًا لا يقل جودة عن الدجاج، ولكنهم (العرب) ليسوا دقيقين فى ذلك الرأى، والسبب فى ذلك أن لحم ذيل الضب، الذى يعد أفضل من بقية جسمه، له طعم زنخ وزفر يكاد يكون كريهًا.

اكتملت حصيلة صيد اليوم بجربوع Jarbu'a أخرجه رفاقى من جحره، إضافة إلى طيهوج من طياهيج الرمل حصلوا عليه أيضًا فى ظروف غريبة. كان أربعة من تلك الطيور، تتغذى بالقرب من الطريق الذى كنا نسير فيه عندما داهمناها، وربما تقاعست تلك الطيور إلى الحد الذى منعها من بذل أية محاولة، مكتفية بإخفاء نفسها فى الرمل ظنًا منها أنها هربت من ملاحظتنا عندما فعلت ذلك، وبخاصة عندما تجاوزتها إبلنا؛ولكن محمدًا الآخر، بعد أن شد أجزاء بندقيته وعمَّرها رقد على الأرض فى هدوء واتخذ لنفسه ساترًا من إحدى الشجيرات الشوكية، ثم فتح نيران بندقيته. وهنا طارت الطيور الأربعة إلى ما يقرب من ياردة واحدة فى الهواء ثم حطت ثانية فى البقعة نفسها دون أن يخيفها إطلاق النار؛ وهنا فتح محمد النار مرة ثانية، فطار ثلاثة من الطير وحوموا حول البقعة نفسها وولوا هاربين، تاركين الطيهوج الرابع مصابًا على الأرض. وربما تكون الطلقة الأولى قد أحدثت عجزًا مؤقتًا فى واحد من الطيور منعه من الطيران وأن رفاقه هبطوا معه من باب التعاطف معه، أو أن الطيور الأربعة كانت متأثرة بفعل الحرارة الشديدة إلى الحد الذى أعجزها عن إدراك الخطر الذى كان يداهمها مما تسبب فى موت واحد منها؛ ولكنى يجب أن أنوه هنا إلى أن الطائر الضحية كانت إحدى رجليه مكسورة إضافة إلى إصابة جسمه بجرح كبير.

وطوال النهار شاهدنا الغزال بأعداد كبيرة ولكنه لم يقترب منا مطلقًا حتى نتمكن من مطاردته؛ فى حين خيَّب ذلك الغزال الصغير المتمرد آمالنا عندما استسلم للحرارة بعد أن رتبنا له وسيلة نقل مناسبة فوق واحد من إبل الحملة.

كان هناك رجم من الحجارة يتوج قمة الصخرة عند النقطة التى يترك طريقنا عندها منخفضات إنسالة متجهًا إلى مرتفعات رجد Rajd، التى سرنا خلالها قاصدين اتجاه الجنوب، فوق سهوبها الملة التى تتخللها، بين الحين والآخر، صخور البازلت (٢) أو الحالة Hala كما يسميها أهل المناطق الجنوبية. وقبل أن ننصب خيامنا بوقت قصير استعداداً لوقفة المساء ، كنا قد عبرنا طريقًا (مدقًا) شهيراً يتجه من الشرق إلى الغرب بين مراعى الرياض من ناحية، وأبيار قلحة Qalha وورهية Warhiyya اللتين تبعدان عنا ثلاثة أميال وستة أميال كل على حدة، من الناحية الأخرى. وبعد أن مشينا بعد ذلك مسافة حوالى سبعة أميال خلال فترة العصر ، وصلنا إلى أول شعب من شعاب الرجد ، وهو رافد مجهول الاسم من روافد شعب ديَّة Daiya الذى لم نصله بعد ، وهنا قررنا التوقف طلبًا للراحة. وفى هذه المنطقة ووسط أحد الأدغال الشوكية عثرت على أحد أعشاش السراد Srad وبه أربعة أو خمسة فراخ صغيرة ؛ ويبدو أن الطائر الأم التى كانت تنتقل بين الأغصان العالية من الدغل كانت غير مهمومة بأمنها وسلامتها خوفًا على صغارها ، عندما كنت أتفحص العش وما فيه. كان لون الطائر الأم خليطًا من الأبيض والأسود ؛ وهذا الطائر يعرفه أهل نجد باسم سابرى Sabri .

وفى صبيحة اليوم التالى واصلنا سيرنا ، وعبرنا طريقًا آخر مؤديًا إلى أبيار قلحة Qalha قبل أن نصل إلى شعب ديَّة Daiya ، أول الشرايين المهمة فى شرايين منظومة صرف الرجد. ولما كان شعب ديَّة قد تكوَّن فى هذه النقطة نتيجة التقاء كل من شعب دراعى Dara'l وشعب غلغول Ghulghul الذى تقع فيه كل من أبيار قلحة وأبيار ورهية Warhiyya ، فهو يعبر الطريق الذى نسير فيه فى اتجاه جنوبى شرقى ليتصل بشعب شيتاب Shitab، الذى تغطى أدغال أشجار المرخ وأشجار السلام مجراه المعشوشب ؛ وتجاوزنا نقطة التقاء شعب ديَّة Daiya وشعب شيتان بمسافة ميلين تقريبًا. وهنا بدأت تتموج تموجًا لطيفًا ، وهنا بدأ المدق الذى كنا نسير فيه يهبط على شكل سلسلة من الدرج الهين اللين ليدخل مشوش من السلاسل الجبلية السوداء ،

التى شققنا طريقنا خلالها على امتداد مجرى شعب غينة Ghina الذى تكسوه الأشجار الغابية. وتناولنا إفطارنا بالقرب من حفر ضحلة ، من حفر مياه الفيضان ، روت إبلنا منها ظمأها ، قبل أن نتجاوز رابية مخروطية الشكل سوداء تماماً يسمونها هنا عبيد غينة 'Ubaid Ghina ، وخرجنا من قناة شعب غينة إلى منخفض زلطى منحدر ، كان سطحه مميزاً تماماً باللونين الأسود والبنى الضارب إلى الصفرة فى قسم كبير منه ، وكان اللون الأسود هو اللون الغالب طوال مسيرنا وينتشر فى المكان كله ، كما لو كانت البلاد من حولنا قد أخضعت من قبل لبقايا الفحم والخشب المحترق بفعل حريق عتيد جرى فى الأزمان الماضية(٣). هذه المنطقة البركانية الواسعة يمكن أن نطلق عليها اسم الحرة السوداء al Sauda(٤)التى قالوا عنها لدوتى Doughty إنها تقع فى منطقة الطويق على بعد مسير نصف يوم عبر الطويق ، غير أنها ليست عظيمة مثل كتل الحرة الكبرى على الحدود الغربية ؛ وأن تلك الحرة السوداء قد لا تمثل سوى آخر امتداد للثورة البركانية الهائلة فى اتجاه الشرق ، وأن اتجاه تلك الثورة كان أصلاً فى اتجاه الجنوب مما أسفر عن عمالقة حرة النواصف Nawasif(٥).

وبعد ذلك ، توجد شبكة من الشعاب الصغيرة يطلقون عليها اسم أمهات الشبارم Ummhat Shubarim، وهذه الشعاب تعبر تلك الأرض الجرداء السوداء ، وهى تشق طريقها إلى الالتقاء بشعب غينة Ghina، الذى انحرف خط سيره انحرافاً متدرجاً عن خط سيرنا. وسلسلة الجبال المنخفضة التى تقع خلف ذلك المنخفض مكنتنا من رؤية غدير واسع فى الأسفل ، نزلنا إليه قاصدين رابية يعلوها رجم من الحجارة تشير إلى وجود سقيا فى الركن البعيد من تلك المنطقة. وفى اتجاه تلك النقطة كان هناك مجريان واسعان من مجارى السيول ، يتزلان من جانبى الطويق المكسرين، ويشقان طريقهما خلال سطح الأرض الوعرة ، ويلتحمان مكونين شريطين من الخضرة وسط أرض جرداء يسيطر عليها اللون الأسود واللون البنى وكذلك اللون الرمادى ، ويلتقيان أسفل الرجم ويواصلان سيرهما بعد ذلك على شكل قناة واحدة فى شعب غينة وما بعده. والشعب الأول من هذين الشعبين الصغيرين هو شعب العرس Al'Ars ، وهو فى أقصى الشمال ، أما الشعب الثانى فهو شعب المرع al Mira' ؛ كما أن هذين الشعبين يخلدان ذكرى - إن لم يكن ذلك أسطورة محلية - زواج ريفى أقيم وتم بالقرب من غدران مياه

مشاش Mishash العرس فى منطقة التقائها ؛ وإن ذلك العرس جرى بمناسبة اللقاء الذى حدث بين فخذين من الدواسر : كان أحدهما قادمًا من الشمال مثلما جئنا نحن من قناة العرس ، أما الفخذ الآخر فكان يسير محاذيًا لشعب المرع قادماً من مراعى الطويق. وكانت هناك سلسلة منخفضة من جبال تفصل بين القناتين هى التى حالت بين الطرفين وبين رؤية بعضهما بعضًا إلى أن وصلا فى آن واحد إلى المكان المفتوح حول الأبيار ، وهنا ولسبب غير واضح حلت مباحثات السلام محل نزعات الحرب الطبيعية ، وتحولت الهدنة الهشة على الفور إلى سلام دائم عن طريق زواج ابنة الشيخ من ابن الشيخ. وقناة المرع تخلد ذكرى عقد ذلك الزواج من منطلق أن ذلك العقد هو تخليد لذكرى الوليمة التى أقيمت لتلك المناسبة. و الأبيار هنا عبارة عن حفر عمودية غير مبطنة فى حوض مجرى السيل الرملى على أعماق تتراوح بين أربعة إلى ستة أقدام ، وتنتشر على مساحة كبيرة ، ولكنها كانت قد أوشكت على النضوب بفعل تجمع بعض رعاة الدواسر هم وأغنامهم ، التى كانت تحتل المكان عندما وصلنا إليه ، ولكن إبراهيم استطاع ، وأنا لا أدرى إن كان ذلك بالطيبة أو الغصيبة ، أن يثبت حاجتنا الماسة إلى الماء ، واقترض لنا غديراً من غدران الأغنام ، والغدير من ذلك النوع يتكون من حامل بسيط مصنوع من أغصان الشجر يصل ارتفاعه إلى حوالى قدمين وقطره حوالى قدمين أيضًا ، ويوضع فوقه جلد لاستقبال الماء بعد جلبة من البئر ، واحتللنا واحداً من تلك الأبيار فترة زمنية قصيرة من وقفة الظهيرة ، وكنا نحاول استعواض الماء عن طريق حفر قاع البئر وتعميقها ؛ واقع الأمر ، أن الماء لم يكن نظيفًا ، ولكنه كان صحيًا تمامًا وباردًا يطفئ الظمأ.

وبعد أن استأنفنا سيرنا فى فترة العصر مشينا بحذاء سلسلة جبال الوثيثيات Wuthaithiyyat الموجودة بين الشعبين ، وبعد أن وصلنا إلى الشاطئ البعيد للغدير صعدنا إلى حافة حجرية بارزة ، ينحدر منها الطريق الرئيسى انحداراً مفاجئًا إلى مسافة مائة قدم إلى سهل واسع تحيط به حافة منخفضة من المرتفعات الصحراوية التى يغطيها الضباب وتتخللها بقع سوداء كئيبة ، التى استقبلها رفاقى بكل الغوث الذى يحسه المرهقون المتعبون عندما يصلون إلى أهدافهم. وهنا قال محمد: "لا اله إلا الله ! انظر ، أيها الصاحب ! هذه هى وسيلة Wusaila أمامنا." ردد محمد تلك العبارة

عندما كنا على أعتاب وطنه كي نشاهد المنظر. واستطرد محمد يقول: "وخلف وسيلة وفي الناحية اليسرى توجد جفرة Jufra، التي توجد فيها بيوتي الريفية والحقول التي أزرعها قمحًا ، وهنا توجد ليلى Laila ، وعمار Ammar ، والسيح Saih ، هذه هي الأفلاج ، هذا هو بلدي ، وما بعده ، وسوف نبيت فيه هذه الليلة ، فزوجتي تسكن هنا."

٢- الأفلاج الحديثة

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ! كانت هذه هي الترنيمة الكئيبة الحزينة التي أطلقها الرفاق بسبب الحمل الثقيل الذي جعلنا نُعجل ونسرع الخطى طوال النهار عبر أراضي الرجد Rajd القاحلة الموحشة التي أحرقتها الشمس ؛ كانت تلك الترنيمة هي اللحن الوحيد الذي كان محمد الصغير يتغنى به من وقت لآخر ويردده من خلفه بقية الرفاق بنفس الطريقة وبلا أي تغيير طفيف. كان ذلك اللحن أغنية جديدة عليَّ ، تشعرني بالملل الذي كان يسري إلى نفسي من منظر الأرض المحيطة بنا ، ولكن رؤيتنا لهدفنا على مرمى أبصارنا وأمام أعيننا كان يحدث فينا تغييراً فورياً وبخاصة في أمزجة رفاقي ، الذين كانوا يمرحون ويفرحون كما لو كانوا أطفالاً ، إذ كانوا يغنُّون طوال مسيرنا ، ألحاناً دنيوية تعبر عن الحب والحرب والترحال ، وكانوا في أحيان أخرى يطلقون لدوابهم العنان ، وهم يطاردون غزالاً صغيراً ، نكون قد أفزعناه من مخبئة في السهل الذي تغطيه الأدغال.

وسهل الأفلاج ، الذي أقدر قطره بما يقل قليلاً عن الأربعين ميلاً ، والذي يمثل الأراضي المنخفضة في منطقة الأفلاج - ومن منطلق أني سوف أتناول المستوطنات الموجودة فيه باعتبارها داخلة ضمن مرتفعات الطويق ، في رحلة العودة - هو حوض دائري مائل من الغرب إلى الشرق ومحصور تماماً بين الحافة الشرقية لهضبة الطويق من أحد الأجناب وصخرة البياض المنخفضة من الجانب الآخر ، فيما عدا فتحة ضيقة في الجانب الشمالي من محيطة ، تسدها الصخور الجنوبية لهضبة الرجد. وتربة سهل الأفلاج رملية غرينية خفيفة تغطيها الأعشاب والحشائش الصحراوية ، وفي بعض الأماكن الأخرى تغطيها شجيرات الأدغال القصيرة الكثيفة ، وذلك باستثناء القسم

الجنوبي الشرقى الذى تغطيه قشرة هشة من الحجر الجيرى ؛ وهذا القسم جدب وقاحل كما يرتفع قليلاً عن المستوى العام للسهل. وعبر ذلك الحوض ، وبخاصة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى يمتد حزام عريض أكثر خصوبة من بقية الحوض ؛ وداخل حدود ذلك الحوض ، الذى يتميز تماماً عن الصحراء التى على جانبيه ، وعلى الرغم من تشوه صخور تلك الصحارى هنا وهناك بفعل الرمال التى تذروها الرياح ، توجد آثار حضارة منسية منذ زمن طويل ، كما توجد أيضاً آثار متواضعة لصناعة متواضعة ، نستطيع أن نتبين من خلالها ثلاث مراحل واضحة من التاريخ المحلى هى: المرحلة القديمة ، والمرحلة الوسيطة ، وأخيراً المرحلة الحديثة . فهناك آثار قوم عاد فى الوسط ، وآثار عصر العنزة فى الجنوب ، كما أن هناك أيضاً احتلال الدواسر الحالى ومركز ثقله فى الشمال.

كنا فى ذلك الوقت نشق طريقنا صوب الطرف الشمالى من ذلك القطاع الحديث الذى نحن عليه حالياً ، وبذلك ننزل من آخر رف من رفوف الرجد عند الزاوية التى يكونها ذلك الرف مع الجزء البارز من الطويق داخل ذلك السهل. وها هى واحة ليلى Laila تقع أمامنا مباشرة ولكن عن بعد ، وفى اتجاهها يتجه الطريق الرئيسى جنوباً عبر حضافة Hadhafa، ذلك المنخفض الذى تكسوه الأدغال ويمتد من ضفاف جنوب شرق الطويق بحذاء حافة مرتفعات الرجد ، ويحمل مياه صرف تلك المنطقة من خلال عدد من القنيات الزلطية إلى شعب العرسArs' . وبعد أن سرنا على الطريق الرئيسى مسافة ميل واحد ، اتجهنا صوب الجنوب الشرقى قاصدين وُسَيْلة Wusaila عند نقطة تقع على بعد مسافة قصيرة من أول نقطة من نقاط الأفلاج المنعزلة ، أو إن شئت فقل بيت الشجارية Shajariyya الريفى المدمر ، الذى كانت توجد حوله - وذلك نقلاً عن الروايات المحلية - زراعة واسعة منذ نصف قرن فى عهد (الملك) فيصل ، على الرغم من أن أبيار ذلك البيت الريفى مهجورة حالياً وماتت منذ زمن طويل. وتربة قناة الحضافة الصخرية السوداء، والتى تنتشر خلالها الروابى البازلتية هنا وهناك ، أصبحت تغطيها الآن رقعة كبيرة مكونة من قشرة من الغرين الذى تعلوه طبقة من الملح، كما تنتشر فوقها أيضاً بقع أخرى من شجيرات الرمض، ويمر خلالها أيضاً مجرى شعب أم الجرف Jurf، الذى يتعرج بين ضفتين يبلغ ارتفاعهما قدمين ، متجهاً إلى حقول القمح فى وُسَيْلة.

قال محمد: "انظر ، هذا هو واحد من قصور الجفرة Jufra فى اتجاه الشرق ؛ والأرض التى حول ذلك القصر ملك لى ولأشقائى الثلاثة وأربعة من أبناء عمومتنا ، وقد بذلنا جهداً كبيراً ، أنفقنا الكثير أيضاً ، وعانينا فى سبيل جمع المال اللازم لذلك ، إلى أن استطعنا فى العام الماضى استصلاح تلك الأرض وتجهيزها للزراعة ؛ ونحن الآن نؤجر تلك الأرض للحضر من سكان وسيلة Wusaila نظير ٥٠٠ ساس Sas من القمح كل عام. وهذه الأرض يوجد بها ثلاثة أبيار عمق الواحد منها عشر قامات ، لقد بذلنا جهداً كبيراً فى تلك الأرض ؛ ونحن نأتى من المراعى كل عام لاستلام الإيجار. وأنا تزوجت امرأة حضرية ، تعيش فى وسيلة مع أهل والدها ، وأنا لا أراها إلا نادراً ، ولكنى سوف أراها بمشيئة الله ، هذه الليلة أو غداً ، بعد أن تسمح لى بالتغيب ، سأزورها. والمسافة من وسيلة إلى الأحساء تستغرق اثنى عشر يوماً عن طريق البياض ، ونحن لا نسقى سوى مرة واحدة طوال تلك المسافة ، وإن هذه السقيا تكون من أبيار الواسعة Wasi'a، وذلك قبل اتجاهنا إلى الدهناء. وانظر إلى تلك التلة الصغيرة التى توجد فى جنوب أرضى الزراعية على حافة الصحراء ؛ إننا نطلق على ذلك التل اسم المريقب Muraiqib، وفوق قمة ذلك التل يجلس الرعاة ليراقبوا قطعانهم فى أثناء الرعى".

وهكذا نكون قد اقتربنا من محطة الوصول. هذا هو صف طويل من القصور ، التى يبلغ عددها أربعة عشر قصراً ، منها ستة مهدمة ، تنتشر فى أرجاء أم الجرف Jurf على طول شريط زراعى ، من حقول القمح التى تتخللها بين الحين والآخر مساحات من البرسيم الحجازى ومن حقول الزعفران ، وبعض شجيرات الرمان ، التى تمتد إلى ما يقرب من ميل واحد فى اتجاه كفره(قرية) وسيلة هى وبيارات نخيلها الخمس الصغيرة. وهنا توقفنا وخيَّمنا بجوار قصر من تلك القصور الكبيرة ، مقام على حافة القناة ، ونصبنا خيامنا استعداداً لتناول وجبة العشاء. ولم ينتبه أحد إلى وصولنا ، ولكن صدرت بعض الاحتجاجات الفظة عندما ذهب إبراهيم لجلب شيء من الحطب اللازم لاستعمالنا ؛ وجاء رد إبراهيم على شكل وابل من الأحجار والسب واللعن لزعيم المعارضة ، الذى عاد إلى ناسه متوقفاً عن إزعاجنا. ولكنى تساءلت: "ولكن أين تقع أم الشناضر Umm Shinadhir، التى أرى من خارطتى أنها قريبة من قرية وُسَيْلَة؟" وأجابنى محمد قائلاً: "أنا لا أعرف مكان أم الشناضر تلك ، وما أعرفه هو أن هذه هى

وُسَيْلَة وأنها تمتد إلي ما بعد بيارات النخيل البعيدة تلك ، أما ذلك الاسم الآخر فأنا لم أسمع به قط" ولكن معنا شخصًا يدعى عبد العزيز ، واحد من حضر الخرج ، عثرنا عليه يسير وحده على قدميه فى اليوم الأول الذى تركنا فيه منطقة الخرج ، وكنا قد ساعدناه بالركوب بين الحين والأخر ، كما سمحنا له أيضًا بالبقاء معنا فى مخيمنا، وتناول الطعام معنا. وهنا قال عبد العزيز لمحمد: "ألا تعرف أن هذه هى بالفعل أم الشناضر ؟ إنها هى المكان الذى نقيم عليه مخيمنا بالفعل، إن أم الشناضر ليس سوى اسم البئر الذى جلبت أنت منه الماء – أحد أبيار وُسَيْلَة ؛ غريب منك أنت ، يا من تسكن هذه المنطقة ، ألا تعرف قريتك، شأنك شأن غريب لم ير تلك القرية من قبل ؟ ولكن الإنجليز لا يفوتهم شيءٌ ويسألون عن كل شىء ، حتى عن أسماء النباتات و أسماء الحشرات كما رأينا." ومياه وسيلة مالحة فى معظمها ، أو إن شئت فقل: همج hamaj كما يسميها الناس ، ولكن الماء العذب يمكن الحصول عليه من ثلاثة أبيار هى: أم الشناضر ، بالقرب من مخيمنا ، ومن بئرين بالقرب من قرية وُسَيْلَة فى الطرف الجنوبى من المستوطنة ؛ ويتراوح عمق هذين البئرين بين ثمانى وعشر قامات. وبيارات النخيل التى تحيط بالقرية ، التى لا تزيد عن كونها مجموعة من الأكواخ ، التى لا يزيد عددها على ثلاثين كوخًا من الأكواخ المتهدمة ، هذه البيارات بحالة يرثى لها تمامًا وتتخللها أدغال الأثل وبعض أشجار الرمان بين الحين والأخر. وأهل قرية وُسَيْلَة كلهم من الدواسر المنحدرين من فرع الأحساء ، ويصل إجمالى عددهم إلى حوالى ٢٥٠ نسمة ، بما فى ذلك سكان القصور. ويكتمل المنظر فى تلك القرية بوجود بعض القصور (البيوت الريفية) القليلة – على مسافة قصيرة فى شرقى الوادى – التى تحيط بها حقول القمح ، كما هو الحال فى أراضى النحاقة Nahaqa ، التى بها اثنان من تلك القصور ، يملكهما أمير ليلى Laila، وأحدهما يدعى قصر صباح الخير ويقع فى جنوب القرية ، والثانى يدعى قصر روّاس ويقع على مسافة بعيدة فى اتجاه الشرق.

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع عشر من مايو طوينا خيامنا استعدادًا للسير فى اتجاه قرية ليلى ، العاصمة الحديثة للمنطقة ، والتى تبعد حوالى ستة أميال جنوب غرب وسيلة. وكانت امرأتان قد خرجتا من البلدة ، كما هى العادة فى هذا المكان ، لتجمعا شيئًا من الحشائش والأعشاب لمواشيهم الموجودة على ضفاف قنال صغير ،

يسمونه الويطان Waitan ، يعبر السهل من الغرب إلى الشرق ؛ وعندما رأت هاتان المرأتان موكبنا يتقدم عبر السهل – إذ لابد أن تكون شائعة وصولى قد سبقتنا إلى ذلك المكان – وقفتا خائفتين لحظات قصيرة ، ثم ألقتا حمليهما من الحشائش والأعشاب على الأرض ، وولتا هاربتين أمامنا. وفشلت كل صرخاتنا فى طمأنتهما ، ولما كانت مسألة وصول هاتين المرأتين قبلنا إلى القرية مذعورتين أمرًا مرغوبًا أو مطلوبًا تحسبًا لحكايا الفزع والرعب ، فقد أطلق محمد العنان لناقته إلى أن أدركهما. وهنا جثت المرأتان وراحتا تسترحمانه ، وقد ازداد ارتياحهما عندما مررنا عليهما وتجاهلناهما. قال تامي، بعد أن قامتا واقفتين لتعودا إلى حمليهما من الأعشاب والحشائش: "انظر ، إنهما لم تريا شبيهًا لك من قبل، ومدرسوهن يقولون لهن إنكم تأكلون الرجال وتغتصبون النساء فى أى مكان ، إنهم أناس جهَّال وسذج" .

وعندما وصلنا أمام المبرَّز Mubarraz، شاهدنا كثيرًا من الفضول على وجوه الناس ؛ والمبرز ليست سوى قرية مهدمة تقع فى ركن من أركان الواحة فى طرفها الشمالى الغربى ؛ وقد رحب بنا فى قرية المبرز ، نيابة عن أميرها ، واحد من أتباعه الدواسر ، يدعى محمداً ، الذى اقتادنا بمحاذاة الحافة الغربية لبيارات النخيل إلى أن وصلنا إلى أرض فضاء رملية تقع أمام البوابة الغربية لقرية ليلى نفسها ، التى رسمت جدرانها وأبراج مراقبتها التى كنا نراها فى صورة جذابة ساحرة تقف خلف قناع رقيق من أشجار والتقانا فى أرض التخييم مبعوثون آخرون من طرف الأمير، جلبوا لنا معهم كثيرًا من المؤن اللازمة لإقامتنا – خمسًا من الماعز ، وطبقين كبيرين من أجود أنواع التمور ، وإناءً كبيرًا مملوءًا بالبن اليمنى ، الذى يطلقون عليه اسم برية Barriyya – إذ يجرى جلب البن اليمنى إلى منطقة الأفلاج عن طريق البر ، كما أحضروا لنا أيضًا كمية كبيرة من الخضراوات ، وكمية كبيرة من حليب الأبقار ، فضلاً عن البرسيم الحجازى علفًا للإبل. وتركت لإبراهيم مسألة تقديم الهدايا المقابلة المعتادة لخدم الأمير ، وأن يقوم على أمر ترتيب مخيمنا ، فى حين توجهت أنا وتامي – ومعنا آخرون من الجماعة – إلى مقر الحاكم نفسه للسلام عليه والتعبير له عن شكرنا واحترامنا. وكانت هناك حارة ضيقة تتجه من منطقة المخيم لتمر خلال الحدائق المسورة ، لتؤدى فى النهاية إلى البوابة الغربية ، التى كان سور المدينة يرتكز فى أحد جانبيها على مجرى قناة

من قنوات السيول مدعوماً بعدد من الأعمدة ، فى حين كان مسكن الأمير يبرز عن خط السور على الجانب الآخر ، وهو ما يطلق عليه اسم قصر الشيوخ. وعندما دخلنا البلدة سرنا فى شارع على الجانب الأيمن ، وبعد خطوات قليلة وصلنا إلى بوابة القلعة ، التى تطل من الداخل على سوق مستطيلة الشكل. وبعد المدخل مباشرة وفى صالة قذرة ضيقة ، بها مصاطب طينية على أجنابها ، كان يجلس سعد بن عفيصان ، حاكم منطقة الأفلاج ، التى انتقل إليها مؤخراً قادماً من إمارة قريتة فى الخرج. هذا الرجل الذى اشتهر بقوته وصلابته ، وإلمامه كاملاً بالتقشف الوهابى ، رأيت فيه مواهب الذوق واللياقة والأدب وحسن التصرف ، التى يعزى إليها الكثير من النجاح الذى أصابه فى تعامله مع تلك القبيلة المشاكسة والمتعبة ، فضلاً عن ذيوع صيته هو شخصيا. كان يبدو وكأنه فى منتصف العمر ، أو أقل من ذلك قليلاً ، وهو من حيث بنيته وسحنته نجدى بمعنى الكلمة ، وهو يميل إلى الطول ولكنه ليس فارع الطول ، وعظمتا خديه الضيقتان توحيان بالمكر والعناد ، ولحيته ليست غزيرة ، وصوته عالٍ وأجش، ونبراته العدوانية غير واضحة ومع ذلك فطريقته فى الكلام تسر الخاطر. وبعد انتهاء مراسم التحية ، أشار الأمير إلىَّ بالجلوس على يمينه ، وبدأ صب القهوة، قدم الفنجال الأول للأمير ، الذى قبله التزاما بالأعراف والتقاليد ، وهذا حسب مبلغ علمى، تصرف صحيح من منظور العرف والتقاليد السائدة ، على الرغم من أن عبد الله بن جلوى ، الذى لا يعد مجرد حاكم لمنطقة وإنما عضو من أعضاء الأسرة المالكة ، كان يمكن أن - يتصرف على نحو مخالف - فى حين قدم لى أنا الفنجال الثانى. وحكيت للأمير عن التجارب التى مرت بى فى الخرج ، وحكيت أيضًا عن الخزانات الكبيرة التى اعترف بأنه لم يرها. واستدرك الأمير قائلاً: "مهلاً ، نحن لدينا هنا عيون وينابيع أجمل وأروع من عيون الخرج وينابيعها ، وسوف تشاهدها غداً ؛ أما فيما يتعلق بوادى الدواسر ، فالمعروف أنه لم يفض منذ ثلاثة أجيال ، ولكنه بفضل الله فاض فى شهر رمضان الماضى فى مجراه القديم ، مندفعاً إلى حاجز رملى على بعد مسافة مسير يومين ، بل إن ذلك الفيضان وصل إلى كيميدة Kimida ؛ ولك أن تسأل متعب Mit'ab عن ذلك ، فهو شيخ من وادى الدواسر، وصل لتوه من هناك فى طريقة إلى البياض." ورددت عليه قائلاً، وأنا أنظر إلى الشيخ الذى كان يجلس على يسار الأمير ، فيما بينه وبين واحد

من أعيان البلدة ، أحسب أنه من بيت العجالين Ajjalin' : "إذا لم تكن في عجلة من أمرك لأنك تود العودة إلى الرياض ، فهل تمانع في مصاحبتي إلى الوادي وتعود معي إلى ابن سعود؟" وابتسم العربي ورد عليَّ قائلاً: "ويش المصلحة؟" وقد فسرت ذلك الرد على أنه يعني: "وهل ستكافئوني على ذلك؟ " وطلبت من إبراهيم أن يدرس ذلك الاقتراح مع متعب ، الذي فكر مليًا في عرضه ولم أره بعد ذلك. وعلقت ممتنًا لحالة السلم التي تنعم بها البلاد فيما بين الخرج و الأفلاج. ورد الأمير قائلاً: "حقا ، لم تكن تلك الأجزاء من البلاد تنعم بالأمن من قبل ، ولكن بفضل الله ثم بفضل السياسة الحكيمة لابن سعود تغير كل ذلك، كما أن القبائل غير المتحضرة لم تعد تغزو بعضها بعضًا إلا بؤامر من ابن سعود. ولم لا ، فقد قام آل مرة مؤخراً بالهجوم على أحد مخيمات بني هاجر Hajir وقتلوا منهم اثنين ، ولكن ابن جلوى قبض على سبعة من المعتدين وأودعهم السجن ، ولقد سمحت منذ فترة قصيرة لجماعة من الدواسر بالهجوم على جابرين jabrin ، التي سيعودون منها – بمشيئة الله– على وجه السرعة ، لأن تلك الجماعة مضى عليها حتى الآن أسبوعان اعتباراً من يوم انطلاقها في الصحراء ، وكانت كل ناقة تحمل قربتين من الماء وكيساً من التمر. وعندما تقترب تلك الجماعة من هدفها ، سوف تترك قرب الماء في الصحراء ، وتنفذ الهجوم ثم تعود ثانية لتحمل قرب الماء من المكان الذي تركتها فيه ، والسبب في ذلك أن تلك الصحراء كلها خالية من الماء ، كما أن الإبل في هذا الفصل من العام يصعب عليها تحمل آلام العطش. نحن في ليلى من المؤيدين الأشداء لابن سعود في وجه العناصر التي تخرج على القانون ، والتي حاولت من حين لآخر هز أركان عرشه. ومساهمتنا العسكرية لدعم ابن سعود تقدر بحوالي ٢٠٠ رجل، ولكننا نرسل إليه عدداً أكبر من ذلك في أوقات الخطر الحقيقية، وذلك مثلما حدث منذ اثني عشر عامًا عندما هاجم ابن الرشيد منطقة القصيم بدعم من القوات والمدفعية التركية[٦]. وفي تلك المناسبة انضم إلى قوات ابن سعود ٨٠٠ رجل من ليلى وحدها، ودارت مواجهة كبيرة في هدية Hadiyya، التي أطاح الله فيها بالكتائب التركية ، ثم اجتثها ابن سعود لتعود فلولها إلى بغداد ، ويتركونا في سلام.

هيأت جوالة المبخرة للمرة الثالثة الفرصة لنا كي نستأذن من الأمير ، الذي حللنا عليه ضيوفًا مدة أيام عدة ، وتحتم عليَّ مقابلته عدة مرات. فالأمير لم يخف إلى

استقبالى عندما دخلت البلدة أول مرة ، ولكنه ينهض الآن لوداعى ، بل إنه بدأ يفعل ذلك اعتباراً من الآن ، وفى كل مناسبة كنا نلتقى فيها ، معترفًا ، مثلما تناهى إلى مسمعى من إبراهيم فيما بعد ، أن تجربته فى الاتصال الشخصى مع واحد من الكفار ، تلك التجربة - التى رضخ لها بوصفه خادمًا مخلصًا لابن سعود - لم تكن ناجحة بالقدر الذى كان يتطلع إليه. وخرجت إلى السوق مع رفاقى، ذلك الفضاء مستطيل الشكل وصغير الأبعاد ويحيط به سور القلعة من أحد أجنابه، فى حين تحيط به من الجوانب الثلاثة الأخرى صفوف من المحلات ذات الطابق الواحد ، والتى يبلغ عددها حوالى ستة عشر محلاً فى كل جانب من الجانبين الطويلين ، وأحد عشر محلاً على الجانب الثالث ؛ كان ذلك الفضاء المتوسط يغص بالمشترين والبائعين الجائلين الذين كانوا يعرضون بضاعتهم فى سلال مفتوحة أو على الأرض ، فهذه حزمة أو حزمتان من العشب القادم من الصحراء ، أو من البرسيم الحجازى ، وتلك سلة مليئة بالفاكهة أو الخضراوات ، وهذا قماش مصنوع يدويًا ، ومصبوغ باللون الأزرق الكالح ، ويقال إنه جرى استيراده أو جلبه من الأحساء. وقرية ليلى هى الوحيدة التى يوجد فيها أهم أسواق الأفلاج، ولكن مستوى التكاملات فى تلك السوق كان متواضعًا. والشارع الرئيسى فى ليلى يمر عبر الجزء العلوى من السوق ، وهو يوصل إلى بوابتى البلدة الشمالية والجنوبية التى مررنا منها الآن إلى حارة تؤدى ، عن طريق بيارات النخيل ، إلى كفر (قرية) الجفيدارية Jufaidariyya فى الركن الجنوبى الغربى من الواحة. وهنا توقفنا فترة قصيرة ، لنجتاز الشارع الرئيسى الضيق اعتباراً من البوابة الشمالية إلى البوابة الجنوبية التى خرجنا منها لنمر حول الواحة غير المنتظمة لذلك الكفر ، الذى توجد فيه بوابة أيضًا ، والحائط الشرقى يفضى مباشرة إلى بيارة نخيل وليس به بوابة ، ثم عدنا بعد ذلك إلى خيامنا ، حيث كانت وجبة الإفطار فى انتظارنا. وجلس أولئك الذين من حاشية الأمير ولديهم بعض الأعمال فى مخيمنا لتناول الإفطار معنا ، فى الوقت الذى تجمعت فيه جماعات صغيرة معظمها من الأطفال والنساء حول المخيم وعلى مقربة منه لرؤية ذلك الغريب الكافر. وعلى قدر فهمى فإن موقف الناس منى هنا كان مجرد موقف من مواقف الفضول وحب الاستطلاع وليس موقفًا يعبر عن الاستياء والعداء ، ولم يحدث مطلقًا أن تحرش بى أحد أو ضايقنى خلال تجوالى فى القرية أو

الواحة ، ولكن الشكر هنا ينبغى أن يوجه للأمير الذى هدد على الملأ - بل وربما كان على استعداد لتنفيذ تهديده إذا دعت الضرورة - بقطع اليد اليمنى لكل من يضايقنى ، وقد أثبت لى حادث وقع مساء يوم وصولى ، أن هناك أناسًا فى المدينة يستشعرون تمامًا أهمية السماح لى بالوجود بينهم. وراح المخيم فى سبات عميق فى حين بقيت أنا مستيقظًا أقرأ داخل خيمتى، وفجأة سمعت أصوات شجار فى الخيمة المجاورة ، وبعد ذلك بدقيقة واحدة ، خرج من الخيمة واحد من عبيدنا كان مسلحًا بسيف وعبد آخر من عبيد الحملة مسلحًا بمشعاب[٧] واندفع الاثنان فى اتجاه بيارات النخيل. وتحسبًا للمتاعب رفعتُ صوتى مناديًا على إبراهيم الذى كان نائمًا: "يا إبراهيم ! يا إبراهيم ، ما الذى ينتويه هذان الرجلان من الذهاب إلى البيارات؟ ما الذى حدث؟ نادهم ، مخافة أن يتسببا لنا فى بعض المتاعب." وهنا عاد الرجلان على أثر نداء إبراهيم عليهما. وسألهما إبراهيم: "ماذا حدث؟" قال الرجل الذى من عبيدنا: "هذا الرجل وأنا معه ذهبنا سويًا إلى بئر فى الحديقة التى هناك كى نستحم قبل صلاة العصر ، وبينما كنا نغتسل ، داهمنا صاحب الحديقة ومعه خدمه وأبعدونا عن البئر، ونعتونا بالكفر ، ولكننا كنا بلا سلاح ، ولذلك عدنا إلى الخيمة لإحضار سيوفنا لنثبت لهم أنهم لا يمكن لهم أن يسبوا أو يلعنوا خُدَّام ابن سعود بطريقة بذيئة ووقحة." فأنبتهما على حماسهما المفرط ، انقضت الأيام الثلاثة التى أمضيناها فى ذلك المكان دون حدوث مزيد من المنغصات.

وفى ساعة متأخرة من فترة المساء ، وعندما اعتدلت درجة الحرارة ووصلت إلى ١١٢° فهرنهيتية عند الساعة الواحدة مساء تقريبًا خرجت مع بعض الرفاق لاستطلاع الواحة ومستوطناتها. والواحة تمتد مسافة ميل واحد تقريبًا من الغرب إلى الشرق، وعرضها يقدر بنصف ميل تقريبًا من الشمال إلى الجنوب ، وبيارات النخيل مهملة إلى حد ما بشكل عام على الرغم من أنها تنتج أفضل أنواع التمور التى منها الصيرى **Siri**، والصفرى **Safri**، وكلاهما كبير الحجم و"رطب"، وهناك نوع آخر من التمر اسمه نحت السيف **Naht al Saif**، وهو صغير الحجم وحلاوته زائدة ولكنهم يقولون عنه إنه "حار" ، على الرغم من أنى أكلت منه كميات كبيرة فى أثناء مقامى فى الواحة دون أن يصيبنى أى أذى ؛ هناك أيضًا بعض أنواع أخرى من التمور الشهيرة محليًا مثل الخضرى **Khadhri**، والمكويزى **Makwizi**، والمسكانى **Miskani** . وحقول القمح تكثر فى وسط الواحة وعلى

حوافها ، وبخاصة في الناحيتين الشرقية والجنوبية ، كما تكثر أيضًا حقول البرسيم الحجازى ، والزعفران ، وكذلك أشجار القطن على الحدود ، وكذلك أيضًا أشجار الرمان ، والتين ، والكروم ، ولكن الشكل العام للواحة يوحى بثراء وازدهار فى الماضى وتحلل واضمحلال فى الحاضر ، وتفسير ذلك يمكن أن يعزى إلى تاريخ تلك المنطقة المضطرب خلال النصف الماضى من هذا القرن. وقد شاهدت على جانب الواحة الشمالى وعلى جناحها الشرقى أيضًا حدائق غطتها موجات كبيرة من الرمال المنجرفة ، التى يقولون عنها إنها حديثة العهد جدا ، والتى دفنت تحتها القصور المهجورة التى نزعت عنها سقوفها ، والتى كانت فى يوم من الأيام تحمى ذلك الجزء من الواحة من عدوان الجيران عليها ومن مستوطنات السيح Saih المنافسة.

وحتى سبعنيات القرن الماضى كانت أولى مستوطنات واحة ليلى ، هى قرية المبرّز Mubarraz، التى وصلت ، بعد أفول عهد فيصل ، إلى حالة الدمار التى هى عليه الآن ، بفضل ولى عهده عبد الله ، الذى خلفه وأنزل ذلك الدمار بتلك الواحة جزاء لها على الدور الذى لعبته مع أخيه الذى كان ينافسه طوال الحرب الأهلية. ومع ذلك لم يتوقف سكان المبرز – المضطربين – عن الإساءة إلى منافسيهم سكان واحة ليلى ، التى أعاد عبد الله بناءها وتطويرها لتكون عاصمة للواحة، والناس هنا يتكلمون عن معركة شرسة دارت هنا منذ سنوات قلائل، فى الأرض الفضاء بين المدينتين وأسفرت عن خسائر إجمالية وصلت إلى خمسة عشر قتيلاً ، وجلبت على المبرز اهتمام ابن سعود ، الذى أعاد السلام والأمن إلى المنطقة بأن نفى رءوس الفتنة من ديارهم وهم : فخذ البوراس Alba Ras الفرعى، التابع لفخذ العجلان Ajlan' من حسان Hasan الدواسر. أما بقية السكان، فقد كانوا يشتملون على قسم الحجى Hajji الفرعى من الفخذ نفسه ، وفخذ الرشود the Rashud من قبيلة السبيع، الذى لم أحصل على سبب يفسر لى وجود هذا الفخذ وسط الدواسر، فضلاً عن بعض الزنوج والمولدين ، ويبدو أن كل تلك العناصر تعلمت الحكمة من الرؤساء السابقين، وراحت تعيش حياة كفاف وبؤس فى الأكواخ التى تبقت من العقاب الذى أنزله عبد الله بالواحة. وأسوار المبرز مهدمة وتستعصى على الإصلاح، كما أن منازلها التى نزعت عنها سقوفها لا تصلح إلا لقطعان الأغنام والماعز التى شاهدت الأطفال وهم يقودونها إلى تلك المنازل عائدين بها من المراعى عند

المساء. ومن الصعب تحديد عدد السكان الحالى، ولكنى أحصيت مع القطعان حوالى مائة طفل؛ وهذا يعنى أن عدد سكان المبرز ربما يكونون فى حدود خمسمائة نسمة.

وليلى نفسها، أو غصيبة Ghusiba، كما يسمونها فى بعض الأحيان تمييزاً لها عن الواحة التى تقع فيها، هى المدينة الوحيدة، ومن ثم فهى المركز السياسى والتجارى للمنطقة. وقد استفادت غصيبة (ليلى) من الكوارث التى حلت بمنافسها (المبرز) فتطورت تطوراً سريعاً خلال الأربعين عاماً الأخيرة من مجرد قرية إلى مدينة مسوّرة تسويراً جيداً تضم ٤٠٠ نسمة، القسم الغالب منهم من القسم الفرعى من العجالين Ajjalin من فخذ العجلان Ajlan من فخذ حسان Hasan الدواسر، ألد أعداء البوراس على الرغم من القرابة البعيدة التى بينهما؛ والعجالين هنا هم أيضاً زعماء أهل الواحة فى المناسبات القليلة التى تتطلب عملاً جماعياً ضد عدو مشترك، يتمثل فى أهل السيح Saih . والعجالين هم أيضاً أبطال الواحة فى مواجهة العدوان الخارجى، وهم أيضاً أبطال المدينة فى مواجهة جيرانها؛ هذه البيوت الثلاثة من بيوت العجالين ما إن تخلصت بفعل العمل المشترك فيما بينها أو بفعل خلفائهم المؤقتين من الخطر الخارجى الذى كان يتهددها حتى طفقت تتقاتل فيما بينها على سيادة المناطق التى تمتلكها ، وذلك لا لشىء سوى حب الشجار والقتال الذى يعد صفة من صفات السلالة الدوسرية. ولكن الدواسر فى السنوات الأخيرة لم يعترفوا بأى أحد أقوى منهم سوى ابن سعود الذى أفزع رجال القبائل القساة وأخضعهم، كما أدرك أيضاً حجم العنف الذى ترتب على العداوات التى جعلت السلامة والأمن بينهم أمراً مستحيلاً، مما جعل ابن سعود يمضى قدماً فى إزالة كل أسباب الخلاف المستقبلى عن طريق إخضاع السكان بكل فئاتهم لتبعية واحدة لحاكم أجنبى ليس مسئولاً إلا أمام نفسه. وآخر مرة برزت فيها ليلى على مسرح الأحداث – والتى حدثت نتيجة خطأ صغير من جانب تلك الواحة – فى التاريخ السياسى للأراضى الوهابية، كانت فى عام ١٩١٢ الميلادى عندما حدث تمرد على ابن سعود من قبل ابن عمه سعود بن عبد العزيز بن سعود، حفيد سعود ولد فيصل. وقد رفع المتمرد بيرقة فى مدينة الحريق، حيث أعلن قسم كبير من سكان الحريق ولاءهم للفرع الأكبر من الأسرة المالكة فى مواجهة الحاكم الفعلى فى ذلك الوقت، ولكن ابن سعود أطبق على المتمردين قبل أن يكتمل استعدادهم. وجرى

سلب الحريق ونهبها جزاء لها على خيانتها وشن الحرب على الآخرين، أما الحوطة فقد استعملت الحكمة ورفضت السماح للمتمرد الهارب هو وقواته من الدخول إليها، وهنا هرب ذلك المتمرد جنوبًا إلى الأفلاج وأعطى هو وقواته حق اللجوء إلى ليلى. ولكن ظهور ابن سعود أدى إلى طرح كل أفكار المقاومة جانبًا، وقام أهل المدينة بتسليم كل أولئك الذين لم يهربوا مع سعود إلى ملجأ أكثر أمنًا فى الحجاز، إلى ابن سعود حسب تقدير أهل ليلى؛ واقتيد هؤلاء الرجال، وعددهم تسعة عشر رجلاً، كان من بينهم عدد كبير من أعيان الحريق، اقتيدوا أزواجًا لإعدامهم على الملأ، على حبل المشنقة التى نصبت أمام البوابة الرئيسية، التى كان يشرف منها ابن سعود، فى أبهة وعظمة، على تنفيذ حكمة القاسى. وسرت بين العرب المجتمعين موجة من الرعب ولم يسمع صوت الفتنة أو التمرد فى نجد مطلقًا بعد ذلك.

ومدينة ليلى تحتل موقعًا متوسطًا على الضفة الغربية للواحة على جانب فرع من أفرع سيل باطن الحمر ، الذى تبدأ قناته الرئيسة قريبة من الحما فى مرتفعات الطويق، ثم تمر بعد ذلك فى جنوب الواحة مرورًا بالخرفة Kharfa والعمار Ammar وصولاً إلى السيح. وفرع ليلى يمر خلال المدينة من أسفل السور بالقرب من البوابة الرئيسية ثم يمر بعد ذلك بالقرب من البوابة الشمالية لتصل إلى منخفض موجود على ذلك الجانب. وعلى يمين البوابة الرئيسة توجد الكتلة المهيبة لقصر الشيوخ Qasr Al shuyukh أو إن شئت فقل المقر الرسمى للأمير بأبراجه المرتفعة عند كل ركن من أركانه، ونجد فى القسم الجنوبى الغربى من المدينة قلعة هى، مقر معجب بن تركى، رئيس العجالين Ajjalin، الذى يسكن مرءوسوه من الفخذ نفسه: خزّام Hazzam بن حزام Khazzam وثلاب Thallab بن فلاج Fallaj، فى منزلين أصغر قليلاً من منزله، ويقعان فى وسط المدينة. لقد تحدثت كثيرًا عن السوق؛ ولكنى لم أر المسجد الرئيسى. والقسم الشمالى الغربى من المدينة على الضفة الغربية من مجرى السيل يحتله فقراء المدينة، فى الوقت الذى يقتصر وجود الزنوج الأحرار على مربع سكنى منعزل مكوّن من منازل وكفور صغيرة من طراز المرير Marair والحزيمى Huzaimi، تقع كلها خلف أسوار المدينة فى الجانب الشمالى من البلدة فى اتجاه المبرز Mubarraz . وكتالوج المستوطنات فى هذه الرقعة من البلدة يكتمل عندما نضيف إليه كفور

الجفيدارية Jufaidariyya وكفور الرماحى Rumahi، التى لا تعدو أن تكون مجموعة من الأكواخ المهدمة من حول مسجد أنيق يقع فى قلب الواحة. وسكان ليلى لا يزيدون بأى حال من الأحوال عن ثمانية آلاف نسمة.

وفي الجنوب الشرقى من واحة ليلى، وعلى بعد مسافة ثلاثة أميال تقع بيارات نخيل السيح Saih، وعلى الرغم من كون السيح أهم واحات المنطقة المزدهرة، فإنها تنتمى بحكم موقعها الجغرافى وبحكم تاريخها، وبحكم خصائصها الزراعية أيضًا، إلى الأفلاج القديمة أكثر منها إلى الأفلاج الحديثة. وعلى مسافة حوالى ميلين من مخيمنا وفى أقصى الجنوب الغربى يقع الكفر الصغير جدا هو وواحة عمّار Ammar، التى زرتها فى اليوم الثانى من مقامنا فى ليلى؛ وعلى بعد ثلاثة أميال فى اتجاه الجنوب الغربى من هذه النقطة تقع مجموعة مكونة من ثلاث واحات متجاورة - الخرفة Kharfa، والروضة Raudha ، وسوغو Sughu - مررنا بها عندما استأنفنا مسيرتنا جنوبًا فى اليوم الثالث.

وواحة العمّار، التى تحدها أكوام الرمل المرتفعة من الناحية الشرقية، تلك الأكوام التى تبدو وكأنها زحفت وغطت جزءًا كبيرًا من المزرعة الرئيسية، لا تزيد حاليًا عن كونها شريط ضيق من النخيل يبلغ طوله حوالى ميل تقريبًا ، وعرضه حوالى نصف ميل أيضًا على وجه التقريب؛ ويوجد وسط هذا الشريط الضيق كفر (حِلَّة) صغير محكم يحيط به سور عليه أبراج للمراقبة، ويفوق من حيث الارتفاع والتحكم كل الأسوار الحديثة التى أقيمت فى المستوطنة. والفضاء المسوَّر واجهته تقدر بحوالى مائة خطوة فى اتجاه الشمال والجنوب وحوالى ٢٠٠ خطوة فى اتجاه الشرق والغرب؛ وهناك شارع يصل بين البوابة الجنوبية المهدمة بفتحة فى السور، يستعملها الناس كبوابة فى الجانب الشمالى من السور؛ فى هذه المنطقة يوجد قصر الأمير، وهو عبارة عن مبنى من طابقين، حوائطه سميكة وعليه برج ضخم، يقابله المسجد الرئيسى الذى يطل على ميدان القرية الصغير. وبيارات النخيل ليست كثيفة وبحالة سيئة، وهى تحيط بالكفر من جميع الجوانب باستثناء الناحية الجنوبية التى يوجد بها بعض حقول القمح، كما تنتشر فيها هنا وهناك أماكن الزراعات الثانوية، قليل من القطن، وعدد صغير من أشجار الخوخ ، وأشجار الرمان ، وشجرة أو شجرتان من أشجار الليمون، واليقطين الذى يسمونه التورانج Turanj . واسم الواحة لا يعبر عن شخصية أو هوية أهلها الذين

ينتمون إلى العمّار أو الفخذ الأول من قسم العمارية من آل حسن Al Hasan الدواسر، الذين كانوا مجتمعًا قويًا فى وقت من الأوقات على الرغم من أن الزمن والأنواء قلّلا عدد أولئك الناس فى مستوطنتهم الأصلية إلى ما لا يزيد على ٥٠٠ نسمة.

والخرفة Kharfa واحدة من المستوطنات الواسعة ، ولكنها ليست مزدهرة أو رائجة، ويوجد بها بعض بيارات النخيل المتحللة، وبعض حقول القمح المهملة، وبعض أدغال الأثل والسنط الضعيفة، التى تتخللها على بعد مسافات متساوية بقايا البيوت الريفية (القصور) وبقايا مجموعة من الأكواخ التى هجرها سكانها منذ زمن طويل؛ ولا يوجد بين تلك الأنقاض ما يكسر حدة ذلك الجدب الممل سوى قرية عديمة الشكل توجد وسط ذلك الجدب ، ومنازلها مبنية من الطين ومهدمة، كما يوجد أيضًا قصران جرى إنشاؤهما فى الآونة الأخيرة. ويسكن فى قصر من هذين القصرين محمد بن شخبوط Shakbut، رئيس العناصر المستقرة فى الغاياتات Ghayaitat، فخذ مستقل من الدواسر يسكن هذا المكان منذ زمن طويل، أما القصر الثانى، الذى يعرف باسم قصر الضيكان Dhikan، فهو ينتمى من الناحية الشكلية إلى عضو آخر من الفخذ نفسه، والأرجح أن يكون ذلك القصر، "المنزل الحضرى" لمحمد بن عقيّان Uqaiyan زعيم البدو فى الغاياتات، الذى توجد مراعيه فى مرتفعات الطويق حول مستوطنة الحمر Hamar . ونستطيع المبالغة بعض الشىء فى تقدير سكان الخرفة بما لا يزيد على ١٠٠٠ نسمة، ولكن يتحتم علىَّ أن أقدر عدد أولئك السكان بأقل من هذا الرقم، اللهم إلا إذا افترضنا وجود شىء من التكدس داخل حدود القرية الضيقة، التى قدرت أبعادها الخارجية بحوالى سبعين ياردة طولاً وخمسين ياردة عرضًا. وباطن الحمر يفيض على القسم الشمالى من المستوطنة كل عام فى موسم السيول والفيضان، والأبيار التى تتراوح أعماقها بين خمس قامات وثمانى – طبقًا لموقع البئر وطبقًا أيضًا لموسم السنة – توفر للسكان كمية منتظمة من الماء لاستعمالهم الشخصى ولرى المحاصيل. وهناك صف من القصور المهدمة تتخلله بعض غابات الأثل، هو الذى يفصل واحة الخرفة عن واحة الروضة المجاورة لها فى الناحية الجنوبية؛ وواحة الروضة يستوطنها آل مبارك Mubarak من فخذ العمارية الفرعى، وهم أبناء عمومة آل عمار، Ammar . وسكان واحة العمار الذين يقدرون بحوالى ٥٠٠ نسمة يتوزعون على ثلاثة كفور (حلل) صغيرة متجاورة :

الرقيصة فى الشمال، والروضة نفسها فى الوسط، وهى أكبر هذه الكفور الثلاثة، ثم كفر ثالث يوجد فى الجنوب ولم أتمكن من الوصول إلى اسمه ، وبيارات النخيل المبعثرة، هى وحقول القمح التى تنتشر حول الكفور الثلاثة تختلف اختلافًا طفيفًا عن الخرفة اللهم باستثناء أنها أقل بؤسًا عن الخرفة، كما أنها أقل منها مساحة أيضًا. ومع ذلك فإن الكفر الأوسط يتميز على الكفور المحيطة به بأنه يكاد يكون جوهرة معمارية صغيرة، وأبراج المراقبة الموجودة على أركان السور الذى يحيط بالكفر، هى ومئذنة المسجد الموجود داخل السور تشكل مجموعة جميلة من الذرى السامقة المزخرفة تقف متشامخة على الأكواخ الموجودة أسفلها. وإلى الجنوب مباشرة من الروضة تقع واحة سوغو Sughu الصغيرة التى تكاد تكون جزءًا من واحة الروضة. وهذه الواحة تتكون من كفر مسوَّر صغير، وقلة قليلة من القصور المتناثرة، ومساحة صغيرة من بيارات النخيل التى تحيط بها أراضى زراعة القمح، التى يعيش عليها عدد من السكان لا يزيد بحال من الأحوال عن ٢٠٠ نسمة. وخلف واحة سوغو يقع المدق الموصل إلى الصحراء الرملية فى اتجاه البديعة Badia التى نراها غير واضحة عن بعد.

والوسيلة، هى وليلى، وعمَّار، والخرفة وكذلك سوغو ، هى مضارب الأفلاج الحديث، التى يعد شعب باطن الحمر عمودها الفقرى. ولحن التحلل يسرى هنا فى كل مكان. فهذا عرق متحلل ومشاكس يحيا حياة قلقة ومضطربة وسط حطام منازل كانت زاهرة فى يوم من الأيام، وحقول وبيارات نخيل كانت مثمرة فى يوم من الأيام، ويعزو بؤسه، مستخفًا بالمقدسات الدينية، إلى الله. صحيح أن السلام قد هبط على تلك الأرض، ولكنه جاء بمثابة وصيفة لعقيدة ضيقة، ولم تظهر أية إشارة أو علامة من علامات الجد والمثابرة اللذين يمكن أن يعيدا بناء الحيوية التى قضت الحرب عليها. وسألنى الأمير، بينما كنا جالسين فى مساء اليوم الثانى لوصولى، فوق سطح قصر الشيوخ: "ما رأيك فى هذه الأرض؟ ألم تكن خصبة فى الأزمان السابقة، ألا يمكن أن تصبح كذلك من جديد، إن أراد الله لها ذلك؟" ورددت عليه قائلاً: "صحيح إن الأرض خصبة بالفعل وغنية بالاحتمالات، ولكن الناس، مثل أهل الخرج لا يبذلون الجهد اللازم لتسخير المواد المتيسرة لهم لخدمتهم. لقد شاهدت بلاد صحراوية جرى استزراعها عن طريق الرى، وأنا لا أصدق أنكم مع توفر الماء لديكم، ينبغى أن تتركوا صحراءكم بلا

زراعة، فى حين أننا نستطيع عن طريق آلاتكم المناسبة وعن طريق المضخات الضخمة، غمر تلك الأراضى بالماء الذى يمكن جلبه من الخزانات الجوفية الكبيرة. لعل وعسى يحدث ذلك." واستطردت فى حديثى مع الأمير قائلاً: "قد أكون أنا الواسطة التى ستعمل على جلب تلك المضخات الضخمة اللازمة لكم." [فقال] "بمشيئة الله، سوف تستزرع هذه الأرض، والله ، نحن لا نسأل أحداً بعد الله شيئاً، ثم من بعده ابن سعود." وعندما أحسست أننى أسأت إلى مضيفى عن غير قصد، سارعت إلى التأكيد له على أننى ناقشت أموراً من هذا القبيل مع ابن سعود، وأن الأمر بطبيعة الحال، سيكون بناء على رغبته، وأن الحكومة البريطانية سوف تزوده بالآلات الزراعية. وألح الرجل وهو يقول: "ولكن ما هذا الذى أتى بك إلى هنا؟ المؤكد أن صداقتك مع ابن سعود مستوحاة من الغش Ghish (الدوافع الخفية)، وإلا ما هى أسباب مجيئك إليه، وما هى أسباب تجوالك فى البلاد؟ وهم يقولون: إنك تسأل عن كل شيء وتدون كل ما تحصل عليه." وأكّدت للأمير، إننا بعيداً عن الطمع فى أراضى نجد القاحلة، فإننا نود فى تخليص أنفسنا من عبء مناطق عربية أخرى أكثر ربحاً وفائدة، كما هو الحال فى كل من العراق وفلسطين، اللتين اضطرتنا الظروف فيهما إلى الاحتفاظ بهما وإدارتهما إلى أن يجرى اتخاذ ترتيبات أخرى بشأنهما. كما أكدت له أيضاً أننا نسعى إلى صداقة ابن سعود وننشدها، كما أكدت له أيضاً أننا نسعى إلى صداقة العرب بشكل عام، باعتبارهم وسيلة من وسائل إقرار السلام والأمن على حدودنا. ورد الأمير عليّ بقليل من الاقتناع قائلاً: "الله أعلم. كما أن ابن سعود يعرف جيداً ذلك الذى يخدم القضية الإلهية ومصالح المسلمين ، نصرهم الله على الكفار. ونحن فى العارض كنا مداينين Mudaiyinin وكلنا من الإخوان، ولكن فى هذه الأجزاء وفى الوادى أيضاً لم ينضم إلى هذا الركب سوى قلة قليلة من سكان تلك المناطق؛ إنهم إناس من البدو وجهال، ولكن ابن سعود يعرف كيف يتعامل مع أمثال أولئك الناس، وسوف يصبحون مثلنا فى القريب العاجل إن شاء الله." وقد أدهشنى أن أستمع لرأى هذا الأمير فى رعاياه، والسبب فى تلك الدهشة أننى فى حديثى مع ابن سعود وجدته يتكلم دوماً عن سكان الوادى بصفة خاصة على أنهم من أشد المؤيدين لقضيته ومن أشد الملتزمين بها؛ ولكن مسألة تفسير الفارق بين السيد والخادم أمر فى غاية البساطة، فالخادم ينظر إلى

العقيدة الجديدة باعتبارها هدفًا فى حد ذاتها، وأن ذلك الهدف ، وأنه لم يتحقق بعد بين رجال القبائل الهمجيين فى الجنوب، فى الوقت الذى ينظر فيه ابن سعود إلى العقيدة الجديدة باعتبارها وسيلة لتحقيق هدف سياسى أكثر منه روحى، معتبراً تشدد الدواسر أداة تخدم سياسته أكثر من الالتزام المتشدد بين شعبه من ناحية، وحماس مجتمعات الإخوان المتشدد من الناحية الأخرى.

وعند الساعة الخامسة من صباح اليوم السابع عشر من شهر مايو، وفى الوقت الذى كان يجرى فيه طى معدات المخيم وتحميلها على الدواب لاستئناف المسير، كنت أنا وتامى ومعنا عدد صغير من الرفاق ، قد توجهنا إلى البلدة لتوديع الأمير واستئذانه فى الرحيل ، وكنت قد سبق لى أن أرسلت للأمير بعض الهدايا البسيطة فى أثناء الليل. كانت صالة القلعة مهجورة فى تلك الساعة الباردة، ووجدت سعد بن عفيصان ومعه جمع طيب من الزوار مجتمعين فى غرفة كبيرة ولكنها قذرة، فى الدور الأرضى. كانت بعثة جبرين Jabrin الذى سبق أن تحدث لنا عنها، قد عادت بخفى حنين، بينما راح قائدها سهمى Sahmi بن سهمى، شيخ فخذ الهواملة Huwamila من آل – حسان Al Hasan ذلك الرجل الطويل، رشيق الحركة، صاحب الصوت الناعم الأنثوى الذى يناسب بشكل غريب مظهره الخارجى وسلوكياته الضعيفة، يقص على الحاضرين خبراته وتجاربه وهو يزحف بكل طوله تجاه المدفأة. وواصل سهمى حديثه قائلاً: "الله يسلمك يا الأمير" بعد أن حيانى سعد ، وأوجز لى الأمر الذى يدور من حوله الحديث "ركبنا دوابنا ليلاً ونهاراً طوال سبعة أيام إلى أن اقتربنا من جبرين Jabrin وكان ذلك قبل طلوع الفجر، وبركنا إبلنا وأرسلنا بعض الرجال لاستكشاف الأرض فى الوقت الذى أدينا خلاله صلاة الفجر ونلنا قسطًا من الراحة. ثم عاد إلينا جواسيسنا ليخبرونا أنهم رأوا حراسًا من آل مرة Al Murra يراقبون الأرض من فوق سلسلة الجبال ، إذن، ما جدوى الانتظار؟ لقد بلغنا من القلة مبلغًا يتعذر معه علينا الهجوم على آل مرة إلا عن طريق المباغتة والمفاجأة، وخشينا أن يكونوا قد علموا بوجودنا وبالتالى يخرجون للهجوم علينا، وعليه ركبنا دوابنا من جديد عائدين إلى هنا كما ترون، حفظك الله! والله، دوابنا جوعانة وظمآنة." قال الأمير: "الله يقويك، يا سهمى! والله يا صاحب! هذا السهمى، لم يعد من قبل من أى غزو إلا ودوابه محملة بالغنائم".

٣- الأفلاج القديمة

مسـألة أن منطقة الأفلاج شهدت فى الماضى البعيد شيئًا من الازدهار ، يتفوق على كل ما تشـهده فى الأزمان الحديثة، تشهد عليها الموروثات المحلية ولا يتطرق إليها أبداً احتمال الشك نظراً لأن تلك المنطقة تحتوى على بقايا نظام زراعى لم تعرفه الجزيرة العربية الحديثة، فضلاً عن أن تلك البقايا تنتشر على مساحة من الأرض يبلغ طولها حوالى عشرين ميلاً من الشمال إلى الجنوب على امتداد الحافة الشرقية للقطاع السكنى من المنطقة، فوق ومن حول المنحدر الغربى لمنطقة مستوية ومنخفضة الارتفاع من صخور الحجر الجيرى، تمتد تحت اسم الغضارة Ghadhara فى اتجاه الشرق إلى أن تصل إلى حافة برية البياض القاحلة التى تحيط بتلك الصخور الجيرية. والذى لا شك فيه أن مركز تلك الحضارة القديمة يتمثل فى سلسلة شهيرة من خزانات المياه التى تغذيها العيون، والتى مازالت موجودة إلى يومنا هذا، تكشف للصم عن إمكانيات تلك المنطقة الزراعية التى أهملت وصارت يباباً، فوق قمة الهضبة المستوية التى تقع إلى الشمال قليلاً من النقطة المركزية فى تلك المنطقة، هذا فى الوقت الذى يبدو فيه أنه كانت هناك منطقتان - وربما أكثر من ذلك - سكنيتان فى تلكم الأيام السعيدة، إحداهما عند الطرف الشمالى لهذه المنطقة بالقرب من واحة السيح Saihالحديثة، والمنطقة الثانية فى الجنوب بالقرب من بيارات النخيل البائسة فى الغوطة Ghauta. والمنطقة بكاملها تقع جنوب قناة (مجرى) باطن الحَمَر Batin al Hamar، الذى يمر طرفه الشرقى خلال بيارات السيح، وشرقى خط يبدأ من ليلى ويتجه جنوباً ويصل إلى شرقى البديعة، ولم يكن له مطلقًا عَرْض يذكر، على الرغم من أننا يجوز لنا القول: إن واحات منطقة البديعة، هى وما حددته أنا على أنه الأفلاج الحديثة ، لم تكن بلا زراعة يوم أن كانت بقية المنطقة فى قمة ازدهارها. والحدود الغربية للأفلاج القديمة، وكذلك الحدود الغربية أيضًا التى كانت تزرع اعتماداً على خزانات المياه، تتميز بحزام من الكثبان الرملية، التى تزداد عمقًا واتساعًا فى القسم الشمالى على طول ضفتى باطن الحَمَر، وتتحف تدريجيًا إلى أن تصل إلى مجرد شريط ضيق من سطح رملى يتجه صوب البديعة.

وضيق الوقت الذى أتيح لى خلال الزيارتين اللتين قمت بهما لدراسة تلك المنطقة المهمة لم يسمح لى - بطبيعة الحال - بعمل مسح دقيق لأراضى تلك المنطقة، إن

الارتفاعات التى لابد من أن تكون قد تحكمت فى تصميم منظومة الرى الشاسعة والمعقدة التى وقفت على آثارها فى كل ركن من أركان هذه المنطقة ، ولكن مجارى قنوات السيول التى تعبر سهل الأفلاج، وكذلك وضع خزانات المياه نفسها، فضلاً عن تنظيم قنوات الرى ، ترك لدى انطباعًا عامًا مفاده، أنه فى الوقت الذى ينحدر السهل فيه انحدارًا متدرجًا من الغرب إلى الشرق، فإن ذلك الانحدار تعترضه هضبة الغضارة Ghadhara المرتفعة، التى تبرز متجة صوب الغرب من حافة البياض Biyadh على شكل منحدر شبه دائرى، ثم تأخذ فى الانحدار فى الاتجاه نفسه نحو الأسفل، كما تخرج من ذلك المنحدر منحدرات فرعية أخرى تتجه ناحية الشمال وناحية الجنوب ، ثم تبدأ فى التوحد بصورة متدرجة وتبدأ فى الانحسار ناحية الشرق لتصبح جزءًا من الانحدار العام للسهل؛ كما ترك لدى انطباعًا آخر مفاده أن خزانات المياه التى تقع على رف بالقرب من قمة المنحدر إنما هى من فعل سلسلة من مجارى الرى تتجه نحو الأعلى ونحو الأسفل فى اتجاه الشمال، واتجاه الغرب والجنوب. وأنا لا أستطيع أن أقطع بأن تلك كانت منظومة الرى القديمة، ولكن تلك الأجزاء التى بقيت من المنظومة ولا تزال تعمل إلى يومنا هذا تؤكد وجهة النظر المطروحة هنا. وهذه الأجزاء تشتمل على: أولاً، مجموعة من القنوات التى تستمد ماءها من خزانات المياه الشمالية، وتنساب فى اتجاه الشمال أيضًا كى تروى نخيل السيح. ثانيًا، قناة جوفية، لم أستطع اكتشاف امتدادها على الرغم من أن امتدادها الواضح فى النقطة التى شاهدتها منها كان يتجه جنوبًا فى اتجاه الغوطة. بينما كانت هناك مجموعة ثالثة من القنوات، لا تستعمل حاليًا، تمتد قادمة من المنطقة المجاورة للخزانات بالقرب من حطام قرية المخاضة Makhadha، فى مجرى شعب باطن الحَمَر، وتتجه غربيًا أو بالأحرى فى الاتجاه الشمالى الغربى.

عيون الأفلاج، أو إن شئت فقل: خزَّانات الأفلاج، ليست سوى تكرار على نطاق أكبر وأبرز لعيون الخرج التى سبق أن تناولتها بالوصف. وعيون الأفلاج مثل عيون الخرج يشيع الناس عنها أنها ذات أعماق سحيقة، وهى مثل عيون الخرج تتغذى بالمياه من مصادر جوفية سرية، توقف البعض منها عن العمل، وقد قامت الوكالات البشرية بأحداث مخارج لتلك العيون على شكل ممرات مائية جوفية من قبيل الكريز Kariz (سبق الحديث عنه فى الخرج)، الذى كان ولا يزال، ولكن بقدر معلوم، يحمل مياه تلك

المخارج إلى حقول القمح وبيارات النخيل المحيطة بها. وما تزال مياه تلك العيون داكنة وصافية داخل تلك الحفر نفسها، وتنساب على شكل مجارٍ مائية لها نفس الشفافية المعدنية التى لمياه الخرج. ومع ذلك فإن نقاط الخلاف بين المجموعتين واضحة تمام الوضوح مثل نقاط التشابه. ففى الأفلاج يوجد ما لا يقل عن سبع عيون ، أو ثمان، إن قدر لنا أن نحسب العين الخالية من الماء التى ملأها التراب ضمن هذه العيون؛ وعيون الخرج الثلاث كانت موحدة الحجم على وجه التقريب ويتراوح حجم الواحدة منها بين ٦٠٠٠ ياردة مربعة و ٧٠٠٠ من حيث المساحة السطحية، أما عيون الأفلاج فيتردد حجمها بين الحفرة العمودية الصغيرة التى يصل طولها إلى ما يقرب من عشر ياردات، وعرضها حوالى ثلاث ياردات عند السطح خلال انحدار مائل ينزل إلى بحيرة عادية طولها يصل إلى ثلاثة أرباع الميل وعرضها حوالى ربع ميل فى أوسع أجزائها؛ ومستوى الماء فى تلك الخزانات يصل إلى الحافة ، وذلك على العكس من خزانات أو عيون الخرج - فيما عدا عين مخيسة Mukhisa - والجدران المنحدرة لعين الضلاع al Dhila والعين السمحة Samha اللتين لهما مثيلان مقلدان فى اثنين فقط من عيون الأفلاج. وأخيراً، إذا كان ترتيب عيون الخرج يبدو عشوائيًا ويوحى بعدم وجود أية علاقة أو صلة بين العيون الثلاث، فإن عيون الأفلاج Aflaj تقترب من بعضها ، وهى تقع على بعد مسافات متساوية من بعضها البعض على طول محيط قوس ، لتكوِّن بذلك سلسلة متصلة، هذا إذا لم توحِ أن المجموعة كلها تشكل حوضًا متصلاً - بالشكل الذى لا تزال عليه تحت سطح الأرض - ثم أصبحت بعد ذلك وحدات منفصلة. والغطاء الكامل لما يبدو أنه تجويف لواحدة من تلك العيون - حفرة بدون أبعاد تذكر - هو والحجم الصغير لعين أخرى قد يوحيان بأن عملية من ذلك القبيل لا تزال مستمرة؛ ولكنى يتعين علىَّ عدم الدخول فى مناطق خارج حدود معرفتى؛ إذ يكفينى مجرد تسجيل الحقائق.

والقوس الذى تقع عليه العيون، يقع فى اتجاه الغرب على وجه التقريب ، وطرفاه يشيران إلى اتجاه الشمال والجنوب على رف من رفوف الهضبة المستوية التى تقع خلفها صخرة منخفضة غير منتظمة، يمتد أكثر أقسامها طولاً وانحداراً محاذياً طرف البحيرة الغربى، ويسير محاذياً للبحيرة، التى سبق أن تناولتها بالوصف، أو إن شئت

فقل: الخزان الذى يقع فى أقصى الجنوب، والذى يستمد اسمه من أم الجبل Umm aljabal، وذلك مستمد أيضاً من الحقيقة التى مفادها أن الصخرة تهبط فجأة من ارتفاع عشرين أو خمسة وعشرين قدماً إلى امتداد منحدر هيِّن من الحصى يمتد حتى الحافة الشرقية لتلك الصخرة، وهذه البحيرة تعد بلا منازع المعلم الطبيعى البارز لمنطقة الأفلاج ، بل وربما فى وسط الجزيرة العربية كلها، التى لا يوجد فيها معلم مائى له مثل هذه الأبعاد. فى الأزمان السالفة، زار المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية مجموعة مختلفة من الزوار الأوربيين، وسجل أولئك الزوار ، نقلاً عن المعلومات التى حصلوا عليها من المواطنين، وجود بحيرة عظيمة فى مكان ما من داخل شبة الجزيرة، أطلقوا عليها اسم بحر سالومة Bahr Salume، وبناء على ذلك دوَّن علماء الخرائط على خرائطهم بحيرة ضخمة الأبعاد مع اقتراح غامض مفاده أن تلك البحيرة تستمد ماءها من فيضان ماء وادى الدواسر وتدفقه داخل حوض تلك البحيرة العظيمة. ولكن المعايير العلمية الدقيقة، إضافة إلى صمت كبار المستكشفين المطبق من أمثال بيرتون Burton، ودوتى Doughty، وبركخاردت Burkhardt، هم وآخرين معهم، بحكم تأهلهم لاستيفاء المعلومات من المواطنين وفرزها وغربلتها، أسفر عن حذف ذلك المعْلَم، باعتباره معلماً أسطورياً أو خرافياً، من جميع الخرائط الدقيقة؛ ولكن قدامى رسَّامى الخرائط كانوا هم الأقرب إلى الحقائق الواقعية ممن جاءوا بعدهم، على الرغم من زعم بالجريف الذى قال إنه زار الأفلاج فى أثناء ترحاله فى شبه الجزيرة العربية، وربما يكون قد أنقذ رسامى الخرائط فى عصره، ورسامى الخرائط فى الأجيال التى جاءت من بعده، من خطأ يعد هو المسئول عنه إلى حد بعيد وبلا أدنى شك، ومر ذلك الخطأ من ناحية أخرى، ليترك شرف إعادة الخريطة التى رسمها رساموا الخرائط القدامى إلى خريطة الجزيرة العربية ، على الرغم من أن أبعاد هذه الخريطة كانت أكثر تواضعاً من أبعاد الخريطة التى رسمها الرسامون القدامى، وتختلف اختلافاً كبيراً عنها من نواح أخرى. والمدهش حقاً، إن وجود مثل هذه البحيرة هى ومجموعات العيون فى كل من الخرج والأفلاج استرعى وتحدى فضول كثير من المستكشفين الأشداء، الذين دونوا عن بعد، واعتماداً منهم على قوة المعلومات المحلية فقط، مواقع مجموعات واحات الأفلاج وحدها هى ووادى الدواسر - ناهيك عن الوحدات الأخرى - فى مواقع هى أقرب ما تكون إلى

مواقعها الحقيقية على الخريطة، وهنا يتعين عليَّ الاعتراف بجهلي عن وجود مثل تلك المجموعات من الواحات إلى أن وجدت نفسي على حافة عيون الخرج. ومبلغ علمي، أن تقصي أسباب ذلك الشذوذ الظاهري ليس أمراً صعب المنال: أولاً، لأن العرب يطلقون على تلك الخزانات اسم عيون أو ينابيع ولا يحاولون التمييز بين تلك العيون والينابيع المعتادة في أماكن أخرى. وثانيًا أن قلة قليلة من العرب من خارج تلك المنطقة ارتضت تلك المصادر ولم تكلف نفسها مئونة زيارة تلك العيون ، إذ يتجلى ذلك بشكل خاص في عيون الأفلاج، أما عيون الخرج فالناس يعرفونها تماماً.

وبحيرة أم الجبل al Jabal شكلها يشبه حدأة ، لها ذيل مستدق الطرف وجناحان كبيران مفرودان على الجانبين ناحية الجنوب؛ وهذه البحيرة تقع في قاع منخفض واسع ضحل، القسم الأكبر من مساحته يوجد حول حدود المياه وتغطيه الحشائش الغزيرة، والسَّعَّادي، والبوص، التي لاحظت في وسطها مجموعة من مواشي تلك البلاد وهي ترعى. وعند أقصى الطرف الشمالي لتلك البحيرة، ولكن فوق المستوى الحالي للمياه، لاحظت منخفض إحدى القنوات المتجهة شرقًا، التي ربما كانت قنالاً أو مجرى مائيًا يوم أن كان الماء يصل إلى ارتفاعات أكثر من ذلك، إذا ما صح ذلك، فهو يعني أن الناس هجروا ذلك القنال وتخلوا عنه عندما انحسر الماء عنه نتيجة نضوب العين أو جفافها ، والناس هنا يصفون البحيرة على أنها "ميته" أو راكدة، ومن ثم غير صالحة لأغراض الري، إلا إذا استعملت الوسائل الميكانيكية في تغذية القنوات التي تستمد ماءها من تلك البحيرة.

والأرض المرتفعة التي تقع عند الطرف الشمالي من البحيرة تتحكم في منظر واسع من مناظر الأرض المحيطة بها. ففي أقصى الشرق توجد حافة البيَّاض Biyadh القاحلة، التي يقال إن أقرب نقاطها في ذلك الاتجاه توجد على بعد مسافة مقدارها مسير يومين، أو ما يقرب من خمسين ميلاً، وإن المسافة التي بين هاتين النقطتين هي برية الغضارة Ghadhara المكوَّنة من الأحجار الجيرية المكسرة، التي قد تحتوي فجواتها التي لم يجر استكشافها بعد - على الرغم من أن ذلك يعد من قبيل الاحتمال - على بحيرات وعيون تشبه البحيرات والعيون الموجودة على الحافة الغربية لتلك البحيرة؛ وفي اتجاه الغرب مجموعة واحات الخرفة Kharfa التي تقع البديعة في جنوبها،

والمسافة الموجودة خلف هذه الواحات هى والبديعة تشغلها سلسلة جبلية كئيبة من مرتفعات الطويق؛ وفى اتجاه الشمال تقع كل من ليلى والسيح ، وفى ناحية الجنوب توجد مروان Marwan والواحات المجاورة لها.

يلى ذلك، وفى اتجاه الشمال من البحيرة، تقع أصغر عينين من عيون الأفلاج، متقابلتين وسط منطقة معشوشية؛ يطلق عليها اسم أم الحباب Umm al Habbab، وهاتان العينان "ميتتان" نظرًا لأن الينابيع التى تغذيهما توقفت عن العمل، وقد حاولت – دون جدوى – العثور على مؤشرات أو علامات تدل على أن الرى اعتمد عليهما فى الماضى؛ وإحدى هاتين العينين هى العين الجافة (الميتة) التى سبق أن أشرت إليها، أما العين الثانية فهى بيضاوية الشكل ويبلغ طولها حوالى ستين ياردة وعرضها حوالى أربعين ياردة.

يجىء بعد ذلك خزان يطلقون عليه اسم أم العضمان Umm Adhman الذى يصل قطره إلى حوالى ١٠٠ ياردة، ينساب من طرفه الشمالى مجرى مائى جوفى يلعب دورًا إيجابيًا فيما يتبقى من منظومة الرى تلك إلى يومنا هذا. وجدران ذلك الخزان ترتفع إلى ستة أقدام فوق مستوى الماء الذى يحيط به. ومنبع ذلك المجرى المائى، الذى لا يُرى عند سقفه سوى فتحات الكريز العمودية على بعد مسافات متساوية، يقع على عمق كبير – أربع قامات مثلما يقولون هنا – تحت مستوى سطح الماء. والنبع الذى يعتمد عليه ذلك الخزان، لابد من أن يكون نشطًا للغاية كى يحافظ على ارتفاع الماء فوق مستوى المأخذ الذى يُصَرِّف تلك المياه، ولكن المعايب التى جرى إهمالها منذ زمن طويل فى مجرى الكريز هى التى أدت إلى تلك النتيجة، إذ أدت إلى تقليل معدل سرعة ذلك المجرى المائى.

وإلى الشمال من ذلك الخزان وبالقرب من مركز محيط القوس يوجد تجويف واسع ومعشوشب، ولكنه جاف تمامًا حاليًا، على الرغم من أن اسمه هو أم الذيابة Dhiyaba، ووجود مجرى مائى مهمل يمتد شرقًا قادمًا من الطرف الجنوبى لذلك التجويف – وهو يشبه ذلك المجرى الذى وصفته عندما كنت أتحدث عن البحيرة العظيمة – يوحى أن ذلك التجويف كان فى يوم من الأيام خزانًا مثل سائر الخزانات الأخرى. والموروث

المحلى يؤكد وجهة النظر هذه، والسبب فى ذلك أن المجرى المائى المهجور، كما يقول الناس هنا، حفره آل مرة **Al Murra** لكى يزود بالماء مخيمهم، الذى يبعد مسافة مسير أربعة أيام فى اتجاه الصحراء الرملية الكبرى، يوم أن كانوا يواصلون قتالهم المرير ضد الدواسر ، وذلك على العكس مما عليه الحال الآن تحت سمع ابن سعود وبصره. وإذا كان ذلك الموروث صحيحًا فذلك يعنى أن ذلك الخزان لابد من أنه كان "نشطًا" حتى وقت قريب نسبيًا، وأن ذلك النشاط استمر إلى أن أغار الدواسر على تلك المنطقة، ولكن من المحتمل أن يكون الناس قد اخترعوا ذلك الموروث ليفسروا به المجرى المائى، الذى هو بحد ذاته دليلاً كافيًا على الفرضية التى مفادها أن المنخفض لابد أن يكون قد حوى ماءً حقيقيًا فى فترة من فترات الماضى.

ولو كنت تتبعت مجرى القناة عبر الصحراء إلى أن وصلت إلى طرفها البعيد، والتى ربما كنت قد اكتشفت فيها مستوطنة من مستوطنات الماضى المهجورة، لو كنت فعلت ذلك لاستحق التعب والعناء بلا أدنى شك؛ ولكن الوقت المتاح لى لم يكن ليسمح بمثل هذه الفكرة ، ناهيك عن تذمر رفاقى من تحمل المشاق المترتبة على القيام بعمل من ذلك القبيل. وتصادف أن يكون اليوم الذى قمنا فيه بزيارة عيون الأفلاج أشد أيام تلك الرحلة حرارة على الإطلاق؛ كان ذلك اليوم يصادف منتصف شهر مايو عند خط عرض ٢٢ْ شمالاً، وكانت أشعة الشمس عمودية على رءوسنا؛ وعلى الرغم من كل المناورات التى لجأ المرشدون إليها طلبًا لاختصار تجوالنا بين الحطام المتحلل لما كان مملكة عظيمة فى يوم من الأيام، فإنى أفلحت فى الإبقاء عليهم فى العراء إلى ما قبل دخول وقت الظهر بساعة كاملة جوعانين وعطشانين، نظرًا لأننا كنا قد تركنا مخيمنا بعد الفجر مباشرة. كان مرشدانا رجلين موفدين من قبل الأمير. محمد، ذلك الرجل الفظ داكن البشرة من الدواسر، و سعد، رجل قحطانى قصير، بهى الطلعة، الذى تأكد من رغبتى فى البقاء أطول فترة ممكنة، فأقحم نفسه فى الأمر، وراح يتواصل معى عن طريق الغمزات والإشارات كلما حاول رفاقى الكذب علىَّ. كانت بقية الجماعة تضم كلاً من إبراهيم، ورشيِّد **Rushaid**، ومترك، وثلاثة أو أربعة آخرين، الذين أعلنوا صراحة أنهم تعبوا مما كنا نقوم به، وأنهم يتوقون إلى تناول طعام الإفطار. وبعد أن شاهدنا العيون الثلاث الأولى، أو بالأحرى العيون الموجودة عند الطرف الشمالى من القوس قال

محمد: "لقد شاهدت العيون. فهيا بنا نعود". ويبدو أنه لم يكن قد بلغ به الجوع مبلغًا يجعله يقول الحق، واستطعت عن طريق الاستجواب، والخداع أن أستشف حقيقة مفادها أنه ما تزال هناك بعض العيون التى تبعد عنا مسافة كبيرة ، وتلقيت غمزة من سعد أفهمتنى أنه بدأ يكذب من جديد. وهنا قلت له: "انتبه، لقد أخبرنى الأمير أن المنطقة تحتوى على عدد كبير من العيون، وأنا لم أر منها سوى ثلاث عيون فقط؛ والله، لن أتناول طعام إفطارى إلا بعد أن أراها كلها؛ فإذا كنت تعرف طريقها فاصحبنى إليها؛ وإلا سوف أبحث عنها إلى أن أهتدى إليها." وهنا أتوقف عن الكلام عن كل من محمد وعن العيون، بما فى ذلك البحيرة، إذ أصبحت كلها فى متناول يدى.

واقع الأمر أن الأمير هو وآخرين كانوا يقولون دومًا: إن مناخ الأفلاج ووادى الدواسر فى فصل الصيف أفضل مناخ المناطق الشمالية: "كل ما تجنب تبرد" (بمعنى أننا كلما توغلنا جنوبًا ازددنا براداً)؛ وأيًا كانت أسباب تلك الظاهرة الغريبة، فلا بد من الاعتراف بأن خبراتى وتجاربى خلال هذه الرحلة تشهد على صحة تلك الأسباب. والحقيقة الأخرى التى ساقها رفاقى هنا وهم يفسرون ذلك الانخفاض غير العادى فى درجة الحرارة فى ذلك العام على وجه التحديد، تتمثل فى أن أمطار الشتاء كانت غزيرة بشكل غير عادى ، فقد فاض شعب الحمر سبع مرات خلال الموسم الماضى فقط ، وبالتالى تسبب فى تبريد السطح الذى تهب عليه الرياح ، ومن الحقائق المؤكدة أن الريح فى تلك الأيام كانت مصحوبة دومًا بانخفاض فى درجة الحرارة، إذ كانت الرياح الجنوبية أقل تأثيًا فى ذلك الاتجاه، من الرياح الشمالية التى كانت عبارة عن نسيم شمالى منعش، بل وبارد فى بعض الأحيان.

كانت خزانات المياه الثلاث المتبقية تقع خلف تجويف أم الذيابة Dhiyaba فى اتجاه الشمال داخل منطقة من الأرض المعشوشبة يصل طولها إلى حوالى ميل؛ كان أصغر هذه العيون الثلاث وأكثرها بعداً فى اتجاه الجنوب، والتى هى العين شبه الدائرية التى يبلغ طولها حوالى خمسين ياردة وأقل من ذلك من حيث العرض، حائط منخفض ينحدر انحدارًا دائريًا مفاجئًا يرتفع إلى مسافة حوالى قدمين فوق مستوى سطح الماء من جميع الجوانب فيما عدا الناحية الجنوبية، التى تشكل عندها سلسلة الجبال التى لاحظناها صخرة منحدرة يصل ارتفاعها إلى حوالى ١٢ قدمًا تنحدر

انحداراً مفاجئاً إلى حافة الماء. هذه العين، أو إن شئت فقل: الخزان، الذى لم ألاحظ فى ضفافه أية فتحة من فتحات تصريف الماء، تعرف باسم أم الجرف Umm al Jurf والسبب فى ذلك هو ملمح الصخور الذى سبقت الإشارة إليه؛ ومبلغ علمى، أن تلك العين تدخل ضمن العيون "الميتة".

أما العينان الأخريان فهما عينان "ناشطتان"، ويطلق على كل منهما اسم البحرة al Bahra . وأكثر هاتين العينين ابتعاداً ناحية الجنوب عبارة عن شكل شبه دائرى غير منتظم يصل طوله إلى حوالى ٣٠٠ ياردة وعرضه إلى حوالى ٥٠ ياردة وشكلها بيضاوى. وضفاف العينين ترتفع إلى مسافة قدم واحد تقريباً فوق مستوى سطح الماء، وتكسوها الحشائش والبوص، فى حين إن لكل منهما فتحة فى جانبها الشمالى، تنساب منه المياه إلى قنوات الكرين، الذى شاهدنا حفره العمودية ممتدة فوق رمال حزام سميك من النفود، يبرز من البقعة الرملية ويمتد إلى مسافة أقدام قليلة مقترباً من حافة تلك الخزانات. وعمق الحفر يصل إلى ما يقرب من أربعين قدماً فى الناحية الجنوبية من القناة، التى تكوم الرمل من فوقها على شكل ضفة عالية، ويقل ذلك الرمل تدريجياً إذا ما تتبعنا القناة عبر الضفة الرملية، إلى مسافة ميل تقريباً، إلى أن تخرج تلك القناة من الرمال عند مستوى سطح الأرض، حيث تبدأ تلك الحفر فى الاختفاء، وتظل مفتوحة طوال بقية طريقها إلى السيح. هذه القناة التى يطلقون عليها اسم عين السمحان Samhan تعد الفرع الرئيسى(٨) فى المنظومة التى ما زالت تعمل إلى يومنا هذا؛ولكن تلك العيون التى تنبع من جنوبى البحرة Bahra وأم العضمان Adhman' تشق طريقها تحت حاجز الرمال وتتصل بعين السمحان فى عدة نقاط على طول مسارها. والمسارات المفتوحة التى تتخذها تلك العيون بعد خروجها من الرمال، والتى يصل عددها الظاهرى إلى حوالى أربع عيون، تتميز بأربعة أسماء تذكرنا بالعيون التى تجرى فى الأحساء : المجسور Majsur ، وعين الوجاج Wajjaj، وعين البارابار Barabar ثم عين المنجور Manjur، بنفس هذا الترتيب من الجنوب إلى الشمال. وشعب السمحان يمتد بعد اتصاله بعين المنجور إلى أن يصل إلى قناة باطن الحمر، ويسير موازياً لها بعد ذلك إلى أن يصلا إلى المنطقة الزراعية فى السيح Saih.

وواحة السيح هى المستوطنة الوحيدة التى بقيت من المستوطنات التى كانت تعتمد على منظومة الرى المتجهة شمالاً، وهذا يعنى أن تلك المستوطنة هى المستوطنة الكبيرة

الوحيدة التى بقيت من بين كل مستوطنات الأفلاج القديمة، وهى فى الوقت نفسه أكبر واحات المنطقة كلها وأكثرها ازدهاراً. ووجود تلك المستوطنة، الذى لابد أن يكون قد امتد من الأزمان الماضية إلى الزمن الحاضر، وكذلك من منطلق مركز المسيطر حاليًا باعتبارها مركزًا زراعيًا، وجود تلك المستوطنة يرجع إلى الظروف السعيدة التى قضت ألا تعتمد، ولن تعتمد، على أى عامل من العوامل التى تحكمت فى مصير المنطقة منذ البداية. وموقع تلك الواحة عند طرف قناة فيضان شعب باطن الحمر وكذلك عين السمحان التى تسمح بالرى مكنت واحة السيح من الاستغناء عن أيهما دون أن يؤثر ذلك تأثيراً خطيراً عليها. فبوسع واحة السيح الاعتماد على الرى الصناعى من الخزانات وبذلك يزداد مد تلك الخزانات بمرور الوقت خلال فترات الجفاف الطويلة، وفى حالة نقص الأمطار على المرتفعات فى منطقة منبع السيل ، كما تستطيع واحة السيح أن تعتمد أيضًا على السيل الذى يمكن أن يفيض على بياراتها إذا ما احتل عدو الخزانات وحطم مجاريها أو حولها ، ومن الواضح أن حظ السيح السعيد هو الذى جنبها الجمع بين هاتين القوتين المتعارضتين. أكثر من ذلك ، إن السيح أكثر حظًا من جيرانها فيما يتعلق بالعناصر المكونة لسكانها ، إذ هذه هى المنطقة الوحيدة التى فشل الدواسر فى ترسيخ وجودهم وطرد من جاءوا قبلهم ؛ عشيرة الأشراف التى جاءت من اليمن ، هى ومن معها من العبيد الأشداء المجدين ، أو الزنوج الأحرار ، الذين يحتلون ، فى الوقت الحالى نصف الواحة ، ويعرفون جيدا كيف يوقفون العدوان ، سواء أكان عدوانًا عسكريًا أم اقتصاديًا ، من قبل جيرانهم الجشعين المغرمين بإثارة المتاعب والاضطرابات.

كنا قد أرسلنا فى أثناء الليل إلى رئيس تلك الأسرة من الأشراف نبلغه فيها بعزمنا تناول الإفطار معه ، وكان من رأى محمد – الفظ سيئ الخلق ، الذى كان يتولى إرشادنا – أن نتجه مباشرة إلى الكفر (القرية) الذى يقع فى أقصى جنوب الواحة ، وذلك عندما انتهينا من زيارة الخزانات ؛ ولكن ترتيباته الخادعة كانت ملأتنى برغبة عنيدة فى إحباط اقتراحه. وتأسيسًا على ذلك ، تركنا قناة السمحان ورحنا نتتبع مجرى شعب باطن الحمر الواسع الرملى فى اتجاه الطرف الشمالى لمنطقة بيارات النخيل. ومجرى السيل يتفرع إلى فرعين قبل أن يصل إلى الواحة بمسافة قصيرة: فرع

يتجه يميناً إلى منطقة النخيل الكثيف ، والثانى يسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى ليلف الطرف الشمالى من الواحة فيما بينها وبين بيارة نخيل مسوّرة يطلقون عليها اسم الطويرف Al Tuwairif، التى يوجد بها قصر كبير جيد البناء. وتتبعنا ذلك الفرع ، إلى أن وجدنا أنفسنا عند الجانب البعيد من الواحة ، الذى درنا حوله فى اتجاه الجنوب لنصل فى النهاية إلى كفر (قرية) الأشراف ، وبذلك نكون قد درنا دورة شبه كاملة حول المستوطنة عندما وصلنا إلى هدفنا فى النهاية. وفى رحلة عودتنا إلى ليلى ، مشينا خلال الواحة التى تركت فى نفسى انطباعاً طيباً.

وواحة السيح التى تقع على بعد حوالى أربعة أميال جنوب شرقى ليلى وعلى بعد ثلاثة أميال من منطقة الخزانات (العيون) ، تشتمل على شريط من بيارات النخيل الكثيفة يصل طوله إلى حوالى ميل ونصف الميل من الشمال إلى الجنوب ، ويصل متوسط عرض ذلك الشريط الكثيف إلى حوالى نصف ميل تقريباً. والقسم الشمالى من واحة السيح يروى من فيضانات شعب باطن الحمر عن طريق سد بدائى من التراب والحطب ، يوضع حسب الحاجة عند مصب أى فرع من الفرعين لتحويل انسياب الماء إلى الفرع الآخر ، أو إن شئت فقل: ذلك الفرع الذى يستعمل منفذاً لتصريف الفيضانات العالية ، فى حين يستعمل الفرع الآخر هو وعدد كبير من الروافد فى أغراض الرى. وفيضانات هذا العام العالية ، أخذت الزراع على غرة ، واتجهت إلى بيارات النخيل بكل قوتها ، الأمر الذى جعلها تترك آثارها فى المستوطنة على شكل حواجز محطمة ، وأسوار مقتلعة وبوابات مفتعلة وما إلى ذلك. والقسم الجنوبى الأكثر كثافة فى الواحة ترويه مجرى السهمان ، ويشتمل على حزام متين من النخيل الجيد الرائع.

وهناك طريق رئيسى يطلقون عليه اسم سوق الهيش al Hish ، ينصف الواحة طولياً ويبدو أنه الحد الفاصل بين المجتمعين ، اللذين لهما حق الملكية فى المستوطنة ، على شكل حقوق متساوية تقريباً ، إذ يقع العنصر الدوسرى شرقى الطريق بينما يعيش الأشراف هم والزنوج الملاّك غربى الطريق. وعائلات الأشراف التى يصل إجمالى عددها إلى حوالى ثلاثين أسرة ، تتجمع هى وعبيدها والمزارعون الزنوج فى كفر (قرية) السيح ، أو إن شئت فقل: السيح الأقصى ، كما يحلو للناس أن يسمونه هنا ، فى أقصى الطرف الجنوبى من الواحة ، فى حين يسكن الملاك الزنوج ، وبخاصة أولئك

الذين جاءوا من منطقة القصيم ، كفرا اللزدى Lizidi والفويضلية Fuwaidhiliyya فى الطرف الشمالى الغربى من السيح ، ومنهم أيضًا من يعيش فى بعض الأكواخ التى تنتشر بين البيارات. والملاك الدواسر معظمهم من بدو الحمر ، وتميم ، وجماعات القينان Qainan الغائبة ، التى تزرع أراضيها عن طريق المستأجرين الزنوج ، هذا على الرغم من أن قلة قليلة من عائلات آل حامد Al Hamid، الذين سبق لهم أن أدرجوا أنفسهم ضمن الإخوان ، يستوطنون بصفة دائمة كفر قصور الخلف الصغير الذى يقع بين السيح وقطين Qutain، والذى يطلقون عليه اسم السيح الدنيا al Dunya، وهو عبارة عن كفر يقع فى ركن من أركان حزام النخيل فى الواجهة الشرقية للواحة. والقطين هى مركز رئاسة كل من العمَّار والحلال البدو الآخرين ، الذين يكونون – إضافة إلى مستأجريها من الزنوج – سكان كل من الرفاع 'Rifa، وقصر المناع ، على الحافة الشمالية الغربية للمنطقة الزراعية ، وغالبية سكان الواحة المستقرين تتكون من الزنوج الأحرار الذين يقدر عددهم بحوالى ٣٠٠٠ نسمة ، استوطنوا تلك المنطقة منذ أجيال كثيرة ، والذين يدل مظهرهم على حدوث تزاوج بينهم وبين جيرانهم العرب إلى حد بعيد ، هذا على الرغم من أن الزواج المختلط بين الزنوج أو المولَّدين – سواء كانوا رجالاً أو نساءً – والعرب لا يبدو أمرًا شائعًا ، وينظر الناس إليه هنا بمنظار عدم التكافؤ ، وعائلات الأشراف هنا يتراوح إجمالى عدد أفرادها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ نسمة ، أما عدد الدواسر الذين استقروا فى تلك المنطقة فيقدر بحوالى ٨٠٠ نسمة ، ومن بين الدواسر هنالك حوالى ٢٠٠٠ آخرين يعتمدون على واحة السيل فى الحصول على التمر والحبوب ، التى يأتون من مراعيهم لجبايتها فى المواسم المحددة لذلك. من هنا فإن إجمالى عدد سكان الواحة يمكن أن يقدر بحوالى ٦٠٠٠ نسمة ، لا يستقر منهم داخل الواحة سوى ٤٠٠٠ نسمة فقط.

والمحصول الرئيسى فى الواحة هو التمر ، وتمور السيح شهيرة بامتيازها ، وأنواع التمور التى تزرع فى السيح أكثر منها فى أى مكان آخر فى المنطقة كلها على الرغم من أن أفخر أنواع تلك التمور هى تلك التى تزرع فى ليلى(٩). وبعد التمر يجىء محصول القمح ، والبرسيم الحجازى ، والزعفران والخضراوات على اختلاف أنواعها ، كما يزرع القطن أيضًا فى مناطق متفرقة ، على الرغم من أن القماش المصنوع محليًا

لا يلبسه سوى أفقر الناس ؛ كما تنمو أيضًا أشجار الرمان ، وأشجار الفواكه الأخرى في ظلال النخيل. وقد ظهر فى السنوات الأخيرة ميل إلى حفر الأبيار لأغراض الرى ، وذلك لزيادة كمية الماء الذى يجرى الحصول عليه من المصادر التى سبقت الإشارة إليها، ونتج عن ذلك أن بدأت تزيد مساحة الأرض الزراعية ، وذلك بفضل المشروعات التى قام بها بعض المتطفلين الذين جاءوا من واحة ليلى ، على أثر إحساسهم بالأمن المصاحب لحكم ابن سعود ، وراحوا يشترون الأرض من سكان السيح. وعمق الماء السطحى فى هذه المنطقة لا يزيد على ثلاث قامات.

كفر القطين كان فى يوم من الأيام مسوّرًا وأكبر مما هو عليه الآن ، لأنه دفع ثمن إيوائه للاجئى التمرد الفاشل الذى حدث فى عام ١٩١٢ الميلادى ، إذ جرى تسوية كفر القطين بالأرض. وبالتالى لم يعد بناء السور الخارجى لذلك الكفر اعتبارًا من ذلك التاريخ ، يضاف إلى ذلك أن منازل القرية – التى يبلغ اجمالى عددها إلى حوالى ١٥٠ منزلاً – لم يعد يتبقى منها سوى مربعين سكنيين متهالكين وممسوخين على جانبى فرع شعب باطن الحمر. وقد فضل قسم كبير من سكان قرية القطين السابقين البناء على أراض جديدة على إعادة بناء منازلهم القديمة ، وترتب على ذلك ظهور قريتى أتمارة Atmara و الرفاع 'Rifa، اللتين تتجاوران تمامًا من ناحية الحافة الشرقية للنخيل على نحو يجعلهما تبدوان مستوطنة واحدة. أما بقية القرى الأخرى ، فليس من بينها ما يستدعى الحديث عنها سوى قرية السيح نفسها ، التى استرحنا فيها عدة ساعات قبل العودة إلى مخيمنا بعد أن قمنا بزيارة الخزانات (العيون).

وبعد أن نزلنا من فوق دوابنا ، أمام القرية المحكمة غير المسوّرة ، التى تقف بارزة من بين النخيل عند حافة السهل القحل فى شرقى الواحة ، سرنا خلال شارع طويل مترب قاصدين منزل محمد بن فهّاد Fahhad ، أمير الواحة وعميد الأشراف فى المنطقة. كان منزل الأمير يوحى بشىء من التباهى إذا ما قارناه بالأكواخ المبنية من الطين التى تحيط به ، ولكن ذلك المنزل ، شأنه شأن تلك الأكواخ المحيطة به ، كان مبنيًا من الطوب اللبن ، وفى الطرف البعيد من فناء صغير تحيط به الإسطبلات أو إن شئت فقل الحظائر، كان هناك باب متين من الخشب يؤدى إلى صالة على شكل حرف T، يستعملها الأمير مقهًى ، فضلاً عن أنها كانت تمثل كل ما رأيته من تجهيزات منزل

الأمير الداخلية. وبخلاف منزل الأمير ، تحتوى القرية على مسجدين صغيرين وقله قليلة من الدكاكين ، هى التى تشكل السوق ، فضلاً عن ما يقرب من ٢٠٠ منزل من منازل السكنى.

واقع الأمر ، إن مضيفنا محمد كان عميدًا بحق ، إذ كان يبلغ من العمر ثمانين عامًا ، ومع ذلك فقد كان سليم البنية ويتدفق حيوية ، ومتوسط الطول ، غليظ القسمات ، شكله العام متناسق ، ووجهه يوحى بالدهاء ؛ وهو فى حقيقة الأمر يبدو أصغر سنًا من ابن أخيه الطويل إلى حد ما ، والذى أحنى الزمن ظهره ، ويدعى فهَّاد بن عوَّاد بن فهَّاد ، الذى كان يساعده على أداء مراسم تلك المناسبة. وقد ادعى ذلك الفهَّاد أن عمره يقل عن أربعين عامًا ، على الرغم من أنه كان يبدو أكثر قربًا بالفعل من القبر عن عمه قوى البنية ، وقد حدث بعد ذلك أن الاثنين قاما برحلة إلى الرياض عقب مغادرتنا الأفلاج قاصدين الجنوب ، ومرض فهَّاد فجأة بعد أن وصلا إلى العاصمة ، ووافته المنية قبل أن نعود من الجنوب.

وأنا لم أحظ قط طوال تجوالى فى الجزيرة العربية بالترحيب أو الكرم الذى لقيته فى تلك الأسرة كبيرة القلب ؛ فقد امتدح محمد مناقب ذلك الرجل العجوز قبل كل شىء ، ولكن مديحه جاء أقل من الحقيقة ؛ كان كرم محمد مضرب الأمثال فى جنوب نجد ، وكان يمكن أن يشيع فى الشرق كله لو أن ذلك الرجل عاش فى عصر حاتم الطائى نفسه. كان محمد – فى وسط ذلك الجنوب المتشدد – رجلاً لا يخاف ولا يعرف الحلول الوسط ، يمارس عقيدة أسلافه ويدين بها، ولكن هذه العقيدة لم تكن عقيدة جيرانه ، وفضلاً عن ذلك كان مستقيمًا فى كل تعاملاته التى كان يحكِّم فيها ضميره بدلاً من الرأى العام ، وكان كريمًا تمامًا مع الفقراء ومع المحتاجين ، وكانت فيه كل صفات الفروسية ، مثلما تصرف أثناء التمرد الذى حدث فى عام ١٩١٢ الميلادى. فقد قدم كرمه ومأواه لذلك المغتصب التعيس هو وأتباعه طوال فترة فرارهم ، مفضلاً مليكه على خيانة قوانين الكرم. لقد اعترف بجريمته عندما هرب على أثر ظهور ابن سعود ، وفى يوم الإعدام الذى جرى فى واحة ليلى، ظهر محمد بطريقة مثيرة ، إذ قدم نفسه على مرأى ومسمع من الجميع ، أمام عرش الملك ومن حول عنقه حبل المشنقة ولم يطالب بأى شىء سوى عقابه على خيانته ، ولكن دم الفروسية يجرى أكثر نقاء فى عروق العنزة

أكثر من كل العرب ، وها هو ابن فهّاد ما زال حيًا يحكى كيف انهزم ، وكيف خسر لعبته على يد مليكه. وابن سعود ليس لديه من رعاياه من هو أكثر إخلاصًا أو ولاءً من محمد بن فهّاد ، وليس لدى ابن سعود مستشار يستحق ثقته أكثر من ابن فهّاد ، والأهم من ذلك أننى عندما عدت إلى الرياض مرة ثانية سعدت بلقائه عدة مرات ضمن حاشية مليكه ، كما سمعت الناس يمتدحون فضائله على الملأ ، وبواسطة ابن سعود فى حضور المطالب بالعرش نفسه. والذى استحوذ على انتباهى باعتباره أهم ملامح أو سمات البلاط الوهابى هو وجود عدد كبير من أولئك الذين لعبوا دورًا بارزًا فى معارضة مليكهم ، ولكنهم دخلوا فى خدمته بفعل الضربات القوية التى كالها لهم فى ميدان القتال ، وبفعل فروسيته فى وقت الانتصار ، وهذا درس آخر تعلمه ابن سعود من فشل أسلافه.

ومظهر محمد الخارجى يخفى قلبًا من الذهب الخالص، يضاف إلى ذلك أن الساعات القليلة التى أمضيتها معه فى صالته العامرة بالود مرت كما لو كانت لحظة فريدة من البراد فى واحة باردة وسط بشرية الجزيرة العربية الجافة. قبل اثنى عشر جيلاً مرت قبل محمد بن الفهاد، جاء أسلافه، فرع من أفرع أشراف اليمن، من موطنهم فى المنطقة المجاورة لنجران، مستجيبين لحافز اضطر، منذ أزمان قديمة، السكان الزائدين عن حاجة جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الهجرة على شكل تيار منتظم إلى الشمال الشرقى عبر شبه الجزيرة ، والمثل العربى يقول: اليمن رحم العرب، والعراق قبر العرب[١٠]. ووصل أولئك الأشراف إلى منطقة الأفلاج عندما كانوا يبحثون عن وطن جديد، وعندما اكتشفوا أن منظومة رى القدماء كانت مخربة وبحالة يرثى لها، وعلى الرغم أيضًا من أنهم كانوا قادرين على إصلاح تلك المنظومة، فإنهم آثروا أن يستوطنوا المسافة فيما بين بيارات السيح، التى آلت إليهم عن طريق الغزو وعن طريق الشراء من الملاك الدواسر الذين كانوا قد وصلوا معهم أو قبلهم إلى هذه المنطقة. وعائلة الأشراف تملك حاليًا نصف الواحة تقريبًا، بعد أن خسرت أجزاء من تلك التركة عن طريق بيعها إلى مضاربين من قرية ليلى. وأجابنى مضيفى بفظاظته المعهودة، عندما أعربت له عن دهشتى ومن تفريطه فى أغنى البيارات التى كانت فى حوزته قائلاً: "نحتاج ونبغى" (احتياجنا هو الذى يضطرنا إلى البيع). كما أبلغنى ذلك

المضيف أيضًا أنه شاهد، منذ سنوات كثيرة، عندما كان شابًا يزور الرياض مع والده، الإمام عبد الرحمن عندما كان طفلاً، عندما كانت تحمله عبدة من الإماء فوق ذراعيها في أنحاء القصر، وأن مولد الإمام عبد الرحمن لابد أن يكون في عام ١٨٤٠ الميلادي، يوم أن كان ابن ثنيان يجلس على عرش نجد، وليس كما يقول هو: في عهد تركي، أي قبل ذلك بعشر سنوات أو أكثر.

وبينما كنا نجلس متحلقين حول جدران الصالة ومن أمامنا الوجار صبوا لنا القهوة ومرروا علينا البخور عدة مرات، وكان البن من اليمن بحق، نظرًا لأن الناس في الجنوب لا يطيقون غير البن اليمني. وأهل القرية، في معظمهم، كانوا من الزنوج الأحرار، وكانوا يتوافدون من حين لآخر لشرب القهوة وسماع الأخبار؛ ولم تكن الحرب العالمية الأولى تشغل بالهم أو تهمهم، وسبب ذلك أنهم راضين عن عزلتهم طالما أنها تبعدهم عن التدخل في حركة القوافل، التي تجلب لهم حبوب البن من أراضي اليمن البعيدة، وطالما تجلب لهم أيضًا البضائع الاستهلاكية من موانئ الأحساء. وقد أثارت بوصلتي هي وآلة التصوير التي حسبها محمد نوعًا من أنواع التلسكوبات ، كثيرًا من الشكوك؛ وقد أمطرني بشكره عندما وعدته بأن أهدي إليه نظارة من نظارات الميدان ، وقد بادرت إلى البر بذلك الوعد فور عودتي إلى المخيم. كان أثاث الصالة يتمثل في حصير مصنوع من سعف النخيل مفرود فوق الأرض، إضافة إلى سجادة وسرج جمل أضيفا من باب تكريمي؛ كان محمد وابن أخيه يجلسان أمامي في الجانب المقابل أمام الوجار يقومان بتصليح القهوة، وكانا يتناوبان الاختفاء عن المكان، حيث كان يجري تجهيز الفطور. ولكنهما أحضرا في البداية طبقًا ضخمًا من التمر، ومعه إناء من اللبن الرائب، البارد المنعش، الذي شربنا منه كمية كبيرة؛ ثم تلت ذلك العزيمة، التي سبقها فرد حصير دائري كبير، في وسط الصالة، ظهر العبيد بعده ومعهم طبق مسطح كبير قطره حوالي ثلاثة أقدام، كان بداخله طعام يتصاعد منه البخار، ومطبوخ في حليب ومخلوط بقطع من الخبز المشبع بالماء؛ ومن فوق ذلك الطعام كانوا يصبون السمن Saman بدون تقتير من سلطانية من الخشب، ثم أحضروا لنا في النهاية صينية كبيرة من اللحم، عليها لحم خروف بكامله، كوموه فوق الجريش، فهذا هو الاسم الذي يطلقه هؤلاء الناس على ذلك الطعام ، وقد وجدت شبيها لذلك الطعام في البرغل السوري، والقيمي Qaimi في نجد.

وهنا قال مضيفنا: "سَم" sam، ثم انسحب بعدها مع ابن أخيه مخافة أن يرانا ونحن نهوى على طعامه الجيد بالشهية الجيدة التى استثارها فينا؛ وتهاوينا على الطعام برغبة شديد لأننا كنا جوعانين بحق، ولم يتبق من ذلك الطعام سوى العظام. وهنا قلنا للعبد الذى أحضر لنا ماء غسل الأيدى: "أنعم الله عليكم". وهنا ظهر محمد مرة ثانية وجلس أمام الوجار مرة ثانية، وراح يرد على تشكراتنا، ويصلح القهوة ونحن نتسامر. وعندما علم من إبراهيم أننى أدخن أصر على ألا أراعى الرسميات، وبالتالى أجبته إلى طلبه ، وهذا أمر صغير أذكره لذلك الرجل، ولكنى أعترف أننى دخنت على الملأ مرة واحدة فى الأراضى الوهابية عندما كنت فى القصيم. ثم أردف الرجل قائلاً: "أظن الآن، أنكم بحاجة إلى الراحة". ثم اختفى لحظة عاد بعدها ومعه مخاد وسجادة ثم تركنا لحال سبيلنا مدة ساعة، نمنا خلالها؛ ثم أيقظ رفاقى لصلاة العصر، ثم استأذنا بعد ذلك من مضيفنا، الذى لم نجد له مثيلاً فى أى مكان، وعدنا بعد ذلك إلى خيامنا فى قرية ليلى.

وإلى الجنوب قليلاً من السيح، وعلى مسافة حوالى ميل واحد فى اتجاه الشرق من قناة السمحان، شاهدت بقايا حطام السور الدائرى وعليه الأبراج المهدمة على بعد مسافات متساوية بطول ذلك السور؛ والسهل الموجود بين تلك البقايا الطينية ومجرى الشعب كانت تتخلله جبال من الأحجار والملاط تشبه الرجمات، التى سبق أن شاهدتها فوق سلسلة جبال قصيعة Qusai'a، فوق خزان عين أضلاع فى الخرج؛ وكانت هناك مجموعة أخرى من الحطام تنتشر فوق هضبة الحجر الجيرى فى منطقة العيون. ربما كان ذلك موقع واحدة من المدن العظيمة أو جبَّانة من جبانات الماضى ، وقد تكون تلك المدينة أو الجبانة من أصل فارسى، إذا ما أخذنا طبيعة منظومة الرى فى الأراضى المجاورة مفتاحًا للوقوف على هوية أولئك الذين ابتكروا تلك المنظومة ، ولكن سواء كانت تلك آثار مدينة أو جبانة فإن حوليات العرب ليس فيها ما يدل على ذلك؛ والسبب فى ذلك أن العرب الذين تجاهلوا الجبال غير الملفتة للأنظار والتى تنتشر على مساحة واسعة، راحوا يركزون انتباههم على الجدران البارزة الحديثة نسبيًا والمبنية من الطين، فضلاً عن تركيزهم أيضًا على الأبراج التى لا تحتل سوى جزء صغير جدا من ذلك الحطام، وهم بعملهم هذا ربما يكونون قد حافظوا بالمصادفة على بقايا ذلك الأثر، الذى

قد لا يتصل بهم، ولا إلى بقايا الرجمات، وإنما إلى فترة باكرة أو حقبة قديمة من تاريخ الأفلاج؛ والسبب في ذلك أن العرب هنا يطلقون على تلك الآثار اسم قصيرات عاد، ويروون عنها القصة التالية:-

منذ أزمان بعيدة حكم تلك الأماكن ملك عظيم كان يدعى عاد بن شداد، الذى اتخذ من وُبَر Wubar عاصمة له، والتى كانت تبعد مسير شهر عن ذلك المكان فى اتجاه الرمال الشرقية بالقرب من حدود حضر الموت Hadhr Al Maut (حضرموت) . وتباهى ذلك الملك بقوته وامتداد ملكه وازدهار ممتلكاته، فنسى ربه، ولم يستمع إلى التحذيرات التى وجهها إليه نبى الله هود Hud، وشرع عاد فى جعل عاصمته جنة فى الأرض. وبين الحدائق التى أعدها لمتعته، أحاط نفسه بحرس شخصى ملكى يضم ألفين من المحاربين الأشداء ، وأحاط نفسه أيضًا بإسطبل يضم ٢٠٠٠ جواد من أحسن السلالات ، كما أحاط نفسه أيضًا بجماعة تضم ٢٠٠٠ من النساء، هن أجمل نساء الدنيا؛ ولكن صبر الله عليه له حدود أيضًا، ولكن عاداً تعدى تلك الحدود؛ وغضب الله عليه ودمره بالدوبار Dubar . غضب الله عليه، وأرسل عليه ريحًا صرصراً عاتية ظلت تهب عليه ثمانية أيام بلا انقطاع ودفنت عاداً وكل عظمته وأبهته فى بحر من الرمال، يشتهر بقحولته إلى يومنا هذا ويعرف باسم الربع الخالى. وكان مصير عاد شهيراً(١١) عند نبى الإسلام فى استنكاره لعناد عبدة الأصنام من أهل مكة.

وفيما يتعلق بالجزء الجنوبى من الأفلاج القديمة، وعلى الرغم من عدم أهميته فقد أجلت استكشافه إلى رحلة العودة من واحة ليلى إلى البديعة، أو إن شئت فقل المرحلة التالية من رحلتنا إلى الجنوب. وبناء على ذلك، وبعد أن قمنا بزيارة مجموعة قرى الخرفة Kharfa التى تقع على الطريق المباشر المؤدى إلى الجنوب، تحولنا ناحية الجنوب الشرقى من قرية سوغو Sughu فى صباح اليوم السابع عشر من شهر مايو. وقد حتم ذلك علينا عبور شريط ضيق من الرمال، يعد امتداداً للنفود برمالها الغزيرة فى اتجاه الشمال، قبل أن نجد أنفسنا نسير مرة ثانية فوق الحجر الجيرى فى غضارة Ghadara، الذى ينحدر فى هذه المنطقة انحداراً هينًا نحو الأعلى فى اتجاه الشرق، ويتقاطع بطريقة معقدة تماماً مع بقايا القنوات، التى يبدو من موقعها أنها تنبع من قناة رئيسية تعتمد على بحيرة أم الجبل؛ والقسم الأكبر من تلك القنوات جرى حفره على سطح

المنحدر، ولكن واحدة أو اثنتين من تلك القنوات كانتا مبنيتين بطريقة أرقى بكثير من القنوات الأخرى، وكانت بمثابة القناتين الرئيسيتين اللتين تعد بقية القنوات روافد لهما ، كان الحجر الجيرى السطحى فى غضارة تتخلله بين الحين والآخر بقع من التربة الرملية الثابتة، فضلاً عن مناطق من التربة المالحة التى تغطيها أدغال الحمض، التى عثرنا فى واحد منها على عش إحدى الحمَّارات Hammara(١٢) وبه ثلاث بيضات؛ كما شاهدنا هنا وهناك أكوامًا صغيرة من الحجر الجيرى ومن الجبس المتساقط من الجبال، هذا فى الوقت الذى لاحظنا فيه سلسلة من الروابى الجبلية المنخفضة، التى يطلقون عليها هنا اسم هالة Hala، والتى ربما تكون من الحجر الجيرى، وتمتد محاذية لقمة المنحدر، وتخفى وراءها منطقة من المنخفضات السوداء المتموجة؛ وكانت تغطى سطح تلك المنطقة قشرة من الرمال الناعمة التى يتخللها زلط أسود صغير وقطع كبيرة من الصخر سوداء اللون أيضًا.

وفى تجويف منخفض من تلك المنخفضات عثرنا على حقل واسع من حطام يشبه بقايا الرجمات، وفى تجويف آخر بالقرب من التجويف الأول، عثرنا أيضًا على مجموعة من الهيش، أو إن شئت فقل النخيل البرى، وبعد تلك البقعة مباشرة وجدنا أنفسنا وسط مساحة دائرة كبيرة من الرجمات، وقد قدرت قطر تلك المساحة، وأنا أنظر إليها من قمة رابية من الروابى السوداء تقع فى الركن الجنوبى الغربى من تلك المساحة، بما يقرب من ميلين. وبعد تلك المساحة وصلنا إلى منخفض واسع، وجدنا فى قاعه صفًا من النخيل البائس الذى يروى من جدول جارٍ. ومما لا شك فيه، إن ذلك المكان كان يوجد به مركز من مراكز السكان، ولكنى بحثت دون جدوى عن دلائل المساكن البشرية، سواء كانت تلك الدلائل قديمة أو حديثة؛ لم أجد فى تلك المنطقة سوى كوخين صغيرين، كانا خاليين على الرغم من احتمال استعمالهما فى موسم الحصاد من قبل أولئك الذين يزورون تلك البيارة لجمع تمورها؛ وتتبعنا ذلك الجدول إلى منبعه حيث وجدناه ينبثق من تحت سطح الأرض على شكل قناة صغيرة لا يزيد عمقها على قدم واحدة. وهذا الجدول يطلق عليه اسم السويدان Suwaidan، التى لا يعرف الناس مصدرها على وجه اليقين، كما يطلق الناس على بيارات النخيل التى فى ذلك المنخفض اسم الغوطة أو غوطة Ghauta السويدان. وفيما عدا هذه الحقائق لم أستطع جمع أية

دلائل أو إشارات أخرى عن تاريخ تلك المنطقة أو عن هوية أولئك الذين كانوا يسكنونها فى الماضى؛ وبقايا نخيل ذلك المنخفض مملوكة لأهل الرزيقية Razaiqiyya، تلك القرية (الكفر) الوضيعة التى لا يزيد عدد أكواخها على ستة أكواخ مبعثرة هنا وهناك، وسط قطعة من أراضى النخيل المريض المتحلل، والتى تصل مساحتها إلى بضعة أفدنة، تبعد حوالى ميلين فى الاتجاه الجنوبى الغربى خلف حزام من التربة المتهاوية المشبعة بالملح وتغطيها أدغال الحمض ومساحات صغيرة من الهيش، أو إن شئت فقل: النخيل البرى. وقد تسبب وصولنا إلى ذلك المكان طلبًا لراحة منتصف النهار شيئًا من الحساسية بين السكان، الذين خرجت نساؤهم وأطفالهم على شكل مجموعات صغيرة، كانت تقف على بعد مسافات معقولة كى يراقبونا وينظروا إلينا باهتمام كبير.

كانت مستوطنة مروان تقع على بعد حوالى ميلين فى اتجاه الجنوب عبر سهل الحجر الجيرى القاحل؛ وهذه المستوطنة ليست سوى حزام من النخيل يصل طوله إلى حوالى الميل تقريبًا وعرضه حوالى ٢٠٠ ياردة فى حوض مجرى الثوير Thuwair المائى، الذى ينزل من مرتفعات الطويق ليدخل منطقة الغضارة البرية عند تلك النقطة. وقرية مروان Marwan نفسها، ليست سوى مجموعة بائسة من الأكواخ المصنوعة من الطين لا يزيد عددها على أربعين كوخًا، وكلها تقع على الجانب الأيمن من حزام النخيل، أسفل صخرة متآكلة تآكلاً كبيرًا بفعل عوامل التعرية، مكونة من انتفاخ للغضارة يتجه ناحية الغرب، وتغطى سطحه بقايا حطام الرجمات الذى يشيع فى تلك المنطقة. ومجرى الجدول المائى متأثر تأثرًا كبيرًا بفعل الملح، كما أن النخيل يروى من أبيار يقال إن مياهها مالحة، يضاف إلى ذلك أن بيارات نخيل الجانب الغربى أكثف من البيارات الأكثر منها انخفاضًا.

ثم اتجهنا بعد ذلك صوب الجنوب الغربى عبر هضبة وعرة من الحجر الجيرى المتموج، قاصدين قرية البنا Banna، آخر المستوطنات القديمة فى منخفض مجرى خر Khirr المائى فى الجنوب، وهذا المنخفض هو الجزء المناظر للثوير Thuwair على الجناح الجنوبى للانتفاخ. ولكن فى منتصف الطريق بين مروان والبنّا Banna شاهدنا رقعة أخرى من الأرض ينتشر فيها أيضًا حطام الرجم داخل منخفض يشبه فوهة البركان يصل قطره إلى حوالى خمسين ياردة وحافة يصل ارتفاعها عن مستوى الهضبة حدًا

يعطى انطباعًا بأنها رابية من الروابى، التى هبطت قمتها عن مستوى سطح الأرض. وقد تكون تلك الرابيةُ أثرًا لقلعة من القلاع أو مبنى من المبانى، ولكن مسألة وجود المجارى المائية المهجورة فى أماكن متباينة، يوحى بأنها ربما كانت فى الأزمان الماضية خزانًا من الغيون المائية كما هو الحال فى العيون الشمالية؛ وعلى أى حال، لابد أنه كان مركزًا من مراكز النشاط البشرى فى الماضى، والسبب فى ذلك أن دلائل العمل اليدوى البشرى كانت واضحة فى كل مكان. كما كان هناك منخفض آخر مماثل على بعد مسافة حوالى نصف ميل، به ممرات مائية تتجه صوب مجموعة من القصور المهجورة على بعد ميل تقريبًا وإلى الشرق من نخيل البنَّا Banna .

ومستوطنة البنَّا Banna تضم قصرًا واحدًا وحزامًا من النخيل ، طوله حوالى ربع ميل وعرضه حوالى خمسين ياردة، يروى من جدول جارٍ يطلقون عليه اسم الخريزان Khuraizan، ولا يعرف الزراع مصدره، على الرغم من أن قناته مكشوفة فى بعض المناطق، وتحت سطح الأرض فى مناطق أخرى ، وتتخللها بعض الحفر العمودية، ويمكن تتبعها لمسافة حوالى ميل فى الناحية الغربية من النخيل. وعندما كنت أزور قرية الخريزان كانت قلة قليلة من الزنوج يعملون فى آخر الحفر العمودية، التى يصل عمقها إلى حوالى ثلاث قامات، فى محاولة منهم لتحسين كمية المياه، التى كانت ضعيفة تمامًا، عن طريق تطهير القناة، ولكن يبدو أنهم كانوا يحفرون على غير هدى، لأنهم اعترفوا بعدم معرفة الاتجاه الذى يأتى منه الماء؛ والاحتمال الأكبر هو أن العين التى يعتمد الجدول عليها بدأت تفقد قوتها بشكل متدرج، وبدا الأمر لى وكأن نخيل البنا Banna أوشك على أن يلقى المصير نفسه الذى لقيه عدد كبير من مستوطنات الأفلاج القديمة.

كان أمير البدع قد أخبرنى أن العمال استخرجوا "حجرًا عليه كتابة غريبة" عندما كانوا يحفرون مجرى جدول الخريزان Khuraizan، وكنت قد توجهت لزيارة قرية البنا يحدونى أمل اكتشاف بعض الأدلة الوثائقية عن تاريخ حضارة الأفلاج القديمة ، ولكن آمالى تبخرت نظرًا لأن الزنوج، الذين طرحت عليهم أسئلة كثيرة عن ذلك الموضوع، لم يحضروا لى شيئًا قيمًا غير قطع من البللور وبعض ألواح الحجر الجيرى التى تشبه حبيباتها حبيبات الرخام. وإن قدر لتلك المنطقة أن يزورها شخص مؤهل

لمثل هذا العمل فإن توفر الوقت والدراسة المتأنية يمكن أن يحلا فى يوم من الأيام المشكلة المتمثلة فى الأنقاض واسعة الانتشار هى والبقايا المتحللة فى إقليم له الأهمية نفسها التى للأقاليم الأخرى، ولكن إلى أن يجىء ذلك اليوم، يتعين أن يظل تاريخ ذلك الإقليم مغلفًا بالغموض. وكل ما نعرفه عن تلك المنطقة هو أن الإنسان ازدهر فيها فى يوم من الأيام، ولم يعد يزدهر فيها حاليًا ، سواء أكان سبب ذلك حماقة الإنسان أم قانون الطبيعة.

٤- أفلاج العصور القديمة

بغض النظر عن نوعية سكان الأفلاج القدماء، فإن طبيعة آثار مخلفات عملهم اليدوى، التى بقيت إلى يومنا هذا ترجح أنهم لم يكونوا من أصل عربى، وأن السلالة الرئيسية التى انفصلوا عنها، أو تفرعوا عنها كى يستعمروا أقسامًا مناسبة من وسط الجزيرة العربية، لابد من أن تكون قد قطعت شوطًا كبيرًا على طريق الحضارة أكثر من أى مجتمع من المجتمعات العربية فى تلك الأيام ، وذلك باستثناء السبئيين فى الطرف الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية. وبقاء موروثات قوم عاد فى الأفلاج إلى يومنا هذا، فضلاً عن الطابع الهزيل للمعطيات التى بين أيدينا، إضافة إلى المعرفة التى مفادها أن المرتفعات الجنوبية الغربية فى الجزيرة العربية كانت طوال فترة طويلة من الزمن المصدر الرئيسى للتيارات البشرية التى استوطنت صحراوات الجزيرة العربية، كل ذلك يجعلنا نلتزم الحذر ، ونحن نضفى على ازدهار تلك المناطق الوسطى أصلاً شرقيًا بدلاً من الأصل الجنوبى الغربى؛ ولكن عدم وجود أنقاض، من قبيل الأنقاض التى شاهدناها فى كل من الأفلاج والخرج، فى أى جزء من أجزاء الطريق الذى يوجد فى جنوب الطريق السابق، وبخاصة فى وادى الدواسر، إضافة إلى التشابه الواضح بين منظومات القنوات فى كل من الأفلاج، والخرج، والأحساء ، وفى منطقة القطيف أيضًا، فضلاً عن المعرفة التى مفادها أن الساحل الشرقى للجزيرة العربية كان فى سابق العصر والأوان، ولفترة زمنية طويلة، خاضعًا للسيطرة الفارسية، كل ذلك يجعلنا نتطلع بسهولة ويسر إلى الشرق بدلاً من الجنوب الغربى ونحن نحاول تفسير الظواهر التى وقفنا عليها فى تلك المناطق.

وليس من الضرورى أو المحتم علينا هنا الدخول إلى منطقة أو موضوع نحن لسنا مؤهلين لتسويته أو البتّ فيه؛ وأيًا كان الأمر، فليس هناك من شك أن استعمار منطقة الأفلاج كان على أيدى من جاءوا من الجنوب الغربى على شكل موجات متتالية من الغزوات التى يمكن تتبع آثارها فى الموروث الذى خلَّفه سكان تلك المنطقة. ومن بين تلك الغزوات، غزو الأشراف الذى حدث منذ ثلاثة قرون، والذى سبق أن تناولته وأنا أصف واحة السيح Saih؛ وواحة البديعة تحتوى على آثار الغزوين الآخرين.

وكان علينا قبل مغادرة ليلى استئنافًا لمسيرنا فى اتجاه الجنوب، أن نحدث بعض التغييرات الطفيفة فى جماعتنا حتى نتمكن من شغل مكانى المحمدين اللذين شغرا، نظرًا لأنهما لم يستطيعا مرافقتنا إلى ما بعد حدود الأفلاج نظرًا لوجود ثأر دموى مع الوُداعين Wudda'in من الدواسر، الذين سوف يتعين علينا المرور عبر بلادهم بعد أن نترك بلاد حسان Hasan، والذى يعد منخفض مقرن Maqran حدهم الجنوبى. وقد فارقت ذلك الصبى وأنا أشعر بشديد الأسف، وهو الشاب الذى انضم إلى جماعتنا عندما كنا فى الديلم Dilam، والذى سأظل أذكره باعتباره أحد القلائل البارزين – أمثال عظيمة Izmai، ومترك، وجابر، وحسن العرقنى Arqani، وقلة من الآخرين – الذين أدوا لى خدمات أكثر من ممتازة طوال تجوالى فى الجزيرة العربية. وعندما وصلنا إلى أم الشناضر Shinadhir، التى تعيش فيها زوجته، التى لم يرها منذ أشهر، احتقر فكرة تركنا قبل انتهاء مدة عقده، وجاءنا فى اليوم التالى فى قرية ليلى، التى بقى معنا فيها إلى ما قبل رحيلنا بيوم واحد حيث استأذن منا وعاد إلى بيته وأهله. ونكران الذات هذا أمر نادر فى العرب، وبالتالى لم يترك تامى Tami الأمر يمر دون تعليق فكاهى، ولكن محمدًا استفاد من تلك المقابلة، ولم يكن لديه، حسب علمى، من الأسباب ما يجعله يندم على الوفاء الحرفى بنصوص عقده. كان بوسع محمد أن يصل معنا إلى الجنوب، لولا الثأر الدموى الذى ترتب على ذبح أخيه لواحد من الوُداعين Wudda'in، والذى كان يحاول تسوية مسألة ذلك الثأر منذ سنوات طويلة، عن طريق جمع الدِّية المطلوبة لذلك، والتى حددها العرف بمبلغ ٨٠٠ ريال نظير الروح البشرية، وذلك من أجل مهادنة أقارب الضحية. كان ابن سعود قد ساهم بمبلغ ١٠٠ ريال من تلك الدية، والتى وصل إجمالى المجموع منها إلى ٣٠٠ ريال، وكان جمع المبلغ المتبقى سوف يستغرق سنوات كثيرة.

أما سمية فكان شخصاً مهملاً ومطموراً، جعله زواجه من الراعية منذ خمس سنوات يختلق حكاية يصعبُ على المرء أن يشك في صحتها من منظور مظهره الخارجي وسلوكه الفاتر، يضاف إلى ذلك أنني لم تنطل عليَّ مسألة الثأر الدموي مع الودين، وإنها كانت مجرد خدعة يضمن بها العودة في وقت مبكر إلى عروسه؛ ولكنني لم أعترض أو أمانع في رحيله أملاً في أن نتمكن من أن نستبدل به عضواً أقدر على التواصل والتفاهم من القبيلة نفسها. وجرى شغل هذين المكانين الشاغرين عن طريق ضم رجل يدعى صالحاً إلى جماعتنا، وصالح هذا واحد من مواطني وادي نجران، وعضو من أعضاء قبيلة عرقة Arqa، التي تدعى القرابة مع الشامير ومع العجمان عن طريق السلالة اليامية Yam، كما اتخذنا مرشداً اسمه طويرش Tuwairish، وهو ودعاني Wudd'ani من فخذ الحنيش Hanish، وموطنه السُّلَيِّل Sulaiyil، شخص يتكلم اللهجة المحلية، أصواته الأنفية فظيعة وسلوكه مفاجئ وغير مريح بالمرة، فضلاً أيضاً عن افتقاره إلى المهارة التي استأجره إبراهيم من أجلها، ولديه معرفة بالبلاد. وهناك مجند آخر قدم لنا نفسه في ظروف غريبة؛ فقد كنا نركب دوابنا ونسير خلال واحة خرفة Kharfa، وكنت أنا وحدي في مقدمة الركب، وشاهدت واحداً يرتدي غطاء الرأس المميز للإخوان ويقترب مني، من أحد الأجناب؛ وتحسباً مني ألا أسيء إليه بتحية قد لا تعجبه واصلت سيري في طريقي كما لو كنت لم أره، ولكن تحركاته كانت متعمدة تماماً وعندما اقترب مني وأصبح يسير بجانبي دنا مني وقال: "سلام عليكم" ورددت عليه قائلاً: "وعليكم السلام"؛ ثم سار بجواري ورحنا نتجاذب أطراف الحديث. أخبرته عن وجهتنا وطرحت عليه أسئلة تخص الوادي، رد عليها، رد رجل لرجل دونما امتعاض واضح من مصاحبتي أو رغبة في إسراع خطى المسير؛ وقد أبلغني ذلك الرجل أنه من إخوان السبيع في الضبعة Dhaba'a، وأنه كان في الضبعة عندما مررنا، فضلاً عن أنه سمع عني أيضاً؛ وأبلغني أيضاً أنه كان يقصد البديعة طلباً لشراء ذلول ولكن يحتمل أن يكون ثمنها أكثر مما يستطيع دفعه. قلت له: "انتبه، إذا كنت بحاجة إلى النقود، فلماذا لا تصاحبني إلى الوادي؟ وعندما تعود سيكون معك من المال ما تستطيع به شراء جمل". وقد راقتني فكرة ضم واحد من أمثال ذلك الرجل، وبمحض إرادته إلى جماعتنا، والمدهش أنه أعرب عن رغبته في مصاحبتنا، ولذلك عزمته على تناول طعام

الإفطار معنا، وشرحت له فى الوقت نفسه، أن عليه أن يرتب مسألة مرافقته لنا مع إبراهيم. وافترقنا بعد تناول الإفطار، ولدى انطباع بأنه سوف ينضم إلينا فى البديعة، ولكنى لم أره قط مرة ثانية وعلمت بعد ذلك أن إبراهيم كان قد أحبط آماله ، وربما كانت لدى إبراهيم أسبابه الوجيهة فى ذلك.

شريط الرمل، الذى أشرت إليه منذ قليل على أنه يمثل الحدود بين الأفلاج القديمة والأفلاج الحديثة، يواصل امتداده جنوبياً محاذياً لحافة الغضارة الشرقية إلى أن يصل إلى نقطة فيما وراء واحة البديعة، التى زرع من حولها صف من أشجار الأثل، يعرفه الناس هنا باسم السدة Sadda، ويتعامد على اتجاه الريح الشمالية السائدة، كى يحمى البديعة من تحرش الرياح الشمالية؛ ولكن يبدو أن ذلك التحوط باء بالفشل نظراً لوجود أكوام الرمال العالية على جناحى الواحة: الشمالى والشرقى، كما أن بيارات النخيل تعانى الكثير جراء ذلك.

وواحة البديعة التى تقع على مسافة حوالى عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربى من واحة ليلى، ويقال إنها كانت أولى مستوطنات تلك المنطقة فى أثناء المراحل الأولى من الغزو العربى القادم من الجنوب الغربى، هذه الواحة تحتل مساحة تقدر بحوالى أربعة أميال مربعة، قسم كبير منها تغطية بيارات نخيل متهالكة ومن نوعية سيئة، أما القسم المتبقى، وهو أكثر من نصف المساحة كلها، فهو عبارة عن أرض جرداء تتخللها حقول القمح من حين لآخر، وبعض المناطق المأهولة بالسكان وأنقاض منازل سابقة. وواحة البديعة التى تحتل موقعاً متعامداً على الفرعين اللذين يتفرع إليهما شعب حسرج Has-raj بعد خروجه مباشرة من مرتفعات الطويق، واللذين يرويان قسمى الواحة الشمالى والجنوبى تحت اسم حَرْم Harm وخِر khirr كلاً على حدة ، هذه الواحة تنقسم إلى ثلاثة أقسام محددة تماماً تعرف بأسماء: سالمة Salma ، والقرينة Quraina، وهدَّام Haddam . وقناة الخرّ Khirr بمثابة حد بين كل من سالمة والقرينة، اللتين تشكلان فيما بينهما كل المساحة المأهولة بالسكان وكل المساحة المنزرعة فى الواحة، فى حين يتكون قسم الهدَّام الذى يقع فى اتجاه الشرق وفى الناحية الشمالية الشرقية من سالمة، من مجرد حطام متهاوٍ لبلدة كبيرة طمست الرمال المنجرفة معالمها. أما سالمة، أو إن شئت فقل: القسم الشمالى، والتى تمثل ثلثى المساحة المنزرعة كلها، فهى تستقبل مياه الرى من

سيل الحَرْم، الذى تذهب كل مياهه إلى بيارات النخيل وحقول القمح، كما تعتمد سالمة بدرجة أقل على مياه سيل الخِرّ ، الذى يعد أقوى السيلين، ويزود القرينة بالماء، فضلاً عن أن قوة فيضانه مكنته من حفر قناة عميقة لنفسه عبر الغضارة ، التى تزحف على مستوطنة البداع عند تلك النقطة ، إلى البناBanna . وفيما يتعلق ببقية الواحة، نجد أن بيارات القسمين الآخرين تعتمد على أبيار عدة، يتراوح متوسط أعماقها بين سبع قامات وثمانى قامات، وهى تعمل باستعمال الإبل. والزراعة فى واحة البديعة لها الطابع نفسه الذى صادفناه فى المستوطنات الموجودة فى أقصى الشمال، ولكن البديعة تمثل الحد الشمالى لأراضى الرمان، الذى لا يوجد فى مستوطنات (قرى) وادى الدواسر لسبب أو لآخر.

وتلة القرين البارزة، التى تقع على بعد ميل تقريباً من القرينة على شعب الغضارة وتشرف على ضفة الخِرّ Khirr اليمنى، تحيط بها منطقة واسعة من أنقاض بقايا الرجم، التى يرجع تاريخها إلى الفترة التى سبق أن حددناها فى القسم الأخير، ويمكن اعتبارها على أنها جزء من مستوطنة البنا Banna القديمة وليست جزءاً من البداع، التى كان سكانها الأوائل، نقلاً عما قاله لى الأمير، من قبيلة آل أصفر Al Asfar . وهؤلاء القوم لا يعرف الناس أى شىء عنهم فيما عدا أنهم طردوا أو جرى استئصالهم على أيدى عشيرة عنوز جميلة Jumaila، الذين استولوا على تلك المنطقة، أو بالأحرى ذلك الجزء منها إلى أن استسلموا هم أيضاً بدورهم لتحرش الدواسر الذى لا قبل لهم به، وواصلوا المسير فى اتجاه الشمال أمام ضغط العاصفة، ولم يتركوا وراءهم أى شىء يدل على حرفهم، اللهم باستثناء أثر، سوف أتكلم عنه فى الوقت المناسب، ما يزال باقياً إلى يومنا هذا فى مرتفعات الأفلاج فى جبال الطويق. وباستثناء حطام القرين القديم، نجد أن أول المناطق المأهولة فى واحة البديعة يمثلها بلا أدنى شك حطام الهدَّام، الذى توحى جدرانه الطينية السميكة ومنازلها الفخمة بأنها كانت مدينة محصنة كبيرة الحجم، وعظيمة الأهمية، وربما كانت من إنشاءات العنوز، إن جاز لنا أنْ نغفل الموروث الأصفرAsfar، الذى قد لا يمثل سوى أسطورة غامضة من الماضى السحيق شأنه فى ذلك شأن أسطورة آل عاد فى السيح Saih .

ليكن ما يكون، فالمؤكد أن العنوز، لابد من أن يكونوا قد احتلوا هدَّام Haddam إذا كانوا لم يبنوها، والتى تحولت إلى كوم من الأنقاض على ما أذكر، وربما وصلت إلى

تلك الحالة بفعل الغزاة الدواسر الذين استبدلوا بالمركز العام، الذى أسسه الذين جاءوا قبلهم، مجموعة من القرى المتناثرة، التى توضح على نحو أفضل أكثر من أى شيء آخر مدى حقدهم الدفين، وقتلهم الأشقاء، الذى جعل اسم تلك القبيلة مضغة فى الأفواه فى وسط الجزيرة العربية. وكما حدث فى باقى المنطقة، فإن جماعة آل حسان The Hasan هى التى أمدت واحة البديعة بالمستوطنين، الذين مازال أحفاد أسلافهم يحتلون قسمين من تلك الواحة وهما: فخذ السخابرة Sukhabira فى سالمة Salma وفخذ الشكرة Shakara فى القرينة Quraina . ففى سالمة توجد بعض القرى وبعض القصور، وتعد قرية سالمة أهم تلك القرى وتلك القصور، وهى تقع فى وسط واحة البديعة على ضفة قناة الحَرْم Harm؛ ويجاور قرية سالمة قرية أخرى يسمونها السوق Suq ، والواضح أن هاتين القريتين كانتا تكونان قرية واحدة إلى أن جرى هدم القرى الأخرى المحيطة بهما بواسطة عبد الله بن سعود، فى أثناء التمرد على حكمه فى الوقت نفسه الذى حدث فيه تمرد المبرز Mubarraz . وما تزال آثار السور القديم باقية إلى الآن، وقرية السوق، من الناحية العملية، عبارة عن قرية مفتوحة تغلب عليها الأسوار العالية[١٢]، كما توجد أيضاً أبراج سالمة الضخمة، التى أبقى عليها عبد الله بن سعود أو أعيد بناؤها بعد ذلك. والقريتان سالمة والسوق معاً لا تحتويان على أكثر من خمسين بيتاً . ومن بين القرى الأخرى التى فى ذلك القطاع قرية بطينة Butina التى تحتوى على حوالى ثلاثين منزلاً، وأم الزهيرة Umm Al Zuhaiyara، وقرية مشرف Mishrif، وهما مدمرتان، ولكن القرية الأخيرة – أم الزهيرة – تقع على مسافة ميل واحد بعيداً عن حافة الواحة وفى اتجاه الشمال. وقرى القسم الجنوبى هى قرية القرينة نفسها، التى تعد قرية مكتنزة وتحتوى على ثلاثين منزلاً، والقصر الأعلى Al A'la، وهو صغير نسبياً، هذا فضلاً عن بعض القصور المتفرقة الأخرى. وسكان البديعة المستقرين لا يزيدون بحال من الأحوال على ١٠٠٠ نسمة، على الرغم من أن هذا العدد يمكن أن يتضاعف إذا ما أضفنا إليه العنصر المترحل الذى يعتمد على تلك الواحة. ويبدو أن المنطقة الزراعية كانت فى الزمن الماضى محاطة بسور دائرى، ولكن لم يعد يتبقى من ذلك السور سوى أجزاء صغيرة، أما القسم الآخر فقد دمره عبد الله بن سعود أو الدواسر أنفسهم عندما احتلوا تلك المنطقة أول مرة.

وعندما وصلنا قرية سالمة رحب بنا أميرها المدعو مرضى Mardhi، وهو من أعضاء السخابرة، والذى شغل نفسه على الرغم من كبر سنه بمسألة التأكد من أن كل ما نريده أصبح على ما يرام؛ كما تناول معنا العشاء فى الليلة التالية، وأثبت أنه عجوز كئيب صموت وقليل الكلام، إذ حكى لى على الرغم من كآبته وقلة كلامه، كل ذلك الذى سجلته أو أوردته هنا من تاريخ تلك الواحة، يضاف إلى ذلك، أن الأمير كان شاهد عيان على الانتقام الذى نفذه عبد الله بن سعود فى تلك القرية. ومحمد ولد الأمير مرضى يبلغ من العمر أربعين عامًا، كان شخصًا لطيف الصحبة، فقد رافقنى فى أثناء زيارة قرية البنا بحثًا عن "الحجر المكتوب"؛ أما الجيل الثالث من الأسرة نفسها، والذى يتمثل فى الطفل محمد البالغ من العمر عشرة أعوام، فقد كان بصحبة جده عندما كان يتناول معنا العشاء.

٥- على حافة الربع الخالى

فى جنوب منطقة الأفلاج، ينبثق فى اتجاه الأمام من برية الرياض الواسعة – التى تمتد حافتها الغربية فى اتجاه الجنوب إلى مسافة تزيد على ١٠٠ ميل من خط طول الخرج – بروز عريض له رأسان فى اتجاه الغرب، ويطبق على المنحدرات الخارجية لهضبة الطويق، التى يغير صرفها المنحرف طريقه بعض الشىء ليتجه صوب الجزء الشمالى والجزء الجنوبى من ذلك البروز، سالكًا فى ذلك الخطوط قليلة المقاومة، ليركز هجومه على الكتلة الوسطى من ذلك الانتفاخ الذى دفعه إلى الخلف ليحصره بين رأسى البروز مكوناً بذلك مثلث مرقان Marqan الكبير، تاركاً (الصرف) الكتل الصخرية الصلبة عقبة أمام المنخفض معتبراً تلك الكتل تلالاً منعزلة. وقد أدى سيلا الهضبة الكبيران، سيل الشطبة Shutba ، وسيل الضباعية Dhaba'iyya ، إلى وجود وديان واسعة تكسوها الغابات وتغطى مجرى القناة العميقة التى تكونت بفعل عوامل التعرية، والتى تحمل مياه فيضان هذين السيلين عبر حاجز الأحقاف The Ahaqaf إلى الصحراء.

فى الأزمان السالفة فى إطار الذاكرة الإنسانية، إن قدر لنا الوثوق بالمرويات المحلية، وفى الأزمان التى كان عابر السبيل يفتقد الأمن فيها بدرجة كبيرة، ويوم أن

كان منخفض مرقان يخلو من الماء اللهم فى موسم الفيضان، فى تلكم الأيام كان من عادة القوافل التى تحمل أحمالاً ثقيلة من البن قادمة من الجنوب، أن تسير على شكل دائرة يمتد محيطها محاذياً للحدود الخارجية لذلك البروز الأرضى، وهى فى طريقها إلى الأفلاج عن طريق واحة شطبة Shutba الصغيرة داخل ثنيات مرتفعات الطويق، حيث لا يوجد الماء إلا فيما بين حمام Hamam وواحة البديعة. فى تلكم الأيام لابد أن طول الرحلة كان يقدر بضعف الرحلة الحالية، والسبب فى ذلك أن الطريق الجنوبى الغربى الذى سلكناه إلى السليل Sulaiyil – حوالى ١٢٠ ميل – يسير عبر انتفاخ البياض بحذاء قاعدة ذلك الانتفاخ عن طريق بحيرات مرقان Marqan، التى تشكل مسقى متوسطًا بين البديعة وحمام Hamam .

وبعد مسافة ثمانية أميال من البديعة بدأ مسار طريقنا يقودنا إلى البقية الباقية من سهل الأفلاج، الذى ينحدر سطحه انحداراً هيِّنًا ناحية الجنوب الشرقى، وكان ذلك السطح يتكون من اللَّهَم (الغرين) الرملى الخفيف الذى تتخلله شرائط عريضة من الزلط، وتكسوه حياة نباتية برية خفيفة وقصيرة. وفى منتصف المسافة عبرنا المجرى الرملى الضحل لشعب مسارجة Musarja، القادم من المرتفعات، ثم دخلنا بعد ذلك مباشرة حدود المنطقة فى الجزء الواضح من حوض شعب حَنُّو Hunnu، ذلك المجرى الرملى الذى يصل عرضه إلى حوالى خمسين ياردة وينساب بين ضفتين ، يصل ارتفاعهما إلى حوالى قدمين من الطويق فى الناحية الغربية وتسيران محاذيتان للحافة الشمالية لبروز (انتفاخ) البياض Biyadh، ثم يدخل الشعب بعد ذلك الأرض القاحلة فى اتجاه الشرق. ومن حول ضفتى ذلك الشعب – كانت الحياة النباتية كثيفة – أشجار الشر Sharr ، وأشجار السلم Salam ، وحشائش من أنواع مختلفة.

خلف ذلك السهل كانت هناك رابية يسمونها الخفيسة Khufaisa التى تجاور جدولاً من جداول الصرف يحمل الاسم نفسه، وكانت تلك الرابية تمثل بداية البرية الحقيقية، أو إن شئت فقل تلك الصحراء الشاسعة التى ينتشر فيها الزلط رمادى اللون، والتى لا يحدها سوى أفقها، والتى بدأت الرابية تنحدر تجاهها انحداراً نحو الأعلى فى تدرج غير ملحوظ. وقمة تلك الرابية هيأت لى رؤية منظر واسع ولكنه لا يسر الخاطر؛ فمن خلفنا يوجد سهل الأفلاج الرتيب ببقعه الخضراء الصغيرة ومن خلفها حائط الطويق؛

ومن أمامنا رأينا الربع الخالي، الذى أوشكنا على أن نعبر أرضه الجرداء الخالية من الزرع والماء، والسبب فى ذلك أن العرب يعرفون - وهم على حق ذلك - البياض باعتبارها عتبة الربع الخالي، على الرغم من أن الرمال، التى يميل جغرافيونا إلى قصر ذلك الاسم عليها، تبعد عنا مسير أيام كثيرة فى اتجاه الجنوب وفى اتجاه الشرق أيضًا؛ كانت التموجات اللطيفة فى الأرض الأمامية تشبه موجات البحر وهى تتكسر على الشاطئ، ومن خلفها الصحراء الناعمة التى تشبه محيطًا يتلاطم تلاطمًا صامتًا هنا وهناك بجوار سلسلة من الجبال غير المنتظمة.

فى هذه المنطقة خلَّف مرور الأعداد الكبيرة من القوافل مدقًا (طريقًا) عميقًا انحفر فى تربة تلك المنطقة الصلبة ومحاذيًا لقناة شعب سدير Sudair ، الذى يصرِّف مياه المنحدرات الشمالية فى هذه المنطقة إلى شعب حنو Hunnu . سرنا بحذاء ذلك الشعب تَعِبين ومتثاقلين وسط ذلك المنظر القاحل إلى أن وصلنا إلى منبع ذلك الشعب فى أرض وعرة، كانت بمثابة الحد الفاصل بين المصرف الشرقى من ناحية والمصرف الذى يشق طريقه إلى منخفض مرقان Marqan من الناحية الأخرى؛ ولم نر ملمحًا أو سمة واحدة تكسر حدة ذلك الملل المميت الذى استمر معنا على امتداد أربعين ميلاً هى طول الرأس الأولى من ذلك البروز (الانتفاخ) الصحراوى. وفى أحد الأماكن على جانب الطريق كان هناك رجم غريب الشكل، مكون من قراميد حادة من الصخر موضوعة على جوانبها، على جانب الطريق، وكانت تحد ذلك الرجم على الجانبين قراميد مماثلة تمتد من الرجم فى اتجاه المدق (الطريق)؛ وبالقرب من ذلك الرجم كان هناك قرميدان من الصخر يبعدان عن بعضهما حوالى خمسة عشر قدمًا ، والناس هنا يطلقون على هذين القرميدين اسم تمرة الهضاب Tamrat Al Hadhab، أو كما نقول نحن انفراج العملاق، ولكن أحدًا منهم لم يستطع أن يخبرنى أو يشرح لى معنى ذلك التعبير، أو حتى ما هو ذلك الهضب Hadhab . وعلى بعد مسافة ثلاثة أميال أو أربعة توجد شجرة طويلة وحيدة من أشجار الطلح، تشكل مستقرًا منفصلاً لراحة الظهيرة، يطلقون عليه اسم شجرة عواد Awwad'. وخلف شجرة عواد، وبالقرب من منبع الشعب توجد منطقة فيها عدد كبير من الرجم، تشبه إلى حد بعيد حطام الأفلاج القديمة، على الرغم من بعد تلك المنطقة عن أى مركز محتمل من المراكز السكانية التى يمكن ربطها بتلك الرجم.

فى تلك المنطقة بدأ سطح الصحراء يتكسر وتنتشر فيه سلاسل الجبال، وتغير لون الصحراء من اللون الرمادى إلى اللون السنجابى الذى يشوبه السواد، كما أن الحجر الجيرى فى تلك المنطقة تعلوه قشرة رقيقة من الحجر الرملى تعلوه بروزات مسطحة القمة أو مخروطية مسودة اللون كما لو كان ذلك بفعل النار.

كانت أول علامة من علامات الحياة التى لقيناها تتمثل فى مجموعة من نساء الهواملة Huwamila، فخذ الشيخ سحمى Sahmi، كن تسرن من مخيمهن فى المنطقة المجاورة لمرقان Marqan قاصدات قرية ليلى لشراء بعض المؤن. كانت النسوة اللاتى كان عددهن يبلغ نحو الاثنتى عشرة أو ما يقرب من ذلك، تركبن فى مقدمة حرس من الرجال مكون من خمسة رجال، تبادلنا معهم التحية والأخبار؛ كان الرجال سعداء بعودة رئيسهم من المهمة التى قام بها إلى جابرين Jabrin، ولكن نتائج المهمة كانت مخيبة للآمال. وبعد ذلك مباشرة، مررنا بمجموعة مكونة من ست من الزنوج من وُلامن الوادى Wullamin Wadi نفسه، كانوا فى طريقهم، حسبما قالوا لى، لكسب عيشهم من أحواض تربية اللؤلؤ فى الخليج على الساحل الشرقى؛ وهذا تصرف يلجأ إليه كثيرون من سكان الداخل، ويعودون فى أغلب الأحيان بعد عدة سنوات من العمل الشاق، ببضع مئات قليلة من الريالات تمكنهم من الزواج وتكوين أسرة، وشراء بعض الأغنام أو جمل من ضمن الصفقة، وأن يعيشوا فى سعة بقية حياتهم؛ وقد لا يعود البعض منهم مطلقًا، بسبب اجتذابهم إلى حياة البحر ومباهج الحياة فى المدينة فى بلاد بعيدة. وقد أخبرنى أولئك الزنوج أنهم: "سيسيرون إلى اليمامة، ومنها إلى شعب السحابة Sa-haba، ثم يحصلون على سقيا من أبيار الواسعة Wasi'a جنوب أبو جيفان Jifan، ثم يعبرون الدهناء إلى الأحساء The Hasa. وقالوا لى أيضًا: إن هناك طريقًا مباشرًا من وُسَيْلة Wusaila إلى الأحساء عن طريق أبيار الواسعة، ولكن المغامرين فقط أو أولئك الذين يعرفون البلاد حق المعرفة هم الذين يخاطرون بمسألة التيه فى البياض Biyadh، تلك الصحراء التى يصل عرضها إلى حوالى خمسين ميلاً خالية من المسارات أو الممرات، وذلك نقلاً عن مترك الذى قام بتلك الرحلة. وقبيل المساء مررنا بجماعة أخرى ، قافلة صغيرة من الإبل، ثمانية منها كانت محملة بالبن اليمنى المعبأ داخل أكياس كبيرة ، وكان كل كيس يحتوى على ثمانين وزنة[١٤] من الحبوب الثمينة . كانت تلك القافلة

متجهة إلى الحوطة Hauta، الحد الشمالى لتجارة البن النظامية حاليًا، والسبب فى ذلك أن البن اليمنى، فى الرياض وما خلفها، يعد ترفًا يجرى جلبه من سوق الحوطة بواسطة أولئك الذين يستطيعون تحمل النفقات المترتبة على ذلك.

فى البديعة كنت قد أتيت على البقية الباقية من التبغ الذى أدخنه. ولم يصلنى طرد التبغ الذى كنت أتوقع وصوله من الكويت عند مغادرتنا الرياض، ولذلك تركت بعض التعليمات التى تقضى بإرسال ذلك الطرد إلىَّ فور وصوله، ومع ذلك لم تصلنى أية دلائل أو إشارات إلى وصول ذلك الطرد، وبدا المستقبل لى أسود، والسبب فى ذلك لم يكن نقص التبغ وحده وإنما نقص أفلام التصوير أيضًا، يضاف إلى ذلك أن حياة المسافر تجلب الضيق إذا ما خلت من هذين الاثنين. ومع ذلك، لم يكن هناك بد من الصبر قدر المستطاع؛ فالأفلام كانت مسألة الحصول عليها أمرًا أصعب قليلاً من الحصول على التبغ، والسبب فى ذلك، أن إبراهيم هو ورفاقه أسفر بحثهم فى قرية الأفلاج عن ما يقل عن ربع أوقية من التبغ – أى ملء فنجال من فناجيل القهوة – لدى امرأة من السيح طلبت ريالين ثمنًا له. كان السعر الذى أعطته تلك المرأة انتهازيًا إلى حد بعيد، ورفضت قبوله، وواصلنا رحلتنا بدون تبغ ، هذا يعنى البقاء بدون تبغ مدة عشرين يومًا، والسبب فى ذلك خلو الوادى من التبغ، وكان علىَّ أن أنتظر وصول طرد التبغ الخاص بى فى اليوم السادس من شهر يونيو. وأحس كل من إبراهيم ورشيد بنفاد التبغ مثلى تمامًا، ولكن يحق لهما أن يحكيا أنهما أصرا فى اليوم الأخير على الاحتفاظ لى بالبقية الباقية مما معنا من تبغ ؛ الأمر الذى أسفر عن ثلاثة غلايين دخنتها أنا وحدى، قبل أن نصبح كلنا فى الهم شرق. ومع ذلك، انغمس إبراهيم فى طقوس راح بمقتضاها ينحت رماد الغلايين ويدخنه.

الفاصل بين الصرف الشمالى والصرف الجنوبى عبارة عن هضبة متموجة، تشتمل على سلسلة من المنخفضات التى يعرفها الجميع باسم الكرميديات Al Karmidiyat، وهذا الاسم مشتق من كلمة الكرميدية Karmidiyya، والذى هو اسم منخفض كبير من تلك المنخفضات[١٥]. وكل منخفض من تلك المنخفضات عبارة عن قاع قائم بذاته، فيه قليل من أشجار السنط وبعض الأدغال الأخرى. وبدءًا من الأرض العالية التى تفصل تلك المنخفضات عن بعضها بدأنا نلقى نظرة على ارتفاع منخفض مرقان Marqan،

سلسلة فرد Fard من الجبال المدببة وسلسلة جبال موغالى Mughali فى الناحيتين الغربية والجنوبية الغربية فى اتجاه الطويق؛ كما ألقينا نظرة أيضًا على تل الكدرات Al Kadrat مستوى السطح، وعلى سلسلة جبال الختيمية Khutaimiyya فى الناحية الجنوبية الشرقية؛ عن يسارنا؛ كما شاهدنا أيضًا فى الناحية الجنوبية فى اتجاه سقيا مرقان سلسلة جبال عقرة Aqra' السوداء، كما رأينا أيضًا مخروط عبيد Ubaid' المرقان، وسلسلة جبال بزقة السكون الطويلة التى يميل لونها إلى الاصفرار، كما شاهدنا أيضًا رابية الدنان Dannan المستديرة التى تعد علامة من علامات عين الماء الموجودة هناك. وشاهدنا أيضًا فى الوديان التى أمامنا مناطق داكنة لأشجار جيدة النمو. كانت البلاد كلها تبدو كما لو كانت قد اصطليت نارًا مستعرة.

كان المنخفض الجنوبى بجداوله الضحلة المتفرعة عن شعبى مريخة Muraikha وهاوى Hawi تتخلله إبل الهواملة Huamila التى كانت ترعى فى تلك المنطقة، ثم بدأت أعداد الهواملة تتزايد مع دخولنا إلى حوض شعب الهوزاعية Hauza'iyya، الذى يوجد منبعه فى سلسلة جبال فرد Fard المدببة، ثم مررنا بعد ذلك إلى شعب شطبة Shutba، الذى يعد واحدًا من واديىْ منخفض مرقان. ووجود جالب Jalib مدفون بالقرب من نقطة التقاء هذين الواديين يوحى بوجود مسقى قديم، اغتصبته أو حلت محله ظاهرة من تلك الظواهر الصحراوية العجيبة، أو إن شئت فقل خفس Khafs وصلنا إليه عن طريق ستار سميك من أشجار سنط جيدة النمو، وأشجار السرحة Sarha، وبعض الأشجار الأخرى. وهذا الخفس عبارة عن بحيرة واحدة من ثلاث بحيرات التى تسبب تكوينها حديث العهد - إذ يبدو أنها تكونت فى زمن قريب - فى جعل منطقة مرقان مسرحًا على الطريق الجنوبى، وملاذًا مفضلاً يلجأ إليه البدو الذين يرعون السائمة.

وتصادف وصولنا إلى الخفس الأول - الذى أمضينا فيه وقفة الظهيرة التى استمرت أربع ساعات - مع سقيا من السقى الدورية التى يقوم بها الهواملة، الذين يسوقون مواشيهم البطيئة الداكنة اللون - تشتهر مواشى الدواسر بحجمها الكبير وإدرار الحليب - إلى منطقة الخفوس كل أربعة أيام أو خمسة ، قادمة من البياض ومن المراعى الأخرى فى المنطقة المجاورة. وخيام الرعاة فى هذه المنطقة تنصب على شكل مجموعات متفرقة فى كل أنحاء الوادى، والرعاة يتناوبون تلك الخيام عائلة إثر أخرى،

كى يسوقوا حيواناتهم إلى المسقى ، وهذه العملية قد تستغرق أكثر من يومين من بدايتها إلى نهايتها. وخيام هذا الفخذ من النوع المتواضع جدا، إذ تتكون من قطع صغيرة من القماش الصوف ، أسود اللون محكم النسج، معلقة على أعمدة قصيرة، أو قد لا تزيد، في بعض الأحيان، عن شرائح من الحصير المصنوع من سعف النخيل، مفرودة فوق أعمدة عليها غطاء من الأغصان ذوات الأوراق التى يجرى جلبها من الأشجار فى المناطق المجاورة. والقاعدة العامة أن كل خيمة من تلك الخيام تستوعب أسرة واحدة، ولكن قيل لى إن أخوين يمكن لهما، فى بعض الحالات، تناوب خيمة واحدة، على أن تحتل كل أسرة من أسرتيهما ركنًا مستقلاً من ذلك المكان المغطى، دون أن يكون هناك فاصل بينهما، وبلا حرج أو خجل أيضًا. ولم يعترض شاغلو تلك الخيام على نصب خيامنا بينهم، بل إنهم أفسحوا لنا الطريق كى نسقى إبلنا عندما تسمح لنا الظروف بذلك، ولكنهم لم يكشفوا عن رغبة فى التعرف علينا عن قرب، هذا على الرغم من أن جماعات من النساء والأطفال لم يكن لديهم ما يفعلونه أفضل من التسكع فضولاً حول خيمتى. ودخلنا معهم فى مفاوضات لشراء ذلول (ناقة)، نظرًا لأنى كنت أتطلع تمامًا إلى أن أصطحب معى حيوانًا من سلالة طيبة أقدمه هدية لابن سعود، وقد تهيأت لى فرصة فحص حيوان من هذا القبيل، طلبوا ٣٠٠ ريال ثمنًا له، ولكن الأمر وقف عند ذلك الحد فقد رفضوا أن يعطونا الحيوان بعد الموافقة.

كان الخفس (عين الماء) الذى توقفنا عنده عبارة عن شرخ على شكل نجمة فى الأرض، طوله خمسون ياردة وعرضة حوالى ثلاثين ياردة، ويصل عمق الماء فيه إلى ثلاثة أقدام فيما بين ضفتين منحدرتين. وكانت تحيط بذلك الخفس مجموعة من الأشجار الكثيفة الظليلة، والخفس يقع بالقرب من جانب من جانبى الوادى أسفل سلسلة من جبال البياض Biyadh، ويتصل بقناة فيضان الشطبة عن طريق بعض الجداول الضيقة. وعلى بعد مسافة ميل من تلك النقطة وبطول مجرى الفيضان هذا، وبالقرب من ربوة من الحجر الجيرى يطلقون عليها اسم برقة المنيع، ينحدر وادى شطبة Shutba، الذى ينساب نازلاً من مرتفعات الطويق، وينحدر بطول الجناح الشمالى لسلسلة جبال مغالى Mughali، ليتصل بوادى الضباعية Dhaba'iyya، الذى ينساب نازلاً من الجانب الآخر لسلسلة جبال مغالى، ليكوّنا سويًا قناة واحدة تمر خلال صخرة

البياض فيما بين ربوة الدنان Dannan وسلسلة جبال عرقة. وهناك فجوة مركزية فى سلسلة جبال مُغالى ينساب منها شعب صغير، يسمونه أم العطور Al 'Atur، يتصل بشعب الشطبة بالقرب من برقة المنيع وشعب الهوزاعية Hauza'iyya الذى ينبع من سلسلة جبال فرد Fard، هو وفرعاه: الهاوى Hawi والمريخة Muraikha، سبق الحديث عنه، وتكتمل منظومة صرف منخفض المرقان بانضمام شعب السحاب إليها، والذى ينساب نازلاً إلى شعب الضباعية من مرتفعات فردة Farda بن مواش Mawwash، الرأس الثانية من بروز البياض. وهناك لسان نحيف من الرمل يمتد فى اتجاه الطويق فيما بين المغالى ومرتفعات فردة بن مواش، كما يفصل ذلك اللسان الضباعية عن شعب السحاب Sahab، الذى يجمع، طوال مسيره بحذاء صخور البياض، مياه الصرف القادمة من عدد من الشعاب الصغيرة النازلة من المرتفعات فى ذلك الاتجاه.

ووادى الضباعية بعد اتصاله بشعب السحاب يمتد محاذياً لصخور البياض أسفل سلسلة جبال عرقة فى مساحة كبيرة معشوشبة تتخللها مساحات صغيرة من أدغال أشجار الشرر، وأشجار الطلح، وتحتوى على الخفسين المتبقيين، اللذين يقعان بالقرب من بعضهما البعض على مسافة تقدر بحوالى ميلين فى اتجاه نقطة اتصال الواديين. وأصغر هذان الواديان يبلغ طوله حوالى عشرين ياردة وعرضه حوالى عشر ياردات، وهو عبارة عن صدع عميق أسفل الصخور. وقاع ذلك الوادى تغمره مياه يصل عمقها إلى حوالى قدمين، وترتفع ضفتاه إلى ما يتردد بين ستة أقدام وسبعة أقدام، مع بعض المداخل العارضة المؤدية إلى ماء ذلك الوادى فى أماكن عدة تشرب منها الإبل ويستعملها الناس. أما الخفس الآخر وهو أكبر تلك الخفوس الثلاثة، فهو عبارة عن سطح مستطيل من الماء، يقدر طوله بحوالى ثمانين ياردة وعرضه حوالى عشرين ياردة، وتحيط به أشجار الطلح الظليلة، ويحتوى على ثلاثة أقدام من الماء وترتفع ضفتاه إلى مسافة قدمين فوق مستوى سطح الماء، وقد التف من حوله عدد كبير من البدو الذين جاءوا إليه ليسقوا منه إبلهم.

أقمنا مخيمنا فى تلك الليلة فى قناة شعب السحاب أسفل صخور البياض، وفى صبيحة اليوم التالى واصلنا مسيرنا إلى أعالى شعب السحاب إلى أن وصلنا إلى منبعه فوق قمة الرأس الثانية من البروز (الانتفاخ) فيما بين سلسلة جبال فردة بين

مواش على الجانب الأيمن وسلسلة جبال المسيجرات Musaijirat على الجانب الأيسر. وخلف تلك النقطة، التى تمثل الحد الجنوبى لبلاد آل حسان The Hasan وبداية أراضى جماعات الوادى، نزلنا فوق سطح المنطقة الوعرة المتموجة من سلسلة جبال البياض ومنها إلى وادى شعب الغُديِّر Ghudaiyir، الذى هو عبارة عن شريط ضيق من الأرض الوعرة التى تكسوها الأدغال فيما بين صخور البياض من ناحية وسلسلة منخفضة من الجبال[١٦] من الناحية الأخرى، ويطل على المنحدرات الخارجية للطويق وشعب مران Marran، الذى يصرف المياه، موازيًا لشعب الغدير ، جنوبًا فى اتجاه الحمام Hamam . وقاع الشعب يوجد به غطاء كثيف من أعشاب الثمام Thamam وأدغال الصرحة Sarha وأدغال السلم التى كانت تغطيها أسراب من الجراد الخامل والجراد النشط متباين الأنواع . فقد تركت فيضانات الموسم الماضى بركًا عديدة من الماء فى أماكن مختلفة من المنخفض ، والتى سقينا جمالنا من واحدة منها . وراحت النسور أو طيور شبيهة بها تحوم فوق رءوسنا ، وشاهدنا فى ذلك المكان أعدادًا كبيرة من الغزلان ، وبخاصة ذلك النوع الذى يميل إلى البياض ويسمونه الريم ، وأضيف إلى ألوان ذلك المشهد لونًا آخر تمثل فى طائر أظن أنه طائر القيق ، أو إن شئت فقل طائر أبو زُريق .

لم يكن مسير ذلك اليوم طويلاً ، ولكن الإبل ، على الرغم من السقيا الإضافية التى حصلت عليها ، بدأت تكشف عن علامات الإرهاق والتعب ، عندما بدأت تلوح لنا فى الأفق نخيل الحمام Hamam، وقررنا التوقف على مقربة من القرية . كانت جماعتنا قد جرى تدعيمها عند مرقان Marqan برجلين من فخذ الدمنان Damnan من آل مرة ، واللذين كانا قاصدين السليل ، ولم يثبت أى واحد منهما أنه كان مبهجًا أو متفاهمًا ، كما أن ملل الرحلة لم يكسره إلا مرور قافلة من قوافل البن التى كانت تضم سبعة عشر جملاً فى طريقها إلى الأفلاج . كان تامى Tami قد وقع له فى اليوم السابق حادث غريب بدأنا نحس آثاره ؛ فقد توقف تامى هو وابن جلهم لأخذ شربة ماء، وبينما كان تامى يحنى رأسه إلى الخلف وذراعاه مرفوعتان وهو يشرب من محتويات قربة ماء صاحبه ،تحركت ناقته (ذلول) فجأة إلى الأمام ؛ الأمر الذى أسفر عن كسر إصبع قدمه الصغير ، الذى كان ممسكًا بمعدات سرج جمل ابن جلهم ، وكان الإصبع

قد انكسر تماماً ، إذ انكسر العظم وبرز من خلال الجلد . وجرى لف ذلك الكسر بلفافات قذرة ، ونسى الجميع الحادث إلى مساء اليوم التالى ، عندما بدأ تامى المسكين يشكو من الألم والإعياء ونام دون أن يتناول طعام العشاء . وبعد ذلك ، بدأ تامى يلاقى صعوبة فى السير على امتداد بضعة أيام ، ولكن الجرح اندمل تماماً خلال عشرة أيام وعاد إلى وظيفته العملية بكل المقاييس ، وبعدها بدأ ذلك الإصبع ، خلال فترة وجيزة يأخذ شكله المعتاد ، واختفت تماماً كل العلامات الدالة على الكسر .

٦ - وليام جليفورد بالجريف فى الجزيرة العربية

فى واحد من المجلدات الجميلة الملهمة التى نشرت فى عام ١٩٠٤ الميلادى ، راح السيد دى. جى. هوجارث Hogarth فى كتابه المعنون «اختراق الجزيرة العربية» بالإضافة إلى مؤلفاته الأخرى ، وفى ضوء معرفته الفريدة بصحراء شبه الجزيرة العربية وكل ما فيها ، فى ضوء كل ذلك بدأ هوجارث بوحى من مقال عنوانه "وقفة مع استكشاف الجزيرة العربية" ، عملية جرد للمعارف الحديثة التى طرأت على ذلك القليل المعروف عن تلك البلاد ، وبنى الرجل كتابه على كل المعطيات التى خلفها أو أعطاها للعالم ذلك الصف الطويل من المستكشفين أو الباحثين عن الحقيقة، أو الباحثين عن المكاسب وعن الشهرة أو الباحثين عن المغامرات . وهذا الكتاب الذى اصطحبت منه نسخة معى طوال تنقلاتى ، كان ملهمى فى الجزيرة العربية طوال العام الماضى ، وهو أيضاً الذى دفعنى إلى المضى أبعد من ذلك ، إلى ما بعدما وصل إليه من سبقونى فى السفر إلى جنوب الجزيرة العربية لا من حيث تناول كتاباتهم فقط ، وإنما من باب التعرض أيضاً للمؤلف نفسه ، وبخاصة أننى تعرفت على السيد هوجارث Hogarth تعرفاً تاماً . ومن حسن الطالع أن يحدث ذلك التعرف فى مدينة جدة ، فى ختام رحلة كان لا يمكن القيام بها لو لم يقم هوجارث بتلخيص المعرفة المتيسرة عن هذه الأجزاء من الجزيرة العربية فى تلكم الأيام .

وفى ظل مثل هذه الظروف قد يبدو انتقادى لكتاب ، أدين له بالكثير ، أمراً غير لائق ، ولكن النقد يعد ، إلى حد ما ، مسألة حتمية وأمراً لازماً ، يضاف إلى ذلك أن

نقدى ليس موجهاً إلى السيد هوجارث أو إلى النتائج التى توصل إليها من المعطيات التى أتيحت له ، وإنما موجه إلى شخص ، وثق به هوجارث إلى حد جعله يضعه فى مضاف تقييمه هو ، بل جعله فى مقدمة كل المصادر التى بنى عليها دراسته ، أو إن شئت فقل مسحه الذى قام به عن الجزيرة العربية . وسوف أوضح فيما يلى أن وليام جليفورد بالجريف ، ذلك المغامر الجزويتى لم يكن يستحق كل هذه الثقة ، ولكنى سوف أتجاسر وأقول إن كل أولئك الذين يعرفون الجزيرة العربية من الداخل سوف يوافقوننى على الخروج أو الاعتراض على الحكم الذى يقول "من بين مستكشفى الجزيرة العربية ، وإذا ما أخذنا بعين اعتبارنا المساحة التى زارها كل منهم ، والمخاطرات التى لقيها كل منهم ، والنجاح الذى حققه أيضاً كل منهم ، نجد أن دوتى Doughty هو الوحيد الذى يمكن مقارنته ببالجريف"[١٧] واقع الأمر أن مؤلف كتاب صحراء الجزيرة العربية Arabia deserta، الذى يعد أعظم ملحمة فى أدب الأسفار ، هذا المؤلف يعد فئة مستقلة بحد ذاتها ، ولا يمكن مقارنته بمن سبقوه إلى صحراء الجزيرة العربية أو ذهبوا إليها بعده ، ولكنهم يجيئون بعده ، والذى يقول عنه السيد هوجارث إن الملحمة التى كتبها دوتى هى على العكس[١٨] من ذاته تماماً ، وأنا بدورى سوف أثبت من جميع النواحى عكس تلك الملحمة . منذ سنوات ، وعندما كنت طفلاً قرأت وأنا فى المدرسة ، كتب بالجريف عن الأسفار ، وعجبت من مغامراته المدهشة ، ورحت أحلم بإعادة قراءة تلك الأسفار و"الحدوتة" نفسها بعقلية ناقدة وفكر ناقد أيضاً ، وبخاصة أسفاره فى الجزيرة العربية ، وذلك فى محاولة فاشلة من جانبى ، حاولت فيها وضع الحقائق التى وقفت عليها من خبراتى وتجاربى ضمن إطار قصته المحبوكة تماماً . وجاءت محاولتى بلا جدوى اللهم إلا باستثناء أن الحقائق الفعلية ، أو إن شئت فقل الحقائق الطبيعية للجزيرة العربية ، حدث لها تعديل أو تغيير جذرى خلال نصف قرن من الزمان انقضى على الزيارة التى قام بها إلى الجزيرة العربية . يضاف إلى ذلك أن تلك الفرضية ، على الرغم من صعوبة تصديقها ، تتجلى تماماً وعلى الفور فى عدد صفحات المجلدين الهائل ، التى أودعها دوتى Doughty، الذى زار الجزيرة العربية بعد بالجريف بخمسة عشر عاماً ، وصفاً كاملاً ونهائياً، ضمنه كل ما رآه وكل ما عاناه فى تلك البلاد . ومن حسن حظى ، أن تكرم علىَّ صديق[١٩] ، لا أعرفه أنا شخصياً ، وأرسل إلى هذين المجلدين فى أثناء

وجودى فى الجزيرة العربية ، وأن أقرأهما وسط المشاهد التى أوحت بكتابتهما ، واللذين يحتويان على وصف رائع لتلك المشاهد . وبإصرار المناضلين المستميتين نقبت فى هذين المجلدين عن أخطاء ، واكتشفت أنهما خاليان من الأخطاء ومن العيوب . وسيكون من العيب إن أنا امتدحت هذين المجلدين أكثر من ذلك .

مادة كتاب بالجريف من نسيج مختلف تماماً ، على الرغم من أن سرده القصصى وجولاته وصولاته فى المجال الطبوغرافى تبلغ من المراوغة والإرباك حداً، جعلنى ألجأ إلى حسم تضارب أقواله وأوصافه بصورة متكررة مع الحقائق والسمات التى تشير إليها تلك الأقوال والأوصاف باعتبار أن ذلك ينتج عن الغرور الطبيعى والثرثرة وكثرة الكلام التى يتسم بها الكاتب غير المجيد ، لجأت إلى ذلك بدلاً من رفض الأدلة التى تسوقها إلىَّ حواسى . وقد لجأت إلى ذلك الخيار بطريقة فطرية تماماً إلى أن – من منطلق أن معرفتى المتنامية بتلك البلاد هى التى مكنتنى من رؤيتها فى إطار منظور أوضح – أصبح من المتعذر علىَّ مواصلة السير فى ذلك الاتجاه ، وبخاصة عندما بدأ الناس ينظرون إلى أسفار بالجريف على أنها الرواية الأوروبية عن البلاد الواقعة فيما بين الرياض ومنطقة الأفلاج ، إلى حد أن تلك الرواية أصبحت مرشدى الوحيد طوال الأيام الأولى من الرحلة التى قمت بها إلى الجنوب . طوال تلك الأيام ، توصلت إلى استنتاج مفاده أن بالجريف لم يزر منطقة الأفلاج على الإطلاق . وجاء أول بلاغ منى بذلك المعنى على شكل موجز بالأدلة التى بنيت عليها ذلك الاستنتاج ، قدمته على شكل تقرير رسمى عن جولتى إلى المناطق الجنوبية، كتبته فور عودتى إلى الرياض ، وجرى طبعه بعد ذلك باعتباره مذكرة رسمية فى كل من الهند ومصر. وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل من عام ١٩١٩ الميلادى، وعقب عودتى إلى إنجلترا مباشرة أشرت إلى ذلك الموضوع إشارة مقتضبة فى بحث كتبته عن جنوبى نجد ، وقرئ أمام الجمعية الجغرافية الملكية، وتحدى السيد هوجارث النتائج التى توصلت إليها ، كما تحدى أيضاً الأدلة التى بنيت عليها تلك النتائج. ورداً على ذلك التحدى ، وسَّعت من هجومى على مصداقية بالجريف، وبعد ذلك بعام، وبعد أن تهيأت لى فرصة قراءة بحث ثان أمام الجمعية الجغرافية الملكية، قمت بانتقاد وتوبيخ مصداقية الوصف التى قدمه بالجريف، وبخاصة ذلك الوصف الذى يتعلق بالدهناء ، ولقد شعرت بالارتياح والرضا

للمساندة الكبيرة التى لقيتها وجهة نظرى ، وجاءت من حيث لا أدرى، هذا فى الوقت الذى توقف فيه السيد هوجارث عن التعليق على ذلك الموضوع. وقد أثارت تلك المسألة قدراً كبيراً من الاهتمام لدى بعض الدوائر الأخرى ، كما ازدادت أهمية تلك المسألة إلى الحد الذى جعلها تستحق المزيد من الدراسة المتأنية، وذلك من منطلق أن بالجريف ، من ناحية، ليس حاكياً يقوم بالدفاع عن نفسه وبالتالى يستحق الثناء عليه، اللهم إلا إذا كانت الأدلة المؤيدة لذلك الاستنتاج دامغة وساحقة، ولأن تاريخ اختراق الجزيرة العربية، من ناحية ثانية، لا يمكن تدوينه بصورة مرضية، إلا بعد تحديد مكانة بالجريف بين مستكشفى الجزيرة العربية، وبخاصة أن تحديد تلك المكانة قد آن أوانه الآن.

وكل من يقرأ كتاب السيد هوجارث لا يمكن أن ينكر مسألة تأثيره تأثيراً كبيراً على المفاهيم الأوروبية عن الجزيرة العربية. ومع التراكم المنتظم البطىء لمعارفنا عن قلب الجزيرة العربية نجد أن ذلك التأثير بدأ يقل، كما أننى أؤكد أن ما نعرفه حالياً يبرر القيام بمراجعة جذرية لما توصل إليه السيد هوجارث ، ومفاده "أننا يتعين علينا، فيما يتعلق بالقسم الأكبر من جنوبى نجد أن نعد بالجريف المصدر الرئيسى لذلك، لأننا ليس لدينا بديلٌ عنه ، ونحن فى الأحساء نفضله على كل من عداه"(٢٠). وأنا هنا سوف أثبت أن بالجريف أخطأ عندما رفض النتائج . صحيح أنها أمكن التوصل إليها فى فترة لاحقة، ولكنها على الرغم من ذلك أسلمُ كثيراً من النتائج التى توصل إليها هو نفسه ، والتى توصل إليها من سبقوه إلى دراسة جغرافية الجزيرة العربية، كما أنه تناسى مسئوليته أمام الأجيال، وكتب وصفاً مفصلاً لبعض أجزاء الجزيرة العربية ، وذلك الوصف لا يتفق مع الحقيقة، فضلاً عن أن بالجريف استقى ذلك الوصف إلى حد كبير من خياله الشخصى.

وقد سرت فى الاتجاه المعاكس للاتجاه الذى سار فيه بالجريف من الأحساء إلى الرياض، تلك المرحلة الأخيرة من رحلته الطويلة ، كما تجولت فى الرياض سبعين يوماً مقابل اثنين وأربعين يوماً أمضاها بالجريف هناك . يضاف إلى ذلك أننى فى مسيرى من الرياض فى اتجاه الخرفة فى منطقة الأفلاج تتبعت الطريق نفسه الذى سار فيه بالجريف؛ أما فى اتجاه الشمال فقد تجولت فوق الأراضى التى سار عليها فى المنطقة فيما بين بريدة والعصيبة، وبين بريدة والمذنب Mudhnib والزلفى Zilfi . وأنا لا أعرف

شيئًا عن البلاد الواقعة بين نقطة بدايته في معان Ma'an، عن طريق الجوف Jauf ، وحائل ، وقصيبة، أما عن المسافة بين الزلفي والرياض فأنا لا أستطيع الحديث عن أي شيء فيها سوى وادي حنيفة Hanifa بين سدوس Sadus والعاصمة. وفي كل قسم من أقسام الرحلة التي تدخل ضمن نطاق معرفتي أرى أن بالجريف يمكن اتهامه بارتكاب أخطاء كبيرة، هي مرعبة في مجملها، ولكني هنا سوف أبدأ بجولته من الرياض إلى الأفلاج، التي أثار وصفه لها شكوكي في مصداقيته(٢١).

يكتب بالجريف بأسلوبه الرشيق المعتاد، كما لو كان على وشك وصف مهمة قليلة القيمة أو الأهمية فيقول: "حتى لا نقاطع سياق سردنا القصصي عن الرياض، فسوف أورد هنا بضع كلمات قليلة عن جولة قصيرة قمت بها مع بركات إلى الأفلاج." ومتذرعًا بذريعة" ممارسة الطب "التي اعتاد عليها، يسافر بالجريف في يوم من أيام الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر(٢٢) وبصحبته تابعه الأمين، بركات، هو وبداع Bedaa' أحد معارفه الجدد، الذي لم يمنعه اسمه التعيس من أن يكون "رفيقًا طيبًا يتدفق حيوية"(٢٣) وعاشقًا كبيرًا للانحراف والمتعة" فهو الذي اقترح على بالجريف القيام بتلك الجولة.

مشوا في الاتجاه الجنوبي الغربي، ثم عبروا وادي حنيفة إلى هضبة جنوبية أشد تكسيرًا، وليست مستوية عن الهضبة الموجودة في شمال الوادي، ولكنها مكونة أيضًا من الحجر الجيري أو التركيب الكلسي، ومحمية من لعنة الجدب بتناثر الأشجار والمراعي عليها بين الحين والآخر. وعلى امتداد أميال عدة ظل مجرى السيول يتجه صوب وادي حنيفة(٢٤) ولكنه تغير فجأة نحو الجنوب. وفي مساء اليوم الأول وصلوا إلى قرية صفرة Safra وتوقفوا فيها على حدود العارض ، قرية لا يزيد عدد منازلها على ستين منزلاً ، بعضها كان مصنوعًا من جريد النخيل وسيقان القش، تحيط بها جدران مهدّمة من اللّبن ، ومزينة بمسجد أنيق جميل.

وفي اليوم التالي كان طريقهم، على امتداد ساعات عدة ، يقع وسط "Denes" تتخللها وديان رملية وتنحدر انحدارًا متدرجًا ولكن ملحوظًا ناحية الجنوب الغربي . "كانوا عندئذ في الأفلاج" . وقرابة وقت الظهيرة كانوا قد تجاوزوا قرية المشلح Meshallah التي تضم بيارات نخيل شاسعة غير كثيفة "وأبيارًا ليست غزيرة المياه" . ولاحظ

بالجريف أن القطن فى تلك المنطقة أكثر منه فى العارض ، إضافة إلى أن النساء والرجال هنا يلبسون قمصانًا أكثر قصرًا من تلك التى يرتديها الناس فى الرياض . والناس هنا يلجأون فى وقت الظهيرة إلى منزل صغير ، ادعى بداع أن بينه وبين شاغليه علاقة البائع الجوال .

والطريق من المشلح Meshellah إلى الخرفة Kharfa فى معظمه عبارة عن "وادٍ أو ممر ضيق عميق إلى حد ما" ، وهو جاف باستثناء بعض آثار سيل الشتاء ، وتغطى المراعى الممتازة وقطعان الأغنام جانبى الطريق ، بينما كان قاع ذلك الممر يحتوى على "قليل من بيارات النخيل وبجوارها الأكواخ التى يعيش فيها الفلاحون" . ويحل الليل عليهم قبل أن يصلوا إلى قرية الخرفة ، ويتوقفون لقضاء الليل بجوار أسوار ذلك السهل الرملى الذى تتخلله أشجار النخيل .

وفى اليوم التالى تناسوا "عذر" الممارسة الطبية "المنتحل المناسب" ، الذى حملهم إلى تلك المنطقة ، ووجدوا أن من المناسب لهم ألا يحضروا أمام حاكم المنطقة ، "الذى يسكن هنا" ، والذى رفض بداع زيارته . والخرفة ، بوصفها مقرًا لإقامة الحاكم المحلى ، يصل عدد سكانها إلى ما يقرب من ثمانية آلاف نسمة ، نصفهم من المولَّدين الذين رضوا لأنفسهم "بارتداء قطعٍ من القماش من حول خصورهم" ، وذلك من قبيل الكساء . ويلاحظ بالجريف كرمًا هزيلاً "وافتقارًا إلى النزعة الاجتماعية ، وسلوكًا فظًا يذكره بوادى الدواسر ، الذى تبعد حدوده الأولى حوالى خمسة عشر ميلاً أو عشرين عن هذا المكان فى اتجاه الجنوب". بقوا فى الخرفة إلى العصر ، ثم عادوا من طريقهم الذى جاءوا منه ، ولكن رحلة العودة تظل بدون وصف .

وأنا قبل أن أناقش المشكلات التى فى ذلك التلخيص المحكم للجولة التى قام بها بالجريف إلى الجنوب قد يكون من المفيد أن آخذ فى حسبانى بعضًا من المعلومات التى جرى تسقطها خلال الجولة من بداع ، ومن أشخاص آخرين يقيمون فى الصفرة Safra وفى المشلح Meshallah وفى الخرفة أيضًا ، وقد يكون من المفيد أيضًا أن نتخلص من ذلك القدر من المعلومات . "والسبب فى ذلك أن الطريق الشهير الذى يمر خلال وادى حنيفة إلى شمال الأفلاج ويمر خلال شقراء ، ومنها إلى جنوب الطويق ثم إلى مكة ،

هذا الطريق سمعت عن مسيراته ووقفاته مرارًا وتكرارًا من كثير من أولئك الذين قطعوا ذلك الطريق فى الاتجاهين . وروايات هؤلاء الناس عن ذلك الطريق تتفق تمامًا مع ما هو وارد فى الخريطة الألمانية المنشورة فى عام ١٨٣٥ الميلادى، بعد الأبحاث التى قام بها كل من نيبور، و إهرنبرج Ehrenberg، وروبل Rüpple .وهذا هو الطريق السريع فى وسط الجزيرة العربية." ومن سوء الحظ أنى لم أستطع اكتشاف أو العثور على نسخة من الخريطة المشار إليها، ولكننا قد نسلم بأن العناصر الرئيسية فى تلك الخريطة قد أدرجت ضمن الخريطة التى نشرها بالجريف Palgrave[٢٥] مع مجلديه. وتوضيح تلك الخريطة طريقًا للقوافل يمتد من شمال غربى شقراء، ومنه عبر الطويق على امتداد وادى حنيفة إلى أن يصل إلى الرياض، ومن الرياض يتجه ناحية الجنوب الغربى عن طريق الخرفة ووادى الدواسر إلى بيشة Bisha ثم يتجه فى النهاية إلى ناحية الشمال الغربى إلى الطائف ومكة. معنى ذلك أن طريق وسط الجزيرة العربية السريع، الذى يوجد أحد طرفيه عند مكة والطرف الآخر فى نقطة ما فى اتجاه الشمال الغربى من شقراء، يتبع ثلاثة أضلاع من أضلاع المستطيل الموجود بين شقراء ومكة، بدلاً من الاتجاه على شكل نخلة فيما بين هاتين النقطتين. ونحن نعلم علم اليقين أن مكة مربوطة حاليًا بكل من القصيم وشقراء والرياض، ناهيك عن ارتباطها أيضًا بكل من الأفلاج ووادى الدواسر، وذلك من خلال طرق مباشرة ، يعبر البعض منها مرتفعات الطويق، فى الوقت الذى لا يتجه فيه أى طريق من تلك الطرق إلى جنوب الطويق، وأن "الطريق السريع" الذى أشرت إليه فى التلخيص لا وجود له فى الواقع. ولو كان بالجريف ذهب فعلاً إلى الخرفة لكان أدرك تلك الحقيقة، ولكن الرواية التى أوردها توضح أنه فشل فى إدراك أن حاجز الطويق العظيم الذى يقع فيما بينه وبين الغرب يتجه صوب الجنوب. هذا الفشل نفسه هو الذى مكن بالجريف من جعل سطح هذه البلاد ينحدر ناحية الجنوب الغربى بدلاً من الشرق والجنوب الشرقى كما هو حادث بالفعل.

وصف بالجريف أيضًا لوادى الدواسر، هو و الموقع الذى حدده له بالنسبة للخرفة ينبوان أيضًا عن الصواب. لا يمكن أن يكون أحد من سكان الخرفة، أو من الذين يعرفون البلاد التى وراءها، قد أخبر بالجريف أن الحدود الأولى لوادى الدواسر يمكن

الوصول إليها من الخرفة بعد مسير يوم واحد فقط، أو كما يقول بالجريف نفسه، بعد حوالى خمسة عشر أو عشرين ميلاً. وتحديد المسافة هنا بمسير يوم واحد أمر له أهمية لأن له صلة بقسم آخر من تلك المناقشة، ولكن بالجريف يوفر علينا تلك المشقة لأنه يلجأ إلى ذلك التحديد فى أحيان كثيرة فى الصفحات التى يصف فيها رحلته إلى الجنوب. يقول بالجريف: "طول الوادى يقدر بمسير عشرة أيام، أى بما يقدر بحوالى مائتى ميل"، أى ما يعادل عشرين ميلاً يوميًا، للقوافل بطبيعة الحال ، وهذا تقدير معقول تمامًا. ويقول: "قلعة بيشة على بعد مسير حوالى يومين (أو أربعين ميلاً) من وادى الدواسر." ويتركنا بالجريف ونحن على يقين من أنه يقدر مسير اليوم الواحد على ظهر جمل بعشرين ميلاً[٢٦].

وعن السليل "تلك المنطقة التعيسة المليئة بالتلال الرملية، وبها قليل من الماء"، تناهى إلى مسمع بالجريف أنها تقع على بعد مسير ثلاثة أيام جنوبى وادى الدواسر ، وهذه نقطة أخرى، يمكن أن تكون المعلومات التى أقحمت عنها فى الأفلاج أولى قد ضللت بالجريف، إذ كان من رأى بالجريف أن السليل هى أولى الواحات المهمة على طريق المسافرين، نظراً لتجوالهم الكثير بين قرى الأفلاج ووادى الدواسر. يضاف إلى ذلك أن بالجريف يجعل نجران على بعد مسافة مسير يومين من السليل، ولكن، مع كل ذلك، فهذه أخطاء مبنية على السماع، ومن ثم يمكن العفو والتغاضى عنها إلى حد ما، فضلاً عن أن تلك الأخطاء تتعلق ببعض المناطق التى تسنح الفرصة لى بوصفها وصفاً مفصلاً فى الفصل التالى.

وأنا أتحول الآن إلى تناول رواية بالجريف عن زيارته إلى الخرفة فى منطقة الأفلاج بالمزيد من الدراسة والتمحيص. وسوف ينصب القسم الأكبر من جدلى على مسألة المسافة بين الخرفة والرياض، وإمكانية أو احتمال قطع تلك المسافة فى الظروف المشار إليها، خلال يومين ، كما يقول بالجريف، أو دعنا نقول فى ست عشرة ساعة ليس إلا[٢٧]. وكما رأينا فإن بالجريف يقدر مسير القافلة بيوم واحد أى ما يعادل ٢٠ميلاً ، وبالجريف لم يشر إلى معدل سيره فى تلك المناسبة، ولكننا عندما نرجع إلى الخريطة نجد أن تلك المسافة تقدر بحوالى ستين ميلاً ، وهذا التقدير، أنا لا أشك لحظة أن بالجريف لم يلتزم به، وذلك من منظور العبارة الواضحة التى يقدم بها منطقة الأفلاج

إلى القراء. يقول بالجريف: "تلك المنطقة التى تضعها كل الخرائط – وأنا لا أعرف لذلك سببًا – على بعد مسافة تقدر بحوالى ثلاثمائة ميل عن العارض، هى فى واقع الأمر قريبة من الرياض وتفصلها عن وادى الدواسر."ويحاول بالجريف من خلال خريطته توضيح علاقة المناطق ببعضها البعض ، الأمر الذى يجعله يحرص على ذلك الأمر فى متن الكتاب، وأنا لا أجد مبررًا للفرضية التى مفادها أن ذلك من باب عدم التعليق على المتن فيما يتعلق بمسألة المسافة أيضًا. وأيًا كان الحال، فقد أدخل منطقة الأفلاج فى خريطته على أنها فى منتصف الطريق الذى سلكه أثناء رحلته إلى الجنوب، هذا يعنى أنها نقطة تبعد حوالى ثلاثين ميلاً أو مسير يوم عن الرياض.

وأنا عندما مضيت بمراحل سهلة فى اتجاه الهدف نفسه، بدأت أواجه صعوبات متزايدة فى التوفيق بين رواية من سبقنى وبين تأخرى فى الوصول إلى حدود الأفلاج، أو بين الموقع الذى تحدد لقرية الخرفة، التى تبعد حوالى ١٥٠ ميلاً فى اتجاه الجنوب الغربى، على الخارطة التى وضعها ريتر[٢٨] Ritter للجزيرة العربية، ولكنى التمست لنفسى العزاء فى قصة رواها لى واحد من رفاقى، عن رجل صلَّى الجمعة فى الرياض، ووصل إلى قرية ليلى فى الوقت المناسب ليبيت مع زوجته ليلة السبت[٢٩]. ولم اكتشف إلا بعد أن وصلت إلى حدود سهل الأفلاج أن الخرفة تبعد حوالى اثنى عشر ميلاً عن أولى مستوطنات السهل، وهنا أدركت أن رواية بالجريف ينقصها شىء ما، وهنا زادت شكوكى عندما فشل رفاقى فى الإفضاء بأية معلومات عن قريتىْ الصفرة Safra ، ومشلح.

وقد أوصلتنى محاولتى الأولى التى قمت بها لتحديد مسارى على أرض الواقع إلى استنتاج مفاده أن أى طريق بين الرياض والخرفة لا يمكن أن يقل طوله عن ١٤٠ ميلاً[٣٠]، وبدأت أتشكك أيضًا فى قطع بالجريف تلك المسافة فى يومين فقط.كانت تلك الحالة أنفة الذكر فى غير صالحى، ولكنى لم أصدق أن بالجريف مر على ذلك العمل الجلل بلا تعليق، ولم أقف على حقيقة فكرته المتواضعة جدًا عن تلك المسافة إلا فيما بعد. وقد وجدت فيما بعد، وأنا أعد بحثى لتقديمه إلى الجمعية الجغرافية الملكية، من واقع المادة غير الممحصة الواردة فى ملاحظاتى، ومن واقع تحديدى التقريبى لمساراتى، وجدت أن من الضرورى وأنا أهاجم مصداقية بالجريف، أن أقوم بمراجعة

أفكارى السابقة من باب الحذر والتحوط ، وأقنعت نفسى بمسافة لا تقل عن ١١٠ أميال بين الرياض والخرفة[٣١]، فى الوقت الذى أكدت فيه على الفكرة العامة التى مفادها أن بالجريف لا يمكن أن يقطع، أو قطع، تلك المسافة فى يومين. وإذا كنت قد اعتمدت فى هذا الرأى على عوامل لا تقل أهمية عن عامل المسافة الذى نحن بصددة هنا، فقد بالغت فى المثال الذى أوردته هنا من منطلق اعتماد ذلك المثال على هذا العامل بصفة خاصة، ولكن السيد هوجارث، على العكس منى، عندما يصرح بما يلى[٣٢]: "لنبدأ بالحجج التى ساقها السيد فيلبى. فى البداية، يقول فيلبى: كان من المستحيل على بالجريف أن يقطع مسافة ١١٠ أميال بالجمل فى يومين – أى بمعدل ٥٥ ميلاً فى اليوم الواحد – أو كان من غير المحتمل له، فى أضعف الأحوال، أن يقطع تلك المسافة فى الزمن المناسب . والسبب فى ذلك، على الرغم من كل هذا، أن مسافة ٧٠ ميلاً أو ٨٠ ميلاً فى اليوم الواحد، تعد سرعة عادية تماماً لراكبى الإبل الذين يكون لديهم دافع إلى مثل تلك السرعة، كأن يكونوا حاملين لرسائل بريدية، أو مراسلين يحملون شيئاً مهماً. وبالجريف لم يشر أنه كان يسير بمعدل عال، ولكنه لم يكن بصحبته سوى رجل واحد. والواضح أنه قام بتلك الجولة من أجل هدف معين، وأنا أرى أننا ينبغى أن ننظر إلى تلك السرعة على أنها شىءٌ ممكن تماماً، فضلاً أيضاً عن أنه كان يسير بسرعة عالية، وأنه بانتهاء مسير اليوم الأول كان قد شارف على أبواب الأفلاج، التى تبعد عن الرياض مسافة تتردد بين ٥٠ ميلاً و ٦٠ . ويقول أيضاً: إنه فى اليوم التالى وصل إلى المناطق القريبة من الخرفة فى أثناء الليل. وقد أبلغنى العقيد لورانس منذ ثلاثة أيام، أن رجلاً قطع المسافة، فى الخريف الماضى، فيما بين الزلفى Zilfi وينبع Yambo[٣٣] ثم العودة إلى الزلفى مرة أخرى عن طريق نجد، بمعدل سير وصل إلى ١٢٠ ميلاً فى اليوم الواحد. وكان ذلك الرجل قد استعمل ثلاثة من الإبل، ركب كل واحد منها ثلث المسافة فقط، بمعنى أنه كان يستبدل جملاً بأخر إلى أن وصل إلى نهاية رحلته. كما استقل ذلك الرجل أيضاً الجمال الثلاثة نفسها من المراحل التى استقلها عندها. وهذا يثبت أن قدرة التحمل هذه متوفرة لدى الإنسان. والمرجح أن بالجريف، الذى تجول راكباً الإبل فى الجزيرة العربية مرات كثيرة، لابد أن يكون قد أصبح راكباً متمرساً من راكبى الإبل."

وأنا أجد شيئًا من الصعوبة فى تصديق مسألة القدرة على التحمل التى أشار إليها السيد هوجارث. ومع أن السيد هوجارث يورد تلك المعلومة استنادًا إلى العقيد لورانس، فإنه يمكن ردها إلى مصدر عربى، والعرب فى مثل هذه الأمور يطلقون لخيالهم العنان، فى أفضل الأحوال، ولا يمكن التعويل كثيرًا على ما يقولون. ومبلغ علمى أنه لم يكن هناك شاهد عيان سواى فى الزلفى فى خريف عام ١٩١٨ الميلادى، يمكن أن يسجل بداية ذلك السباق ونهايته، وأنا لم أسمع أى شىء عن ذلك السباق على الرغم من وجودى فى الزلفى نفسها فى الفترة من ٥ إلى ٧ أكتوبر من عام ١٩١٨ الميلادى، كما كنت موجودًا أيضًا فى المناطق المجاورة لها - القصيم - طوال الفترة من ٢٣ من شهر أغسطس من عام ١٩١٨ إلى اليوم الرابع من شهر أكتوبر من فصل الخريف المشار إليه. وأيًا كان الأمر، فهذا لا يغير أو يلغى فكرة السيد هوجارث التى مفادها أن سباقات الإبل الأكبر من السباق الذى نحن بصدده هنا، كانت أمرًا غير شائع أو مستحيل، فضلاً عن أن الاعتراف بهذه الحقيقة لن يضر بقناعتى التى مفادها أن بالجريف لم يقطع أو لم يزعم أنه قطع مسافة ١١٠ أميال فى يومين بمناسبة زيارته المزعومة للأفلاج. ولما كانت قراءة بحثى أمام الجمعية الجغرافية الملكية، والذى جرى تعديل مقارنة معلوماته الجغرافية التى جمعتها طوال جولتى فى الجزيرة العربية، بما يتفق والمواقع والمعلومات المحددة من قبل خبراء الجمعية، فقد أسفر عن أن المسافة التى تبعدها الخرفة عن الرياض، على شكل خط مستقيم، قد انحسرت إلى ١٧٠ميلاً، وهذا يتفق إلى حد كبير مع الموقع[٣٤] الذى تحدد لتلك المدينة فى خريطة ريترRitter القديمة، الأمر الذى زاد من صعوبة تصديقه زعم بالجريف بأنه زار تلك المنطقة. أما فيما يتعلق بمسألة ذلك الذى يعد معدل سير يومين معقولاً، فى ظل الظروف العادية، فإن هناك أسبابًا كثيرة للسباقات العديدة المدونة فى السجلات، أو إلى أولئك الذين يهتمون بمثل هذه الأمور، وأنا إزاء كل ذلك، لا يسعنى إلا أن أقول إن رأيى الذى مفاده أنه إذا ما استبعدنا السير فى أثناء الليل، وإذا ما كان السير فى أثناء النهار يسير وفقًا لمشيئة العربى، الذى يفضل - ما لم يكن متعجلاً - إراحة دابته على راحته هو، إذا ما استبعدنا كل ذلك، فإن قطع مسافة ثلاثين ميلاً يوميًا[٣٥] يمكن أن يكون معدلاً مقبولاً، وأن السير بمعدل أسرع من ذلك يعد أفضل ، كما سيكون متعبًا أيضًا.

النقطة الثانية في محاكمتي لبالجريف تنصب على ذكره قريتي الصفرة Safra، والمشلح Meshallah من ناحية، وعلى روايته عن الطريق الذي سلكه إليهما. وأنا في أثناء ذهابي إلى الأفلاج سلكت طريقًا دائريًا إلى حد ما عن طريق وادي حنيفة ومنطقة الخرج ، إلى أن وصلت إلى بداية وادي العجمي الذي توجهت منه مباشرة إلى مرتفعات رجد ثم منها إلى حدود سهل الأفلاج، ولكني في أثناء العودة وجدت نفسي في الغيل Ghail التي لا تبعد كثيراً عن الخرفة وليلى، ومن هناك سلكت طريق منحدرات الطويق الخارجية بحيث كان طريقي الخارجي موازيًا لتلك المنحدرات إلى حد ما على الجانب الأيمن، وكانت هضبة الطريق المرتفعة تحيط بي من الناحية اليسرى، ثم اقتربت تمامًا مرة أخرى من ذلك الطريق الخارجي عند مخرج مضيق أحمرة Ahmara عند بداية وادي العجمي الذي سرت منه في خط مستقيم إلى حد كبير، محتضنًا الحافة الشرقية لمنطقة الحوطة، كي أدخل وادي حنيفة من جديد عند منطقة الحائر Hair . وهنا يمكن لنا أن نؤكد أن المسافر من الرياض إلى منطقة الأفلاج، لا يتعين عليه أن يسلك واحدًا من هذين المسارين، أو حتى طريقًا وسطًا بينهما(٣٦)، حيث لا يشكل سطح الأرض في تلك المنطقة عائقًا كبيراً. يضاف إلى ذلك أن مسألة اتخاذ أي إنسان لذلك المسار، تحتم عليه المرور بين مستوطنات الخرج الخصبة من ناحية، وبين واحة الحوطة الكبيرة من الناحية الأخرى، وهذا ما لم يلاحظه بالجريف. ومع ذلك، يبدو من رواية بالجريف أنه قام بذلك العمل الكبير، فضلاً عن توقفه في قريتي الصفرة والمشلح ، وهما واحتان، تقع ثانيتهما داخل حدود منطقة الأفلاج . ويجب ألا يغيب عنا هنا أن هاتين القريتين لابد من أن تكونا قد اختفيتا من على وجه الأرض خلال فترة زمنية مقدارها نصف قرن دون أن تتركا أي أثر أو شائعة عن وجودها من قبل. وكان بعض الذين رافقوني على علم تام بتلك المنطقة وأبلغوني أنهم لم يسمعوا مطلقًا عن هاتين القريتين، وهنا نجد أنفسنا أمام استنتاج وحيد مفاده أن هاتين القريتين ليستا موجودتين في الوقت الراهن، ولكنهما لم توجدا قط. وهنا يجب أن نؤكد أن مسألة اختلاق خيال بالجريف لقرى ليس لها وجود أصلاً، تعد خطأ كبيراً فيمن يزعم أنه مستكشف، ولكن السيد هوجارث، وهو يشير إلى تعليقي حول تلك النقطة، يقلل من شأن وجهة نظري في ذلك الموضوع. قال السيد هوجارث(٣٧) "يركز السيد فيلبي على الأشياء القليلة التي

لاحظها بالجريف، كما يركز أيضًا على عدم دقة روايته. وقد سبق لى أن قدمت لكم تفسيرًا جزئيًا لتلك المسألة ، فالرجل عندما بدأ يكتب عن رحلته بعد عام أو أكثر من عام من عودته إلى أوروبا، كان طبيعيًا له ألا يتذكر جيدًا ذلك الذى رآه بطريق المصادفة. وإذا كان السيد فيلبى يحاول التوصل إلى طريق آخر غير ذلك الذى سلكه بالجريف، وأنه لم يسلك ذلك الطريق؛ فقد تعين علىَّ القيام بتلك التجربة. إذ تحتم علىَّ ذات مرة فى أثناء الحرب، إعداد تقرير عن طريق معين بين بريدة والزلفى. وترتب على ذلك أن أخذت رواية بالجريف عن ذلك الطريق بعين اعتبارى من بين الروايات الأخرى، غير أنى لم أستفد أى شىء من تلك الرواية. وهنا كان من السهل علىَّ جدا التأكيد على أن بالجريف لم يذهب مطلقًا إلى بريدة، مثلما أثبتنا أنه لم يذهب إلى الأفلاج. والواضح أن بالجريف كان معذب الضمير فيما يتعلق بالتقارير، فضلاً عن أن ذاكرة الرجل لم تكن فى كامل قوتها. وبالجريف يورد ذلك الذى يراه على أنه تفاصيل كبيرة للطريق، وفيما عدا مسألة تحركه من مكان إلى مكان، فإن كل ما يورده بالجريف بين هذا وذاك يعد خيالاً فى خيال". ولم يحدث قط أن شاهدت مثل هذا الدفاع المدمر عن متهم من المتهمين.

وأنا عندما أهاجم بالجريف فى موضوع هاتين القريتين الخياليتين، أكون قد قدمت ذلك الذى بدا لى وأنا أعمل فكرى فى تلك المشكلة، على أنه تفسير لابتعاد بالجريف عن طريق الصدق فى تلك النقطة بالذات. كما سلمت أيضًا بأن الشكوك لن تثور فيما يتعلق بالعناصر الرئيسية فى مغامرته وفى روايته أيضًا، ولذلك ركزت أمام كل ذلك على إثبات أن أقوال بالجريف فيما يتعلق بالتفاصيل لا يمكن قبولها دون الاعتراض عليها، أو إن شئت فقل إن بالجريف استطاع أن يحشى قصته بالكثير من المغامرات الخيالية، وبالتفاصيل الخيالية أيضًا. ونتيجة لإعادة قراءتى لرحلة بالجريف، بدأت فى ضوء تجربتى الشخصية أتشكك فى حكمه العام على مصداقية بالجريف، كما أن ملاحظات السيد هوجارث حول ذلك الموضوع لم تجعلنى أحيد عن شكوكى. يضاف إلى ذلك أننى أود أن أتحدث باستفاضة عن تحدى السيد هوجارث لى بأن أطبق الأساليب النقدية نفسها على الروايات التى أوردها بالجريف عن الطرق الأخرى "التى لا يشك أحد أنه سار فيها".

وبناء عليـه، فـأنا عند هذه المرحلة، ومن باب الافـتـراض بأن الحـقـائق لم تكن فى صـالح دعـواه بأنه زار منطقـة الأفـلاج، لا أرى سـبـبًـا للشك فى أنه أقـام فـى الرياض؛ ولذلك فقد صـورته وهو مـجتمـع فى مـقـهـاة مع ذلك الرجل تعيس الاسم الذى يسمـونه بداع، ذلك التاجر النجرانى، بدلاً من الاجتماع إلى أحد المؤهلين فى العاصمة الوهابية كى يحدثه عن أسرار جنوب البلاد الغـامضـة. وهنا نجد أن بداع، إن قدر لمثل هذه الشخصية أن تكون موجودة، جاء إلى الرياض فى مهمة تجارية ، ولابد من أن يكون قد جاء عن طريق وادى الدواسر والأفلاج. ومن الخرفة، إذا ما افترضنا أن بداعًا قطع رحلته عندها، لابد أن يكون بداع قد وصل إلى الرياض من أقصر الطرق المباشرة، ونظرًا لأن بداعًا عربى أصلاً، فلابد من أنه كان يسير فى أثناء الليل وفى أثناء النهار، بحيث لم يكن يتوقف إلا لالتقاط أنفاسه وأخذ قسط من الراحة فى أثناء حرارة النهار. وإذا كان بداع قد قال إنه استغرق يومين فذلك يعنى أنه استغرق يومين بليلتين ، وهذا يجرنا إلى افتراض أنه بدأ فى ساعة متأخرة من مساء اليوم الأول، وأنه واصل مسيره فى أثناء الليل، وتوقف لنيل قسط من الراحة فى صباح اليوم التالى فى أرياف إنسالة Insalah . ولو كان بداع قد واصل رحلتـه، لوصل إلى الطريق الذى سـرت أنا فـيـه بالقرب من مـصب قناة شـعب الفراع، واسـتـراح فى وقت الظهـيـرة على منحـدر الطريق القـاحل، أو بالأحـرى على الصفراء، أو إن شئت فقل على تلك الأرض البرية الجرداء القاحلة. وهنا يمكن القول: إن مسير ليلة ثانية ربما يكون قد أوصله إلى الرياض عند ظهر اليوم الثالث. والأداء الذى من هذا القبيل، أو إن شئت فقل بهذه الشاكلة ، والذى يعد سمة مميزة للتنقلات العربية، والذى يرتبط أيضًا بتحقيق هدف معين ومحدد، هذا الأداء يختلف تمامًا عن العمل الجليل الذى نسب إلى بالجريف، إن نحن صدقنا ذلك العمل. ولأن بداعًا كان أقوى ملاحظة من بالجريف، فقد شاهد الكثير من القرى والكثير من الواحات فى كل من الأفلاج، وربما فى الخرج أيضًا أو فى وادى الفراع، ولابد أن يكون بداع قد تكلم عن تلك الواحات وتلك القرى بالطريقة العربية العشوائية، ولكن الغريب أن بالجريف هو الذى أخطأ عندما نشر تلك القرى فى أنحاء الريف كى يضفى على قصته قدرًا كبيرًا من محاكاة الواقع، ومن سوء طالع بالجريف، أن الأسماء الوحيدة التى تذكرها "عندما جلس يكتب قصته ويدونها"، وكان أحدها مشوهًا وممسوخًا، كانت أسماء الأماكن التى

توقف فيها الراوى فى الصحراء الصفراء ، أى البرية والقحولة، التى كساها بالنخيل ونثر خلالها المنازل التى تقطنها الرجال، وإنسالة Insalah، التى حدد مكانها، فى ظل الشكل الخيالى لقرية المشلح، داخل حدود الأفلاج معتبراً إياها واحدة من الواحات الزاهرة.

وعلى أى حال، لقد رأيت فى ذلك تفسيراً مقنعًا للخطأ البسط الذى وقع فيه بالجريف، ولكنى حاليًا لا يمكن أن أسلم بأى اعتراف غير مسئول بدعوى إقامة بالجريف فى الرياض، بأى حال من الأحوال، ولقد توصلت مؤخراً إلى دليل لا يقبل الشك مفاده أن بالجريف لم يستق معلوماته عن قرية المشلح Meshallah من أحد مواطنى نجران ، وأنا لا أعرف من أين جاء بالجريف بذلك الاسم، وعلى الرغم من مسئولية بالجريف عن الهجاء الذى أورد به ذلك الاسم، فإنه من المهم أن نلاحظ هنا أن بالجريف لم يكن أول من دون ذلك الاسم على خريطة الجزيرة العربية. والخريطة التى رسمها ريتر Ritter للجزيرة العربية، والتى سبق أن أشرت إليها، توضح موقع تلك القرية فى ضوء علاقتها بقرية الخرفة[٣٨] مثلما فعل بالجريف تماماً؛ وريتر يطلق على تلك القرية فى خريطته اسم مشيلح Mescheileh، وهو ما يمكن مضاهاته على الفور، بالاسم الذى أطلقه عليها بالجريف . والصحيح أن تلك القرية هى واحة وسيلة Wusaila الصغيرة، التى تعد أولى مستوطنات منطقة الأفلاج، والتى يصل القادم إليها من الناحية الشمالية، والتى يمكن منها رؤية نخيل الخرفة فضلاً عن الواحات الكثيرة الأخرى بسهولة ويسر عبر الوادى، وبشكل ييسر الوصول إليها. وبشكل عام قد يكون من المنطقى أن نفترض أن بالجريف أخذ ذلك الاسم من خريطة ريتر، أو من أى مصدر آخر غير بداع، أو قد يكون جاء به من ملاحظاته الخاصة. واقتصاد بالجريف فى الحديث عن الصفرة كان خيراً له، على الرغم من أن خارطة ريتر تتدخل هنا أيضًا بشىء قليل من التدبر، إذ تسجل مكانًا يحمل ذلك الاسم، وتجعله المرحلة الأولى[٣٩] التى يمر بها الخارج من الرياض فى اتجاه الجنوب الغربى.

ويكفى ما قلته عن هاتين النقطتين. وأنا أجد صعوبة بالغة فى تصديق أن بالجريف وصف الطريق عبر سهل الأفلاج المستوى من وسيلة Wusaila إلى الخرفة على أنه مضيق عميق إلى حد ما، أو أنه فشل فى ملاحظة الواحات الزاهرة مثل واحة ليلى، وواحة السيح، والواحات الأخرى التى تنتشر فى ذلك السهل. يضاف إلى ذلك، أن

المبرز Mubarraz فى واحة ليلى، وليست الخرفة، كانت هى مقر الحاكم المحلى يوم أن كتب بالجريف قصته.

ولكن الإساءة الوحيدة التى ارتكبها بالجريف فى حق الجغرافيا، كانت تتمثل فى خطيئة الحذف التى يستحيل معها العفو عن واحد اعتبر نفسه من المستكشفين. يبدأ بالجريف قصته (روايته)[٤٠] قائلاً: "هيا بنا، نكتسب بشكل قاطع معرفة شاملة وصحيحة، عن شبه الجزيرة العربية. فقد تعرفنا بالفعل على سواحلها؛ فقد جرى استكشاف العديد من مناطقها البحرية استكشافًا جزئيا إن لم يكن كليا تمامًا، فلم تعد اليمن أو الحجاز أو مكة أو المدينة أسرارًا بالنسبة لنا، فضلاً عن أننا لدينا الكثير من المعلومات عن جضرموت وعن عُمان. ولكن ما الذى نعرفه عن الإقليم الشاسع الداخلى، وما الذى نعرفه عن سهول ذلك الإقليم وعن جباله، وعن قبائله وعن مدنه، وعن حكوماته ومؤسساته، وعن سكانه، وعن عاداتهم، وأحوالهم الاجتماعية، وعن مدى تقدمهم الحضارى أو مدى تغلغلهم فى التخلف، ما الذى نعرفه عن كل ذلك إلى يومنا هذا، إذا ما استثنينا تلك الروايات التى تفتقر إلى الصحة وإلى الدقة؟ أظن أنه قد آن أوان ملء ذلك الفراغ فى خريطة آسيا، وهذا هو ما سوف نحاوله بغض النظر عن الأخطار التى قد تترتب على ذلك ، فإما أن تكون الأرض التى أمامنا قبرًا ومثوى أخيرًا لنا، وإما أن نعبرها ونجتازها ونعرف ذلك الذى تحتوى عليه من الشاطئ إلى الشاطئ.

وليس معقولاً أن يشرع إنسان له مثل تلك المطامح الكبيرة، وتصل قدرته على ملاحظة التفاصيل إلى حد تمييز طول القمصان التى يرتديها سكان المناطق المختلفة، ليس معقولاً مثل هذا الإنسان أن يزور منطقة الأفلاج، التى تعد وبلا استثناء أهم مناطق الجزيرة العربية الداخلية، ويفشل فى ملاحظة السمة المميزة لتلك المنطقة عن بقية المناطق الأخرى، وبخاصة أن تلك الميزة مشتقة من اسم المنطقة نفسها ، منظومة قنوات الرى الرائعة التى تعتمد على مجموعة من الخزانات العميقة، التى تصل أبعاد أحدها إلى أبعاد بحيرة من البحيرات.وقد وصلت شهرة تلك البحيرة إلى أوروبا قبل أن يشرع بالجريف فى القيام برحلته، صحيح أن تلك البحيرة دونت ، بشكل مبالغ فيه تمامًا، ولكن ذلك التدوين كان صحيحًا فيما يتعلق بموقع تلك البحيرة بالنسبة للخرفة ، فى خريطة ريتر التى رسمها للجزيرة العربية. ومما لا شك فيه أن تلك البحيرة دونت

على خريطة ريتر بكثير من الخجل، بناء على أدلة من الدرجة الثانية، كما أن فشل بالجريف فى تأكيد وجود تلك البحيرة، هو الذى دعم الجغرافيين الأوروبيين وأكد شكوكهم ؛ الأمر الذى أسفر عنه حذف تلك البحيرة من خرائطنا ولم تدون عليها من جديد إلا بعد قرابة نصف قرن من الزمان أو أكثر.

إلى هنا أكون قد شرحت شرحًا وافيًا الأسباب التى تجعلنى أرفض دعوى بالجريف بأنه سافر من الرياض إلى الخرفة، معتبرًا ذلك محاولة وقحة من جانبه لانتحال شخصية الغير. وإذا ما نحينا جانبًا عبارته التى تدل على هذا المعنى، نجد أن روايته عن تلك الرحلة، وعن منطقتها، لا تنطوى على أدلة داخلية من أى نوع كان، تفيد قيامه بتلك الرحلة فى حقيقة الأمر. وأنا لا أصدق أن أى إنسان يزور تلك المنطقة ويقطع الطريق المؤدى إليها، يمكن أن يمحو من ذاكرته تمامًا كل تلك الانطباعات التى لابد من أن تكون قد تزاحمت وتراكمت فى ذاكرته خلال تلك الأيام القلائل . ولكنى أستطيع هنا تلخيص نقاط جدلى واحتجاجى فيما يلى:

١- الخرفة تبعد حوالى ١٧٠ ميلاً عن الرياض على شكل خط مباشر ومستقيم، ولكن بالجريف يقدم لنا نفسه على أنه قطع المسافة بين هاتين النقطتين خلال يومين من أيام السير المعتاد راكبًا جملاً.

٢- فشل بالجريف فى ملاحظة أية سمة من سمات الطريق، والتى لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، ولكنه استعاض عن ذلك الحذف باختلاق قريتين من خياله ليس لهما وجود بحق فى تلك المنطقة، ويبدو أنه حصل على اسمى هاتين القريتين من خارطة كانت لدية أو فى متناوله.

٣- فشل بالجريف أيضًا فى ملاحظة كثير من الواحات الأخرى فى منطقة الأفلاج، كما فشل أيضًا فى ملاحظة البحيرة وخزانات المياه الأخرى هى وقنوات الرى، وتلك هى كلها السمات المميزة لمنطقة الأفلاج.

٤- كل المعلومات التى وصلت بالجريف سواء عن طريق المصادر الرئيسية أو المصادر الثانوية، فيما يتعلق بالبلاد الواقعة بين الرياض والخرفة، ومنطقة الأفلاج، ووادى الدواسر ، والمنطقة الواقعة خلفه، كل تلك المعلومات تتعارض مع الواقع ومع الحقائق.

ومن هنا، فنحن نرجّح تمامًا أن الإسهام المعرفى الذى قدمه بالجريف للمعرفة الأوروبية من خلال روايته عن البلاد الواقعة جنوبى الرياض، وبخاصة روايته عن جولته فى الجنوب، لا قيمة له، ومع ذلك هناك الكثيرون، من أمثال السيد هوجارث ، لا يزالون مترددين فى إدانة بالجريف على أنه مدَّعٍ أو متنحلٌ إلا بعد الحصول على المزيد من الأدلة عن أسفاره خلال الجزيرة العربية، وسوف يتساءلون عن الأسباب التى جعلت بالجريف يخاطر بسمعته وشهرته التى ذاعت بفضل جولاته الطويلة فى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية "لا يشك أحد فى زيارته لها"، عن طرق قسم من الرواية لم يذكر إلا عرَضًا وتحدث فيه عن تلك الجولة باعتبارها فرعية وغير ذات بال.

وهذا التساؤل يثير مشكلة كبيرة، كان ينبغى علىَّ عدم دراستها أو النظر فيها ، ولكنى وجدتنى مضطرًا إلى ذلك، مخافة أن يؤدى فشلى فى الرد على سؤال منطقى وحيوى كهذا، إلى تحطيم القضية التى شرعت فى إثباتها، على مبدأ، يمكن أن ينطبق أيضًا على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه، والذى ينص على أن المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته. ولعلنا نبدأ بالفرضية التى تقول: إنه على الرغم من قوة الأدلة المقامة على بالجريف، فإننا ينبغى أن نسلم بدعوى زيارته للأفلاج، اللهم إلا إذا كان بالجريف قد فرض نفسه على قرائه واستغل طيبتهم فيما يتعلق بأجزاء أخرى غير الجزء الذى نحن بصدده هنا.

وعلى الرغم من الحقيقة التى مفادها أن "كل ما ورد فى المتن هو من الخيال إلى حد بعيد"، فإننا نجد أن السيد هوجارث لا يزال مصرًا على إيمانه بأن بالجريف "انتقل بالفعل من مكان إلى مكان". يضاف إلى ذلك، أن إيمان هوجارث لا يهزه عجزه عن "تبين" رواية بالجريف عن الطريق فيما بين بريدة والزلفى؛ هوجارث يقبل زيارة بالجريف بين المكانين ويسلم بها، كما يعلن فى ضوء خبرته وتجاربه ما مفاده أنه "كان من السهل تمامًا أن نقول إن بالجريف لم يزر بريدة مطلقًا، تمامًا مثلما سبق أن قلنا إنه لم يزر الأفلاج". وهوجارث يناقش تلك المسألة مناقشة مستفيضة فى كتابه[٤١]. يقول هوجارث: أى تفسير بديل واضح، لمبالغات بالجريف، أو إغفالاته، أو عباراته غير الموفقة، التى عرفت طريقها إلى كبار النقاد، هو بالقطع خطأ كبير. والذى لا شك فيه، هو أن بالجريف قام فعلاً بالرحلة التى وصفها فى كتابه. ومن جاءوا بعد بالجريف لم

يقولوا أى شيء عن حقيقة تلك الزيارة، وأكثر من واحد منهم شهدوا على دقة وصفه لبعض النقاط، قائلين إنّ ذلك لا يمكن أن يأتى إلا من شاهد عيان. وآخر أولئك الرجال هو البارون نولدى Nolde الذى يتعرض للقدح فى حق بالجريف ليثبت من خلاله أن: "الاعتراض المقام على بالجريف لم يكن صحيحاً إلى حد بعيد"(*) مستكشف آخر من المستكشفين الثقات، هو سى . إم. دوتى Doughty، ضمّن خطاباً أرسله إلى كاتب هذه السطور، أنه لم يشك لحظة فيمن سبقه إلى الجزيرة العربية، وأنه فهم بعض الملاحظات التى طرأت له فى حائل على أنها منسوبة إلى بالجريف. ويردف دوتى قائلاً "قال الخنينى El Khennainy لى شيئاً من ذلك القبيل فى عنيزة: كيف تتجول خلال تلك البلاد التى لا تعرف القانون، وتطلق على نفسك أنك نصرانى وإنجليزى أيضاً؟" مثل هذا الشخص (الذى لا يذكر اسمه) لم يفعل ذلك، فى الوقت الذى قام خلاله برحلته إلى الجزيرة العربية؛ وأخيراً نجد السيد ويلفريد بلنت Wilfrid Blunt يقول: "أنا لا يمكن أن أشك فى قيام بالجريف بالرحلة التى سرد وقائعها فى كتابه ... وأنا أشهد بصدق وصفه للحياة الاجتماعية فى نجد باعتبار ذلك صورة أمينة لما رأيته أنا بنفسى؛ ويلزم أن نضيف هنا أن وصف بالجريف لمجتمع الواحات النجدية يقترب من وصف دوتى لها. ومن هنا ينبغى استبعاد الشكوك كلها".

وقد أوردت هذه المقطوعة كاملة هنا لأثبت وزن وثقل المعارضة التى تواجهنى، ومع ذلك هناك بعض النقاط التى يمكن تناولها على الفور. يجب ألا يغيب عنا، فى المقام الأول، أن الحد الشمالى لتجوالى فى الجزيرة العربية لم يتجاوز قرية قصيبة فى منطقة القصيم، وأننى لهذا السبب لست معنياً بذلك الجزء من قصة بالجريف الذى يخص تجواله فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من قصيبة فى القصيم. وهذه الحقيقة بحد ذاتها تقلل من وطأة الشهادات التى أدلى بها هوجارث، والمعروف أن بلنت Blunt لم يتعد فى أسفاره منطقة حائل فى الجنوب. يضاف إلى ذلك أن نولدى Nolde الذى لم تكن لديه قدرة أو إرادة قوية فى ملاحظة ما يريده الجغرافيون[٤٢]- لم يسلك سوى الطرق التى سلكها بالجريف فى تلك الأجزاء فيما بين القصيبة وبريدة. ومع ذلك، تبقى بعد

(*) هذه العبارة وردت بالألمانية وقد استعنت فى ترجمتها برئيس الخطوط الجوية الألمانية. (المترجم)

ذلك بدون تفسير الإشارات المنسوبة إلى بالجريف، والتى ظن دوتى أن بالجريف استطاع اكتشافها أو التوصل إليها من خلال حديثه مع أولئك الناس الذين التقاهم بالجريف فى كل من حائل وعنيزة. ولعلنا نبدأ بالإشارة التى سبق الإشارة إليها، وكلمة "الخنينى" El Khennainy لا يمكن أن تكون إشارة إلى بالجريف، الذى لم يزر عنيزة قط، ويعلن صراحة أنه، على الرغم من التفاخر الذى لا مبرر له، هو ورفيقه تنقلا متنكرين فى زى مسيحيين(٤٣) سوريين. أما بالنسبة لجوارمانى Guarmani، الذى زار عنيزة فى شهر مارس من عام ١٨٦٤ الميلادى، متنكراً فى زى مسلم، ويبدو أنه حظى بكرم الزامل وبعض أعيان البلدة الآخرين. أما الإشارتان الأخريان(٤٤) إلى بالجريف باعتباره سلفاً فقد وردتا فى سياق حديث دوتى مع أهل حائل، ففى الإشارة الأولى كان ذلك السلف يسمى عبد الله، فى حين إن الاسم الذى انتحله بالجريف(٤٥) هو "سليم أبو محمود العيص"، والإشارة الثانية قد تشير أو لا تشير إليه، وحتى إن أشارت إليه فإنها لم تكن إشارة كاملة: "رجل صدوق والله". قال الشيخ العجوز دوتى Doughty تلك العبارة متعجباً: "هذا ليس مثل من جاء إلى هنا، ألا تستطيع أن تتذكر، يا محمد، فى أى عام كان ذلك ؟ ولكنه رجل يقول لنا الأشياء كلها بشكل واضح".

وبناء على ما تقدم، وفيما يتعلق بذلك الجزء من البلاد الذى يقع فى جنوبى منطقة حائل، فإن وزن الحجج التى فى صالح قبول دعوى بالجريف بلا تمحيص أبعد من أن يكون ساحقاً. وقد يقول قائل: إذا كان بالجريف قد زار، فى واقع الأمر، كلاً من الجوف وحائل، ووصف مجتمع هذين البلدين بقدر كبير من الدقة، على الرغم من مبالغاته وعباراته الخاطئة، فليس هناك ما يدعونا إلى البحث عن أسباب اعتراضنا على عبارته التى مفادها أنه غاص فى الجنوب إلى أن وصل إلى القصيم، وإلى الرياض، وإلى الأحساء وإلى الأفلاج، على الرغم من أننا يمكن لنا الوقوف على أخطاء جسيمة فى وصفه لتلك الأماكن. وهذه الحجة ليست خالية من العيوب. والظروف التى زار بالجريف الجزيرة العربية فى ظلها كانت ظروفاً مغلفة بالغموض. وطبقاً لمعلوماتى المؤكدة، وإذا ما استثنينا القصة التى كتبها بالجريف، نجد أنه ليس هناك أى دليل مباشر يؤكد أصالة وصدق أى جزء من أجزاء تلك الرحلة، أو إن شئت فقل: ليس هناك دليل يؤكد على سبيل المثال، حادث تحطم المركب المشئوم الذى سلب من بالجريف مذكراته بعد أن

انتهى من جمعها ؛ الأمر الذى جعله يعتمد اعتماداً كلياً على ذاكرته، عندما جلس بعد ذلك بعامين ليكتب لنا روايته عن تجربته. ومع ذلك ، قدم السيد هوجارث(٤٦) النقاط الرئيسية لمثل هذا الدليل وحددها فيما يلى: أن "نابليون" على سبيل المثال، بعد أن فشل فى محاولته إطالة أمد الاحتلال العسكرى الفرنسى فى سوريا، والذى نتج عن مذابح لبنان فى عام ١٨٦٠ الميلادى "كان يتطلع فى ذلك الوقت إلى تأسيس احتلال عسكرى فرنسى فعال فى سوريا، أو تأمين تلك البلاد العميلة للحاكم المصرى المناب، الذى لم يكن نابليون مهتما بخلافاته مع القوة العثمانية المطلقة". ومن بين تلك الأدلة أيضاً: "أن مسألة قناة السويس ستصبح حقيقة واقعة زادت اهتمام كل من فرنسا ومصر بالجزيرة العربية". وبعد أن استدعى نابليون بالجريف إلى باريس "فى صباح اليوم الذى حدثت فيه المذابح الدقيقة ، قدم الأخير نفسه للإمبراطور باعتباره مبعوثاً محتملاً إلى المجتمعات العربية". كما أن بالجريف نفسه اعترف وأقر ممتناً "أن تكاليف الرحلة جرى الحصول عليها من خلال كرم إمبراطور الفرنسيين الحالى". ويلخص السيد هوجارث ذلك الموقف فى ثلاث جمل: "كانت مهمتهم دينية الطابع فقط نظراً لأن مصالح الكلية اليسوعية Jesuit College فى الشرق، فى تلك الفترة، مرتبطة بمصير فرنسا السياسى". والأكثر ترجيحاً أن مهمة بالجريف ربما كانت لتنفيذ خطة سياسية. "ومن الضرورى أن نوضح هنا أن ذلك المستكشف لم يذهب إلى الجزيرة العربية حباً فى العلم ، ولكنه ذهب إلى هناك حباً فى مصلحة أخرى تقرر لها أن توفر له تحيزاً أو تشيُّعاً من نوع خاص".

ويبدو من كل ذلك أن مسالة اختراق بالجريف لصحراء الجزيرة العربية لا تعتريها الشكوك، وأنه قام بتلك المهمة لتأمين تعاطف تلك البلاد مع الإمبراطور الفرنسى فى خطتيه المرسومتين لكل من سوريا ومنطقة قناة السويس. وخطة من هذا القبيل ربما لم تتطلب منه جولات مطولة عبر البلاد الوهابية وصولاً إلى الخليج الفارسى، فى حين كانت العبارة التى تقول إن الهدف الرئيسى من رحلته كان يستهدف العاصمة الوهابية وما بعدها، وكذلك إضفاءه المزيد من السرد البهيج لبعض مغامراته فى الأراضى الوهابية، ربما كان كل ذلك لصرف الانتباه العام عن الحقيقة التى مفادها أن مركز نشاطاته السياسية، وذاك أمر حتمى وضرورى، كان منصباً أصلاً على جبل

شمَّر Jabal Shammar وعاصمته. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن كلاً من والين Wallin الذى زار الجزيرة العربية قبل بالجريف وكذلك جوارماتى الذى ذهب إليها من بعده ويبدو أن زيارتيهما كانت لأسباب شبيهة بأسباب زيارة بالجريف، إذ كان الأول موفداً من قبل حاكم مصر المناب، والثانى موفداً من قبل الإمبراطور الفرنسى نفسه - يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن هذين الرجلين لم يفكرا فى تمديد جولاتهما نحو جنوب جبل شمر، على الرغم من تجوال كل منهما على نطاق واسع داخل الحدود التى رسمها كل منهما لنفسه.

مسألة أن يكون بالجريف أنهى مهمته السياسية تماماً قبل أن يتجه صوب الجنوب إلى أبعد من حدود بلاد ابن الرشيد، أمر لا يقبل الجدل أو النقاش. ومن ثم، إذا كانت الأدلة الداخلية على رواية بالجريف، وإذا ما نحينا جانباً الاحتمالات الحقيقية للموضوع،كافية للدلالة على أن بالجريف شاهد عيان للأحداث التى يصورها فى المنطقة الشمالية من نجد، فى حين أن المغزى العام لروايته عن أسفاره فى وسط نجد وجنوبها يجعلنا نتردد فى قبول تلك الرواية على أنها رواية شاهد عيان، إذا كان المغزى هكذا، فذلك يعنى أن هناك سبباً مقنعاً يجعلنا نتشكك فى أصالة ذلك الجزء من رحلته، وبخاصة أن ذلك الجزء لم يكن مهمًا لتحقيق السياسة التى كان بالجريف مكلفًا بها. ومن هنا سوف أقوم بدراسة روايته عن تجاربه وخبراته فى الأراضى الوهابية دراسة مستفيضه ومفصلة، وذلك اعتباراً من لحظة دخوله تلك الأراضى عند واحة القصيبة الحدودية فى الشمال إلى أن قرد شراعه مبحراً من ساحل الأحساء، مستكملاً مراحل رحلته.

وعندما يقترب بالجريف من حدود القصيم من اتجاه الشمال يطالع قراءه بخطاب عن انحدار سطح شبه الجزيرة العربية. يقول بالجريف: "سنوات الأسفار المستمرة ... تجبر العين فى نهاية المطاف، بل وتجبر أيضًا الحواس كلها، على قياس الارتفاعات وقياس المسافات، ومعرفة الاتجاه، ومعرفة مستوى الارتفاع عن سطح البحر معرفة مقبولة الدقة، حتى فى غياب الأدوات والآلات الحديثة التى وفرها لنا العلم كى تساعدنا على تصحيح وضبط تقديراتنا الجزافية. وتلك الآلات والأدوات تعد مطلباً أساسيًا إذا ما كنا بحاجة إلى توخى الدقة واستعمال التفاصيل الرياضية الدقيقة." ويؤكد لنا بالجريف، على الرغم من كل ذلك، أن أحكامه وعباراته "يمكن الاعتماد عليها باعتبارها

خطوة أولى فى اتجاه تصحيح خريطة الجزيرة العربية وإعادة تشكيلها"، ويردف بالجريف قائلاً: إن مستجمع المياه أو أن شئت فقل سلسلة الجبال الرئيسية فى الجزيرة العربية "تمتد من أقصى الشمال الغربى إلى أقصى الجنوب الغربى فيما بين خطى طول ٤٥ْ و ٤٦ْ من خط جرينتش، وفيما بين خطى عرض ٢٩ْ و٢٤ْ شمالاً". وعلى كل جانب من جانبى تلك السلسلة الجبلية ومن ناحية الجنوب أيضًا تنحدر الجزيرة العربية فى اتجاه السواحل إلى الخليج الفارسى والبحر الأحمر والمحيط الهندى وأنا أقتطف تلك المقطوعات لأثبت بصورة قاطعة أن مفاهيم بالجريف عن الجغرافيا الطبيعية لوسط الجزيرة العربية لا تمت بصلة إلى الحقائق، وأن هذه المفاهيم كلها غير مفهومة لأنها صادرة عن شخص يزعم أنه شاهد قسمًا كبيرًا من الجزيرة العربية.

وبعد أن يغادر بالجريف فايد Faid مباشرة يرى عن بعد فى بعض الأحيان فى أقصى الشرق قممًا قليلة زرقاء وخافتة التى هى انعكاسات بعيده لجبل الطويق ثم يصل بعد ذلك إلى القصيبة ، تلك الواحة التى تمتد على شكل خط طويل نحيف من النخيل فى قاع مالح عند سفح صخرة رأسية من صخور تلك الهضبة الكلسية ، يقول بالجريف الصخرة الصغيرة التى بنيت المنازل على جانبها الشرقى تغطى أدغال أشجار الأثل الكثيفة وأشجار النخيل أجزاء أخرى منها بشكل يجعل تلك الأدغال ملمحًا من الملامح المميزة لتلك الهضبة.

وأنا لا أود تتبع بالجريف خلال المرحلتين التاليتين لتلك المرحلة نظرًا لأن الطريق الذى سلكته من بريدة إلى القصيبة انحرف عن كل من واحة قوارة Quwara وواحة عيون، ليختفى بعد ذلك خلف سلسلة الجبال المتجهة ناحية الغرب. وعند قرية قوارة يقول بالجريف إنه "عثر على عدد كبير من كلاب القرية الضخمة(٤٧) التى كانت بكل تأكيد من أبشع الكلاب التى صادفتها فى حياتى، بذاءة وإزعاجًا"، وأنه خسر بسبب سلب تلك الكلاب ونهبها قربة من الجلد كانت مليئة بأطيب تمور حائل، والتى جعل منها، من الحرص، مخدة وضعها تحت رأسه. وبعد أن غادرت الجماعة ذلك المكان(٤٨) "وصلت إلى منحدر مفاجئ فى مستوى سطح الأرض وأطل علينا فجأة امتداد جنوبى القصيم ... ومن أمامنا عند الأفق البعيد كان هناك سهل شاسع، كانت تتخلله

المدن والقرى والبيارات ... وكان عرض تلك المنطقة كثيفة السكان يصل إلى حوالى ستين ميلاً، أما طوله فكان يقدر بضعفى عرضه، أو ما يزيد على ذلك ، وهذا السهل يقع على بعد ألفى قدم أسفل مستوى المرتفعات، التى تنفصل هنا على شكل حائط أو جدار، تاركًا الأرض المنخفضة ليمتد بلا انقطاع متجهًا نحو سلسلة جبال الطويق التى تحده من ناحية الجنوب، وتفصله عن الطريق الرئيسى الواصل بين نجد ومكة... وعلى بعد أميال قليلة شاهدنا بيارات نخيل عيون الكثيفة ، كما شاهدنا أيضًا ذلك الشىء القليل من أبراجها ومن قلعتها الذى سمح لنا به الغطاء النباتى والأشجار الكثيفة التى كانت تحجب عنا تلك القلعة والأبراج. وبعيداً، على يميننا، أى فى جهة الغرب هناك بقعة كبيرة سوداء تعد علامة على .. مدينة الرس Rass . كانت هناك قرى وهجر أخرى تنتشر بشكل كثيف فوق منظر الأرض الطبيعى". أهذا هو، بحق، الدليل الذى يقدمه شاهد العيان عن ذلك الجزء القاحل من البلاد، هذا الجزء لابد من أن يكون مساحة شاسعة من الأرض القفر القاحلة، والتى لا يوجد بها أى شىء يمكن أن يكسر ذلك الملل اللهم إلا باستثناء واحة واحدة ، نظراً لأن تلك الواحة.هى كل ما يمكن أن يراه من تلك النقطة أو من أى موقع آخر من المواقع المجاورة لها ، هى قرية عيون؟(٤٩)

ربما تكون ذاكرته قد خدعته، ولكنى لم أتوقف مطلقًا عن الندم على ذلك، إذ لولا نشاطات ابن الرشيد، لما استطاع أى إنسان آخر أن يجعل رفاقى يتحولون عن طريقنا الذى يحتم رؤية واحة عيون، التى تحتم علىّ فيها أن أختبر مصداقية بالجريف بطريقة لا تترك مجالاً للشك. فهو لم ير سوى النخيل والمنازل فى واحة عيون. "وكنا نرى أمامنا مباشرة أثراً شهيراً، أثراً شد الانتباه وأثار الدهشة لدى رفاقنا العرب أنفسهم".

ومبلغ علمى، أن ليشمان Leachman(٥٠) هو الوحيد، من بين الأوروبيين الذين زاروا تلك المنطقة، ولم يلاحظ ذلك الأثر، ولكن صمت ليشمان لا يعد دليلاً كافيًا على وجود ذلك الأثر، ولذلك فأنا أفضل فى الوقت الراهن تأجيل الحكم مرحليًا على هذه النقطة بالذات. يقول بالجريف: "شاهدنا من أمامنا أحجاراً ضخمة عدة، مثلاً الجلاميد الهائلة، موضوعة بحيث تكون أطرافها متعامدة أو رأسية على التربة، فى الوقت الذى كانت فيه بعض تلك الأحجار ترفع كتلاً أخرى مماثلة موضوعة عند القمة. كانت تلك الجلاميد الحجرية موضوعة على شكل منحنى، إذ كانت، على ما يبدو، جزءًا من دائرة

كبيرة، كما كانت هناك بقايا كثيرة أخرى مماثلة لتلك الجلاميد الحجرية، كانت متساقطة على الأرض على مسافات معقولة. وكان عدد الجلاميد المنتصبة، وهذا اعتماداً على ذاكرتي، حوالى ثمانية جلاميد أو تسعة. اثنان منها يبعدان عن بعضهما البعض حوالى عشر أقدام أو اثنتى عشرة قدماً، ويشبهان أعمدة البوابات الضخمة، ومع ذلك كان هذان الجلمودان لا يزالا يحملان عارضتهما الأفقية، تلك الكتلة الحجرية التى وضعت معترضة من فوق هذين الجلمودين. وكانت قلة قليلة من تلك الجلاميد هى التى سقطت عنها عوارضها، أما بقية الجلاميد فكانت لا تزال تحتفظ بتلك العوارض عند قمتها، متحدية بذلك مرور الزمان من ناحية وجهود البشر الأكثر تخريبًا من الناحية الأخرى. وقد بدت لى واحدة من تلك العوارض متوازنة توازنًا جميلاً، إلى حد أنى كنت أمل أن يثبت أنها حجرهزاز ، ووجهت جملى ليكون تحتها مباشرة ثم رفعت عصا القيادة مسافة ذراع محاولاً بذلك لمس تلك العارضة ودفعها، ولكنها لم تتحرك. وفى الوقت ذاته، فإن ارتفاع كل من الجمل، وراكبه، وكذلك عصا القيادة ... تجعلنى أقدر ارتفاع الحجر عن مثل هذه "الأشكال الحجرية" العربية، ولكن اعتراف أولئك الرفاق يفيدنا أكثر من صمت ليشمان، فقد أثار ذلك الصمت وهذا الاعتراف، شكوكًا لا يمكن البت فيها، فى ظل حالتنا المعرفية الحالية. ومع ذلك سوف نفترض أن الإتيان على ذكر وجود تلك الكتل الحجرية لا يمكن أن يعزى، بأى حال من الأحوال، إلى عيب فى الذاكرة، وأنه إذا ثبت عدم وجودها، فالاحتمال الأرجح هو أن بالجريف لم ير قط تلك الظاهرة، وبالتالى واحة عيون أيضًا. وإذا ما ثبت من الناحية الأخرى وجود تلك الظاهرة، فذلك يمكن أن يعنى توافر كل الأسباب التى تجعلنا نصدق أنه زار ذلك المكان، فضلاً عن زيارته بريدة أيضًا فى أضعف الأحوال. وإذا ما سلمنا بكل ذلك على الرغم من وصفه الخيالى الجامح للمشهد الذى كان أمامه، فذلك يعنى أننا يتحتم علينا أن نتخلى عن الأدلة والبراهين الداخلية فى توصيفه البلاد الوهابية من منطلق أن ذلك إنما هو اختبار لمصداقيته بشكل عام. ومن ثم، نعلق أشياء كثيرة على مسألة وجود أو عدم وجود جلاميد واحة عيون الصخرية المنحوتة على شكل أعمدة، وهذا يحتم علينا ترك هذه المسألة معلقة فى الوقت الراهن.

وفى عيون يُدعى بالجريف إلى تناول الغداء، ويطلع على قرانه بخطاب غير مترابط عن النباتات العربية، وعن الأخطار التى يمكن أن تترتب على التنكر غير الصحيح فى الأراضى الإسلامية. ونباتات بالجريف كلها من النباتات البرية، ولكن الأمر هنا لا يحتم علينا اقتفاء أثره فى ذلك الاتجاه بشىء من التفصيل. ويكفينا أن نورد هنا تقديره لعمق أبيار القصيم بما لا يزيد على ستة أقدام، وكذلك عبارته التى مفادها أن واحة عيون تصدر التمور إلى اليمن وإلى الحجاز. والمرحلة الثانية من رحلته، تتمثل فى واحة الغاط التى لا وجود لها، والتى استغرقت بساتينها وحقولها من بالجريف ساعة كاملة كى يمر عليها ويتجاوزها. وفى النهاية، وبعد أن يشاهد بريدة من مسافة حوالى فرسخ واحد تقريبًا، يقطع بالجريف رحلته ليمضى فترة المساء فى دويرة Duwaira، التى تعد اختلاقًا آخر أتى به من خياله.

يصل بالجريف فى النهاية إلى بريدة فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر من عام ١٨٦٢ الميلادى، ويقضى فيها أسبوعين ، ولكن ماذا عن تعليقاته التى لا سياق لها والارتباط بينها؟ وماذا عن الخيام والمساكن التى كانت تصاحب قافلة كبيرة من الحجيج الهندى – الفارسى بصفة خاصة، والتى تصادف وصولها إلى المدينة وخيمت فيها قبل عدة أيام ؟ وماذا عن استعراضه الكبير لمعرفته الواسعة بتفاصيل حياة العرب فى الحضر ؟ ألم يكن بالجريف واحداً ممن أقاموا فى دمشق فترة زمنية طويلة؟[٥١] ، وبالجريف يعرض نفسه لقليل من النقد فى روايته عن جولته فى تلك المنطقة، ولكن هذا النقد ينصب بالدرجة الأولى على التفاصيل التى ضمنها بالجريف لتلك الرواية؛ إذ بوسع بالجريف أن يتكلم عن المآذن (المنارات) والملامح الأخرى التى تفرق الوهابى عن غير الوهابى، وبوسعه أيضًا أن يستفيض فى ذلك دونما حرج أو خطر، ولكنه يقترب من مواطن الخطر عندما يقول: "قد يوجد فى بعض الأحيان طابور كامل من تلك الحيوانات (الجمال)، التى ربط حبل قيادة كل منها فى ثفر الحيوان (الجمل) السابق له، والمسافرون الذين من هذا القبيل يكونون متعبين تمامًا إذا ما التقيناهم عند منعطف من المنعطفات الضيقة". عملية ربط حيوانات القافلة على ذلك النحو، والتى تشيع فى الهند، ليست شائعة بالقطع فى صحراء الجزيرة العربية، والمرة الوحيدة التى شاهدت فيها تلك الطريقة كانت على طريق رحلتى فيما بين الطائف ومكة فى منطقة الحجاز.

وبالجريف يكتشف فى تلك المنطقة أن ملح الصخور "شديد النقاوة وشديد البياض أيضاً"، فى حين إن الملح الذى تنتجه ملاحات القصيم يميل لونه دوماً إلى اللون الوردى القذر. ويصعد بالجريف سلسلة التلال الرملية التى تغطيها أشجار الأثل الموجودة خارج البلدة؛ ثم يرى عندما ينظر فى الاتجاه الجنوبى الغربى "أن الريف كله تتخلله جزر من الزراعة وسط الرمال، ويرى عن بعد أيضاً صفوفاً طويلة من الظل الكثيف تشير إلى المكان "الذى تقع فيه عنيزة". واقع الأمر أن الناظر هنا لا يرى سوى سلاسل من الجبال الرملية القاحلة العالية تبدأ فى التناقص كلما بعدت المسافة، وتحول تماماً دون رؤية عنيزة Anaiza أو حتى بيارات نخيل وادى ريمة Rima على الجانب الأيمن من سلسلة تلك التلال الرملية العالية. وبالجريف باعتباره ضابطاً سابقاً من الضباط الذين عملوا فى الهند، يكشف عن اهتمامه بالعمليات العسكرية التى كان الوهابيون يشنونها على عنيزة فى ذلك الوقت ، كما أن الجيش الوهابى بلغ ذروة الكفاية من حيث المستوى العسكرى، فقد لاحظ بالجريف "أن بنادق" الجيش الوهابى كانت موضوعة على شكل أكوام مثل الأهرامات، على نحو يشبه إلى حد كبير طريقة تكويمنا للأسلحة قبل الخطوط وفيما بينها".

وهناك سقطات أخرى كثيرة مماثلة، ولكن بالجريف يصبح أكثر تعرضاً عندما يستغل مقامه الطويل فى القيام بجولات يومية(٥٢) فى المناطق المجاورة التى هى "الأفضل إذا ما أردنا دراسة الحياة الريفية فى القصيم. وتلك الجولات من رحلة بالجريف فيها نكهة زيارته للأفلاج، فهو يقول: إن أهدافه فى الحالين كانت على وجه التحديد كلاً من عسخة Askha والمذنب Mudneb . والمدينة الأولى لا وجود لها وربما كان بالجريف يقصد بها بلدة مسقاع Misqa، وهى تبعد مسير عدة أيام عن النقطة التى بدأ منها، فى حين إن المذنب، التى تبعد مسافة تقدر بمسير يوم وبعض اليوم، تقع على خط السير المباشر بين بريدة وشقراء، الذى يقول بالجريف إنه تحاشاه عندما استأنف مسيره فى اتجاه الجنوب. يقول بالجريف: "كان أمامنا طريقان(٥٣): أقصرهما، وأكثرهما استعمالاً لهذا السبب نفسه، يتجه صوب الجنوب الشرقى، ثم يتجه شرقاً بعد ذلك عبر الوشم Woshem وعاصمتها شقراء Shakra، ثم يعبر وادى حنيفة(٥٤) إلى الرياض. غير أن هذا الطريق يمر بمنطقة تتردد عليها قوات عنيزة

وحلفاؤها مرات كثيرة، ومن ثم فإن رفاقنا، تخوفوا من السير فيه لأنهم لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لذلك". فى هذه المقطوعة، يصل بالجريف إلى حد الكذب المباشر، والسبب فى ذلك، أنه إذا كان سبق له منذ أيام قلائل عبور القسم الأول من ذلك الطريق، وبالتالى فهو أخطر الأقسام فى ذلك الطريق، إذن فليس هناك من سبب يجعله يتخوف من عبور الطريق فى هذه المرة. ومن الواضح أن بالجريف لم يعرف أن المذنب كانت تقع على ذلك الطريق، يضاف إلى ذلك، أنه إذا كان قد استطاع اختلاق جولته إلى ذلك المكان، فليس هناك سبب واضح يمنعه من اختلاق مغامرات أخرى بما فى ذلك جولته إلى الأفلاج.

أما عن جولته بين بريدة والزلفى فلو كان اقتصد فيها لكان ذلك أفضل. والسيد هوجارث يعترف ويقر بأنه لم يفلح فى الخروج من تلك الرواية بشىء. ومع ذلك فإن رواية بالجريف عن تلك المرحلة من رحلته تخاطر بإدراج تفاصيل أكثر من التفاصيل التى أوردها فى روايته عن جولته فى الأفلاج، وهو يورد تسجيلاً لسيره ولوقفاته، يتضح منه أنه استغرق حوالى ثلاثين ساعة من السير الفعلى كى يقطع مسافة مقدارها حوالى ستين ميلاً ، وهذا الأداء يقل عن جولته إلى الخرفة، التى قطع خلالها ١٧٠ ميلاً فى يومين وذلك من بداية الجولة إلى نهايتها، دون أن يواصل المسير فى أثناء الليل. يضاف إلى ذلك أن الوقفات التى قام بها بالجريف عند الواحات لا وجود لها ، الرويضة Roweydah والوسيط Wasit . ويجب ألا تندهش لأن روايته عن تلك الجولة تجدت كل الجهود التى بذلها السيد هوجارث من أجل مطابقتها مع الحقائق التى أمكن الحصول عليها من مصادر أخرى.

ومع ذلك يبلغ بالجريف من الوقاحة حداً يحذر معه قرّاءه من السقطات التى يقع فيها الأشخاص غير الحذرين عندما يحاولون الحصول على معلومات جغرافية من العرب. يقول بالجريف: "اسمحوا لى أن أبدى هنا(٥٥) الملاحظة التى مفادها أن الأوروبيين الذين يزورون الشرق أو يصفونه يجب أن يحذروا من أخذ التعبيرات الغامضة ألتى تستعملها أغلبية العرب بمعناها المباشر أو الحرفى، وفوق كل هذا وذاك التعبيرات التى يستعملها المصريون والسوريون وبخاصة عندما يتكلمون عن بلاد غريبة وشعب غريب عليهم، يضاف إلى ذلك لجوء هؤلاء الناس فى كثير من الأحيان إلى

استعمال المترادفات، والكلمات شبيهة اللفظ مختلفة المعنى تعد مصدراً شائعًا من مصادر الخطأ أمام الباحثين الأجانب. وبوسع المرء عن طريق التساؤل وطرح الأسئلة على أعداد كبيرة من الناس – على أن يكون ذلك فى أوقات متفرقة وفى أماكن متفرقة أيضًا، وقيامه بعد ذلك بمقارنة المعلومات التى يجمعها بهذه الطريقة – أن يستطيع تحقيق شىء من الدقة فى الموضوعات المهمة، ثم يلى ذلك أن يرى المرء بنفسه ويسمع بأذنيه عن المكان أو الموضوع المطروح للبحث إذا ما استطاع المرء ذلك، إذ ليس هناك تحد واحد، سواء كان كبيراً أو صغيراً، على استعداد أن يعطى أى أوروبى أية فكرة دقيقة عن بلاده أو وطنه.."

واعتباراً من الزلفى ، وفى اتجاه سدوس عند حافة قناة وادى حنيفة ، لا أستطيع نقد رواية بالجريف عن ذلك الجزء من رحلته، نقداً صادراً عن شاهد عيان رأى بعينيه تلك المنطقة، ومع ذلك فإن لتلك الرواية بعض النقاط المحددة التى تصلح غذاء للفكر. فتقدير بالجريف لارتفاع هضبة الطويق بما يتراوح بين ألف وألفى قدم "فوق مستوى ارتفاع شبه الجزيرة المحيط بتلك الهضبة" تقدير خاطئ تمامًا، ومع ذلك فإن هذا التقدير يعد أقل إسرافًا من عبارته التى يقول فيها إن مستجمع مياه الطويق "يقع على الجانب الشرقى، وليس على الجانب الغربى"، وهذا مفهوم خيالى، يستطرد بالجريف فى تطويره بالمزيد من التفاصيل. حافة [الطويق] الطرفية تكاد تكون شديدة الانحدار دومًا، ثم ترتفع ارتفاعًا مفاجئًا يقدر بحوالى خمسمائة قدم أو ستمائة على شكل صخور جيرية اعتباراً من السهل الملاصق لها. ثم تليها بعد ذلك أرض مستوية، متباينة المدى، وشبه مستوية فى كل الأنحاء، ثم تمتد بعد ذلك إلى مسافة ثلاثمائة قدم أو أربعمائة قدم، ثم تتلوها بعد ذلك أرض مستوية ولكنها مرتفعة ، ثم تلى ذلك هضبة ثالثة أكثر ارتفاعًا تتوج الهضبة الثانية من حين لآخر". ويتوج بالجريف وصفه الكاريكاتورى لخصائص هضبة بالسخرية والاستهزاء من "أولئك الجغرافيين الذين يتعطفون على الجزيرة العربية ويزودونها، وبخاصة فى جانبها الشرقى، بأنها تنساب من الدرعية أو من أماكن أخرى ثم تتجه إلى البحر.. والسبب فى ذلك أن وادى عفتان Aftan، يدون دومًا على الخرائط على أنه مجرى مائى، وسوف يسعدنا أن نتتبع ذلك المجرى على طول امتداده بعد فترة وجيزة، وسوف نتبين حقيقة ذلك الوادى على نحو أفضل"[٥٦].

ولكن يجب ألا نتألم من السخرية النابعة من شخص يجعل وادى حنيفة ينساب إلى الوراء، ويقع فى ذلك الخطأ المذهل الذى يجعله يتتبع مجرى وادى حنيفة كله على أنه وادى عفتان، ذلك الوادى الخرافى الذى لا وجود له ولا حاجة بنا إلى ذكره.

وفى الغاط وجد بالجريف الأبيار "عامرة بالماء، فى ذلك الفصل الذى يعد من أشد فصول العام جفافًا، إلى حد أن فيضان تلك الأبيار أسفر عن امتلاء خزان كبير بتلك المياه وانسابت منه نهيرات صغيرة فى جميع الاتجاهات.." وبعد أن خرج بالجريف من المضيق وجد نفسه بين ظلال غابة من الأشجار، بما فى ذلك "وهذا هو ما أدهشنى" شجرة الدُّلب. ويردف بالجريف قائلاً: "والثعابين فى نجد ليست أندر منها فى أيرلندة ومالطة"، وهو ينتقد فى هذا الصدد حكاية من حكايات م. لامارتين Lamartine(٥٧)، اكتشف بطلها أجمة كانت كلها مليئة بالجلود التى تجردت منها تلك الثعابين حسب مبلغ علمي. أنعم بسعادة أولئك الرحالة الذين يكون لديهم خيال خصب ومبدع من هذا القبيل!.

وفى النهاية، يصل بالجريف إلى واحة سدوس ، التى تبعد حوالى ميل واحد عن حافة وادى حنيفة، الذى يمتد هنا بلا انقطاع فى اتجاه جنوبى شرقى عن طريق كل من العيينة، والجبيلة، وملقة Malqa إلى الدرعية ومنها إلى الرياض نفسها، ولكن المسافة لم تستغرق منه مجرد القسم الأكبر من مسير اليوم إلى أن وصل إلى حافة الوادى، الذى اكتشف أنه يرتفع أمامه متجهًا صوب الجنوب الغربى، وعندما يتركنا بالجريف طوال الجزء المتبقى من تلك الجولة، علّنا نحاول الاستفادة، أو الخروج بشىء، إذا ما استطعنا ذلك، من رواية لا علاقة لها البتة بالحقائق. وذكر بالجريف للعيينة، وملقة، والدرعية، التى يقول خطأ عن أُولاها وثالثتها، إنهما تقعان فى فرعين مختلفين من فروع الوادى ربما يقلل من حدة نقدنا له، ولكنه يلقى بنفسه إلى التهلكة عندما يطلق على الجبيلة، التى كانت مسرحًا من مسارح الانتصارات الإسلامية الأولى، اسم الروضة Rowdah .

وفى الرياض، ذروة مغامرته الكبرى، والتى وصلها فى اليوم الثالث عشر من شهر أكتوبر من عام ١٨٦٢ الميلادى، وغادرها فى اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر من العام نفسه، وبعد أن أمضى فيها اثنين وأربعين يومًا، يدرك بالجريف أنه بحاجة

إلى كسب ثقة القراء. يقول بالجريف: "قبل الدخول فى تفاصيل الأيام الخمسين التى أمضيتها فى تلك البلدة الغريبة.. لابد أن أعتمد بدرجة كبيرة على مخزون الثقة والتصديق التى يتعطف قرائى بها علىّ بوصفى رجلاً إنجليزيًا، على الرغم من كونى رحالاً.. وأنا استهدف مما أفعله إعطاء فكرة صحيحة وكاملة قدر المستطاع عن الأرض، وعن الحكومة، ... إلخ" والواقع أن التيمة (الموضوع) التى يطرحها، أو إن شئت فقل قصة المغامرات الغريبة، العجيبة والخطيرة فى البلاط الوهابى، لا تسلم نفسها للتشريح الدقيق ، شأنها فى ذلك شأن رواياته عن المراحل التى مر بها إلى أن وصل إلى مشاهد تلك الروايات. وبالجريف، كما سبق أن أوضحت، يحس بالارتياح والاطمئنان، عندما يتناول حياة الحضر العربية هى والحياة فى الرياض، ليقول لنا فيما بعد إن حياة الرياض، باستثناء التشدد،لا تختلف اختلافًا كبيراً عن الحياة فى بريدة والحياة فى حائل. أما فيما يتعلق بمغامراته، فالأرجح أن تكون قد حدثت، إذا كان قد زار الرياض وتجوَّل فيها بالفعل، ومن المحتمل ألا تكون تلك المغامرات قد وقعت له إذا لم يكن قد زارها أو تجول فيها على الإطلاق. وبالجريف يخطئ، حسب ظننا، مراراً وتكراراً فى مسألة التفاصيل، وقد نشعر بالسأم والملل إذا ما تناولنا روايته عن تجاربه وخبراته فى الرياض بنفس التمحيص والدقة التى تناولنا به رواياته عن جولات فى الأماكن الأخرى. وقد نتساءل عن مدى عدالة همزه ولمزه[٥٨] اللذين صبهما على الأخلاقيات الوهابية، ونرفض عبارته الهرائية التى تقول إن: "الخنازير والخنازير البرية يكثر وجودها فى الجبال [جبل طويق]. وقد نتساءل أيضًا حول مسألة ما إذا كان قد سمع فى الرياض، ولأول مرة فى الجزيرة العربية عن أسماء أو آثار الأنباط Naba-thaeans أو الحميريين Himyarites، وقد نتساءل أيضاً، وهو مسيحى، عن مسألة حرية السماح له بدخول المساجد الوهابية بالقدر الذى أراد لنا أن نقره ونصدقه.

والأطروحة العلمية الطويلة، التى أوردها، وهو يتحدث عن الحياة فى الرياض، عن الأمراض الشائعة فى الجزيرة العربية، تذكرنا أن بالجريف كان طبيبًا أولاً وقبل كل شىء، كما تذكرنا أيضًا أنه وسط، أو بالأحرى على الرغم من مشاغله ومغامراته الأخرى، أعطى ممارسة مهنته الوقت الكافى كى يكون علىٰ معرفة واسعة بكل ما يستطيع ممارس الطب أن يتعلمه من الجزيرة العربية، وأنا ليست لدى المعرفة الفنية التى

تمكننى من نقد قائمة الأمراض الطويلة التى أوردها بالجريف وتضم حوالى خمسين مرضاً من الأمراض الرئيسية، التى صادفها على امتداد شهرين ونصف الشهر ، مارس الطب خلالها فى منطقة حائل والرياض. وقد يكون من العدل هنا القول إن بالجريف وهو يجمع تلك القائمة من ذاكرته لم تغب عنه تمامًا تلك الحالات البدوية التى قام بعلاجها بالفعل فى مدينة دمشق، ولكن ذاكرته ربما تكون قد خدعته، من جانب واحد، فى الحالات المرضية التى صادفته فى وسط الجزيرة العربية. وتحمر وجنتا بالجريف خجلاً عندما يقول: "مرض أنا فى حل من ذكر اسمه، يشيع (هنا) بشكل مخيف. والعرب شأنهم شأن الأمم الأخرى يعزون ذلك المرض إلى أصول أجنبية." وأنا أتجرأ وأقول مؤكداً إن الأمراض التناسلية نادرة فى البلاد الوهابية، والحالات المعروفة من تلك الأمراض تعزى بشكل عام - إن لم يكن ذلك بشكل خاص - إلى العدوى التى تنتقل عن طريق العدوى التى تصيب أولئك الذين يزورون أماكن مثل البصرة، ودمشق، والقاهرة، ومكة ، والمدينة.

أضف إلى ذلك أن خطاب بالجريف عن الخيول يجب أن لا يثنينا عن مهمتنا، وكذلك المشاهد المثيرة مع عبد الله، ولى العهد ، فى العرش الوهابى، تلك المشاهد التى انتهت بنجاته الغريبة وهربه الغريب من مدينة الرياض، فضلاً عن اختفائه طيلة ثلاثة أيام فى المنطقة المحيطة إلى أن تنتهى كل ترتيبات سفره إلى الأحساء وشواطئ الخليج الفارسى، ذلك السفر الذى يورد لنا بالجريف من خلال الأدلة الدامغة والمقنعة لإدانته وعدم الوثوق به.

كان الوقت يصادف اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر من عام ١٨٦٢ الميلادى. وكان فصل الشتاء قد بدأ فى الدخول، وتساقطت أمطار غزيرة، غير أن "الشعاب لم تكشف عن أى ميل نحو الاتجاه إلى البحر، فهى لا تستطيع أن تفعل ذلك فى حقيقة الأمر، نظراً لأن ذلك الجزء من نجد تعزله جبال الطويق عزلاً تامًا فى اتجاه الشرق". وتلك بالقطع فاتحة خير لرحلة إلى وادى حنيفة الذى يتجه صوب الجنوب الشرقى، والذى لا يصل فحسب إلى البحر، إذا ما توفرت له كمية كبيرة من المياه، وإنما تقع كتلة هضبة الطويق فى الناحية الشرقية منه وليس الغربية. ولكن بالجريف، فى ذلك القسم من رحلته، يضع على نفسه أغلالاً مستحيلة. فقد استغرق وصوله إلى منفوحة

أكثر من أربع ساعات، ومعروف أن منفوحة تقع في نفس الحوض التي تقع فيه الرياض، ويمكن الوصول إليها خلال نصف ساعة سيراً على الأقدام. وبالجريف يجد نفسه وهو خلف منفوحة لا في وادي حنيفة مثلما ينبغي أن يكون، وإنما في وادي السُّلَيّ Sulaiy ووادي حنيفة لا يتجه صوب الشرق بعد تلك النقطة ، كما أن "سلسلة الجبال المتعامدة التي عبرناها بالفعل تشكل هنا حداً جغرافياً وحداً إقليمياً أيضاً."هذا يعني أن "سلسلة الجبال المتقاطعة" هذه هي المكان الذي يضع فيه بالجريف بداية وادي حنيفة، وبذلك يجعل ذلك الوادي يمتد في عكس الاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه. وسلسلة الجبال المتقاطعة، سالفة الذكر، لا وجود لها في حقيقة الأمر، كما أن وادي حنيفة الذي يبدأ من الطرف الغربي لهضبة الطويق يسير خلال هذه الهضبة بطول حافتها الشرقية ومحاذياً لها إلى أن يصل إلى منطقة الخرج، ومنها إلى قناة صرف شعب سحابة Sahaba .

يضاف إلى ذلك أن بالجريف في حديثه عن وادي السُّلَيّ "الذي لم يجد فيه شيئاً سوى قرى صغيرة غير مهمة"، ليس له وجود على الإطلاق، والأغرب من ذلك أنه يجعل ذلك الوادي يجري إلى الوراء قادماً من مصدر خيالي، في منطقة خيالية أيضاً من مناطق الحريق، موجودة في اتجاه الشمال، في الوقت الذي ينبع فيه من شمال الرياض ثم يتصل بوادي حنيفة على بعد مسافة قصيرة من منطقة الخرج.

وبالجريف يرتكب تلك الأخطاء على الرغم من الحقيقة التي مفادها أنه استفاد من أيامه من نشاطه غير المقيد وتسلق "مرتفعات الطويق الجيرية العالية، الواقعة على الجانب الشرقي من وادي السُّلَيّ" بقصد "الحصول على رؤية واضحة للأرض". ومن ذلك المكان المرتفع، شاهد عن بعد "سلسلة جبال الحريق الزرقاء المدببة في أقصى الجنوب"، والتي – كما سيحدث في مرحلة لاحقة من رحلته – شاهد "القسم الجنوبي منها"، بعد أن تجاوز السليمية، حيث أصبح "مقابلاً لها، على الرغم من أنه كانت تفصله عنها شريط من الصحراء. وقد تبدت تلال تلك المرتفعات "وكأنها من الجرانيت ... كما أنها كانت تنتشر شرقاً وغرباً على شكل سلسلة منعزلة تفتقر إلى التناسق والانسجام، ويقدر طولها بحوالي ستين ميلاً أو ما يزيد على ذلك ... وكان غريباً حقاً أن ترى جبل طويق وهو ينتهي فجأة، أو بالأحرى على الفور في الصحراء، منحدراً إلى الأسفل، على

شكل سلسلة من المصاطب المنحدرة، تضيع آخر واحدة منها بين جدب الرمال". وهذا كله من قبيل شطحات الخيال التى لا ترتبط مفرداتها بحقائق الواقع بأى شكل من الأشكال.

أخيراً، وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر، تنتهى فترة اختباء بالجريف، ويعوض عن الوقت الطويل الذى أنفقه فى الوصول إلى منفوحة فى أثناء هروبه حفاظًا على حياته، بالانتقال نقلة سريعة للغاية، على الرغم من أنه كان فى مأمن من الملاحقة فى ذلك الوقت وبصحبته قافلة من حجم معقول، أو إن شئت فقل حجم مناسب، نقلة سريعة إلى السليمية فى منطقة الخرج، التى وصلها فى اليوم الأول، على الرغم من عدم إدراكه ضرورة تفسير الطريقة التى جعلت تلك القافلة المتجهة إلى الأحساء، تختار تلك التحويلة الطويلة عن الطريق المعتاد وصولاً إلى السليمية. ويبدو أن مرحلته التالية لذلك، وهى أبيار اللقيات Lakey'yat لا وجود لها، كما أن جماعة بالجريف ضلت طريقها، عندما استأنفت مسيرها فى اليوم التالى وتاهت فى "غطاء كثيف من الضباب يناسب سرى Surry (فى إنجلترا) أكثر منها الجزيرة العربية، غطاء كثيف من الضباب الذى يشبه الحليب". "وتقف الجماعة" بعد ذلك "على آخر أذرع هضبة الطويق وأعلاها فى تلك المنطقة، تلك الذراع التى على شكل جدار جيرى طويل يحيط بنجد ويحميها من ناحية الشرق". ثم تنزل الجماعة بعد ذلك إلى المستوى الأدنى من الصحراء الشرقية، الذى عثروا فيه على المزيد من الآبار، التى لا وجود لها، ويطلق عليها بالجريف اسم الأويسط.

وتمضى الجماعة فى مسيرها فى أثناء الليل، فى الوقت الذى بدأت تتغير فيه طبيعة سطح الصحراء لتتحول تدريجيًا إلى رمال[٥٩]، "كانت تلك صحراء الدهناء العظيمة، أو إن شئت فقل 'الصحراء الحمراء'، ويعبع البدو الجائلين، التى لم يعبرها عابرو الطويق المعتادين بدون تخوف يفضى إلى حوادث مميتة فى معظم الأحيان. ورمال الدهناء خفيفة جدا، والرياح التى تشكل تلك الرمال وتعيد تشكيلها كل يوم متقلبة ولا يثبت لها حال، لأنها تحول تلك الرمال إلى تلال ووديان غير مستقرة إلى حد أنها تمحو كل آثار الرحالة السابقين بحيث لا يبقى منها أى شىء يمكن تتبعه أو اقتفاء أثره، هذا فى الوقت الذى تتضافر فيه الحرارة الشديدة والضوء الملتهب الذى ينعكس من جميع

الأجناب، مع الجفاف والإعياء والإرهاق على إرباك المغامر ومضايقته، إلى أن تضيع منه بوصلته، ويروح يتجول عشوائيًا هنا وهناك وسط تلك الوحدة الغريبة التى سرعان ما تتحول إلى قبر من القبور. لقد مات أناس كثيرون بهذه الطريقة، بل لقد ذاع أن قوافل بأكملها اختفت فى الدهناء دونما أية تفرقة أو تمييز". هل يمكن أن يكون الوصف صادرًا عن شخص، عبر ذلك الحاجز الرملى بنفسه، بل وغيره فى أثناء الليل وليس أمامه سوى النجوم ليهتدى بها؟ وأحزمة الجزيرة العربية الرملية الواسعة، تظل طوال أشهر كثيرة فى موسم المطر، موطنًا للبدو الرحل الذين يقيمون فى الخيام، هم وقطعانهم، وتلك الأحزمة الرملية الواسعة هى التى تحتوى على كل أسرار الحياة البدوية(٦٠)، نظرًا لأن المراعى لا تجود إلا فى ثنيات تلك الأحزمة الرملية، وبغير تلك المراعى تصبح حياة العرب الرعوية أمرًا مستحيلاً. وعبور تلك الأحزمة الرملية لا تصيب أى إنسان بالرعب أو الفزع. ومع ذلك ابتكر بالجريف هو ومرشدوه حيلة يضلون بها طريقهم، ويعزو بالجريف مسألة عثورهم على طريقهم مرة ثانية إلى خبرة ملاكه الحارس ومرشده "أبو عيسى" ذلك الرجل الذى "يتمتع بقوة كبيرة من قوى الطبيعة البشرية، لا يمكن اكتسابها إلا من خلال الظروف والتدريب الطويل".

بعد أن تجاوزت الجماعة الأرض الرملية القاحلة اتجهت إلى صحراء الصُمان Summan السهوبية، التى راح بالجريف يتعثر فيها بين الحين والآخر، ولكن بصورة غير سيئة، إلى أن يصل إلى الجانب الآخر من وادى فاروق Faruq ويبدأ بعد ذلك فى "شق طريقه خلال سلسلة جبال ساحل الأحساء، والسبب فى ذلك أن الأرض، فى هذه المنطقة أيضًا معزولة عن البحر بصف من التلال الجرداء والمسننة، التى تحيط بمحيط الجزيرة العربية كلها أو معظمها فى أفضل الأحوال ... فى مقابل وادى فاروق Farook، وذلك من واقع ملاحظاتى العابرة، يقدر ارتفاع تلك التلال الجرداء بحوالى أربعة عشر ألف قدم عن مستوى سطح البحر، وبحوالى أربعة آلاف قدم فوق مستوى الصحراء الموجودة فى الغرب، الأمر الذى يجعل ارتفاع تلك الصحراء يزيد بمقدار ألف قدم عن الساحل". والملاحظة الأخيرة من هذه العبارة هى الوحيدة الصحيحة، أما بقية الملاحظات فهى هراء فى هراء، شأنها فى ذلك شأن العبارة التى تقول: إن المكونات الرئيسية "لجبال الأحساء" هى "الجرانيت والحجر الرملى الذى يتخلله الكوارتز من

حين لآخر، ثم البازلت". واقع الأمر، أن هناك صحراء شاسعة تمتد من الدهناء في جهة الغرب إلى ساحل البحر الشرقي، وتبدأ تلك الصحراء في الانحدار الهين اللين المتدرج، على شكل رواب منخفضة وسلاسل جبلية منخفضة أيضًا مما يؤدى إلى تنويع ملل تحولتها، ولكننا حاليًا على أعتاب الأحساء وتعين عليّ أيضًا هنا الاقتباس عن كتاب السيد هوجارث تمهيدًا لنقدى لرواية بالجريف عن تلك المنطقة، التى أمضى فيها أحلى أسبوعين فى الرحلة التى قام بها إلى الجزيرة العربية.

يقول السيد هوجارث: "بعد أن طار اليسوعى المتنكر(٦١) فرحًا لهروبه من نجد المتزمتة، كان لديه المزيد من التعاطف والمزيد من الوقت المطلوب لمنطقة الأحساء أكثر ممن سبقه إليها(٦٢)، كما أن قصته الكاملة التى تنبض بالحيوية، توضح أنه لم يتحرج من إخفاء ميوله شبه الشرقية نحو شعب تتمثل قاعدته الحياتية الفعالة فى مذهب اللذة ... وهنا يقدم بالجريف بطريقة جادة أوصافًا مفصلة وعجيبة للمدن والواحات التى تحيط بتلك المدن، وهنا تجد أن الوصف المختصر الذى سجله كل من سلفه سادلير Sadlier، وبلى Belly، وزويمر Zwemer الذين جاءوا من بعده، يتفق مع الوصف الذى جاء به بالجريف وقد اكتشف ... زويمر بعد ثلاثين عامًا أن المخطط الذى وضعه "السورى" للهفوف كان دقيقًا تمامًا ... وعن تفاصيل الحياة ... يتحدث الرجل بنغمة حميمة يندر أن يصل إليها الأوروبى فى الشرق. وفى الجزء الأكبر من جنوبى نجد يجب أن نجعل من بالجريف مصدرًا لنا، نظرًا لعدم وجود أى مصدر آخر غيره. وفيما يتعلق بالأحساء فنحن نفضل بالجريف على غيره من المصادر الأخرى، ولولا بالجريف لبقيت معرفتنا هزيلة بطبيعة الأرض وأهل هذه الأرض، وهو ما يمكن أن يجعل التاريخ السابق واللاحق لتلك المنطقة غير مفهوم".

هذا كله من قبيل المدح والثناء، ولأنه صادر عن السيد هوجارث، فهو يحتم علينا الترتيب قبل الدخول فى جدل مع بالجريف، كما لو كان ذلك من اختياره هو. ولكن ما مدى تبرير ذلك الثناء والإطراء إذا ما نظرنا إلى رواية بالجريف وتناولناها بعد تعريتها وتجريدها مما فيها من حشو كبير؟ ويؤكد هوجارث ذلك الإطراء بذلك "القليل الذى سجله" ثلاثة من الأوروبيين سبقوا بالجريف إلى زيارة تلك المنطقة. فقد أورد سادلير Sadlier عن الأحساء "أن بها بحيرات وينابيع ولكن ليس بها أنهار" ، وأورد عن

الهفوف "ارتفاع أسوارها المبنية من اللبن وحكاية رجالها المحاربين" ، الواقع أن هذه المادة ضئيلة جداً، إذا ما قارناها بالرواية الكاملة والمفصلة التى جاءت على لسان من جاء بعده. وواقع الأمر أن بيلى Pelly هو وزويمر Zwemer "لم يضيفا كثيراً" إلى رواية بالجريف، ولكن زويمر يكشف فى ملاحظاته التى أوردها عن مخطط الهفوف(٦٣) أنه كان ملاحظاً مهملاً إلى حد ما، فضلاً عن أن عبارته تحتاج إلى شيء من التفسير. "ومخطط السورى" يقدم الهفوف على أنها مدينة شبة مستطيلة، تحتل منطقة الكوت، أو إن شئت فقل القلعة، مكاناً فى أعلى الطرف الشمالى منها داخل السور الدائرى. وهنا يثور فى ذهننا سؤال حول مكان ذلك المخطط، لأن الفحص الدقيق لمثل هذا المخطط يعتمد إلى حد كبير على مكانه وموقعه، ولكن بالجريف فى هذه النقطة لا يترك للشكوك مجالاً إلى نفوسنا. وبالجريف عندما وصل إلى الهفوف مر خلال "أكواخ الغوير" Ghoweyr، ملاحظاً أن العاصمة كانت تبعد حوالى "خمسة عشر ميلاً" فى الناحية الشمالية الشرقية من تلك الأكواخ، والطريق الذى سلكه بالجريف، موضح على أنه يدخل المدينة من ناحية الجنوب، وهو يقول مؤكداً أنه دخل العاصمة من البوابة الجنوبية. ومن هنا يكون اتجاه المخطط من الشمال إلى الجنوب، وهذا هو ما نتوقعه، كما أن الكوت (القلعة) تحتل الركن الشمالى الغربى من المدينة، ومع ذلك يورد بالجريف فى متن روايته أن "الكوت Kot (القلعة) تقع فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة" . وقد غاب ذلك الخلط العجيب عن ذهن زويمر Zwemer، الذى حسب أن مسألة موقع المدينة هذه لا تستحق الاهتمام. وأنا نادم لأنى لم أكلف نفسى عناء تحديد المواقع النسبية لأقسام تلك المدينة، ولكن قد يبدو لى – وأنا هنا أعتمد على الذاكرة – أن الكوت Kut (القلعة) تحتل الركن الشمالى الغربى من الحدود الخارجية للمدينة، وعلى أى حال فقد قصدت مدينة الهفوف من اتجاه الشرق شمالاً(٦٤). ودخلت المدينة من بوابة تقع بين الشكلين ١١ و ١٢ عند أعلى الركن الأيمن فى مخطط بالجريف. ومخططات بالجريف عن مدن الجزيرة العربية – ويجب أن نلاحظ هنا أنها من وحى الذاكرة وحدها – تفتح الباب على نفسها بطلب المزيد منها، ولكنى سبق أن ناقشت مخططه عن الرياض مناقشة مستفيضة(٦٥)، نظراً لأن ذلك المخطط يشبه إلى حد كبير مخططه عن حائل، على الرغم من أن مخطط حائل فيه قدر قليل من تثليم المستطيل، وهذا التثليم من الناحية الغربية وليس الشرقية.

من هنا يجىء ضعف مجموعة المصادر المؤيدة بقبول رواية بالجريف عن الأحساء، وهذا يحتم عليَّ التحول إلى الرواية نفسها لمحاولة إطراء السيد هوجارث لها والثناء عليها. ترى، ما الذى يود بالجريف أن يقوله لنا؟ لقد تركناه وهو يسير خلال سلسلة جبال الساحل فى الأحساء(٦٦). "وعندما أطبق الظلام علينا كنا قد وصلنا أبعد الارتفاعات ... ومن ثم كنا نطل أو نشرف على سهول الأحساء، ولكننا لم نستطع تمييز أى شىء من خلال أشعة القمر الخادعة ... وواصلنا تجوالنا، حينًا فى الأعلى وحينًا آخر فى الأسفل، ومرة من فوق الممر وأخرى فوق الجرف الوعر، إلى أن وصلنا منحدرًا لولبيًا طويلاً يتجه صوب جانب الحر المنحدر، إلى مسافة ألف قدم أو ما يقرب من ذلك، إلى أن وصلنا إلى مستوى الأحساء المنخفض". وبعد أن استهانت الجماعة بإغراء الراحة فى "الأكواخ المجاورة فى منطقة الغوير Ghoweyr التى تقع عند سفح الممر، أو فى قرية شعبة Sha'abah، التى تبعد حوالى خمسة أميال ناحية اليمين"، واصلت الجماعة مسيرها إلى أن وصلنا الهفوف. وهو يعطينا عن المدينة تفاصيل كثيرة ممتازة لا تحتوى على مجرد بعض الأخطاء السيئة المتعلقة بالإضافة والحذف، ولكنه يصل إلى الذروة عندما يبدأ فى وصف البلاد المحيطة، التى كان يزورها راكبًا "حمرًا مزودة بِسُرُجٍ جانبية" والسبب فى ذلك "أن السُّرج الجانبية هى السائدة بين راكبى الحمير، سواء أكانوا رجالاً أم نساء".

ويردف بالجريف قائلاً(٦٧): "وبعد أن تحولنا إلى جهة الغرب شاهدنا أمامنا عددًا كبيرًا من المجارى المائية ... وحياه نباتية من النوع شبه الهندى الذى يقتصر على ذلك الجزء من الجزيرة العربية ... وسلسلة الجبال تمتد إلى مسافة لا تقل عن مائة ميل فى اتجاه الشمال ... وعليه هيا بنا ننحرف جانبًا وندخل إلى تلك المزرعة المعشوشبة، حيث يوجد ست من الجاموس تحاول ترطيب جلودها الكثيبة فى بركة من برك الماء، كما تحاول شرب قليل من الماء المنبثق من العين التى تزود تلك البركة بالماء. لكن يا للعجب! انتبه فالماء هنا دافئ، بل يكاد يكون حارًا. لا تندهش من ذلك، فكل نوافير الأحساء وأبيارها من هذا القبيل تقريبًا، بل إن هناك بعض الأبيار والعيون التى لا يستطيع المرء أن يضع فيها يده ... ومنتجات الأحساء كثيرة ومتنوعة، ورتابة الحياة النباتية العربية، هى وخيلها وأثلها الأبديين، تتباين فى الأحساء بفضل خُضرة من نوع جديد ... كما

تظهر فى الأحساء هنا أشجار البابای Papay، التى تذيع شهرتها فى أقصى شرقى شبة الجزيرة[٦٨]، على الرغم من ندرتها، وقله نموها نمواً طبيعياً، جنباً إلى جنب مع أشجار أخرى[٦٩]، تشيع على ساحل شبه الجزيرة فى المسافة من كتش Cutch إلى بومباى Bombay ... منها أشجار النيلة التى تزرع هنا على نطاق غير تجارى ... كما يزرع قصب السكر ... كما تزرع هنا أيضاً النباتات القرنية أو القطانية ، وكذلك نباتات الحبوب، باستثناء الشعير (إذ لم أر أو أشاهد هذا النبات) تغطى السهل". يجب ألا تغيب عنا هنا الملاحظة الرئيسية الحميمة، أن تلك الجنة خالية من الشعير.

هذا هو الهيكل الرئيسى لوصف بالجريف للأحساء، ولكن ما مدى انطباق ذلك الوصف مع الحقائق الواقعة؟ ومن سوء حظ بالجريف أن سلسة الجبال الساحلية فى الأحساء اختفت من المسرح، كما اختفى معها أيضاً المنحدر اللولبى الطويل فى الجانب شديد الانحدار من الجبال، والذى ينزل إلى السهول، والقرى وكذلك الهجر المقامة فى مواجهة الجبل. كما تغيب أيضاً عن وصف بالجريف من منتجات المنطقة المختلفة ، ولكن ذلك له جدواه أيضاً لأن الشعير ينمو بوفرة فى المناطق التى لا تنمو فيها أشجار البابای Papay، أو قصب السكر، أو أشجار الصبغ. يضاف إلى ذلك، أن منابع النوافير هنا لا تحرق الأيدى غير الحذرة، إذ إن ماء تلك العيون لا يعدو أن يكون فاتراً، أو براداً أو بارداً؛ وأخيراً، ولكن محزناً تماماً، لا نجد الجاموس يستحم فى ماء البحيرات العكرة، نظراً لأن الجاموس منقرض أو لا وجود له فى تلك المنطقة. وبالجريف لا يمكن له أن يدافع عن زلة قلمه هذه، عندما يقول عن تلك الحيوانات، فى فقرتين سابقتين من روايته عن الأحساء، إن تلك الحيوانات غير موجودة فى القصيم أو وسط الجزيرة العربية[٧٠].

وعلى الرغم من كل ذلك السوء، فما يزال لدينا منه الكثير. وإذ كانت هناك نقاط يتكلم بالجريف عنها بدقه تامة على العكس من النقاط الأخرى، أو إذا كان هناك جانب من جوانب الحياة العربية، يتكلم عنه بالجريف بدقة متناهية، وذلك على العكس أيضاً من الجوانب الأخرى، فإن ذلك الجانب هو الدين الوهابى بالتأكيد، الذى يبدى بالجريف تحيزاً كبيراً ضده، ويركز تركيزاً شديداً وقاسياً على مظاهر ذلك الدين. ومع ذلك يقول بالجريف فى معرض وصفه لحى الكوت (القلعة)[٧١]: "يشيع هنا أيضاً نمط المسجد

المتشدد، الذى تجرى فيه الطقوس كلها على الطريقة الوهابية. هنا يسكن المُطَوِّع، وغلاة المطوعين الذين يفدون إلى هنا من الرياض". ألم ير بالجريف بعينى رأسه منارة مسجد إبراهيم باشا السامقة هى وضريح هذا المسجد الكبير ؟ وبخاصة أن ذلك المسجد يعد أجمل ملمح معمارى فى وسط الجزيرة العربية وشرقها، كما يعد ذلك المسجد أيضًا أبرز الآثار غير الوهابية فى المدينة، والذى يركز بالجريف على طابعه غير الوهابى تركيزًا شديدًا فى المقطوعة نفسها.

ويخرج بالجريف من الهفوف فى الوقت المناسب تاركًا الجزيرة العربية، من طريق أنا نفسى لم أمش فيه، وأنا هنا أستأذنه، تاركًا الأمر لأولئك الذين يهمهم إصدار الأحكام على الأشياء التى أمامهم. لقد بدأت مستهدفًا إثبات أن بالجريف لم يسافر مطلقًا من الرياض إلى الخرفة، وثبت من ذلك أيضًا أن من السهل تمامًا إثبات أنه لم يذهب مطلقًا أيضًا إلى بريدة. وليكن ما يكون؛ لأن ذلك الميدان الواسع لم يكن من اختيارى أنا شخصيًا، ولكن - نظرًا لأنى سمحت له أن يروى القسم الأكبر من قصته وبأسلوبه هو - أليست هناك أسباب وجيهة تجعلنا نعيد النظر فى الحكم الذى أصدره السيد هوجارث بشأن "التفسير البديل الواضح لمبالغات بالجريف الكثيرة، وحذفه، وعباراته الخاطئة"؟ يبدو أن الاعتبارات التى بنى عليها السيد هوجارث حكمه، لم يعد لها مبررها، ومع ذلك "قد لا نتطلع إلى قراءة أسرار الكلية اليسوعيه أو غيرها". ولكننا قد نعجب إن كان بالجريف قام بجولة خاطفة إلى منطقة الأفلاج، كما نعجب أيضًا من ذلك القدر الذى رآه من وسط الجزيرة العربية.

إذا ما استطعنا أن نثبت بلا أدنى شك أن بالجريف زار بريدة، والرياض، وكذلك الأحساء، فقد يجرنا ذلك إلى التغاضى عن التفاهات التى وردت فى جولة الأفلاج هى والمناطق الأخرى، ولكننا لدينا من الأسباب ما يجعلنا نرفض ما يقوله ذلك الرجل باعتباره "إنجليزيًا، على الرغم من كونه رحالاً أيضًا" عن إنجازه وافتقاره إلى كثير من المعطيات المقنعة، التى يمكن أن يبنى عليها حكمًا، وذلك على العكس من المعطيات الواردة فى مجلدى القصة التى نسجها بالجريف من خياله.

وقد استقبل بالجريف استقبالاً بارداً[٧٢] من أبناء وطنه بعد عودته من رحلته الشهيرة، بل راح الناس يشككون فى آرائه عن أنهار الجزيرة العربية وبحارها، ولكن ذلك كان حال معرفتنا عن الجزيرة العربية فى تلك الأيام، وبذلك يكون بالجريف قد أحرز نصراً سهلاً لا يستحقه مطلقًا فى نقاشه مع ج. ب . بادجر Badger حول تلك النقطة. والغريب بحق فى تلك الأيام، أن أحداً لم يبذل أى جهد من أجل الحصول على أدلة مستقلة على ذلك الذى حدث لبالجريف، ومن ذلك على سبيل المثال، الفترة فيما بين مغادرة الجزيرة العربية وعودته إلى دمشق. لقد فات أوان جمع مثل هذه الأدلة، اللهم إلا إذا تمكنا من ذلك عن طريق أرشيف الكلية اليسوعية فى سوريا، ولكن نشر بحثى هو وملاحظات السيد هوجارث فى مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، استطاعا أن يستنتجا دلائل وأدلة على الحقيقة التى مفادها، أنه بغض النظر عن كل ذلك، فإن الضابط البريطانى[٧٣] الذى خدم فى مسقط فى سبعينيات القرن الماضى وقدم خدمة عظيمة لجغرافية الجزيرة العربية، لم يكن أقل منى تشككًا فيما يتعلق بزيارة بالجريف إلى عمان.

وأنا اقدم هنا ذلك الدليل، من خلال ما قاله السير هاجارد Haggard، فى الاجتماع الذى عقدته الجمعية الملكية الجغرافية بمناسبة المناقشة التى أعقبت قراءة بحثى الثانى عن الجزيرة العربية أمام الجمعية[٧٤]. قال السير وليام هاجارد: "من سوء الطالع، أنى لم أتمكن من حضور المحاضرة الأخيرة التى ألقاها السيد فيلبى، ولكنى قرأت تلك المحاضرة باهتمام كبير، ووجدت فيها بعض الملاحظات عن احتمالية عدم توخى بالجريف الدقة فيما كتبه. ومن الأهمية بمكان تسوية ذلك الأمر، والبت فيه بشكل أو بآخر، ولعل هذه الكلمات القليلة التى أقولها هنا تكون مجرد البداية فى اتجاه تلك التسوية. فقد شاء لى القدر أن ألتقى بالجريف مرات عدة. فقد التقيته بصحبه والدى عندما كان بالجريف أبًا يسوعيًا فى دير على نهر الراين، كما أذكر أننى عندما كنت صبيًا، كنت أرى أن حديثه بصفته أبًا يسوعيًا كان حديثًا خفيفًا، فى جمعية كنت أظن دومًا أنها مكونة من عدد من الشخصيات الجادة والرزينة. وتحتم علىَّ فيما بعد أن أعيد النظر من جديد فى الفكرة التى سبق أن كونتها عنه نظرًا لاحتمالية صدقها وصحتها إلى حد بعيد. لقد سافرت إلى منطقة الخليج الفارسى منذ حوالى أربعين عامًا، بعد

أن قرأت كتاب بالجريف عن الجزيرة العربية (ذلك الكتاب، الذى قال لى ولوالدى عنه إنه كان يكتبه فى الدير بعد أن التقيناه بعد عودته من الجزيرة العربية)، سواء أكان بوحى من شخصه أم بوحى من أى شىء أخر لا تسعفنى به الذاكرة، ولكنى تخيلت وأنا أقرأ الكتاب، بعض الشكوك حول دقة ما يقوله بالجريف. وعلى أى حال، فعندما وجدت نفسى فى مسقط وأنا فى طريقى إلى بلاد فارس قادماً من بومباى، ووجدتنى أمضى اليوم مع الرائد مايلز Miles، الذى رقى فيما بعد إلى رتبة العقيد، ذلك القنصل العام والمقيم صاحب الشهرة الذائعة والذى يحظى باحترام كبير، وجدتنى أسأل ذلك الرجل إن كان يعرف شيئًا عن بالجريف. وردَّ علىَّ الرجل قائلاً: "ياه! أعرفة طبعًا، أنا أعرفه حق المعرفة". ورددت عليه قائلاً: "إذن، حدثنى عن دقة ما أورده فى كتابه". ورد علىَّ الرائد مايلز قائلاً: "حسن، أنا لا أستطيع التحدث عن بقية الجزيرة العربية، وبخاصة تلك الأجزاء التى لم أزرها، وبالتالى ليس لى رأى فى تلك الأماكن، ولكنى أستطيع أن أقول رأيى، وأكثر من رأيى فيما يتعلق بما قاله بالجريف عن المنطقة التى أعمل فيها" (تلك كانت منطقة أو مملكة مسقط) "ليس فيما قاله بالجريف عن عمان أى شىء من الصدق. لقد تجولت فى تلك المنطقة بكاملها. وبالجريف يتكلم عن بيارات نخيل لا وجود لها، وعن مدن وعن قرى هى من وحى خياله تمامًا". وأنهى العقيد مايلز حديثه قائلاً: "هو يتحدث عن طريق فوق تلك الصخرة". (راح مايلز يشير إلى ذلك الجرف الهائل الذى يشرف على ميناء مسقط). هذا هو كل ما يمكن لى أن أقوله. إنها كلها أدلة تقولات وشائعات، ولكن كل من يعرفون العقيد مايلز يعلم جيداً أن أحداً لا يشك فى مصداقيته، وأن ما قاله يمكن أخذه على أنه دليل قوى على عدم دقة الرواية التى أوردها بالجريف عن الجزيرة العربية، وأن مصداقية تلك الرواية كانت مثار شك كبير منذ أن سمعت عن تلك الرواية ومنذ أن قرأتها أيضاً".

الهوامش

(١) السورة رقم ٤٦ من القرآن عنوانها الأحقاف Al Ahqaf، نظرًا لورود منطقة فيها تحمل ذلك الاسم، مملكة عاد فى جنوب غربى الجزيرة العربية، بعد أن دمرها الله بسبب خطاياها، وبعد أن أنذرهم نبى الله هود. يفسر سال Sale (صفحه ٤٠٦، الملاحظة y) ذلك الاسم على النحو التالى "الأحقاف جمع حقف ومعناه الرمال الموجودة على نحو معقوف أو ملتو؛ ومن هنا أصبحت اسمًا تقطعه من الأرض فى مقاطعة حضرموت، التى عاش فيها قوم عاد Adites.

(٢) من المحتمل ألا يكون كثيرًا من الروابى والسلاسل الجبلية السوداء فى تلك المنطقة هى و بعض مناطق الجنوب من البازلت وإنما من الحجر الرملى الأسود؛ والمؤسف أن العينات التى جمعتها لتقديمها للخبراء لم تصل من الجزيرة العربية إلا منذ وقت قريب جدًا، لأنى كنت قد تركتها مع بقيه عفشى الأمر الذى أدى إلى بقائها بدون فحص إلى الآن.

(٣) انظر وصف السيدة بل Bell للصفا Safa الموجود فى شرق جبل الدروز فى كتابها المعنون: الصحراء والبذار ص ١١٥ وما بعدها.

(٤) انظر سى. إم. دى . صحراء الجزيرة العربية ، المجلد الثانى ص ٥٤٢ .

(٥) انظر المجلد الأول ص ١٦٥ و ١٦٩ .

(٦) انظر كتاب جى . إل . بى . "الصحراء والبذر" ، ص ٤٦ و ٤٧ . وقعت تلك الأحداث فى شتاء عام ١٩٠٦ - ١٩٠٧ .

(٧) المشعاب: العصا التى تستخدم فى قيادة الجمل.

(٨) أم السواجى بمعنى القناة الرئيسية.

(٩) انظر ص ٧٦ وما بعدها.

(١٠) لهذا المثل رواية أخرى تقول: "اليمن مهد العرب والعراق لحد العرب".

(١١) انظر القرآن، السورة رقم ٧ (الأعراف).

(١٢) طائر فى حجم العصفور، لا أستطيع الحديث عنه ولا عن نوعيته.

(١٣) ارتفاع السور الواحد حوالى أربعين قدمًا.

(١٤) انظر صفحة ١٧٥ وما بعدها.

(١٥) أسماء المنخفضات الأخرى هى : نقعة الشجيرة Niq'at Al Shujaira، ومصرحة Musarha، ونقيعة العبيد Nuqai'at Al 'Abid، وأبو طلحة، ثم أم سمرة.

(١٦) يقال لها أم جدار Jadar

(١٧) دى. جى. هوجارث ص ٣٠٧ .

(١٨) دى. جى هوجارث ص ٣٠٧ .

(١٩) السيد جى. منجافين Mungavin، الذى كان ممثلاً (منتوبًا) سياسيًا فى البحرين فى ذلك الوقت.

(٢٠) دى. جى. هوجارث. ص ٢٣٦ .

(٢١) وليام جليفورد بالجريف ، المجلد الثانى ص ٧٩ – ٨٢ .

(٢٢) عام ١٨٦٢ .

(٢٣) هذا الاسم معناه "البداعة" أو "الهرطقة" أو "الكفر".

(٢٤) فى اتجاه الشمال، نظرًا لأن بالجريف (انظر المجلد الأول ص ١٢٥) يقول: "وادى حنيفة نفسه لا يتعدى منفوحة فى اتجاه الشرق".

(٢٥) نقشها جى. سوليزر، فى برلين، وطبعها إف. بارث Barth فى عام ١٨٦٥ .

(٢٦) يتعين علىَّ أن أورد فى مواجهة ذلك التقدير العبارة التى أوردها بالجريف وهو يصف تقدمه من حائل إلى بريدة (انظر المجلد الأول، ص ٢٣٥): "كنا نقطع كل يوم حوالى أربع عشرة ساعة من المسير، بمعدل حوالى خمسة أميال فى الساعة الواحدة، أو أكثر من ذلك قليلاً – هذا هو المعدل المعتاد لإبل الركوب" – هذا بصحبة جماعة من سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين شخصًا، من بينهم التجار، والنساء، والأطفال، ويصحبتهم بعض الدواب التى تحمل الأمتعة والمؤن. وقد استغرقت الرحلة من حائل إلى بريدة تسعة أيام . وهذه المسافة إذا ما حسبت على أساس مسير ثمانية أيام فقط، بمعدل عشر ساعات يوميا، بمعدل خمسة أميال للساعة الواحدة، نجد أنها تصل إلى حوالى ٤٠٠ ميل. وهذه المسافة إذا ما حسبناها بمعدل عشرين ميلاً فى اليوم الواحد، نجد أنها تقدر بما يتراوح بين ١٦٠ ميلاً و ١٨٠ ميلاً ، والمسافة الفعلية فى خط مستقيم تقدر بحوالى ١٥٠ميلاً.

(٢٧) كان الوقت فى ذلك الحين يصادف أوائل شهر نوفمبر، ونحن نعرف أن الجماعة نالت قسطًا من الراحة فى فترة الظهيرة وفى أثناء الليل، ناهيك عن الوقفات القصيرة لتناول الفطور. ومن ثم فإن مسير ثمانى ساعات فى اليوم يبدو تجاوزًا مقبولاً فى غياب أى مؤشر من مؤشرات معدل السرعة.

(٢٨) نشرت فى عام ١٨٥٢ الميلادى.

(٢٩) أبكر الساعات التى يمكن أن يكون بالجريف بدأ مسيره عندها لا تتعدى الساعة الواحدة مساءً، التى تقدر المسافة فيما بينها وبين منتصف ليل يوم السبت، بحوالى خمس وثلاثين ساعة ، ولكنها ساعات ركوب سريع ومتواصل.

(٣٠) التقرير الرسمى الذى سبق أن أشرت إليه.

(٣١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، مارس ١٩٢٠ ص ١٧٦ .

(٣٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، مارس ١٩٢٠ ص ١٨٨ .

(٣٣) تقدر تلك المسافة بحوالى ٥٠٠ ميل تقريبًا فى الرحلة الواحدة.

(٣٤) باستثناء مسأله الاتجاه، تقع الخرفة جنوب الرياض، وليس فى جنوب غرب الرياض كما وردعلى الخريطة.

(٣٥) وذلك عندما يكون بصحبة الراكب بعض الأمتعة الخفيفة، وأواني المطبخ الخفيفة.

(٣٦) ومن رأى بالجريف أنه طالما عبر وادى حنيفة فليس من الضرورى معرفة ذلك الذى حدث لو أنه سلك طريقًا شرقى الطريق الذى سلكته أنا. ولو كان بالجريف قد سلك، من ناحية أخرى، طريقًا غربى الطريق الذى سلكته أنا، لوجد نفسه محصوراً وسط مضيق أو وادى المجمعة الكبير، وتعين عليه أن يدور حول ذلك الوادى إما عن طريق الحوطة أو عن طريق الحريق، وهو لم يفعل ذلك مطلقًا.

(٣٧) مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، مارس ١٩٢٠، ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣٨) تحديد أماكن الأسماء فى خريطة ريتر كان عملية تقليدية بطبيعة الحال، إذ جرى استقاء أسماء القرى وأماكن الوقفات من مصادر فرعية وليست أساسية.

(٣٩) هذه المرحلة هى والمراحل المتبقية الأخرى على الطريق محل البحث، جرى تحديدها بطريقة تقليدية، يضاف إلى ذلك أن غالبية الأسماء يستحيل التعرف عليها أو تحديدها.

(٤٠) وليام جليفورد بالجريف، المجلد الأول، ص ٢٠١ .

(٤١) دى. جى. هوجارث، ص ٢٤٩ .

(٤٢) دى . جى . هوجارث ، ص ٢٥٥ .

(٤٣) انظر وليم جليفورد بالجريف المجلد الأول ص ٢٦٥: حيث يقول عن مسأله التنكر: "استطاع مسيحى وانجليزى أن يعبرا الجزيرة العربية بل وحتى نجد دون أن يضطرا إلى الحلول الوسط فيما يتعلق بدينهما وشرفهما." وفى المجلد الأول ص ٢٦٦ يقول بالجريف: "الخطة المبينة، هى الخطة نفسها التى سرنا عليها، ومن المؤكد أنها كانت أفضل الخطط". وفى المجلد الأول ص ٢٦٧ يقول: "مرة واحدة فقط، هى التى تعرض فيها لقبنا المسيحى للاتهام وعُدَّ مصدراً من مصادر الخطر ". وانظر أيضًا المجلد الثانى ص ١١٩ حيث يقول بالجريف: عبد الله: "أنتما جاسوسان ... كما لو كنا غير معروفين ... بأننا طبيبان هادئان".

(٤٤) سى. أم. دوتى. المجلد الأول ص ٥٨٩ و ٤٠٦ .

(٤٥) انظر وليم جليفورد بالجريف، المجلد الأول، ص ١٥٢ .

(٤٦) دى. جى. هوجارث ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٤٧) وليم جليفورد بالجريف، المجلد ١ ص ٢٣٨ .

(٤٨) وليم جليفورد بالجريف، المجلد ١، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥٠ .

(٤٩) أنا لم أر تلك الواحة على الإطلاق.

(٥٠) لاحظت اعتباراً من ذلك الوقت أن هوبر Huber، ذلك المستكشف صاحب المقدرة غير العادية، فضلاً عن اعتباره واحداً من أحرص المراقبين، كان قد زار تلك الواحة وفشل فى ملاحظة تلك الظاهرة العجيبة التى أشير إليها هنا. وصمت هوبر لا يعنى، فى رأيى، عدم وجود تلك الظاهرة.

(٥١) لابد من أن يكون بالجريف قد تعرف فى أثناء وجوده فى دمشق، على عدد كبير من مواطنى بريدة وعنيزة.

(٥٢) وليم جليفورد، المجلد الأول، ص ٣١٤ .

(٥٣) وليم جليفورد، المجلد الأول، ص ٣٢٤ .

(٥٤) من المهم هنا أن نلاحظ أن بالجريف يتكلم عن وادى حنيفة على اعتبار أنه يمتد أو ينساب من الجنوب إلى الشمال، فى حين إن اتجاه ذلك الوادى هو العكس من ذلك تمامًا ، وهذا خطأ كبير يقع فيه شاهد العيان، وفيما يتعلق بالوادى الذى يقع بين العيينة والرياض.

(٥٥) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الأول، ص ٣٣٧ .

(٥٦) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الأول، ص ٣٣٩ .

(٥٧) مجلة فتح الله الصعير.

(٥٨) من ذلك على سبيل المثال، أن بالجريف في صفحة ٢٤ من المجلد الثاني يقول: "الخلاعة على اختلاف أنواعها، وبالقدر الذي تعاف اللغة تسميته، أكثر تفشيًا وشيوعًا هنا عن دمشق وعن صيدا Seyda، كما أن الحشمة النسبية في معظم البلاد العربية الأخرى هي التي تبرز كآبة الرياض بشكل قوي وواضح". هذه العبارة قذف علني وتشهير، ومن يقرأون بيرتون Burton قد يقبلون عبارتي التي مفادها أن اللواط، والزنا، وغشيان المحارم، كلها أمور غير معروفة في وسط الجزيرة العربية. وقد بلغني في بعض الأحيان أن البدو، والبدو فقط - وهذا أمر نادر - يمارسون الرذيلة غير الطبيعية مع الحيوانات والنباتات.

(٥٩) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الثاني، ص ١٣٠، ١٣١ .

(٦٠) شهد كل من دوتي وبلنت بتلك الحقيقة.

(٦١) وليم جليفورد بالجريف ص ٢٣٥ وما بعدها.

(٦٢) النقيب ج. فورستر سادلير، الذي عبر الجزيرة العربية في عام ١٨١٨ الميلادي.

(٦٣) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الثاني، ص١٤١ .

(٦٤) الصورة المقابلة لصفحة ٢٢ من المجلد الأول، التقطت من زاوية ١٠ْ جنوب غربي ، ومنارة (مئذنة) مسجد إبراهيم باشا في الكوت (القلعة) التي تشغل - بناء على هذه المعطيات - الجزء الغربي من المدينة في اتجاه الشمال.

(٦٥) انظر المجلد الأول، ص ٧٠ .

(٦٦) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الثاني، ص ١٣٧ .

(٦٧) وليم جليفورد بالجريف، ص ١٥٣ وما بعدها .

(٦٨) الهند على سبيل المثال.

(٦٩) يعدنا بالجريف في هذا الصدد بقائمة مفصلة عن تلك الأشجار في فصل لاحق، ويورده في وصفه لساحل باطنة (المجلد الثاني ص ٣٢٧). وتشتمل تلك القائمة على أشجار المانجو، وأشجار جوز الهند، ونخيل الزينة، Jack - Fruit، Jamblu، والبن، واليام (البطاطا الصينية)، والمكسرات، والتفاح ، إلخ، غير أنه لم يحدد لنا نوعية الشجرة التي عثر عليها من بين هذه الأشجار، في منطقة الأحساء؛ إذ من المعروف أن أيًا من تلك الأشجار لا توجد في الأحساء.

(٧٠) وليم جليوفرد بالجريف، المجلد الاول ص٣١٥، ٤٦١ .

(٧١) وليم جليفورد بالجريف، المجلد الثاني، ص ١٥٠ .

(٧٢) د. جي. هوجارث ص ٣٠٦ .

(٧٣) المرحوم العقيد س. ب. مايلز.

(٧٤) ٣ مايو ١٩٢٠ . انظر مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، ديسمبر ١٩٢٠، ص ٤٦٦ .

الفصل العاشر

وادى الدواسر

١- عتبة الوادى

كنا قد بدأنا نقترب بسرعة من الهدف المحدد لنا ، ألا وهو وادى الدواسر الغامض العظيم ، الذى لم تره عينا أى رجل أبيض ، ولكن سطح الأرض لم يكن عليه من حولنا أى شىء يوحى - من تلك المسافة البعيدة - بوجود منخفض أو وادٍ أو حتى صفة من الصفات التى تميز الوادى أو المنخفض ، حتى يمكن أن تقارنها - مثلما أكد رفاقى - بمنخفض الباطن Batin فى الشمال . كان الخطان المتوازيان لشعبى البيَّاض والطُّوَيِّق ، على جانبى وادى الغدير Ghudiyir ، الذى خيمنا فيه فى تلك الليلة ، كانا يمتدان فى اتجاه الجنوب على مرمى البصر ، مثلما كان حالهما على امتداد ٢٥٠ ميلاً منذ أن وصلنا إلى منطقة الخرج ، وكان التغيير الذى طرأ على المنظر هنا يتمثل فى الوعورة الواضحة التى بدأت تعتور سطح هضبة الطويق الناعم ، ذلك السطح الذى بدأ يتحلل إلى عدد من السلاسل الجبلية المتوازية التى تجرى الغدران المائية فيما بينها وهى تحمل مياه صرف تلك المنطقة إلى الجنوب ، وهذا هو غدير مرًّان Marran عن يميننا خلف سلسلة أم جدار الجبلية ، وذاك شعب حمام Hamam من خلف شعب مران، ومن خلف شعب حمام يوجد شعب المراغة Maragha الذى يعد توسعة مباشرة للوادى .

وعلى بعد ثلاثة أميال أمامنا تقع مستوطنة (قرية) حمام Hamam الصغيرة ، التى توقفنا فيها برهة كى نسقى إبلنا فى صباح اليوم التالى ، والتى أضيفت لأغراض إدارية إلى منطقة وادى الدواسر ، والتى تعد موقعًا أماميًا منعزلاً . وهذه المستوطنة ،

كما يوحى اسمها ، تقع فى مجرى شعب حمام على بعد حوالى ميل واحد شرقى النقطة التى يتصل عندها شعب حمام مع شعب مرّان ، عند النقطة التى يغادر شعب مران عندها مرتفعات هضبة الطويق ، وتبعد حوالى ميلين فوق ملتقى شعب حمام مع شعب غدير ، وهذه هى النقطة التى تنساب عندها قناة تحمل اسم قناة حمام ، فى اتجاه الجنوب الشرقى خلال وعبر فجوة جانبية واسعة من شعب البيّاض يطلقون عليها اسم البازومين Bazumain . ومسألة تذكر أى شىء تعيش أكثر من تلك البقية الباقية المتحللة من تلك المستوطنة (القرية) ، التى شهدت أزمانًا حلوة ، تصبح مسألة صعبة للغاية . وهذه القرية لا تعدو أن تكون مجرد جرف مسنن يقع فى حوض مجرى مائى ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى خمسين قدمًا ، وتحيط بها من كل جانب بقايا قلعة مدمرة ومهجورة تعرف باسم الناخ Al Nakh، وتتحكم فى قصر العود Al'Aud، الذى يقيم فيه أمير المستوطنة (القرية) ، ويقع فى وسط المستوطنة . وبالقرب من القصر كانت هناك بيارة تحتوى على تسع نخلات وشجرتى إثل ، كما كانت تحيط بذلك القصر عدة أفدنة من الجُذَامة ، أو إن شئت فقل : أعواد القمح ، نظرًا لانتهاء عملية الحصاد . وكان طرف الهجرة hamlet الشرقى يتميز بقصر آخر يطلقون عليه اسم بلاد الشّنّا ملحق على رقعة من الأرض الزراعية التى كان الملمح الرئيسى المميز لها عبارة عن بيارة بها سبع نخلات . وفى ثلاثة مواقع أخرى كانت هناك بقايا بعض المنازل والأبيار[1]. وتلك حوالى سبع أبيار تستخدم لرى حوالى خمسين فدانًا من القمح ، أقيمت فوقها مستوطنة صغيرة، ربما لا يزيد عدد أفرادها على خمسين شخصًا ، من فخذ فرعى من قبيلة الرشيد من الوُديِّن ، يعيشون حياة شبه رعوية ، تحت رئاسة شخص يدعى عبد الرحمن ، هو أميرهم من أصل زنجى . كان ذلك الرجل السمج واحدًا من تلك الجماعة الصغيرة التى خرجت ، وقد فتحوا أفواههم دهشة عند قدومنا ، ولكن لم يدعنا لتناول القهوة ، وتعطلنا فى ذلك المكان فترة طويلة حتى نتمكن من سقى دوابنا . ومع ذلك ، ما إن استأنفنا مسيرنا – الذى لم يخل من تعليمات تامى Tami الجائع دومًا ، على بخل أولئك القرويين – حتى سارع الأمير فى عقبنا ماشيًا على قدميه قائلاً : إنه سوف يلتقى بنا على الطريق فى المكان الذى سنخيم فيه طلبًا لوقفة الظهيرة . والذى لا شك فيه أن ذلك الرجل عقد العزم على تناول الإفطار معنا وعلى حسابنا ، والحصول على

مكافأة نظير قيامه بذلك ، وجاء الرجل ولكن بدون جماعته . ومشينا فى طريقنا وذلك الرجل يسير بجانبنا خلال الحرارة المتزايدة ، ولحق بى ابن جلهم ليقول لى : "ألم يحن وقت توقفنا لتناول طعام الإفطار ؟" ورددت على ابن جلهم ، لعل الأمير يسمع ما أقوله : "لا ، ولكننا توقفنا برهة قصيرة فى حمام Hamam لتناول الإفطار ؛ إذن ، فليس هناك داع لتوقفنا مرة ثانية إلا بعد الظهر" ولكنى رحت أفتش ، بعد برهة قصيرة ، عن الأمير بيننا فلم أجده بين أفراد الجماعة ، وهنا توقفنا لتناول طعام الإفطار بدونه .

وخلف قناة الحمام بدأنا نسير بمحاذاة جانب هضبة الطويق ، التى كانت سلسلة جبالها الخارجية على شكل رف ينحدر إلى الأسفل انحدارًا واضحًا نحو قاع الوادى على الجانب الأيسر ، وعند نقطة من النقاط أرونى بداية طريق مباشر يمر عبر المرتفعات متجهًا إلى السُّلَيِّل ، وهو طريق أكثر وعورة ، ولكنه مفضل على الطريق المنخفض لبعده عن العصابات وسلامته من أذاها . وكنا قد سرنا فى الطريق المنخفض عندما كنا عند حافة الوادى ، والذى كانت قنوات الصرف القادمة من الطويق تتقاطع معه على بعد مسافات متساوية ، وفى أحد المنخفضات الرملية الذى كانت تغطيه الأدغال توقفنا لتناول وجبة الظهيرة وقيلولة وسط النهار . وهذه الرقعة كلها تصرف مياهها نحو الخارج فى اتجاه شعب حمام ، الذى كان مصبه ، الذى يمر عبر فجوة البازومين Bazumain ، يقع مقابلاً للمكان الذى كنا نخيم فيه . ولكن على بعد مسافة قصيرة مررنا بارتفاع قليل كان بمثابة الخط الفاصل بين مصرف الحمام والمصرف الذى يتجه جنوبيًا إلى حوض تكثر فيه الأدغال يسمونه حوض المحتفر Al Mahtifar، الذى بدأنا نراه عن بعد فى الزاوية المحصورة بين طرف صخور البياض وتقاطع سلسلة من الجبال يطلقون عليها اسم النعجانية Naájaniyya، التى يبدو أنها تسد الوادى من الناحية الجنوبية ، وتتقاطع معها على مسافات متساوية مساحات من الرمل المنجرف المكوم على جانبها .

وعقب استئناف مسيرنا ، وقبل أن نصل إلى رجم المنسفة Rijm Mansifa بوقت قصير ، ذلك الرجم الذى أقيم فوق حافة بارزة من الطويق ليحدد نقطة منتصف الطريق بين الحمام والسليل ، مررنا بمنخفض عامر بالأدغال ، أعاد اسمه حجلة المرة Hajlat Al Murra، إلى أذهاننا ذكرى حادثة من أحداث ذلك الصراع الذى دام وقتًا طويلاً بين

قبيلتى المرة والدواسر ، والذى سبق أن أشرت إليه فى ثنايا هذا الكتاب . فقد قامت إحدى جماعات الغزو من قبيلة المرة، التى كانت هى المعتدية دومًا فى ذلك الصراع ، باللجوء إلى تلك البقعة بعد محاولاتها الفاشلة فى الاستيلاء على حمام ، وكادت تموت عطشًا ، والسبب فى ذلك أن المساقى كلها كانت فى أيدى العدو (الدواسر) ، إلا أن زخة من زخات المطر المفاجئ أسفرت عن امتلاء المنخفض بالماء الذى لم يرو ظمأهم فحسب ، وإنما مكّنهم من مواصلة حملتهم طوال فترة تشبثهم بذلك الموقع . وهناك رواية أخرى لتلك القصة مفادها أن آل مرة هم السكان الأصليون لهذه البلاد ، وتعزو المعجزة التى حدثت هنا إلى الزمن ، بعد أن طردهم الغزاة الدواسر ، وراحوا يهيمون فى الصحراء وهم يعانون من العطش وقلة الماء .

كانت المنطقة المجاورة للحمام إلى وقت قريب – رمضان من عام ١٩١٦ الميلادى – مسرحًا لمواجهة كبيرة بين مفرزة من قوات ابن سعود وعصابة من العجمان 'Ajman، الذين قاموا قبل ذلك بوقت قصير بقيادة رئيسهم فهد الضامر al Damir بسلب ونهب إحدى القوافل القادمة من السليل والمتجهة صوب الشمال . كان كل من إبراهيم ورشيد اللذين كانا ضمن المفرزة التى كانت مكونة من ٢٠٠ حصان و ٤٠٠ جمل وتحت قيادة ابن عم ابن سعود ، عبد العزيز بن مُسَاعد ، قد اشتركا فى تلك المعركة مرة ثانية، ذكرا لذلك الجمهور المنشد ، بمواقع القوات المعارضة ، ورويا لذلك الجمهور كيف استطاع فرسان أهل الدار الإطاحة باللصوص وقطاع الطرق . وفى تلك المرة كانا قد وصلا السليل ، ولكنهما لم يصلا إلى أبعد من ذلك فى الوادى .

وزاد عدد أفراد جماعتنا فردًا واحدًا فى أثناء النهار عندما انضم إلينا شخص لطيف للغاية ، يدعى حسن من قبيلة عارقة 'Arqa، الذى التقيناه بصورة عارضة فى قرية الحمام أو فى المنطقة المجاورة لها ، وتطوع لمرافقتنا مرشدًا أو رفيقًا . ولما كان حسن من رحالة الصحراء الجنوبية العظام ويعرف نجران وماجاورها حق المعرفة ، فقد أثبت أنه كان إضافة جيدة إلى جماعتنا ، التى فعل الكثير من أجل بث الحيوية فيها بمزاحه البدوى الأنيس ، والحكايات التى كان يرويها عن تجاربه ، وصوته المقبول ، وسلوكه الذى يتعارض تعارضًا غريبًا مع بنيته المتينة، ومحياه الجامد، الذى ظهرت عليه علامات خبرة خمسين عامًا أمضاها ذلك الرجل فى مقاتلة غرائب وشواذ الحياة

الصحراوية . وروى لنا جسن حكاية وأخبار ذلك العراك الذى دار مؤخراً فى الصحراء فى جنوبى الوادى ، والذى أطبقت فيه عصابة تضم اثنى عشر رجلاً من اتحاد الجانب القبلى فى نجران ، على أربعة رجال ، يقال إنهم كانوا من القحطان ، استطاعوا تخليص أنفسهم من ذلك الموقف الصعب دون أن يصاب أى واحد منهم اللهم إلا باستثناء بعض الإصابات الطفيفة الناتجة عن طلقات البنادق . ومن بين الأشياء الأخرى التى كان حسن يتفاخر بها معرفته الفريدة بلحم الإبل ، التى ميز من بينها أربع سلالات بارزة : الإبل العمانية Umaniyya' فى الرمال الجنوبية على حدود عمان ، وهى إبل رشيقة البنية ، عالية السرعة ، وهى شهباء داكنة اللون . والإبل الحرة Hurr شعثاء الشعر فى شمالى الجزيرة العربية ، والتى يربيها العنوز وعرب الحويطات فى مناخهم المعتدل . وإبل بيشة ونجرات العرقية Arqiyya' التى تميل إلى البياض ، والتى لا تقوى على تحمل البرد، ويندر وجودها فى المناطق المرتفعة . وأخيراً هناك الإبل الدراعية Dara'iyya التى توجد فى الجنوب فى اتجاه حضرموت ، ويميل لون تلك الإبل إلى الاصفرار أو اللون البنى الفاتح . وقد سميت تلك الإبل بذلك الاسم الذى أخذ اسم قرية اليمان yaman التى جاء منها أسلاف ابن سعود ، ومن اسم عاصمتهم القديمة فى وادى حنيفة . واعترف حسن أن تلك الإبل تقوم ، فيما وراء مناطق منشئها ، بعمليات تهجين مع بعضها ومع السلالات الأقل منها . والعربى الذى يبلغ من الحظ مبلغًا يسمح له بامتلاك ناقة ، أو أنثى الجمل ، صالحة للتكاثر ، يرغب فى الحصول على قعود (جمل صغير) له مزايا خاصة ، يسمح بتلقيح ناقته من أى ذكر أصيل يصادفه ، شأنه شأن صاحب الفرس متدنية السلالة، يسمح بتلقيحها من حصان أصيل . كما أكد حسن أيضًا أن السلالة النقية الخالصة لأى نوع من الأنواع الأربعة ، سالفة الذكر ، يسهل التعرف عليها تماماً .

وبعد أن ضيعنا كثيراً من الوقت فى أثناء النهار ونحن نسقى إبلنا فى قرية الحمام ، وبعد أن تسكعنا ما يقرب من خمس ساعات فى المخيم الذى أقمناه عند الظهيرة ، اكتشفنا أننا كنا لا نزال بعيدين عن محطة الوصول ، وهنا ذكرتنا أشعة الشمس المائلة محذرة إيانا ، أن الظلام قد يطبق علينا قبل أن نتمكن من الوصول إلى المحطة المقصودة . وهنا قررنا تمضية الليل فى أول مكان مناسب ، يمكن أن نصل منه إلى

السليل ، فى الصباح بعد فترة زمنية قصيرة ، وبناء على ذلك انتحينا جانبًا إلى فرع من أفرع شعب يقال له : أم الكداد Umm al Kidad ، ونصبنا خيامنا وسط مجموعة من الروابى المنخفضة التى هى من حوافى مرتفعات الطويق . وهنا صعدت فوق واحدة من تلك الروابى كى ألقى نظرة على أرض الميعاد ، ولكننى لم أر شيئًا سوى أراضى البياض Biyadh الجرداء على جانب من الجانبين ، وأراضى الطويق ونجران على الجانب الآخر ، مع وجود فجوة أو منخفض بين أراضى الطويق وأراضى نجران ، وأننا سوف يتعين علينا عبور تلك الفجوة فى اليوم التالى ، فى الوادى نفسه .

وبعد أن قطعنا مسيرة قصيرة تقدر بحوالى ستة أميال أو سبعة ، مشيناها خلال البلاد التى سبق أن وصفناها وصفًا كافيًا، وصلنا فى صبيحة اليوم التالى إلى منحدر بين الطرف الجنوبى لسلسلة جبال الطويق وسلسلة جبال النعجانية Na'janiyya المتداخلة . ومشينا فى المنحدر الذى بدأ يضيق إلى أن وصلنا إلى سرج منخفض يصل السلسلتين ببعضهما ويمثل الفاصل بين الشعدية Sha'diyya، الذى يصرِّف مياهه ناحية الشرق فى حوض المحتفر Mahtifar، وشعب سلم Salam الذى يصرف ماءه فى الاتجاه العكسى فى اتجاه قناة الوادى . كان الوادى أمامنا، ولكن المنظر كان محجوبًا عنا بواسطة بروز حاجز النعجانية Na'janiyya المنخفض،الذى أوصلنا الطريق الموجود على جانبه إلى قمة ذلك الحاجز ، التى تعد قمة مطامحى . وهنا رأيت أمامى وادى الدواسر غير مكشوف لى ، ثم نظرت إلى الأسفل ، إلى بيارات نخيل السليل الأخضر إلى جانب ذلك الوادى .

٢- السُّلَيِّل

لم يكن فى المنظر الذى أمامنا أى شيء جميل أو ملفت للنظر، ومع ذلك فإن الوصول إلى واحة كبيرة ، بعد مسير طويل فى الصحراء ، يصبح منظرًا بهيجًا يسر الخاطر . ولما كان الوقت ملكنا ، فقد رحنا نتسكع برهة من الزمن فى نقطة اخترناها على ربوة عالية من سلسلة جبال النعجانية ، كى نستوعب تفاصيل سطح الأرض، التى كانت تهمنى أنا على وجه الخصوص،باعتبارها اكتشافًا جغرافيًا، يشكل مرحلة بارزة

فى تاريخ اختراق الجزيرة العربية . ومنطقة السُلَيِّل كانت معروفة اسمًا فقط للمهتمين بجغرافية جزيرة العرب ، وبخاصة أولئك الذين نشرت مؤخرًا استنتاجاتهم الحذرة على شكل مختصرات فى إحدى المطبوعات الرسمية فى حدود المصطلحات التالية : "تقع هذه المنطقة جنوب شرق وادى الدواسر ، وهى جزء من منخفض المقرن Maqran، غير المأهول بالسكان ، ولكنه يعد من الأماكن المنتجة . وفى جنوب تلك المنطقة وإلى الخلف من سلسلة من المرتفعات توجد الصحراء الكبرى . وهذه المنطقة عبارة عن تلال فى بعض أجزائها وتصرف ماءها فى اتجاه الجنوب الشرقى ، ولكن باستثناء الحقيقة التى مفادها أن تلك المنطقة تعد من المناطق الرملية ، وأنها تحتوى على ما يقرب من عشر قرى ، كلها من القرى الفقيرة والبدائية ، فإن أحدًا لا يعرف أى شىء آخر عن تلك المنطقة . وينظر البعض إلى منطقة السليل باعتبارها منطقة فرعية من مناطق وادى الدواسر".

والمعلم الرئيسى الذى يميز سطح الأرض فى منطقة السليل ، هو قرية السليل نفسها ، ذلك الشريط شديد الاخضرار الذى يمتد مسافة ميلين فى اتجاه الجنوب الغربى من المكان الذى نحن فيه ، على شكل حوض رملى كبير مكون من ملتقى الوديان فى قلب مرتفعات الطويق . ومن بين تلك الوديان وادى الدواسر نفسه الذى يشق حاجز هضبة الطويق إلى قسمين أحدهما من الغرب إلى الشرق ، والثانى هو شعب المجمع Majma'، الذى تشق دلتاه الواسعة التى ترتكز على الوادى ، طريقها فى اتجاه الشمال لتصل إلى قمة ذلك الشعب عند الطرف الجنوبى لغدير المراغة Maragha الذى تحيط به سلسلة الجبال ، ويعد شعب المجمع امتدادًا له . وعلى بعد حوالى اثنى عشر ميلاً تقريبًا يوجد امتدادان أرضيان وعران هما:امتداد خشم سواد Khasm Suwad وامتداد خشم العَمُر al 'Amur ، ينظران متجهمان إلى بعضهما البعض عبر الفجوة التى يصل اتساعها إلى حوالى ميل فى الجرف الغربى من الطويق ، الذى يشق الوادى من خلاله طريقه عبر الحاجز . ومن الضفة اليمنى لقناة شعب المجمعة تنحدر الكتلة الجنوبية من هضبة الطويق نحو الخلف انحدارًا هينًا إلى أن تصل إلى قمة المرتفعات ، التى تنحدر من الغرب إلى الشرق . فى حين أن القسم الشمالى ، المقسوم إلى سلسلتين جبليتين غير متناسقتين ، هو الذى يكون الضلعين الآخرين من الحوض مثلث الشكل ، ويحيط

بالدلتا من ناحية خشم سواد ، الذى يلامس عنده الطرف الغربى من خط القاعدة ، إلى أن يصل إلى سلسلة جبال النعجانية Na'janiyya، التى تشغل موقعًا مماثلاً من طرفه الشرقى .

مستوطنة (قرية) السُّليل تضم أربع هجر معقولة الحجم ، والعديد من مجموعات الأكواخ عديمة القيمة وبعض القصور المتفرقة التى تنتشر على أو حول الحدود الخارجية لحزام النخيل الذى يقع على الضفة الشمالية لمجرى سيل المجمع الرملى الواسع فيما بين النقطتين اللتين ينساب عندهما فرعا شعب فى ذلك الحزام . ومتوسط عرض ذلك الحزام لا يزيد على ربع ميل تقريبًا ، ولا يزيد طوله العكسى على ميل واحد تقريبًا . وعند الطرف الشمالى الغربى لذلك الحزام تقع هجرة الفراعة Fara'a، التى يطلق الناس عليها اسم الضُّوَيَّان Dhuwaiyan تمشيًا مع الاتجاه الشائع لتسمية الهجرة باسم القسم الأكبر من سكانها ؛ ويصل عدد سكان هجرة الضُّوَيَّان إلى حوالى ٣٠٠ نسمة . وعند الطرف الآخر لذلك الحزام ، وعلى جانبى كلأَبة من الكلاَّبات البارزة فى سلسلة جبال النعجانية Na'janiyya، توجد قريتا صبحة أو آل محمد Al Muhammad ودهلة Dahla أو الحنيش Al Hanish، التى تقع فى صدع من صدوع السلسلة الجبلية ، وفيها كتلة كثيفة من النخيل على حافتها الخارجية . وهاتان القريتان ، تتنافسان منذ قديم الأزل على السيطرة على الواحة والهيمنة عليها ، ويفصل بين هاتين القريتين حافة صخرية بارزة شاهدت فوق قمتها بعض المتاريس الحجرية التى أقامها أناس فى أزمان خالية لمواصلة صراع لم ينته بأى حال من الأحوال ، ويصل عدد سكان كل من هاتين القريتين إلى حوالى ٥٠٠ نسمة فى كل منهما . والهجرة الرابعة ، التى يقال لها : مقابل Muqabil أو إن شئت فقل آل سويلم Al Suwailim، والتى يقدر عدد سكانها بحوالى ٣٠٠ نسمة ، تقع فى منتصف الطريق بين طرفى الواحة من الناحية الشرقية .
أما جماعات الأقليات التى من قبيل قصر الخُلَيِّف Khulaiyif ، ونخل عنقة Nakhl 'Anqa ، والشرق Sharq وما إلى ذلك من الجماعات الأخرى ، والتى لا يزيد إجمالى عدد سكانها عن ٤٠٠ نسمة ، فهى مجرد أفرع وملحقات للقرى (المستوطنات) الأكبر وليست وحدات قائمة بذاتها . ويبدو أن إجمالى سكان الواحة يقدر بحوالى ٢٠٠٠ نسمة ، بعضهم من الزنوج الأحرار ، ويرفل قسم كبير منهم فى النعمة بسبب السفر للعمل فى

مناطق صيد اللؤلؤ ، ولكن ذلك القسم من السكان لا يدخل ضمنه العنصر المترحل[٢] الذى ربما يزيد عدد أفراده على ذلك العدد ، والذى يعتمد أفراده على الواحة ويعودون إليها بين الحين والآخر لاستلام نصيبهم من الإنتاج . وسكان الواحة ، بكل أقسامهم ، ينتمون إلى جماعة الوُديِّن فى وادى الدواسر ، التى حصلت على تلك المنطقة عن طريق الغزو الذى قام به أبناء عمومتهم من الحسان Hasan هم وأسلافهم فى الماضى البعيد ، هذا على الرغم من أن الموروث المحلى لا يحدد متى وكيف أصبح الحسان al Hasan سادة على تلك الرقعة من الأرض ، كما أنه لا يحدد أيضًا من ذا الذى كان فيها قبل الحسان . وكل ما يعرفه الناس عن تلك الواحة هنا ، أنها تشغل حوالى ميل فى اتجاه موقعها الحالى فى لتوة Latwa[٣]، ذلك الموقع الذى يشتمل على حوالى ٧٥ فدانًا من أراضى القمح جيدة الري ، ومجموعات مبعثرة قليلة من النخيل والأدلة على المستعمرين السابقين الذين أقاموا فى تلك الواحة تتمثل فى بقايا المنازل المبنية المهدمة ، وفى الجبانات (المقابر) ، وفى أكوام الأحجار المتداعية فوق صخور سلسلة جبال النعجانية ، بقايا قلعة قديمة أو هجرة يطلقون عليها اسم قصر ضارى Dhari .

وفى شرقى لتوة Latwa تقترن قناة المجمعة[٤] بقناة وادى الدواسر ، الذى تعوق مجراه فيما بين صخور جنوبى الطويق المنخفضة وصخور النعجانية ، الكثبان والسلاسل الجبلية الرملية التى تغطيها أشجار الغاضة Ghadha، محولة ذلك المجرى على الجانبين ، إلى مجرد مجرى من مجارى السيول . وتستمر تلك القناة على ذلك الحال إلى مسافة ميلين تقريبًا ، إلى أن تندمج الصخور على الجانبين بشكل غير ملحوظ مكونة بذلك واديًا رمليًا هائلاً يطلقون عليه اسم الفرشة Al Farsha،[٥] التى يستطيع المرء خلالها متابعة اتجاه وادى الدواسر الشرقى الجنوبى الشرقى عن طريق شريط أدغال الغاضة التى يميل اخضرارها إلى اللون الرمادى نحو المقبرة التى تنتظره فى رمال الصحراء الكبرى ، التى تبعد - حسب الرواية المحلية - مسير يومين عن هذا المكان . وجلست ذات صباح على رجم منعزل ، يقع فى آخر جزء مرتفع من سلسلة جبال النعجانية ، ورحت أنظر إلى ذلك الحزام الأخضر القفر الضيق ، الذى كان نهرًا عاتيًا فى يوم من الأيام ؛ وبينما كنت أطيل النظر رحت أتعجب فى الوسائل التى أستطيع بها عبور تلك المسافة الموحشة التى تفصلنى عن بحر الرمال . كانت

الروح تتوق إلى ذلك بطبيعة الحال ، ولكنى كنت افتقر إلى ، أو يعوزنى ، عذر واحد ألا وهو شائعة عصابات الغزو من بدو نجران غير المتحضرين ، وهذا العذر - بحد ذاته - كان كافيًا لجعل رفاقى يقررون عدم الإقدام على مخاطرة من ذلك القبيل . وقد حدث من ليال قلائل أن قامت جماعة من جماعات الغزو كانت مكونة من ستة رجال ، بزيارة خاطفة إلى كل من مرقان Marqan والحمام وحققت شيئًا من النجاح ، عندما جاءت تستطلع السليل أملاً فى أن تجد القرية نائمة ، ولكن تلك العصابة تدبرت أمرها جيداً وأعادت حساباتها، الأمر الذى جعلها تعود من حيث أتت عندما رأت جماعة صغيرة من رجال الواحة وتبادلت معها إطلاق النار ، إذ تصادف أن كانت تلك الجماعة الصغيرة تبحث عن جمل ضائع فى المنطقة المجاورة . وقال لى حسن العرقانى : "إذا رغبت فى المجىء إلى هذه البلاد مرة ثانية فما عليك إلا أن تسأل عنى ، فأنا حسن بن غانم وأمير السليل سوف يعرف أين يجدنى ، وسوف أصحبك إلى حيث تريد ، وسوف نصطاد الوعول سويًا". وهنا عدت مكلوم القلب إلى مخيمنا ، وأنا أعزى نفسى بأنى قد حللت مشكلة من المشكلات الكبيرة فى جغرافية الجزيرة العربية ، ألا وهى مشكلة وادى الدواسر . والمطبوعة التى جرى نشرها مؤخراً تقول : "المؤكد بحق أن اتجاه صرف وادى الدواسر هو من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وأنه يضيع أخيراً فى الرمال". مسألة أنه يضيع أخيراً فى الرمال مسألة صحيحة ، ولكن مسار الصرف فى تلك المنطقة يكون من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وهذه الحقيقة تجعلنا نفترض وجود احتباس جنوبى شرقى فى النصف الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، وهذا يجعلنا نتخيل وادى الدواسر يوم أن كان نهراً ينساب نحو البحر عازلاً بذلك الجرف العمانى الناتئ فى البحر عن بقية الجزيرة العربية .

استمرت رحلتنا إلى السليل ثلاثة أيام ، انعكست خلالها صراعات الواحة انعكاسًا أمينًا فى استقبال الجماعات المختلفة لنا . وكانت الفطرة قد حتمت على مرشدينا ألا يطلبوا كرم جماعة بعينها ، وأن نختار لمخيمنا مكانًا محايداً بعيداً تماماً عن الهجرتين (القريتين) الأولين . وبناء على ذلك ، نصبنا خيامنا فى مكان واسع ومكشوف خارج الحافة الشرقية لحزام النخيل فى المنطقة المجاورة لمستوطنة (قرية) السويلم ، ولكن ما إن انتهينا من نصب الخيام حتى تلقينا رسالة من عبد الله بن نادر

Nadir، رئيس الحنيش ، الذى يحمل كل من إبراهيم ورُشَيِّد Rushaid له ذكريات حلوة عن شخصيته الحلوة وكرمه الحاتمي الذى لقياه فى زيارتهما السابقه لذلك المكان ، فقد وجه لنا ذلك الرجل الدعوة لتناول العشاء معه ، ورجانا أن ننقل خيامنا إلى مكان قريب داخل نطاق حمايته . واعتذرنا عن قبول اقتراحه الأخير ، ولكننا رحبنا بالدعوة إلى العشاء على أن يكون ذلك عقب غروب الشمس مباشرة فى اليوم الأول من مقامنا فى السليل . وأمضيت ساعة أو ساعتين قبل الموعد المحدد للعشاء فى التجوال مع مترك Mitrak ونصير وطويريش Tuwairish فى أنحاء الواحة والمسطحات الرملية فيما بين المجمع ووادى الدواسر ، وبعد أن عدنا إلى المخيم توجهنا على الفور إلى قرية (هجرة) داهلة Dahla وقدمنا أنفسنا عند أعتاب منزل الأمير ، الذى كانت بقية الجماعة قد وصلت إليه بالفعل . وحيانا عبد الله بتحية حارة ، وسرعان ما دخلنا المنزل وجلسنا على شرائط من الحصير فى فناء كبير فى المنزل ، ورحنا نتبادل الحديث مع مضيفنا وقلة قليله من المدعوين من أهل القرية ونشرب الشاى - الذى يعد من قبيل الترف فى الجنوب - والقهوة ، ونتطيب مرات عدة من المبخرة التى تفوح منها رائحة الطيب . وفى الوقت المناسب ، جرى إحضار حصيرين كبيرين إلى حيث نجلس ، ثم أحضرت بعد ذلك صنيتان كبيرتان فوق كل منهما كوم من الأرز ولحم الضأن ، أتت عليهما الجماعة بتلذذ وشهية ، مما أسعد صاحب الدار ، الذى استأذنا منه عقب تناول الطعام مباشرة ، كى نترك له ولجماعته فسحة من الوقت يستعدون خلالها لصلاة العشاء .

وقد فضحت بالة أو بالتين من البضائع الاستهلاكية المستوردة عن طريق البحرين أو عن طريق الأحساء ، النشاط التجارى الذى يمارسه مضيفنا ، ذلك الرجل العجوز الذى يبلغ من العمر ستين عامًا ، ويشع ذكاء ، والذى أذاع لنا اهتمامه بالموقع الذى تتمتع به السليل ، باعتبارها منطقة جمركية ، إذ أوضح لنا أن تجارة البن اليمنى البرية تجرى فى السليل ، عن طريق مقايضة البن بالبضائع الاستهلاكيه الهندية والسكر اللذين يجرى استيرادهما من الجانب المقابل لحسابه هو ورفاقه من السماسرة ، الذين يحققون أرباحًا عن طريق تلك المقايضة . وقد اندهشت لذلك التناقض العجيب ، إذ إن السوق الهندية تقوم فى هذه المنطقة بإمداد الحاميات التركية فى كل من اليمن وعسير بمواد نحن نحظرها عليهم عن طريق دورياتنا البحرية فى البحر الأحمر ، فى

حين إنها تحصل على تلك المواد بطرق ملتوية، ولكنى امتنعت عن التعليق على ذلك، من باب احترامى لمشاعر عبد الله ، وأقنعت نفسى متمنياً ألا يصرف مليماً (فلساً) واحداً فيما يمكن أن يكون مصلحة أو عزاء للعدو وإطالة منفاه فى جبال الجزيرة العربية. ويقال إن نجران، المحطة الجنوبية لذلك الطريق التجارى الطويل ، تقع على بعد مسافة تقدر بمسير قافلة طوال سبعة أيام ، عبر صحراء شبه خالية من الماء ، وفى اتجاه الجنوب من النقطة التى نحن فيها حالياً ، كما أن نجران تبعد المسافة نفسها فى اتجاه الجنوب الشرقى من واحة الوادى نفسها ، غير أن هذا الطريق فيه عدد لا بأس به من أبيار الماء . ولكن نظراً لأن طريق السليل يعد طريقاً مباشراً بالنسبة للقوافل المتجهة إلى الشمال ، يصبح هو الطريق المفضل على الطريق الرئيسى ، الذى يستخدم فى جلب الأرز من سوق مكة إلى الجنوب. وعلى حد ملاحظتى ، فإن القسم الأكبر من العمل التجارى فى الواحة يجرى بطريقة غير رسمية فى منازل خاصة بدلاً من الدكاكين التى لا يوجد منها سوى أربعة فقط ، تقع كلها فى ركن واحد من أركان قرية (هجرة) محمد .

حمل من جاءوا من الجنوب مؤخراً معهم خبر حدوث مواجهة بين كل من الإدريسى Idrisi والإمام يحيى ، قتل فيها حوالى ٤٠٠ رجل من الجانبين بما فى ذلك أربعون مقاتلاً من النجرانيين ، كما قتل فيها أيضاً شيخ مهم من أتباع الإدريسى ؛ وانهزم الإمام يحيى فى تلك المواجهة وخسر فيها مدفعاً ، ولكن أخبار تلك المواجهة جرى تشويهها بسبب بعد المسافة والجهل المحلى ، ورداً على التحريات التى قمت بها أبلغونى بوجود ضباط بريطانيين على الجانبين . ومدى الجهل الذى يسود تلك المناطق فيما يتعلق بالشئون العالمية يمكن الحكم عليه بواسطة الحقيقة التى مفادها أن عبد الله [٦] لم يكن يعرف أن هناك أتراكاً فى كل من اليمن وعسير ، وخيِّل له أن أقرب الحاميات التركية كانت موجودة فى المدينة (المنورة) . كما وردت تقارير أيضاً عن حدوث قتال بين الأتراك وقوات الشريف حسين فى مدينة الليث Lith على ساحل البحر الأحمر ، كما وردت تقارير أيضاً عن وصول الشريف حسين بشخصه إلى المويح Muwaih بالقرب من عشيرة Ashaira' لتسوية مشكلة الخُرمة Khurma . وهنا خاطرت بالتعبير عن شكوكى فى مصداقية ذلك الخبر الأخير، الأمر الذى أدى إلى إثارة قدر كبير من

الحساسية ، على الرغم من الاعتراف بعد إجراء المزيد من المحادثات أن شكوكى كان لها ما يبررها .

وشاع أن أهل نجران كانوا قد أرسلوا فى الفترة الأخيرة وفداً إلى ابن سعود يدعونه إلى الحضور إليهم ، وتولى قيادتهم فى مواجهة العدو ، وراح عبد الله الذى كان يكن للملك الوهابى إعجاباً وإخلاصاً لا مثيل لهما ، راح يتكلم بحماس عن ميل متنام بين رجال قبائل الجنوب إلى اعتبار ابن سعود الزعيم الطبيعى لهم ، وميلهم أيضاً إلى اعتناق المذهب الوهابى ، إلى أن تحولت السليل فى الفترة الأخيرة إلى موطن حقيقى للصراع الأهلى ، ولكن الحملة العسكرية الأخيرة التى جردتها الرياض على تلك المنطقة فرضت السلام على الأطراف المتحاربة ، وحفظته من أى اهتزاز بعد ذلك .

لم تُضِعْ حرارة الاستقبال الذى لقيته من طائفة الحنيش فى اليوم الأول من مُقَامى بسبب قرية آل محمد المنافسة التى انتقلت إليها ، بحكم العرف السائد ، مسئولية وامتياز إكرامنا والاحتفاء بنا ، نحن ضيوف الواحة ، فى اليوم الثانى من مقامنا ، ولكن ابن ربيعة Rubai'a، أمير صبحة Sabha، بلغ من الدهاء السياسى مبلغاً جعله يرفض أن يلعب دور الرجل الثانى فى مواجهة أخطر منافسيه ، أو يضيع فرصة التساوى معه فى مسألة من مسائل الطراز الأول . فقد أثبت عبد الله نفاقه عندما استقبل كافراً منتهكاً بذلك حرمة الواحة؛ أما هو ، وعلى الرغم من أوامر ابن سعود ، فلن يقبل ، فى أضعف الإيمان ، على شىء من هذا القبيل . وبعد أن أصبحت الأجراءات الفعالة أمراً واقعاً ، رضى ابن ربيعة لنفسه بانتهاج موقف المقاومة السلبية ، وحل اليوم الثانى علىَّ حافلاً باحتمالات كثيرة لا أعرف لها كنهاً . وبقيت اليوم بطوله وأنا لا أدرى أن أمراً غير طبيعى كان يحدث ، وعند حلول المساء ، وبعد أن قمت بجولة فى أرجاء الواحة ، رجعت إلى خيمتى وجلست أدون مذكراتى اليومية ، ورحت أقرأ إلى أن يحين موعد تناول العشاء . وسرعان ما سمعت أصواتاً غاضبة على مقربة منى ، وتبع ذلك التصايح صدور صرخات تحذيرية من رفاقى تقول : "سلاحكم ! سلاحكم" (هيا إلى السلاح ! هيا إلى السلاح !) ، صاح الرجال وهم يرددون هذه العبارة ، وهنا تناولت بندقيتى وحزام الطلقات واندفعت خارجاً من خيمتى لاستطلاع أخبار ذلك

التصايح . كان بعض رفاقى قد بدأوا يتقاطرون خارجين من المخيم متجهين إلى الأرض المفتوحة التى بيننا وبين صبحة Sabha، التى كان يندفع منها بعض الرجال الثائرين متجهين لملاقات رجالنا ، أما بقية الرجال فكانوا يعمِّرون بنادقهم ويحتلون مواقع على طول ساتر من الطين قريب من مخيمنا . ويبدو أن مشادة غاضبة كانت تدور بين أولئك الرجال فى وسط الساحة ، وبدا لى أن الصراع أصبح أمراً حتمياً ، ولكنى إلى تلك اللحظة لم أكن أعرف لذلك الصراع سبباً ، ولكنى أخذت مكانى بين المدافعين عن المخيم الذين كانوا ينتظرون سماع صوت الطلقة الأولى ، التى يمكن أن تكون إشارة إلى اختلاط الحابل بالنابل . ولم تنطلق مطلقاً تلك الطلقة الأولى وتباعد أبطال الجانبين عن بعضهما البعض فى صمت متجهم بعد صراع كلامى دام قرابة الساعة، تدخل فيه عبد الله بن نادر Nadir باعتباره صانعاً من صناع السلام ، ومحذراً تحذيراً قاطعاً بمهاجمة صبحة إذا لم يتخل سكانها عن نية الهجوم علينا . وهنا اقتاد إبراهيم محاربيه إلى المخيم ، الذى أمكننى فيه الحصول على فكرة عن أصل تلك المشادة وما وصلت إليه . وقد جمعت تلك الفكرة من خلال الحديث المنفعل الذى دار على مائدة وجبة المساء ، والذى انتقدت أطراف ذلك الحديث إبراهيم على طريقته التى عالج بها الموقف الحساس . وفى الصباح اتضح للعيان أن الإمداد الضرورى بالوقود والعلف ، الذى كان من حقنا بمقتضى العرف والتقاليد ، أن نحصل عليه من صبحة ، لم يصل بعد ، ولما كان إبراهيم قد أحس بحرج كبريائه نتيجة التلكؤ وعدم إرسال المؤن المطلوبة ، فقد تعجل فى إرسال مراسل إلى ابن ربيعة يطلب منه ليس الوقود والعلف وإنما أيضاً كيلاً من الحبوب باسم ابن سعود . وقد تلقى ابن ربيعة الرسالة بشىء من الملاحظات التى تحتقر الكفار وتهزأ بهم ، وأُعيد المراسل بخفى حنين ؛ الأمر الذى ترتب عليه أن أرسل إبراهيم على الفور عبدين مسلحين يطلبان حضور الأمير المسىء على الفور ليشرح تصرفه ويفسره . وجُرِّد العبدان من أسلحتهما وأعيدا وهما يحملان رسالة مهينة . وهنا أوفد ابن جلهم هو وحاشية صغيرة لاستعادة الأسلحة على أن يقوم ابن ربيعة بتقديم الاعتذار المطلوب ، وبينما كنا مشغولين بتلك المهمة الأخيرة حدث الانفجار الأخير . وقد اتفقت تماماً مع حكم الجماعة الذى مفاده أن إبراهيم تصرف تصرفاً غير حكيم عندما أوصل الأمر إلى ذلك الحد ، ولكن إبراهيم كان لا يزال سادراً فى غبه

وهبّ واقفاً فى مكانه على مائدة العشاء ، وهو يعرب عن استيائه من الانتقادات التى وجهت إليه ، وأعرب عن إصراره على حتمية أن يقوم ابن ربيعة بالاعتذار . وهنا قام تامى ، الذى كان متغيباً فى أثناء المشادة ، وراح يحاول بمساعدة طويريش العثور على زوجة مناسبة بين بنات آل حنيش ، بنشر شىء من المرح والسرور ، بأن راح يحكى عن عجوز شمطاء من أهل القرية قالت له عندما سألها عن ذلك التصايح : إن إبراهيم قتل ابن ربيعة ، وأن إبراهيم نفسه قتل فى العراك الذى أعقب ذلك . وحضر مندوبون من قرية دهلة Dahla ومن القرى الأخرى إلى مخيمنا بعد العشاء ليوجهوا إلينا الدعوة لشرب القهوة ، وتقديم هدايا من الأغنام والأشياء الأخرى ، ويعربون عن أسفهم للحادث المؤسف ، ولكن الأمير المسىء لم يقدم أية إشارة من إشارات الأسف أو الندم إلى أن ذهبنا فى اليوم الثانى إلى منزل عبد الله لشرب القهوة . وعندما وصلنا منزل عبد الله جاءنا مبعوثان من ابن ربيعة ليعربا لنا عن أسفهما نيابة عنه ويطلبان منا العفو والصفح ، الذى منحه إبراهيم إياه بناء على وساطة مضيفنا . وبعد ذلك ، وفى فترة متأخرة من النهار ، أرسل ابن ربيعة هدية صلح مقدارها أربعين ريالاً توزع على العبدين اللذين أساء معاملتهما ، كما عرض علينا أيضًا تزويدنا بكل ما نحتاج إليه ، ولكن الهدية والعرض رفضا مصحوبين بالشكر ، وبذلك أسدل الستار على الفصل الأخير من ملهاة ربما تحولت إلى شىء كريه . والأرجح أن تلك الحادثة ، أثبتت لنا نعمة كانت غائبة عنا ، والسبب فى ذلك أن المشكلة الوحيدة التى يمكن بمقتضاها الاعتراض على وجودنا ، كانت قد أثيرت على الملأ وكسبنا تلك الجولة بالنقاط ، على الرغم من أن المكسب كان بهامش ضئيل جداً .

باستثناء عداء فخذ محمد ، لم يكن هناك أى مجال للشكوى من موقف أهل الواحة منا ، وبخاصة أن بعض أولئك الناس عبروا عن فضولهم إزاء زياراتنا ، كما أنهم كانوا يردون التحية كلما التقيتهم فى بيارات النخيل أو فى أى مكان آخر ، وكانوا فى بعض الأحيان يدخلون معى فى حوار يعبرون من خلاله عن استقبالهم الحار . وقد التقينا عبد الله وولده ماجد Majid مرات كثيرة . وماجد من طينة والده نفسها ، أكثر منه من طينة أى إنسان آخر ، وكنا قد تناولنا العشاء معهما فى اليوم الأول من وصولنا ، وشربنا معهما القهوة فى منزلهما فى اليوم التالى للمشادة ، كما تناولا هما وآخرون ،

العشاء معنا فى الليلة الأخيرة من مقامنا فى الواحة . أما الشخص الآخر الذى احتفى بنا بحق أيضًا ، فكان أحد أقارب طويرش ، واسمه على وجه التحديد إبراهيم ، الذى وجه إلينا عندما التقانا - فى أحد شوارع دهلة - دعوة حارة وصادقة إلى منزله ، الذى كان عدد من أصدقائه يجتمعون فيه للترحيب بنا ، وكان من بين الحاضرين رجل هرم يقال إنه تجاوز مائة عام من العمر . وفى تلك المناسبة تناولت ، ولأول مرة ، مشروبًا من المشروبات المفضلة فى الجنوب ، يعد بديلاً للشاى ، يصنعونه من قشر البن بدلاً من أوراق الشاى . وطعم ذلك المشروب يجب التعود عليه ، ولكنى وجدته لطيفًا تمامًا إذا ما احتساه الإنسان جرعة بجرعة ، على الرغم من تخمره تخمرًا شديدًا .

وذات صباح ، قمنا بجولة قصيرة بطول قناة المجمع وصلنا خلالها إلى ما بعد روابى المزرر Muzarrar الخمس الصغيرة التى تقع على الضفة اليمنى لتلك القناة ، حيث توجد بقايا مستوطنة صغيرة مهجورة ومدمرة يطلقون عليها اسم بهجة Bahja، ذلك القصر الوحيد المهدم ، الذى يوجد به بئر فيه قليل من الماء على عمق سبع قامات ، وكان يمثل البقية الباقية وسط دغل من أدغال الإثل ، ولكن يبدو أنه كانت هناك فى ذلك المكان زراعة فى تلك الرقعة التى لا يزال الرعاة يلجأون إليها بين الحين والآخر . وهناك أيضًا أثر مماثل من الأزمان السابقة يقع فى حوض شعب السديرة Sudaira، أحد روافد المجمع من الناحية الغربية ، ويطلق الناس عليه اسم نخل الفوح al Fuh على الرغم من أنه لا وجود للنخل فيه .

وفيما يتعلق بمسألة القمح والتمر(٧) نجد أن واحة السليل مكتفية ذاتيًا ، إضافة إلى أن بيارات النخيل الكثيف(٨) فى تلك الواحة - بما يحمله من سباط التمر الأخضر الثقيل - نبهتنى إلى أنها لا تقل عن أفضل بيارات السيح أو الرياض . والنخيل فى واحة السليل ، شأنه شأن نخيل السيح لا يجرى نزع الكراب عنه ؛ والكراب هذا هو الكعب لجريدة النخل ، والذى يستعمله الناس وقودًا فى بلاد الرافدين وفى أعالى الجزيرة العربية ، على الرغم من عدم استعماله لذلك الغرض فى مناطق الجنوب ، ويترتب على ذلك أن تصبح سيقان النخيل فى الجنوب أغلظ وأكثر سمكًا ، مما يجعل شكل النخيل هنا كثير النتوء وذلك على العكس من السيقان السامقة الملساء فى الأماكن الأخرى ، التى يكثر فيها الطلب على تلك الأجزاء لاستعمالها وقودًا . والناس ، هنا فى

الجنوب يقولون : إن الإبقاء على الكراب والحفاظ عليه يفيد النخيل . والقطن يزرع هنا في أماكن متفرقة ، وقد شاهدت بالفعل حقلاً صغيراً مزروعاً قطناً ، وتلك طريقة غير عادية من طرق الزراعة في الجزيرة العربية ، وتلك الطريقة تعد غير ناجحة إذا ما حكمنا عليها من واقع ذلك الحقل الصغير الذي شاهدناه . وفي الجنوب لم أسمع عن الرمان أو الزعفران ، بل لم أرهما . والبسلة[٩] من الأنواع المتسلقة تجرى زراعتها اعتماداً على سيقان النخيل ، كما يزرع أيضاً الباذنجان ، وتجود وتتوفر أيضاً الخضراوات الأخرى وشاهدت أيضاً الكثير من أشجار الكروم وأشجار الليمون ، كما رأيت أيضاً قليلاً من أشجار التين[١٠]. والري في السليل يكون في بعض الأحيان عن طريق الفيضان[١١] والسيول التي تأتي من شعب المجمع ، كما يجرى الري أيضاً من أبيار تتراوح أعماقها بين ثلاث قامات وسبع ، وذلك طبقاً لموقع البئر من ناحية والموسم من الناحية الأخرى ؛ والسبب في ذلك أن الماء يرتفع في تلك الأبيار في أثناء موسم السيول ، ويصل ارتفاعه إلى قرابة القامتين ، وتلك إشارة من إشارات الوفرة والازدهار . وقد جاءت زيارتنا لواحة السليل في فصل الصيف الذي يقدر طوله أهل هذه المنطقة بحوالي أربعين يوماً محسوبة اعتباراً من الثريا ، ذلك الموسم الذي يعده الناس هنا أسوأ الأوقات بالنسبة للإبل ، نظراً لتأثر مناطق الدهون في تلك الحيوانات بالحرارة الشديدة . وعلى كل حال ، فقد اندهشت بحق لذلك المناخ الذي كان بارداً في أثناء الليل ، إذ كانت أدنى درجة حرارة سجلتها في أثناء الليل ، حوالي ٧٠ْ فهرنهيتية ، ووصلت درجة الحرارة إلى أعلى مدى لها في أثناء النهار ، إذ كانت تتراوح بين ١٠٩ْ و ١١٠ْ فهرنهيتية .

ومنطقة السليل ، التي تشتمل على حمام في الشمال ومجموعة واحات تمرة Tamra في الغرب ، تعد لأسباب إدارية قسماً من أقسام وادي الدواسر ، وهي خاضعة لسيطرة الحاكم الإقليمي (الأمير) الذي يعد ممثلاً مقيماً لابن سعود في الدام Dam، العاصمة الإقليمية لوادي الدواسر . ومع ذلك ، فإن شئون كل هجرة (قرية) من تلك الهجر تدار ، داخل حدود المنطقة ، إدارة مستقلة بواسطة رئيس الفخذ في كل هجرة ، يضاف إلى ذلك، أن سياسة "فرِّق تسد" يجرى اتباعها هنا في الأمور المتعلقة بالرعية على أن يكون ذلك في مصلحة الدولة ، ويقوم كل رئيس من الرؤساء بجباية المتحصلات

المستحقة من فخذه ، على شكل متحصلات عينية ، ويضع الرئيس كل ما يزيد على الإنفاق المحلى ، تحت إمرة ابن سعود وحاكمه المُناب .

٣- المرحلة الأخيرة

في اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ، وبعد أن ودَّعْنا وداعًا حارًا كلاً من عبد الله وآخرين من الذين تجمعوا لوداعنا ، بدأنا مسيرنا من السليل في اتجاه المرحلة الأخيرة من رحلتنا ، وبعد أن عبرنا قناة المجمع ، مشينا عبر شريط واسع من الكثبان الرملية التى تغطيها أشجار الشينان Shinan والأسل Asal(١٢) وبعض الشجيرات الأخرى التى من قبيل شجيرات الحمض Hamdh، إلى أن وصلنا إلى حافة عافجة Afja' باعتبارها القسم الداخلى من وادى الدواسر ، كما يسميها أهل تلك المنطقة. وأهل السليل قد يتكلمون كلامًا غامضًا عن حافة عافجة ويطلقون عليها اسم الباطن Batin ، ولكنهم لا يتكلمون عنها باعتبارها الوادى أو وادى الدواسر ، أو حتى وديان Wudyan الدواسر إذ إن ذلك يمكن أن يكون فى حد ذاته تسمية خاطئة ، نظراً لأن الأمر لا يخص سوى وادٍ واحد ، أما مصطلح الوادى Al Wadi أو وادى الدواسر فى بعض الحالات النادرة فهو يكاد يقتصر استعماله تمامًا على واحة وادى الدواسر الفعلية ، ولا يمكن أن ينطبق مطلقًا على أى جزء من القناة ، التى لا يعرف الناس عنها سوى القليل جداً .

حوض قناة عافجة فى معظمه ، وبخاصة فى القسم الغربى من الفجوة ، عبارة عن شريط واسع من اللَّهَم المشبع بالملح تتخلله بعض البقع الرملية التى تكسوها النباتات سالفة الذكر ، التى ينفرد نبات الشينان من بينها بقيمته الاقتصادية ، نظراً لأن الرماد الذى يتخلف عن حرقه يستعمله الناس استعمال الصابون فى المغاسل ، كما يشيع عنه أنه يضفى لمعة على الكتان الأبيض . أما القاع الملحى الذى يتجلى هنا وهناك على شكل بقع واسعة تشبه الثلج فى بياضها ، ولكونه غير صالح أيضًا لسير الجمال وبخاصة بعد المطر ، فهو الذى يجعل الطريق المعتاد الموجود فى جهة الغرب ، يعبر الوادى ، ويحيط بضفته اليمنى - على امتداد أرض منحدر الطويق المتماسكة ،

التى تنساب فيها على بعد مسافات متساوية تقريبًا - شعاب صغيرة[١٣] تتفرع عن شعاب السيول الكبيرة ، ولتصل فى النهاية إلى حافة الوادى .

وفى شعب من تلك الشعاب ، ألا وهو شعب الدهنة Dahna، الذى يكبر بقية الشعاب ، توقفنا برهة من الزمن لتناول الإفطار إلى جوار مشاش منعزل ، فيه كمية قليلة من الماء الصافى الرائق على عمق ثلاثة أقدام ، ويمكن الحصول عليها طوال موسم السيول أو بعده بفترة قصيرة ، عن طريق رفع الرمل من قاع المشاش (البئر) . وعلى سلسلة من الجبال التى تطل على مجرى السيل عثرت على مساحة كبيرة من الرُّجم ، قوالب مستديرة من بقايا الأحجار ، يصعب الحكم عليها بسبب كثرتها ، بأنها مجرد رجم واحد ، فضلاً عن وقوعها بعيداً تمامًا عن أى موقع محتمل من مواقع السكنى ، الأمر الذى لا يجعلها جزءًا من ذلك الموقع كما هو الحال فى خرائب الأفلاج . وهذه الرجم تشبه إلى حد كبير الرجم التى شاهدناها على جانب الطريق الذى يمر عبر نتوء الرياض ، وأكوام تلك الرجم بنيت فى معظمها من قطعة مسطحة من الصخر ، أو من صخور تشبه الإردواز، ولها مدخل ضيق يؤدى إليها ، تحدُّه الأحجار من أحد جانبيه . والأرجح أن تلك كانت مقبرة (جبَّانة) ، وليس من الضرورى أن تكون قديمة ، وأنها أنشئت عندما كانت تلك المنطقة مسرحًا للعمليات فى معركة من المعارك القبلية ، وإذا ما صدق ذلك هنا ، فيمكن أن يصدق أيضًا على تلال أو رجم البياض Biyadh . وعلى بعد مسافة قريبة من هذا المكان أشار رفاقى إلى بعض الأحجار البيضاء - تشبه فى شكلها علامات الحدود - وضعت فى الموقع الذى دارت فيه فى الماضى إحدى المعارك بين أهل السليل وأهل تمرة Tamra ، كما أخبرونى أيضًا أن المنتصرين هم الذين وضعوا تلك الأحجار - أهل تمرة ، حسب ظنى - ليؤبنوا بها نجاحهم ، إذ إن اللون الأبيض هو شارة النصر . وفيما بين الوهابيين ، فإن من يتميزون فى القتال فى أثناء المعارك يكافأون بالاعتراف ببلائهم الحسن على الملك بالعبارة التالية : بيَّض الله وجهه [١٤] (بمعنى : بيض الله وجهه فى الجنة) .

فى المنطقة التى يقترب الطريق فيها من فجوة الطويق نجد أن المرتفعات الجنوبية تتراجع على شكل خليج عميق يسير فيه شعب الأمُر Amur منخفضًا خلال واحة تمرة Tamra متجهًا صوب الوادى ، وعلى الجانب الأيمن من مصب ذلك الخليج وعلى

المنحدر الهين التلال ، تقع واحة الخثيقان Khuthaiqan المتهالكة ، إحدى مستوطنات (قرى) الضُّوَيَّان Dhuwaiyan ، ويبلغ عدد سكان تلك الواحة حوالى مائة نسمة يعيشون في قصور متباعدة ، وهجرة صغيرة واحدة تقع إلى جوار أطول بيارة بين بيارات النخيل الموجودة فى الواحة ، والتى تنتشر بشكل غير منتظم فوق رقعة ضيقة من الأرض لا يزيد طولها على ميل واحد . والتربة هنا مشبعة بالملح ، ومياه الآبار وفيرة ويمكن الحصول عليها من عمق يتردد بين ثلاث قامات أو أربع ، والماء مالح بدرجة كبيرة . والقسم الأكبر من بيارات النخيل حديث العهد ، وربما لا يتجاوز عمره عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا ، وأكبر تلك البيارات هى الوحيدة قديمة العهد ، فقد نزح المستعمرون الضَوَيَّان من السليل إلى تلك المنطقة .

ومن أقصى أطراف الواحة الذى يتميز ببرجين صغيرين من أبراج المراقبة ، بُنيا خصيصًا لإنذار أهل الواحة فى حالة الهجوم المفاجئ عليها من سكان واحة تمرة ، دخلنا إلى منطقة الخليج على طريق الأمُر Amur ، وبعد أن تجاوزنا هجرة (قرية) شارة التابعة لقرية آمور ، وجدنا أنفسنا فى المنطقة المجاورة لهجرة (قرية) الفارس Al Faris التى قررنا تمضية بقية ذلك اليوم فيها ، وكذلك اليوم التالى ، حتى يتسنى لنا تهيئة الفرصة لمبعوثينا - رُشَيِّد وعايض أحد رفاقنا العرقانيين - كى يبلغوا أهل الوادى بمجيئنا والانضمام إلينا ومعهم مخزون من التبغ الذى تعهد رُشَيِّد بإحضاره طيبة أو غصبية ، نظرًا لنفاد ما لدينا من تبغ ونحن فى واحة السليل .

وبفضل رابية فى المنطقة المجاورة ، يحيط بها متراس حجرى أو إن شئت فقل قلعة غير مسقوفة بها مزاغل ، استطعنا رؤية منظر الواحة الرائع هى والبلاد المحيطة بها . وخليج تمرة يحيط به جرف عالٍ من الأراضى المرتفعة ، التى تدور حول الخليج إلى أن تصل إلى حدود الأرض المحروثة فى خشم Khashm الأمُر ، الذى يتحكم فى فجوة الطويق من الجهة الجنوبية ، مثلما يتحكم فيها خشم سواد Suwad من الناحية الشمالية . وأيضًا على كل جانب من جانبى الفجوة ، يكون مجرى الوادى شريطًا ناصع البياض ، زحفت عليه بيارة نخيل الكبكابية Kabkabiyya ، وخلال الفجوة من ناحية الغرب شاهدنا أرضًا صحراوية رملية شاسعة تمتد بلا انقطاع إلى مسافة بعيدة بدءًا من حائط جرف الطويق المنحدر ، وتتجه شمالاً على شكل نسق

من حدود الأراضي المحروثة على امتداد الجانب الشرقي من الجرف . ولم نر أية علامة دالة على قرى الوادي نفسه أو مستوطناته .

وسواء سبقتنا أو لم تسبقنا أخبار مشادة السليل فقد استقبلنا استقبالاً شعبياً عند وصولنا إلى واحة تمرة ، إذ خرج الأمير ومعه عدد كبير من رجال الواحة في المكان الذي تحدد لنصب خيامنا ، استعداداً للترحيب بنا . كان المكان لطيفًا تظلله أشجار الإثل ، ويقع في مجرى الشعب الرملي ، وسرعان ما شبُّوا النار وبدأ الاستعداد لتصليح القهوة ، وجلسنا كلنا على شكل حلقة كبيرة ورحنا نتحدث بطريقة العرب العابرة . وكما حدث في السليل ، دار الحديث في واحة تمرة أيضًا عن أسعار البن وأسعار القشر ، كانت أسعارالسليل[١٥] في ذلك الوقت تصل إلى حوالي ريال ونصف الريال للصاع Sa´ الواحد الذي يتكون من وزنتين بالنسبة للبن ، أما القشر فكان ثمنه ريالاً واحداً لكل صاعين أو ثلاثة (بل الواقع صاعين ونصف الصاع) . وكنت قد لاحظت في أثناء سيرنا قطيعًا صغيراً من الأغنام بيضاء الصوف[١٦] ، جرى إحضارها مؤخراً من وادي التثليث في مرتفعات عسير ، لبيعها لمن يود شراءها ، أما أغنام وادي الدواسر فهي سوداء اللون من أغنام نجد. واللحم والأرز في هذه المنطقة من قبيل الترف أيضًا ، إلى حد أننا لم نستطع الحصول على الأغنام أو الماعز في واحة السليل نفسها ، ومع ذلك استطعنا معالجة ذلك النقص عندما وصل إلينا صاحب ذلك القطيع سالف الذكر ، بأن أعطيناه دفعة مقدمة لشراء ثمانية خراف ، بعد أن حذرنا رفاقنا من احتمال عدم العثور على الضأن على الطريق أو في وادي الدواسر نفسه .

واحة تمرة عبارة عن مستوطنة زاهرة تحتوي على بعض بيارات النخيل الممتازة التي تعد بمحصول وفير ، كما تشتمل الواحة أيضًا على بعض أراضي القمح وكثير من أشجار الإثل ، التي تحول بعضها إلى أشجار كبيرة ، كما يزرع في تلك الواحة قدر كبير من القطن ، لا على شكل نباتات حدودية أو حتى في حقول ، وإنما على شكل مجموعات من الأشجار ، ومن المعروف أن نباتات القطن يستمر انتاجها إلى ما يقرب من خمس سنوات ، وهنا يجري اقتلاعها من جذورها وزرع نباتات أخرى بدلاً منها . وقد ظهر أن البصل من الخضراوات الأساسية في واحة تمرة . ويقدر عدد سكان هذه الواحة بحوالي ٥٠٠ نسمة ، منهم حوالي ١٠٠ نسمة يسكنون في هجرة (قرية)

شــارة Shara، فى حين تسكن بقـيـة السكان قـرية فـارس Faris الرئـيـسـيـة ، وهذان الاسمان : شارة وفارس هـمـا اسـمـا فـخذى الأمُر ، تلك الجمـاعة القبليـة ، التى على الرغم من اتصالها بالدواسر عن طريق التداخل الاجتماعى الطويل ، فإنها ليست من السـلالة نفسـها ، وتكوِّن جمـاعة من بين أربع جماعات مسـتقلة تُصنَّفُ على أنها أبات Abat الدواسر - والمرجح أن تلك الجمـاعات عبارة عن البقية الباقية من أولئك الذين كانوا يحتلون الوادى قبل الدواسر ، ولكنى سوف أورد الكثير عن تلك المجموعات عندما أشرع فى مناقشة قدوم الدواسر ومجيئهم .

وبعد صـلاة العصر مـباشرة توجـهنا على شكل وفد للقيـام بزيارة رسمية إلى فالح ابن فـارس ، الأمـيـر . كـان منزل ذلك الأمـيـر يقع وسط قـرية (هـجـرة) فـارس ، ولم يختلف مقهاه ، الذى اجتمعنا فيه إلى مضيفنا وكثيرين من إخوانه القرويين - صحبة من الناس تقدر بحوالى خمسين شخصـاً بما فيهم وفدنا - فى قذارته ووضاعته عن أى مكان آخر شبيه به فى الجزيرة العربية . طوله حوالى ثمانية عشر قدمـًا وعرضه نصف طوله تقريبًا ، ولم يكن بذلك المقهى أية فتحـات سوى البـاب الذى دخلنا منه ، ونـافذة صغيرة مساحتها تقدر بحوالى ثمانى عشرة بوصة مربعة . كانت النار تتوهج فى الوجار فى ركن من أركان المقهى ، وسرعان مـا أصبح الجو خانقًا ، ولابد من أن درجة الحرارة فى الظل خارج المنزل كانت تقدر بحوالى ١٠٨ْ فهرنهيتية ، ولكنها كانت أعلى من ذلك بكثير داخل المنزل . وأنا ليست لدى الكلمات التى يمكن أن تسعفنى فى القلق الشـديد الذى انتـابنى ونحن جـالسـون مكدسـون فى ذلك المكان الضـيـق ، ومن حـسن حظى أنى كنت أجلس بـين الفتـحـتـين على الرغم من بعدى مسافة ياردة واحدة عن نار الوجار ، نحتسى القهوة الحارة وماء القشر . كان الحديث أمرًا مسـتحيلاً فى مثل تلك الظروف ، ولكنى كنت قد أدركت ذلك الذى جئت من أجله فور دخولى ذلك المكان ، وجدت أن من واجبى تكييف نفسى مع تلك المحنة طلبًا للخبرة والتجربة ، كمـا حتم علىَّ ذلك أيضًا أن أجعل المضيفين يبدأون الحوار . وجلست طوال ثلاثة أربـاع الساعة فى حمَّام من العرق ، وطوال ذلك الوقت لم يوجه إلىَّ مضيفى ، الذى كان يجلس بجانب الوجار ، أو أى شـخص آخر ، فيما عدا إبراهيم ، كلمة واحدة . وبعد شىء من اليأس ، نوهت إلى أن وقت انصرافى قـد حـان ، ولكن عند تلك اللحظة أيضًـا ، لم تبـذل أية مـحـاولة

لإشراكى فى الحوار الخافت الممل الذى كان يدور بينهم ، ونهضت من مكانى طلبًا للانصراف دون أن أتبادل ولو ملاحظة واحدة مع أى من الحاضرين . وما إن أصبحت خارج المنزل حتى أحسست بقشعريرة باردة تسرى فى جسدى على الرغم من حرارة العصر القائظة ، وعليه اتجهت بخطًى وئيدة نحو المرتفعات الوعرة الموجودة خلف القرية ، ولم أتوقف إلا بعد أن وصلت قمة تلك المرتفعات . وهنا بدأت أستشعر التحسن ، ثم جلست مع كل من جابر Jabir ومترك ونصير Nosir وعبيد ، الذين جاءوا يخرجون ويلهثون فى أثرى ، كى يشاهدوا المنظر ونتسامر فى هدوء فى أثناء غروب الشمس ، وعندها عدنا سويًا إلى مخيمنا عن طريق الواحة . كان هؤلاء الرفاق قد شعروا أيضًا بالضيق فى تلك الغرفة شديدة الحرارة ، ولكنهم "ما يعرفون" (بمعنى "ما باليد حيلة") ؛ قالوا هذه العبارة ليشرحوا بها فضول أفكار القرويين فى التمتع بفترة العصر من ناحية ، والاعتذار عن صمتهم الممل [من ناحية أخرى] . وتعجبت لكرم الجنوب الصادق الخالى من البهجة والسرور ، وتعجبت مما إذا كان أولئك القرويون يفضلون بحق تسلية من ذلك النوع على الجلوس خارج المنزل فى الشمس الحارقة ، والمؤكد أن إحساسى أكد لى أن الخيار الثانى هو المفضل .

وطلبًا لإغراء بعض رفاقى على مرافقتى فى اليوم الثانى فى جولة قصيرة إلى قمة مرتفعات الجانب الغربى من الخليج ، رصدت ثلاث جوائز لأول ثلاثة رجال يصلون القمة. ووافق الرفاق متحمسين على ذلك الاقتراح ، وهنا وجدت نفسى فى ساعة مبكرة عند سفح سلسلة الجبال الغربية ومعى حوالى عشرة من المتنافسين المتحمسين . وتركتهم عند السفح وصعدت السلسلة الأولى ، بعد أن شرحت للمتنافسين أن الفائزين هم أولئك الذين سيصلون إلى أعلى نقطة فى تلك المرتفعات ، كما أطلقت لهم أيضًا إشارة البدء . وواصلت سيرى وأنا أشاهد من خلفى التعثر فى الصعود إلى أعلى جانب التل الوعر . كانت المسافة تقدر بحوالى نصف ميل ، أما الارتفاع فكان يقدر بحوالى ثلاثمائة قدم على شكل ثلاثة منحدرات حادة تتخللها المنخفضات بين الحين والآخر . وفاز عبيد القحطانى بالسباق ، كما فاز به أيضًا عبيِّد 'ubaiyid، ذلك المرءوس الزنجانى ، ونصير العتيبى، الذى جاء ترتيبهما الثانى والثالث . أما بقية الجماعة فكانت خارج السباق ، فضلاً عن أن الكثيرين منهم أعياهم ذلك الإجهاد الذى لا لزوم له ،

ولكن الجميع كانوا سعداء مثل الطير ، عندما تجمعنا عند قمة تلك المرتفعات لنتناول سويًا إفطارًا بسيطًا . وأزعجت الجلبة الصادرة عنا غزالين ، لونهما بنى غامق ، لم يعطيا مترك Mitrak المتحفز دومًا فرصة لاصطيادهما ، إذ اختفيا خلف التل وفى أثرهما طلقة خائبة . وبعد ذلك بلحظات قليلة لاحظنا ثعلبًا وهو ينسل هاربًا ، ولكن مترك ، الذى لا يهدأ مطلقًا ، قدم لنا استعراضًا للتقدم المتلصص ، ولكنه سرعان ما ضاعت منه طريدته ، التى راحت تتجول هنا وهناك عند أسفل المنحدر ، على مرأى من كل الحاضرين ، فيما عدا مترك ، وهرب الثعلب إلى السهل الموجود فى الأسفل ، إلى أن اختفى فى مزرعة الكبكابية Kabkabiyya . جاء المنظر الذى شاهدناه من قمة خشم الأمور Amur مخيبًا للآمال، على الرغم من رؤيتنا واحة كيميدة Kimida عن بعد فى السهل الغربى ، أما فى الأماكن الأخرى فلم نر سوى هضبة الطويق التى كانت سائدة فى كل جانب من الجوانب ، فهذا هو بروز فرضة Farda يحجب الرؤية عنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، فى حين رأينا فى اتجاه الشرق نخيل واحة تمرة ، ونخيل الخيثقان ، وكذلك نخيل السليل عن بعد فى أخدود عافجة Afja' .

وتجولت بعد العصر مع كل من جابر ومتراك ومجموعة أخرى فى شعب أمور وفى حوض وادى الدواسر ، إلى أن وصلنا إلى سفح الامتداد الأرضى ثم عدنا بعد ذلك إلى المخيم . كان السير فوق التربة السبخة الهشة أمرًا صعبًا حتم علينا الاختيار بين داخل أو خارج أدغال الأسل Asal الكثيفة ، التى يصل ارتفاع أشجارها إلى ما يتردد بين خمسة أقدام وستة ، والتى كانت تغطى قناة الشعب العريضة . ودار حديثنا ونحن نسير فى الطريق على نقطة نظام عجيبة تسببت لرفاقى فى آلام نفسية كثيرة منذ وصولنا إلى هذه الأماكن . فالأذان فى بلاد الجنوب يرفع عقب غروب الشمس مباشرة وقبل شروقها عندما يبين ضوء الشمس الحقيقى ، فى حين يرفع أذان الفجر قبل بزوغ خيوط الفجر الأولى ، كما يؤذن لصلاة المغرب مع اختفاء آخر شعاع من أشعة الشمس بعد الغروب . والشيخ عبد الله ، كبير مطوعى الرياض ، يصر على المواظبة على مراعاة التوقيت الصحيح للصلاة مراعاة دقيقة ، وأن يكون لذلك الأمر أولوية على كل ما عداه ، بما فى ذلك الوضوء الشرعى الذى يمكن التغاضى عنه فى بعض الأحيان فى ظل ظروف محددة ، كماهو الحال عند عدم توفر الماء اللازم للوضوء ، قبل دخول اللحظة

السيكولوجية (النفسية) . ومن ثم فقد أدت بدعة الجنوب هذه إلى استطلاق الكثير من التعليقات غير المناسبة من رفاقى ، بل إنها استطلقت فيهم أيضًا تعبيرات الاشمئزاز التى تعبر عن الضيق والاستياء، كما أصر رفاقى على أن القضاء ، أو الانتظار إلى الصلاة فى وقت الفضيلة ، يمكن اللجوء إليه إذا ما كان الخطأ فى تحديد الموعد ناجم عن شخص غير القائم بالصلاة . والمعروف أن تربة السبخة غير نظيفة ، وبالتالى لا يمكن الصلاة فوقها . ومع ذلك ، فى بعض الأمور الأخرى ، فإن مراعاة تلك القيود ربما تكون من أسباب الانقسام بين العرب البسطاء سكان الصحراء ، نجد أن المصلين الوهابيين يلفتون النظر تمامًا إلى طابعهم غير الرسمى ، والصلاة إذا ما بدأت عند الوهابيين فى وقتها الصحيح فإن مسأله اللحاق بها بعد ابتدائها غير ذات بال . يضاف إلى ذلك ، أنهم يبيحون كثيراً من الابتعاد عن المواقف الصحيحة ، حتى وإن وصل الأمر إلى حد عدم الانتباه . زد على ذلك ، أن العجلة أيضًا أمر مقبول ، ويجوز للمصلى الخروج من الصلاة ليعيد جملاً إلى جادة الصواب ، ثم يستأنف مكانه فى الصلاة كأن شيئًا لم يكن ، ودونما حاجة إلى بدء الصلاة من جديد . ومن رأى حسان Hasan فإن صلاة الجماعة ليست هى القاعدة فى نجران ، إذ بوسع كل إنسان أن يصلى منفرداً .

وفى صبيحة اليوم التالى ، ونظراً لعدم وصول أى خبر من رُشَيِّد ، استأنفنا مسيرنا فى اتجاه الغرب من باب أن الساحل كان خاليًا ومستعداً لوصولنا إلى واحة الوادى . وبعد أن درناحول قاعدة خشم الأمُر ، وصلنا إلى حدود بيارة نخيل الكبكابية ، التى يمتلكها أهل تمرة وتقع داخل رقعة واسعة من الأرض السبخة ، ولا يوجد فى تلك البيارة مساكن أو أبيار ، وهم الملاك الأول هنا ، ويتمثل ذلك فى زيارتهم لتلك البيارة فى أثناء موسم الحصاد لجمع محصول التمر ، الذى يستمد سماده وكذلك العناصر الغذائية الضرورية من الرطوبة الطبيعية للتربة المالحة ، التى تتشرب المطر القليل الذى يسقط عليها وتحتفظ به بالقرب من السطح .

واعتباراً من تلك النقطة نجد أن الجرف الخارجى فى جنوبى الطويق يأخذ اتجاهًا جنوبيا غربيا ، ويتميز مساره بامتدادات أرضية ناتئة على شكل جروف هارية ترتفع عن مستوى سطح السهل ، وهنا أكوام من الحطام عند أسفل الجدار . يضاف إلى ذلك

أن تعرية الصخور ،في بعض الأماكن القريبة من الامتدادات الأرضية ، نجم عنها وجود أهرامات من الحجر الرملي عند حافة السهل . والحائط الغربي من المرتفعات الشمالية ، يمكن مشاهدته من هنا بصورة واضحة ، نظراً لأنه يمتد ناحية الخلف في اتجاه الشمال على مدد شوفنا بطول حافة السهل . وفي اتجاه الغرب والشمال يوجد سهل واسع من اللَّهم الرملي ، تتخلله بقع من الكثبان الرملية والأرض المالحة .

وخلف خشم الأمُر مباشرة يبرز امتدادا فردة Farda الأرضيان إلى السهل خارجين من قسم وعر من الجرف ، وهذا المكان مناسب لعمليات السلب والنهب التي يقوم بها قطَّاع الطرق[١٧] الذين يجيئون من الجنوب ، ويجوسون بين فجوات الصخور ، وينزلون من ممرات لا يعرفها أحد سواهم لينهبوا القوافل التي تمر بالوادي ويهربون بعد ذلك ليختفوا في مغارات الجبال قبل أن تصل إليهم يد العدالة . والناس هنا يطلقون على تلك الصخور اسما مشئوماً هو المقاتل Al Muqatil . وفي أثناء دوراننا حول تلك الصخور دفعنا دورياتنا إلى الأمام تحسباً للمباغتة ، وشددنا المراقبة على قمم تلك الصخور وعلى واجهات الصخور الوعرة ، ولم نتوقف لتناول الإفطار إلا بعد أن ابتعدنا مسافة معقولة عن الجرف ، ووصلنا إلى شعب عامر بالأدغال يسمونه زول المغر Zaul al Magharr الذي ينحدر من الجرف نازلاً إلى قناة الوادي عن يميننا . والمعروف أن أولئك اللصوص الذين يشتهرون بسوء سمعتهم يركزون اهتمامهم ، في معظم الأحوال ، على المسافرين المنفردين وعلى القوافل الصغيرة ، ولكن الأمر حتَّم علينا التزام الحذر والحيطة في تلك الرقعة غير الآمنة . ومن المكان الذي توقفنا فيه رأينا منظر الامتدادات الأرضية الرائعة في جنوبي الطويق ، إذ كانت تمتد إلى مسافات بعيدة على مرمى البصر .

وفي الوقت المناسب عبرنا السهل وسرعان ما وجدنا أنفسنا نشق طريقنا خلال سلسلة من الكثبان الرملية القاحلة التي تغطيها نباتات الغاضة ، التي حجبت كل العلامات الدالة على قناة الوادي ، ولم يكن الرمل الموجود في المسافات ما بين السلاسل الجبلية والكثبان الرملية ، والذي كان يغطي تربة صلبة من الحجر الجيري ، أحمر اللون مثل رمل النفود ، وإنما كان رملاً أبيض اللون به بعض الحصى . وعليه

سرنا مسافة عشرة أميال تقريبًا ، لم يتغير خلالها المنظر إلى أن وصلنا واحة كيميدة Kimida التعيسة التى توجد وسط أرض فضاء تحيط بها أشجار الإثل الغليظة مكونة بذلك سورًا أمام الرمال الزاحفة .

وهنا طالعنا خبر سيئ ، حتم علينا قطع رحلتنا . فقد التقانا عند وصولنا أمير واحة كيميدة ، فار بن رقيص Faris ibn Raqis، ومعه مراسل وصل لتوه موفدًا من قبل حاكم الوادى ، ويحمل معه (الحكاية) التالية : عقب وصول كل من رُشَيِّد وعايض Aidh' إلى الجهة المقصودة ، وعقب ذيوع الخبر الذى مفاده أنهما مقدمة لجماعة من بينها أحد الكفار ، هاج أهل دام Dam عاصمة الوادى Wadi، وماجوا والتفوا حول قصر الحاكم وراحوا يحتجون غضبًا معلنين عن رغبتهم فى عدم حضور الكافر بينهم ، كما أعربوا أيضًا عن رغبتهم فى معارضة دخولنا عنوة إلى الوادى . وهنا تشاور كل من الحاكم والقاضى مع بعضهما البعض ، وتوصلا إلى نتيجة مفادها أن أوامر ابن سعود تتحتم طاعتها ، وأبلغوا أهل دام - التى يظهر أنها بؤرة ساخنة من بؤر التشدد والاضطراب - أنهم إذا لم يغيروا موقفهم فسوف يجلب البدو والحضر الموالين لابن سعود كى يلقنوا أهل دام درسًا قاسيًا . وأُخضع كل من رُشَيِّد وعايض لمظاهرات معادية ؛ مما حتم على الحاكم أن يحافظ على سلامتهما داخل قصره مخافة أن يصابا بسوء وهما فى طريقهما إلينا . وبناء على ذلك ، رأى حاكم الوادى أن يوفد واحدًا من حاشيته لإبلاغنا بتلك المشكلة ، ويرجونا تأخير رحيلنا إلى اليوم التالى ، حتى تنحسر الانفعالات والاضطرابات التى ترتبت على الخبر الأول . ولم يزد المراسل فى حديثه إلينا على ما مفاده أن جماعة صغيرة من أصحاب الرءوس العنيدة فى العاصمة ، كانوا قد تقدموا ، على الرغم من تحذير الحاكم لهم ، للمرابطة فى بيارات شرافة Sharafa، أولى قرى (مستوطنات) الوادى ، انتظارًا لوصولنا . وتحسبت من أن تكون هناك بعض المحاولات لإثنائى عن المغامرة ، وشعرت بالارتياح عندما اكتشفت أن الرأى العام يحبذ مُضِيًا قدمًا فى برنامجنا صباح الغد ، والذى كان قد سبقه إرسال ابن جلهم ، فى فترة العصر ، ومعه بعض الخطابات الموجهة إلى الحاكم ، فضلاً عن إنذار شديد اللهجة موجه إلى أهل دام .

وبعد أن أنهينا كل ذلك ، أمضيت بقية النهار فى التجوال فى أرجاء الواحة ، تلك المستوطنة الواسعة سيئة الزراعة ، والتى يصل طوالها من أقصاها إلى أقصاها ميلاً واحداً وعرضها حوالى نصف الميل ، وتشغل جزءاً مكشوفاً من حوض الوادى وتتوفر فيها المياه السطحية المالحة على عمق يتردد بين ثلاث قامات وأربع . وهناك بئر واحدة من بين مائة وخمسين بئراً ، يقال إنها تنتشر فى المناطق المزروعة من الواحة ، هى التى تنتج ماءً صالحاً للشرب ، كما أن قسماً كبيراً من الآبار المتبقية إما مهجور أو منحط . والسمة الرئيسية المميزة لتلك الواحة تتمثل فى غابة أشجار الإثل ، التى تعد أفضل أشجار تلك النوعية فى الجزيرة العربية كلها ، التى وصلت إلى ارتفاعات عالية وغلظت سيقانها ، وبدأت تحمل الكرمة Kirma ، أو تلك العناقيد الصغيرة من التوت الذى يميل لونه إلى اللون الوردى ، الذى يحظى بسمعة واسعة صبغاً ، بل يقال إنه لا يوجد سوى فى الجنوب ، كما أن إثل أعالى الجزيرة العربية لا يحمل مثل تلك العناقيد الوردية اللون . وبيارات النخيل فى تلك الواحة من النوع السيئ تماماً ، وهى تغطى مساحة كبيرة ، وفيها الكثير من جذوع النخل الخاوية ، كما يشاهد فيها بين الحين والآخر نخيل متصدع بلا ثمر . كما لاحظت أيضاً فى تلك الواحة بعض حقول القطن ، ربما تصل مساحتها الإجمالية إلى حوالى ثلاثة أفدنة ، ونباتها من النوع الضعيف ، الذى ضاعت أوراقه الخضراء بفعل الماعز الجائعة ، أما بقية المزروعات فكانت عبارة عن بعض الخضراوات وشىء من البرسيم الحجازى ، ولكن المحصول الرئيسى والمهم القمح ، الذى يستعمل السكان الفائض منه عن احتياجاتهم المحلية ، فى الحصول على التمر والبن من الوادى .

من المتعارف عليه محلياً أن كيميدة تعد جزءاً من واحة الوادى ، التى تبعد مسافة اثنى عشر ميلاً من طرفها الشرقى ، وهى مستوطنة صغيرة يسكنها حوالى مائة نسمة من حقبان Haqbqn، التى هى مثل الأمُور Amur جماعة من أبات Abat الدواسر ، ومن ثم فهى ليست من أصل دوسرى . وهذا العدد الصغير من السكان يقيم فى هجرة (قرية) صغيرة مسوَّرة بها برج مراقبة غير ذى بال ، فى الركن الجنوبى الغربى ، وبوابة وحيدة توجد فى الجانب الشمالى من ذلك السور ، ومن تلك البوابة يتجه الداخل إلى تلك الهجرة إلى مكان واسع تتفرع منه الشوارع والأكواخ البائسة المبنية من

الطين . وسكان تلك الهجرة لم يكشفوا عن أى شىء من النفور منا أو الكراهية لنا ، يضاف إلى ذلك أن أمير القرية كان ودوداً معنا أيضًا ، وقد رافقنا لتناول القهوة في أثناء النهار كما انضم إلينا على العشاء أيضًا ، فضلاً عن دعوته لنا لتناول القهوة فى منزله فى المساء . ومقهى ذلك الأمير عبارة عن غرفة صغيرة مربعة مفروشة بالرمل الناعم عوضا عن السجاد أو الحصير ، وقهوته لم تكن جيدة تماماً والسبب فى ذلك هو نوعية الماء الفظيعة . وأهل تلك المستوطنة شارك معظمهم فى وقت أو آخر فى مصايد اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ؛ ويبدو أن الحنين إلى الوطن بلغ عندهم من القوة حداً جعلهم يعودون إلى ذلك المكان .

والبلاد التى أمامنا اختلفت ، عندما استأنفنا مسيرنا مع طلوع الفجر ، عن البلاد التى عبرناها أو تجاوزناها فى اليوم السابق ، من حيث إن البلاد التى أمامنا عبارة عن سهل متموج تموجًا لطيفًا ، وتتخلله نباتات الغاضة بين الحين والآخر ، كما تنتشر فيها هنا وهناك أشياء شبيهة بالكثبان الرملية أو التلال الرملية . وحائط الطويق البعيد من خلفنا هو العزاء الوحيد لنا من رتابة منظر سطح الأرض الخالى تمامًا من التضاريس . كان طريقنا يمر بطول منخفض ضحل ، الذى تخيلته على أنه مجرى الوادى فى ذلك الوقت ، على الرغم من أن الأمر اتضح لى بعد ذلك ، أن ذلك المنخفض لم يكن سوى مجرد غدير من الغدران الكثيرة التى تمر عبر السهل ، ولم يكن ذلك الغدير أو المجرى الذى يجرى فيه السيل كما يتخيل البشر .

كان مسيرنا كئيباً إلى حد ما ؛ إذ كان الهواء بارداً ورطباً فى تلك الساعة الباكرة ، ولم نكن نعرف ذلك الذى تجيئه الساعات الاثنتا عشرة القادمة ، وعرفنا أننا ينبغى لنا أن نطل على الوادى فى جميع الأحوال ، وألا نركز على مسألة الدخول إليه أو العودة لتُروى للناس تلك الحكاية . وواصلنا مسيرنا فى صمت طوال ساعتين فى اتجاه حاجز رملى كان يحجب الرؤية عنا من الأمام . وقبل أن نصل إلى ذلك الحاجز شاهدنا رقعة داكنة من أدغال الراك Rak، فى غدير عن يميننا ، وعرفنا عندئذ أننا سنكون ، خلال لحظات قليلة ، فى مرمى البصر لمراقبة من الجانب المقابل . وتوقفنا وربطنا إبلنا عند قاعدة الحاجز ، وتقدمنا بحذر فى اتجاه قمة ذلك الحاجز كى نستكشف المنظر .

٤- واحة الوادى

سيظل المنظر الذى طالعناه ونحن ننظر من قمة سلسلة الجبال الرملية ، التى توقفنا عندها لتناول طعام الإفطار واستطلاع الأرض من أمامنا ، راسخًا فى ذاكرتى لأسباب عاطفية وليس لأى سبب آخر . فقد وقعت عيناى أخيرًا على ذلك الذى عبرت الصحراء من أجله ، وكانت عيناى أول عينين أوروبيتين تنظران إلى بيارات وادى الدواسر . وعلى بعد حوالى ميلين منا ، فى اتجاه الشمال الغربى ، كنا نرى حزام نخيل شرافة ، التى يرابط فيها ، حسب علمنا ، الرماة المعادون ، ومن خلف ذلك النخيل ، كانت الرمال تحيط به من الجانبين ، حزام عريض من النخيل يمتد على مرمى البصر فى اتجاه الغرب وبطول منخفض ضحل ، كان مجرًى أو حوضًا لوادى الدواسر نفسه . كنا نرى هنا وهناك قرية (هجرة) أكواخها مبنية من الطين خلال ستارة من النخيل ، فوق السهل الواسع جنوبى حزام النخيل ، الذى يمتد عند طرفه الشرقى قاع الوادى القاحل والمتشقق بفعل حرارة الشمس ، مسافة عدة أميال قليلة داخل الرمال المحيطه به إلى ما وراء بقعة من الإثل يطلقون عليها اسم الغيف Ghaif ورقعة كبيرة من الأدغال يطلقون عليها اسم الراكة Raka . ومن خلفنا ، على بعد مسافة كبيرة ، شاهدنا حائط الطُّوَيِّق الطويل هو وفجوة تمرة فى اتجاه الشرق ، كما شاهدنا أيضًا طرفى ذلك الحائط يمتدان إلى الجنوب الغربى وإلى أقصى الجنوب الشرقى .

وعن التحركات البشرية لم نر أى أثر أو علامة تدل عليها ، وبعد أن انتهينا من تناول طعام الإفطار ، وبعد أن جهزنا بنادقنا تحسبًا لأية أخطار طارئة ، عدنا إلى إبلنا ، وركبناها ومضينا على الفور عبر السهل على شكل جماعة واحدة تستطيع أن ترى أى إنسان يكون مترقبًا لنا . وقد ابتعدنا تمامًا عن حزام النخيل تحسبًا للمفاجأة ، ومع ذلك لاحظنا بعد مسافة قصيرة رجالاً يتحركون أمامنا فى السهل ، شاهدناهم وهم يركبون دوابهم ويتجهون نحونا . وهنا بدأت المسافة فيما بيننا وبينهم تقل تدريجيًا ، وركزنا أبصارنا علَّنا نجد من بينهم ابن جلهم أو رُشَيِّد ، ووطنا أنفسنا ، فى الوقت ذاته ، على استقبالهم استقبالاً مناسبًا ، إذا ما ثبت أنهم من الأعداء . وعندما أصبحت المسافة الفاصلة بيننا وبينهم قرابة ربع الميل ، راحوا – وهم يقدرون بعشرين

فرداً أو أكثر – يعدون بإبلهم ويتقدمون ، وهم رافعين بنادقهم وينشدون أناشيد الحرب ، ويتقدمهم شخصان يركب كل منهما مهراً عربياً صغير الحجم . وسرعان ما انتهت دهشتنا ، عندما اندفع أولئك الرجال علينا ، بوصفهم خيالة وجمالة ، وهم يصيحون ويجوسون خلالنا ومن حولنا وهم يقومون بالعمليات الحربية التشبيهية ، والحقيقية كان أولئك الرجال أصدقاء ولم يكونوا أعداءً ، ابن جلهم ورُشَيِّد ومعهما بعض الحراس الذين يرافقون الأمير ، ورحبنا بهم ترحيباً حاراً .

عند تلك المرحلة أصبحنا على مستوىً واحدٍ مع قرى وبيارات شرافة ، التى شاهدنا فيها شكلاً داكناً أو شكلين فوق سطح أحد المنازل ، وذلك إشارة إلى مدى الاهتمام الذى أثاره وجودنا بينهم . وواصلنا سيرنا عملاً بنصيحة ابن جلهم لنا بتحاشى حرام النخيل، وألا نتوقف إلا فى نطاق أمن قصر الأمير . ولكن ، ما إن وصلنا إلى نقطة موازية للقسم الثانى من حزام النخيل ، والذى يطلقون عليه اسم اللغف Lughaf، حتى التقانا وفد يرأسه أمير النعيمة Nu'aima، الذى قررنا بناء على ترحيبه الحار بنا ودعوته الملحة بأن نشرِّف قريته بوجودنا وتعليق تسوية مشكلاتنا مع أهل دام Dam . وقد عزز الأمير تلك الدعوة بمعلومات عن رباط معادٍ كان ينتظرنا فى رقعة من أدغال الإثل أمامنا على الطريق ، قررنا مرة أخرى التوقف وسرعان ما وجدنا أنفسنا وقد نصبنا خيامنا خارج قرية (هجرة) نعيمة المسوَّرة . وقد رحبت بذلك القرار مرتين ، أولاً لأنه هيأ لى فرصة، قد لا تتاح لى مرة ثانية ، أستطيع خلالها دراسة القسم الشرقى من الواحة فى وقت فراغى ، وثانياً لأنه أعطانى فرصة التعامل مع أهل الواحة الكرماء .

وعقب عودة ابن جلهم – تلك الشخصية المعروفة تماماً فى هذه المناطق – بعد نقاش مطول أسفر ، بعد احتجاج أهل دام الذى مفاده أن الخطأ من جانب السلطات أوقعهم فى مأزق لابد لهم فيه ، أسفر عن سحب أهل دام لاعتراضهم كما سحبوا مرابطيهم من شرافة . وعلى الرغم من ذلك دارت بعض المشاورات العنيفة ، استمرت فى أثناء الليل ، ترتب عليها نقض قرارات الصباح والتخلى عنها ، فقد أعلن أصحاب الرءوس الجامدة من أهل دام أنهم لن يسمحوا لى بتخطى قريتهم ، وأنهم أرسلوا بعض الرجال كى يرابطوا عند المداخل الرئيسية . أما الأمير ، وهو شخص ضعيف وعديم القيمة وذلك من واقع التقارير ، فقد تعامل مع ذلك الموقف الجديد ، من منطلق

عجزه عن البت في الأمور واتخاذ قرار بشأنها ، وعرفنا فيما بعد أنه كان متعاطفًا مع أولئك المتطرفين ، الذين قال الأمير عنهم ، في رسالة أرسلها إلى إبراهيم، إنه غير قادر على التحكم فيهم أو السيطرة عليهم ، هذا في الوقت الذي راح القاضي عبد العزيز بن بشر ، أحد مواطني الرياض ، يشجع في السر ذلك العنصر المتشدد في عناده ، ولم يترك ذلك القاضي مجالاً للشك في مشاعره الحقيقية ، عندما انسحب في أثناء الليل إلى الصحراء تجنبًا منه لتحمل المسئولية عن تدنيس مساعدته بمسألة وجودي ، أو مسئوليته عن النتائج التي قد تترتب على اللجوء إلى المقاومة المسلحة لمنع دخولي إلى واحة دام .

وعلى أي حال ، فقد أذنبا الجليد بدخولنا الوادي ، الذي أصبحنا فيه بين الأصدقاء ، ولكن الآمال التي كنا نعلقها على مضينا قدمًا كانت لا تزال بعيدة عن اللون الوردي ، وكانت محلاً للتأمل والتفكير من جانب كل من إبراهيم ورفاقه . ويبدو أن نيران النقد ، التي استبدأتها غلظته وهو يتعامل مع موضوع السليل ، قد أخلّت بتوازنه الذهني ، وهنا لابد من أن أعترف أن إبراهيم كان يستشعر ثقل مسئوليته عن سلامتي الشخصية . ونتج عن ذلك أن إبراهيم كان يتأرجح بين الوجل والاستئساد ؛ الأمر الذي يمكن أن يسفر عن كارثة ، في حالة عدم الأخذ برأي مجلس الحكماء من الرجال . وكانت أول فكرة تخطر ببال إبراهيم تقوم على انسحابنا على شكل جماعة واحدة من الوادي إلى ملجأ أمين في مرتفعات الطويق ، ليكون ملجأ أمينًا لنا بصورة مؤقتة ، ونرسل منه إلى ابن سعود نطلب معاونته لنا ونهدد أهل دام بغضب مليكهم منهم غضبًا شديدًا . وأنا لم أسمع عن ذلك الاقتراح المضحك إلا بعد أن مني بالرفض الجماعي من قبل كل من ابن جلهم والزعماء الآخرين . وقد حظي تصميم أولئك الزعماء على عدم الاهتزاز أمام التحدي الصادر عن أهل دام ، وتصميمهم أيضًا على المضي قدمًا مهما كانت التضحيات ، بعد توجيه إنذار إلى من يهمهم الأمر بالنتائج الوخيمة التي قد تترتب على المضي قدمًا في المعارضة ، حظي ذلك التصميم بالدعم والتأييد من قبل أمير نعيمة ، الذي كانت دوافعه تصطبغ بالصبغة السياسية إلى حد بعيد ، إذ كان ينتظر أن تكون الأزمة الحالية سببًا في إعلاء قدره عند ابن سعود على حساب منافسيه المحليين . والواقع أن الأحقاد المحلية هي والعداءات المحلية أيضًا كانت أكبر ضمان لأمننا وسلامتنا . وبعد أن توصلنا إلى ذلك القرار ، أرسلنا ثلاث رسائل إلى

المعسكر المعادى ، اثنتين منهما لكل من الأمير والقاضى كلٍّ على حدة ، وهى بمثابة إنذار إلى كل منهما بأن ضعفهما وعجزهما عن التعامل مع الجماهير التى من المفروض أن يسيطرا عليها ، يمكن أن يجر عليهما غضب سيدهما ، كما أبلغناهم أيضا بأنهما سيكونان مسئولين مسئولية مباشرة عن كل ما يمكن أن يحدث ولا تحمد عقباه فى صباح اليوم التالى الذى عزمنا فيه على استئناف مسيرنا ، فى حين أرسلنا الخطاب الثالث ، الذى صيغ بلهجة شديدة ، إلى أهل دام أنفسهم لنخبرهم أننا قبلنا تحديهم لنا ، وأفصحنا لهم عن عزمنا الاستمرار فى مسيرنا ، وأنذرناهم أن ابن سعود يمكن أن يغزو بلدهم ويسويه بالأرض إذا لم يسحبوا معارضتهم على الفور ويرسلون لنا أشخاصاً مسئولين يرافقوننا إلى قصر الأمير . ورحنا ننتظر على مضض الردود على تلك الرسائل الثلاث ، التى وصلتنا ردودها فى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم نفسه ، قادمة من أمير دام ومجلسها ، وكان القاضى قد تحاشى التورط فى ذلك فأعطى لنفسه إجازة ذهب فيها إلى الصحراء . وكان الأمير قد أكد لنا أن المشادة قد انتهت وأن بوسعنا المضى قدماً بكل ثقة واطمئنان ، فى حين أعرب الجناة الآخرون عن أسفهم للموقف الذى وقفوه، وطلبوا منا العفو والسماح ، وأكدوا لنا أن بوسعنا – إذا ما أردنا – المضى قدماً إلى محطة وصولنا دون أن نخشى أحداً أو أى عقبة من جانبهم . ونباح العربى أسوأ من عضه ، ولكننا تراجعنا أمام ذلك الاستسلام الكامل . وأصر الجميع فى أثناء الليل على عدم تغيير الموقف ، وأن كل ما يجب أن نتحسب له ونحترس منه هو الهجوم المفاجئ ، وطلبوا إلىَّ أن أطفئ مصباحى فى ساعة مبكرة من المساء وأغلق باب خيمتى قبل النوم ، ومن حسن الحظ أن الليلة كانت براد ولم تزعجنا خلالها أية أحداث عارضة .

وفور وصولنا إلى نُعيمة Nu'aima دعانا فيصل بن سويليم Faisal ibn Suwailim إلى منزله لشرب القهوة ، وفيصل هذا هو الأمير الودود ، أو إن شئت فقل نائب الأمير، نظراً لأن الأمير الفعلى هو محماس بن سويليم Mihmas ibn Suwailim الذى كان غائباً فى ذلك الوقت بصحبة القسم البدوى من البريك Buraik ، فخذ من أفخاذ جماعة المساعرة Musa'ara من الدواسر ، الذى هو رئيس لها . وفيصل هو وأخوه الأصغر هذلول Hidhlul، الذى ساعد فى الترحيب بنا ، هما أولاد عم محماس ، الذى

ترك لهما المسئولية عن القرية لحين عودته . ودخلنا منزل فيصل وهذلول من خلال فتحة تشبه الجُحر لا يصل ارتفاعها إلى قدمين ، وجلسنا نشرب القهوة فى مقهى خانق ، يشبه السرداب أكثر منه غرفة ، يصل طوله إلى عشرين قدماً وعرضه أربعة أقدام فقط . وفى ساعة متأخرة من نهار ذلك اليوم انضم إلينا هذان الاثنان عندما كنا نتناول وجبة الصباح ، التى تجمع حولها جمهور كبير من أطفال القرية ، وقفوا بعيداً عنا بمسافة معقولة ، ولذلك وجها لنا دعوة لتناول العشاء فى منزل ابن عمهما الأمير . كان ذلك المنزل يقع فى وسط القرية عند نهاية الشارع الذى يخرج الناس إليه من بوابة القرية الوحيدة ، وهناك حوالى عشر فتحات أخرى فى أجزاء أخرى من السور ينطبق عليها الوصف نفسه الذى أطلقته على الفتحة التى دخلنا منها منزل فيصل ، والتى تؤدى مثل فتحة منزل فيصل ، إلى منازل القرية المختلفة . ويجرى إغلاق تلك الفتحات فى أثناء الليل بمتاريس من حطب الوقود لإبعاد اللصوص والأعداء عنها . وقد قدمنا نحن اللحم اللازم لوجبة المساء ، نظراً لأن الغنم فى ذلك الوقت كانت فى المراعى ولا يمكن الحصول عليها بطريق البيع والشراء من الوادى ، وكان الطبق الأساسى الذى كان يتصاعد منه البخار ، عبارة عن فتَّة من الخبز بدلاً من الأرز الذى لا يمكن الحصول عليه فى ذلك المكان أيضاً . ومستوى معيشة الدواسر منخفض بالفعل ، وطعامهم الرئيسى التمر واللبن والخبز المنقوع (الفتَّة) ، ويتم تنويع ذلك الطعام بين الحين والآخر باستعمال العصيدة أو الثريد الذى يصنع من القمح .

وخلال فترة العصر ، قمت بصحبة رفقة قوية بجولة إلى اللُّغاف Lughaf ، أو إن شئت فقل فخذ أو قسم المساعرة Musa'ara من الواحة ، التى يفصلها عن بيارات ، أو إن شئت فقل مزارع شرافة من ناحية الشرق ، وعند القسم الرئيسى من الناحية الغربية فراغان واسعان عرض كل منهما حوالى نصف ميل ، واللُّغاف به كتل كثيفة من النخيل الذى يوجد جزء منه فى ضفة منخفض الوادى اليسرى وجزء آخر فوق الضفة نفسها ، كما يشتمل اللُّغاف Lughaf أيضاً على خمس قرى (هجر) صغيرة ، اثنتان منها عبارة عن خرابتان وأنقاضاً . وقرية نعيمة هى وقرية قعيز Qu'aiz تقعان متجاورتين على منحدر الضفة اليمنى الهين القاحل ، وهما عبارة عن هجرتين وضيعتين مسورتين وتحتويان على ما يقرب من ٤٠٠ نسمة أو ٣٠٠ كل على حدة .

وأهل قرية قعيز شأنها شأن شيخهم فيحان بن قويد Faihan ibn Quwaid، ينحدرون من فخذ أبو حسن Abu Hasan من المساعرة Misa´ara . وعلى بعد مسافة حوالى ربع ميل فى الناحية الشمالية من هاتين القريتين ، وعند سفح منحدر الضفة اليسرى ، حيث يكون خزام النخيل زاوية حادة ، تقع قرية نزوة Nazwa الصغيرة غير المسورة التى يسكنها قسم آخر من المساعرة Misa´ara ، هو البوصبان ، الذين يقدر عددهم بحوالى ٢٠٠ نسمة تحت رئاسة شجاع بن خريم Shuja ibn Khuraim وبالقرب من نزوة وفى اتجاه أسفل المجرى ، ولكن فى حوض الوادى ، توجد بقايا قرية درسة Darsa، وهى عبارة عن (هجرة) من هجر آل حنابجة Al Hanabija ، ذلك الفرع الثانوى من فخذ الشقرة Shakara من جماعة آل حسن . والحنابجة يشكلون البقية الباقية من الغزو الدوسرى الأول ، والتى تحملت صروف الزمن وسط رجال القبائل المشاغبين الذين كانوا يناصبونهم العداء ، الذى استمر إلى ما قبل زيارتى بعام واحد ، عندما اكتسحهم السيل والفيضان ولم يعد لهم وجود . وهاجر كل أولئك الحنابجة – فيما عدا بقية تقدر بحوالى ثلاثين نسمة يعيشون فى أكواخ مبعثرة – لينضموا إلى أقاربهم فى الأفلاج مخلفين وراءهم أنقاض قريتهم (هجرتهم) الصغيرة وجذوع النخيل لتكون شاهداً على قدرة الله وقدرة الإنسان . وعلى الضفة الأخرى ، وفى مواجهة تلك الأنقاض ، تقع بقايا قرية الرُويسة Ruwaisa، التى لا يزال يعيش وسطها حوالى عشرين نسمة بقوا على قيد الحياة من واحدة من مستوطنات الأمُر Amur(١٨)، وما زالوا يعيشون حياة تعيسة يزرعون خلالها مساحة صغيرة من أرض القمح إلى أن يحين الوقت الذى يقرر فيه جيرانهم من المساعرة Misa'ara ضم تلك الأرض إليهم . وقصة اللُغاف عبارة عن حكاية صراع وبؤس مؤسف ، إنها خلاصة تاريخ الدواسر .

قرية الشرافة التى تقع إلى الشرق من اللُغاف عبارة عن شريط مهلهل من النخيل مع بعض البيارات الممتازة وعدد كبير من أشجار الإثل ، التى هى حاليًا فى ريعان اخضرارها ، ويسكن هذه القرية حوالى ٥٠٠ نسمة ، وهم من قسم مستقل من الدواسر ، والقرية تستقى اسمها من اسم ذلك القسم ، كما يعد ذلك القسم أيضًا متشابهًا تقريبًا مع المساعرة Misa'ara ، وهناك بعض الناس الذين ينظرون إلى سكان قرية الشرافة باعتبارهم من المساعرة . وهؤلاء السكان يعيشون بصفة أساسية فى قرية

(هجرة) مشرف Mishrif غير المسوَّرة ، وفى قرية صغيرة أخرى داخل قسمين يطلق عليهما اسم العويضات Uwaidhat'، فضلاً عن بعض القصور المتناثرة(١٩)، وكل تلك المجموعة السكانية تدين بالولاء للشيخ الكبير مسفر Misfir بن هذلول Hidlul، الذى تصادف أن يكون فى زيارة إلى الرياض فى ذلك الوقت .

فى صبيحة اليوم التالى الموافق الثلاثين من شهر مايو أيقظونى فى ساعة مبكرة وأنزلوا خيامنا وطووها ، ومع حلول الفجر كنا على أهبه الاستعداد لبدء المسير . وقال لنا مضيفنا : "فى حفظ الله !" ورددنا عليه : "حفظك الله !" وركبنا مطايانا وبدأنا المرحلة الأخيرة من رحلتنا ، ونحن محتاطون بجعل أنفسنا قريبين من بعضنا البعض شاهرين بنادقنا فى وضع الاستعداد ، والسبب فى ذلك أننا على الرغم من اطمئناننا بفعل التأكيد الذى تلقيناه فإن احتمال الخطأ سهواً من أى من الجانبين يمكن أن يترتب عليه أشياء لا تحمد عقباها . وبعد أن سبقنا اثنان من حاشية الأمير ليكونا بمثابة كشافين من أمامنا ، مضينا فى مسيرنا ، إلى أن تجاوزنا منطقة المساعرة ووجدنا أنفسنا أمام الطلائع الأولى لنخيل القسم الأوسط الذى كان يبعد عنا مسافة ثلاثة أرباع الميل تقريبًا ، وكان السهل الرملى الذى عبرناه ، بدأ يفضى على الجانب الأيمن من الوادى إلى رقعة واسعة من الزلط المرتفع على شكل سلسلة من الجبال المنخفضة ، التى يشرف جناحها الشمالى على مجرى الوادى نفسه وعلى بلدة دام نفسها ، التى بدأت تتبدى لنا أسوارها المبنية من الطين . وعلى بعد مسافة ربع ميل فى جهة اليسار وعلى حافة الرمل كانت توجد هجرة معطلة Ma'tala البائسة غير المسورة ، التى كان يسكنها مائتا نسمة من الفلاحين الزنوج من المُخارم Mukharim، التى هى قسم مستقل ورعوى مترحل من الدواسر ، ملاك بيارات النخيل الزاهرة التى تواجه الهجرة ، التى كانت تنتشر حولها المخيمات الدالة على وقت الحصاد . ويقدر عدد سكان ذلك القسم بحوالى ٢٠٠٠ نسمة منهم ما لا يقل عن ٢٠٠ خيَّال ، وهذا القسم يحتقر العيش فى منازل مستقرة ويفضل التجوال فى الصحراء مع أغنامه وقطعانه ، ولا يحضرون إلى القرية إلا فى موسم حصاد التمر ليجنوا ثمار كد الفلاحين .

أوحت لنا بعض القصور المخربة فى المسافة ما بين معطلة Ma'tala وحزام النخيل بأن تلك المنطقة شهدت فى الماضى كثيراً من عادات وتقاليد الاستقرار ، ولكن أحدًا لم

يستطع أن يفسر لي الأسباب التي أدت إلى حدوث ذلك التغيير ، ولم يكن ذلك ناتجًا عن أي ضعف في ذلك القسم الذي يتمتع بذيوع صيت شجاعته في الوادي . وكانت قرية مقابل Muqabil التي مررنا بها بعد ذلك ، شبيهة بقرية معطلة ، ولكن أصغر منها وأقرب منها أيضًا إلى حزام النخيل ، ويعيش في قرية مقابل تلك حوالي خمسين فلاحًا زنجيًا نيابة عن الملاَّك البدو ، الضعلوق Dha'luq، الذين هم قسمان من فرعي الرجبان . Rijban

كان يفصلنا عن أسوار قرية دام نفسها ميل أو بعض ميل من السهول الواسعة ، وبدأت تلك القرية تبدو لنا أكبر وأكبر خلال ضباب الصباح . وهنا انطلق أكثر الناس بيننا ورعًا ، ونحن نقاسي عذابنا الأخير : "اذكر الله !" .. وخففنا خطونا ، وكان الخيالان لا يزالان أمامنا . كانت أسطح المنازل عليها أشكال داكنة من المتفرجين الذين تجمعوا لمشاهدة مرور الكافر . وفجأة برز لنا من سور القرية شخصان متشككان ، كانا يجريان في اتجاه خرابة منعزلة في الأمام ، وهنا اندفع كشافانا في عقبهما ليعيداهما إلى القرية . وهنا سرى بيننا شيء من الخوف المؤقت نظرًا لأننا دخلنا عن غير قصد في جبَّانة مهملة تقع في الركن الجنوبي الشرقي من القرية ، وخرجنا ثانية من تلك الجبانة بقدر المستطاع ، آملين ألا يكون أحد قد لاحظ ذلك السهو . وإن هي إلا لحظات حتى أصبحنا على أبواب القرية ، ولمدة خمس دقائق – خمس دقائق من أشد أنواع القلق والتوتر في حياتي كلها – سرنا في صمت واجم ، بطول سور القرية الجنوبي أمام النظرات الواجمة من ذلك الجمع من الناس ، ونحن نعلم أن صيحة متشدد واحد أو طلقة شاردة واحدة يمكن أن تستبدئ أزمة يمكن أن نكون بلا حول أو طول ونحن نواجهها ، نظرًا لأن أسطح المنازل كانت تتحكم فينا تمامًا . ستعيش تلك اللحظات الطويلة في ذاكرتي إلى الأبد ، كما ستعيش في ذاكراتي إلى الأبد أيضًا همهمة الغوث والارتياح التي انطلقت من رفاقي عندما وصلنا إلى نهاية السور ، ثم تجاوزنا الأرض الواسعة بين قريتي دام ومشرف ، وبرَّكنا جمالنا أمام بوابة البرزان Barzan، قصر حاكم وادي الدواسر الذي يشبه القلعة .

واستقبلنا عند مدخل ذلك القصر عبد الله بن محمد بن معمر – أحد مواطني القصيم وابن عم فهد بن معمر ، حاكم تلك المنطقة – استقبالاً رسميًا وبارتياح

واضح ، ثم اقتادنا على الفور إلى قاعة اجتماعات كبيرة على الجانب الأيمن من الردهة ، ثم رجانا أن نجلس لشرب القهوة . وعبد الله هذا رجل لطيف التصرفات وطيب الروح وحلو المعشر وفي منتصف العمر ، وقامته فوق المتوسط ، وقد ترك ذلك الرجل لدىّ انطباعًا طيبًا منذ اللحظة الأولى على الرغم من كل ما سمعته في حقه من الآخرين ، وعلى الرغم مما سمعته عن ملامحه وسماته النجدية الضيقة ، التي تنم عن الجهل والانحياز . واقع الأمر أن فهد بن معمر لم يكن الشخص المناسب مطلقًا لذلك المنصب المهم ، الذي شغله منذ عامين خلفًا لسعد بن عفيصان Affaisan، بعد أن انتقل إلى الأفلاج ، والسبب في ذلك لم يكن افتقار فهد إلى القوة والقرار الضروريين لحكم قبيلة مزعجة ومنطقة تموج بالاضطراب ، وإنما لأنه كان متشبعًا تمامًا بمفاهيم الإخوان ، ومن ثم كان ميالاً بطبيعته إلى التعاطف مع العناصر الأكثر تشددًا أكثر من انحيازه إلى القانون والنظام . المؤكد أن فهدًا لم يكن متسودًا منصبه مثلما كان ابن عفيصان ، ويجب أن نقول هنا إن فهدًا لم يكن طموحًا مطلقًا ، ولكنه كان يتطلع إلى التقاعد ليعيش حياته الخاصة ويكرس نفسه للأمور الدينية .

عندما وصلنا كان الحاكم مشغولاً في عمل رسمي في اجتماع عام ، وكما كان هناك أيضًا جمع كبير من مختلف الشخصيات داخل غرفة الاجتماع عندما دخلنا إليها . وجرى فض ذلك الاجتماع ، وأجلسوني في مكان الشرف بالقرب من الوجار وإلى جوار الحاكم ، أما الرجل الذي أفسح لي الطريق فهو سُمعان Sum'ar بن مطرحة Matraha، رئيس طائفة الرشيد الذين جاءوا من عرقة Arqa'، وهو رجل شرس ، عريض الجبهة ، فضلاً عن كونه لصًا عريض المنكبين من لصوص نجران ، وصل منذ أيام قلائل للفصل في قضية كانت بينه وبين طائفة أخرى ، طائفة الفَهَّاد Fahhad، كما كان على وشك زيارة الرياض أيضًا ويصحبته حاشية من قطّاع الطرق قوامها خمسة رجال شقر ، تطفح الوحشية من عيونهم ، يرتدون ملابس سيئة ، وينم ملبسهم وملامحهم على أنهم من الأجانب . لم يكن أولئك الرجال يرتدون سوى غترة بسيطة على الرأس ، وثوب واسع مثل ثياب النساء والأطفال ، أبيض اللون ، وشديد القذارة ، ضيق عند الوسط بفعل حمّالة جراب الطلقات المليء تمامًا بالذخيرة ، كما يوجد في الحمالة أيضًا خنجر معقوف جميل الصنعة . كان ممثلو الفَهَّاد قد سبقوا هؤلاء النجرانيين

(النجارنة) إلى الرياض ، وكان واحد منهم قد عاد إلى دام منذ وقت قريب جداً قادماً من الرياض ، وهذا الرجل بدوى بليد الحس يدعى بليح Bulaih كان أيضًا من ضمن جماعة كانت تضم من بينها أيضًا رجلاً مُخَنَّثًا تمامًا ، صغير السن ، شهوانى المظهر بشكل غير عادى ، صبى لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، الذى أوحت علاقته الوقحة والوثيقة بالوجار ، الذى كان يقوم هو بالإشراف عليه ، أنه كان مطوعًا فى مرحلة التلمذة .

فى البداية بدأ عبد الله عازفًا إلى حد ما عن الحديث معى ، ولكنى لم أحس مطلقًا بتأنيب الضمير ، نظراً لأنى كنت أعلم أن عبد الله نفسه هو الملام عن المتاعب التى سبقت وصولنا إلى دام ، وبالتالى لم أكن بحاجة إلى فرض نفسى عليه ، الأمر الذى ترتب عليه أن تخلى هو عن تحفظه وبدأنا حواراً طيبًا تمامًا . ولكن مركز المسرح فى تلك اللحظة كان يحتله إبراهيم وحده لا أحد غيره ، والسبب فى ذلك أن إبراهيم لم يكن ليدع تلك المناسبة الطيبة العامة تفوت دون التنفيس عن استيائه الصائب الذى استشعره إزاء سلوك أهل دام Dam المشين ، مع علمى بأن أحداً فى الجزيرة العربية كلها لا تنساب بين شفتيه شعارات التشدد الوهابى فى سهولة ويسر أكثر من إبراهيم ، ومن قلب أقل ما يقال له عنه بالمعايير الوهابية أنه عامر بالآثام . ولما كان إبراهيم يمارس فى الخفاء ذلك الذى كان يدينه فى العلن ، فقد كان يمثل دائمًا نموذجًا طيبًا ومحترمًا ، ومن هذا المنطلق لم يكن يضيِّع الفرص التى تسنح له دون أن يحث الناس على الفضيلة من منطلق تفسيره هو لها . وفى تلك المناسبة كان موضوع الخطبة جسامة الإثم الذى ارتكبه أهل دام عندما تحدوا أوامر ابن سعود ؛ وتأسيساً على ذلك عجز المستمعون عن الرد عليه وهو يتناول تلك القضية بأعلى صوته وبنبرات شديدة صارمة ، وضرب بعصاه على الرمل ، على الرغم من أن حججه كانت واهية وضعيفة . واستمع الحاضرون إلى شتائم إبراهيم وسبابه فى صمت وسكون ، ويبدو أنه لم يحرك ساكنًا فى مستمعيه أو يؤثر فيهم ، والذين عبر عبد الله عن رأيهم ، كما يبدو لى ، تعبيراً صادقًا عندما أعلن أن الفرصة ليست مهيأة لتأليب ذلك الأمر من جديد طالما أنه لم يسفر عن أى شىء لا تحمد عقباه .

وبناء على ذلك مكثنا حوالى ساعتين ننتظر الإفطار الذى كان حاكم دام قد أعده لنا . كانت مراسم التعارف قد جرى التخلى عنها عند وصولنا ، ولكنى بعد أن تعودت على جو الجماعة المحيطة بى قدمت نفسى إلى سُمعان Sum'an بأن رحت أسأل تامى عنه وعن عمله . وبعد تقديم التوضيح الضرورى همهم اللص العجوز قائلاً : "ابن سعود غصبنا على شوفتك - بمعنى أجْبرنا ابن سعود على رؤياك - ولكن لو كان الأمر غير ذلك لكنا قد قطعنا عنقك " وهنا أجرى ذلك الرجل سبابته فوق زوره شارحًا وموضحًا ما يعنيه . واستطرد الرجل يقول : "أهلنا فى نجران كانوا سيقتلونك على الفور وبلا تردد ، ولكننا خدَّام لابن سعود". ورددت عليه قائلاً : "وأنا سعيد بمعرفتك . وإذا كنت تنوى بحق السفر إلى الرياض فلعلك أنت ورفاقك ترافقوننا فى رحلة العودة ". ووافق الرجل فى الحال على ذلك الاقتراح ، وبحلول المساء كانت مسألة زيارة معارفه على حسابى هى التى جعلته عطوفًا وودودًا معى . وعلى أى حال ، فقد جلس ذلك الرجل إلى جوارى فى أثناء وجبة المساء ، ومن بعدها تناول القهوة ، وعندما ظننت أنى أعرفه تمامًا إلى حد رفع الكلفة فيما بيننا ، تجرأت وأبديت إعجابى بالجنبية أو الخنجر المذهَّب المعلق فى وسطه ، وهنا سحب الرجل الخنجر من غمده وأعطانى إيَّاه . وقال الرجل : "خذه ، إنه لك . وما الذى ستعطينى إيَّاه عوضًا عنه ؟" وهنا ضحكت وأعدت إليه السلاح ، تلك العينة الممتازة المصنوعة فى حضر موت ، ومقبض ذلك الخنجر مرصع بالعقيق ، وغمده مزين بالمشغولات الذهبية ، على أمل مساومته عليه فيما بعد ، وهو أمل لم يتحقق قط .

كانت المشادة التى أحضرت ممثلى كلاً من الرشيد Rashid والفهَّاد Fahhad إلى محكمة نائب ابن سعود فى الوادى - وإنها لمصادفة أن تكون تلك الحادثة مثالاً ودليلاً علـى امتداد ابن سعود امتدادًا كبيرًا مؤخرًا فى اتجاه الجنوب - تتمثل فى المواجهة (المعركة) التى جرت بينهما مؤخرا وقتل آل الرشيد فيها تسعة رجال من آل الفَهَّاد واستولوا على عدد كبير من الجمال . ولما كان آل الفَهَّاد هم الذين علموا بمجيئى فقد أرسلوا على الفور وفدًا إلى الرياض ، وبعد أن سُمِح لذلك الوفد بتقديم الشكوى وعرض القضية على أمير الوادى ، عاد لتوه - وصلت مجموعة الوفد الرئيسية إلى دام بعد وصولنا إليها بيوم واحد - ليجدوا وفدًا من خصومهم قد حضروا إلى دام لتقديم

شكواهم أيضًا وعرض قضيتهم . واستمع الأمير لدفاع الجانبين طوال جولتنا فى برزان ، وفى اليوم السابق لرحيلنا جرى التوصل إلى تسوية ، وافق سُمعان بمقتضاها ، ونيابة عن جماعته ، أن يدفع ٦٠٠ ريالٍ ثمنًا للجمال المنهوبة و٨٠٠ ريالٍ عن كل قتيل ، وقد وصل إجمالى المبلغ إلى ما يقرب من ٨٠٠٠ ريالٍ ، وهذا بحد ذاته مبلغ كبير تعجز أى قبيلة بدوية عن دفعه أو سداده . ومن الطبيعى أن ينتظر سُمعان منى شيئًا من المساهمة فى سداد ذلك المبلغ ، واتضح لى أنه سوف يفعل ذلك عن طريق مرافقتنا إلى الرياض فى رحلة العودة ، ولكن تسوية القضية جعلته يستغنى عن القيام برحلة الرياض ، وبالتالى أصبحنا فى حلٍ من تعاقدنا المؤقت . ومع ذلك ، جاءنى سمعان فى يوم رحيلنا ، ليطلب منى المبلغ ولم يغضب عندما أوضحت له أننى غير مجبر على دفع المبلغ . وأبلغته أيضًا أننا نرحب بصحبته لنا فى رحلة العودة ، ولكنى أعربت له عن أسفى لعدم تمكنه من الانضمام إلينا .

وعلى امتداد سبعة أيام كاملة وبالتحديد إلى عصر اليوم الخامس من شهر يونيو ، بقينا ضيوفًا على عبد الله بن معمر فى قصر البرزان ، تلك القلعة مربعة الشكل التى تم إنشاؤها فى العام السابق فقط لوصولنا ، وتقع فى الأرض الفضاء فيما بين البلدتين المتنافستين دام Dam ومشرف Mishrif ، وتقترب إلى حد ما من مشرف ، وفى اتجاه تتمكن معه أسوارها العالية وأبراجها الأربعة العالية الموجودة عند الأركان ، من السيطرة على البلدتين والتحكم فيهما . وفيما يتعلق بالظروف السياسية لوادى الدواسر وروح التشرذم فى ذلك الوادى ، التى تجعل مسألة الحفاظ على الأمن فى هذه المنطقة أمرًا بالغ الصعوبة ، فإن الموقع الذى اختير مقرًا للحاكم ، يعد من وجهه نظرى موقعًا مثاليًا ، وأفضل كثيرًا من القلاع المهدمة التى سبق أن أقامها أسلاف ابن سعود لتكون مقرًا للحكم والسلطة فى وادى الدواسر . وأفضل تلك القلاع المهدَّمة هى تلك القلعة التى أطلقوا عليها اسم قلعة البهجة Bahja، التى توجد أنقاضها على بعد حوالى ربع ميل جنوبى بلدة دام ، ويعود تاريخها إلى حكم سعود الكبير. وعلى كل حال ، يبدو لى أن تدمير تلك القلعة تزامن مع الفوضى الكبيرة التى تميز بها الاحتلال التركى لأعالى نجد بعد أن استولى الأتراك على الدرعية Dara'iyya ودمروها . ومن بيت آل سعود كان الملك فيصل هو الذى أخضع وادى الدواسر لسلطته ، وهو الذى بنى القلعة

الكبيرة التى يسمونها أبوطوق Abu Tauq ، وربما جاءت تلك التسمية من الخندق الذى لا يزال يطوق حطام تلك القلعة التى بنى نصفها وصنع النصف الآخر من الطين ، بالقرب من السور الشرقى لعاصمة الوادى . وآلت تلك القلعة أيضًا إلى ما آلت إليه القلاع السابقة ، بفعل الاضطرابات التى طالت مناطق الجنوب كلها فى الفترة ما بين حكم الملك فيصل وحفيده ، الحاكم الحالى .

ومن الداخل ، فإن قلعة البرزان التى ليست لها سوى بوابة واحدة فى الجانب الشمالى ، تتكون من فناء واسع تحيط به غرف للمعيشة وإسطبلات للخيل ، وعلى الجانب الأيمن من الردهة المؤدية إلى القلعة توجد غرفة الاجتماعات (المجلس) الكبيرة ، التى يصل طولها إلى حوالى ثلثى طول السور الخارجى ، وأرضيتها مفروشة بطبقة سميكة من الرمل . وعلى الجانب الآخر يوجد مسجد صغير معتم ، يوجد على سطحه سكن صغير – يبدو أنه غرفة اجتماعات خاصة – وضعوه تحت تصرفى طوال فترة وجودى هناك ، على الرغم من أن المدخل الوحيد الذى يؤدى إلى ذلك السكن كان عبارة عن سلم مكون من بضع درجات يتم الدخول إليه من امتداد (صحن) المسجد المكشوف . وكان سكن الأمير الخاص يشغل القسم الأكبر من السور الشرقى ، وهو الجانب نفسه الذى توجد فيه غرفة الضيافة والمطبخ ، كما كان منزل الأمير يحتل جزءًا أيضًا من السور الجنوبى ، فى حين كانت المبانى المتبقية عبارة عن إسطبلات . وفى ركن من أركان حوش القلعة كانت هناك بئر ، وإلى جوار غرفة الاجتماعات كانت هناك تحويطة حولها سور منخفض مصنوع من الطين وفيها وجار للقهوة ، يستعمل طول الوقت عندما لا تسطع الشمس على الحوش ، وفى هذا المكان يجتمع الأمير هو وزوّاره لتجاذب أطراف الحديث وهم يشربون القهوة .

وطبقًا للعرف السائد رحب بنا حاكم دام ترحيبًا حارا فى وجبتى الغداء والعشاء ، وقد جرى تقديم وجبة العشاء فى التحويطة التى سبقت الإشارة إليها ، وكان عبارة عن لحم ضأن وفتة (ثريد) وضعت على شكل كومة فوق صينية دائرية مسطحة . ولأننى كنت أعرف المصاعب التى تترتب على تناول الطعام والتغذية فى تلك المنطقة ، ونظرًا لأنه كان لدينا شىء من لحم الخروف الذى اشتريناه فى السُّلَيِّل ، فقد أبلغت إبراهيم أن يلتمس من الأمير أن يسمح لنا بالقيام بأمور غذائنا بأنفسنا ، وقد فعلنا ذلك الشىء

نفسه طوال مدة مقامنا في دام ، فيما عدا الليلة الأخيرة التي أصر فيها مضيفنا على الاحتفال بنا وتكريمنا في مأدبة وداعه . الواقع أن سُمعان هو وأتباعه كانوا يسعدوننا بالانضمام إلينا في كل الوجبات ، وهنا يتعين عليَّ الاعتراف أنني كنت احتفظ بود عميق لذلك العجوز المشاكس ، الذي كانت لديه موهبة عجيبة في قول الخطأ دوماً لمجرد أنه كان يطرح أيه فكرة تطرأ على باله ، وكان يحاول دائمًا جعل مشاعره تصل إلى مسامعي ، وبنبرات تليق بثور من الثيران ، ظنًا منه أنني وكل الآخرين كنا صماً تماماً . وفي إحدى المرات زأر ذلك الرجل في أذني قائلاً : "لماذا لا تصلى مثلما يصلى المسلمون ؟" ولكن تامي غطى على حرجي بطرفة من طرائفه وغيَّر موضوع الحديث . وسمعان هذا لم يسبق له أن رأى مطلقًا أو حتى زار صنعاء ، وكل ما كان يعرفه هو الصحراء المحيطة بنجران فضلاً عن الغالبية العظمى من الرجال . ومن سلسلة جبال أبو هويِّل Abu Huwail التي سميت باسم قلعة هويِّل المدمرة التي تقع عند الطرف الغربي من سلسلة جبال هويِّل وتبعد حوالي ربع ميل عن قصر برزان ، وتوازي الضفة اليمنى من الوادي ، شاهدت في مساء الليلة الأولى من جولتنا منظراً عاماً للواحة كلها والأشياء المحيطة بها ، فقد رأيت أسفلنا مباشرة ثلاث مدينات twonlets: دام ومشرف وصحبة ، التي تفصلها عن بعضها البعض مسافات قصيرة ، شاهدتها على طول الحافة الجنوبية للقناة ، التي كانت تفصل تلك المدينات عن مربعات النخيل الكبيرة التي تطوق تلك المدينات على الجانب البعيد . وإلى الغرب من تلك المدينات وفي اتجاه أعالي المجرى توجد الهجر (النجوع) المتناثرة والمتخلفة ، وبيارات النخيل ، وأدغال الإثل الخاصة بقرية الفراعة Fara'a ، أو إن شئت فقل القسم الغربي من الواحة ، التي يصل طولها من أقصاها إلى أقصاها – باستثناء أدغال الإثل غير المأهولة ، ومزارع الراك Rak غير المأهولة أيضًا في كل من الغيف Ghaif والراكة Raka – يصل إلى حوالي سبعة أميال . وقناة سيل ووادي الدواسر تمر خلال ذلك القسم الغربي من الواحة ، ومجرى ذلك الوادي الطيني في بعض أجزائه يغطيه غطاء غير كثيف من أدغال الرمض Rimdh والعشب ، وفي بعض الأجزاء الأخرى نجد ذلك المجرى عارياً ومحروقًا بفعل أشعة الشمس . وشاهدنا حولنا من جميع الجوانب صحراء شاسعة لا نهاية أو حدود لها ، أرضاً شاسعة من التموجات الرملية الحمراء المتنقلة تمتد حتى الأفق الشمالي ، بدءًا من حافة حزام النخيل ، الذي أطبقت عليه موجات الرمال تلك في

أماكن كثيرة منه على مرأى ومسمع من الذاكرة الحية ، لتدفن مواقع البيارات والهجر (النجوع) القديمة . وهذه الهجر (النجوع) على وجه التحديد هى معيذر Ma'aidhar فى المنطقة ما بين اللُّغاف ومخارم Mukharim وهجرتا (نجعا) المرجانية Mirjaniyya والقرارية Qurariyya فى المنطقة ما بين القسمين الأوسط والغربى ، التى قالوا لى عنها إنها كانت مركزًا زراعيًا مشهورًا منذ حوالى ثلاثين عامًا أو أربعين .

وفى اتجاه الجنوب كانت هناك صحراء من الزلط والحصى ، تتخللها رواب منخفضة وسلاسل جبلية منخفضة أيضًا ، وتأخذ فى التدرج إلى أن تصل إلى مجرد رمل فى اتجاه الجنوب الغربى ، وهو الاتجاه الذى يقع فيه من ناحية حزام عريض من الكثبان الرملية فيما بين الصحراء وحائط الطويق البعيد الذى مازلنا نراه ، ومن الناحية الأخرى وفى اتجاه الغرب والشمال الغربى نجد بين تلك الصحراء والأرض الرملية الشمالية الجرداء قناة الوادى تنساب قادمة من الشمال الغربى خلال سهل رملى خفيف . كما شاهدت عن بعد فى ذلك الاتجاه أيضًا جزءًا بارزًا من سلسلة الجبال الغربية ، أو إن شئت فقل كتلة الريّانية Raiyaniyya الوعرة – إن صدق ما يقولونه – التى تطل شامخة على ملتقى الوديان الثلاثة الكبيرة ، التى يعد اقترانها على شكل منخفض واسع ، الذى يطلقون عليه اسم الحجلة Al Hajla ، رأسًا لوادى الدواسر . والناس هنا يقولون : إن سيول التثليث وبيشة ورانية وهى تنزل من الجبال التى تنبع منها تدخل ذلك الملتقى ، فى المنطقة المجاورة للريانية ، من الجنوب الغربى وأقصى الجنوب الغربى ، ومن الشمال الغربى ، وهى تصب ماءها فى حوض الحجلة ، الذى يسده من ناحية الشرق حاجز سميك من الرمال الكثيفة يصل عرضه إلى حوالى عشرين ميلاً أو ما يزيد على ذلك ، الأمر الذى يجعل الماء يغوص فى التربة . وهذا هو ما يحدث أيضًا فى حزام عرق السبيع الرملى[٢٠] فى أقصى الشمال الذى تجيىء منه سيول وادى سبيع Subai'، وأنا أرى أن ذلك أمرًا غير محتمل – على الرغم من أنى لا أستطيع القطع بذلك – بمعنى أن ذلك الحزام الرملى لا يعدو أن يكون مجرد امتداد لحاجز الوادى فى اتجاه الشمال ، وأن كل هذه الأشياء عبارة عن ذراع واحدة من أذرع الصحراء الجنوبية الكبرى .

والذاكرة البشرية لم تسجل مطلقًا انسياب مياه السيول فى قناة وادى الدواسر قبل حلول شهر رمضان ، أى قبل اثنى عشر شهرًا من زيارتى ، أى عندما اندفع سيل الوديان الثلاثة الحبيس ، أو بالأحرى سيل التثليث وحده ، إذ تقول التقارير المحلية أن المياه التى اندفعت فى تلك القناة ، ربما بفعل الوابل ، بلغت أقصى مدى لها ، ثم اندفعت خلال الحاجز الرملى وتدفقت مندفعة على امتداد ذلك المجرى المهجور فى الصحراء منذ زمن طويل . وعلى مسافة بعيدة فى الوادى سمع الناس زئير المجرى الهادر ، ثم وصلت بشائر المياه إلى حدود الواحة الخارجية مع حلول المساء . وهنا صاح أحدهم قائلاً : "السيل ! السيل قادم علينا !" وهو يندفع مشدوهًا إلى غرفة الاجتماعات التى كان الأمير جالسًا فيها مع ضيوفه يشربون القهوة ، بعد صلاة المغرب . وهنا ضحك الأمير ساخرًا وقال : "أعطنى منه كأسًا ، أعطنى منه كأسا كى أشرب السيل قبل أن يجف !" ولكن السيل جاء فعلاً ، وعند ظهر اليوم التالى كان الوادى قد امتلأ بمياه الفيضان التى كانت تدوم فى المجرى ، وعلى امتداد الأيام الثلاثة الأولى زادت سرعة السيل ، الأمر الذى جعله يتجاوز منطقة أدغال الراكة Raka . وبعد ذلك بدأ يضعف ذلك الفيضان بعد أن استمر أربعة أيام ، ثم توقف السيل بعد ذلك مخلفًا وراءه بحيرة تشرح صدر الرجال ، الذين لم يروا الماء مطلقًا من قبل فى ذلك المكان . وعلى امتداد شهرين تقريبًا راح هؤلاء الناس يشربون من مياه السيل فى البحيرات وفى البرك التى كانت فى قاع الوادى ، وسيظل عام السيل تاريخًا مسجلاً فى حوليات ذلك الوادى . لقد تسبب ذلك السيل فى حدوث دمار كبير وبخاصة فى وادى التثليث، إذ فاجأ السيل الرعاة هم وقطعانهم وجرفهم بتياره العنيف ، وقدرت الخسائر التى نجمت عن ذلك السيل بحوالى ١٥٠ نفسًا بشرية ، وحوالى ٤٥٠ جملاً ، وعددًا لا يحصى ولا يعد من الأغنام . وفى الواحة نفسها لم تحدث خسائر فى الأرواح ، ولكن السيل وفر عددًا كبيرًا من الآبار ، كما اندثر أيضًا نجع (هجرة) حنابجة Hanabija . وقد عوَّض ذلك الضرر التحسن الملحوظ فى مستوى الماء وكذلك نوعية الماء فى الواحة ، فى حين أسفر الفيضان عن محصول وفير من نباتات زيت الخروع ، التى أكدوا لى أن الوادى لم يشهد مثيلاً له من قبل – على الرغم من ملاحظتى لبعض تلك النباتات فى واحة السُّلَيِّل(٢١) – والمعتقد هنا أن تلك النباتات ربما تكون قد نمت من البذور أو الشجيرات

الصغيرة التى حملتها معها مياه السيول من الجبال . وقبل مجيئنا بأسابيع قلائل كانت شائعات السيل الثانى بدأت تسبب شيئًا من القلق فى الوادى ، ولكن التثليث فى تلك المرة كان مسئولاً عن فيضان ، أو إن شئت فقل سيل ، أكبر من السيل المعتاد ،غير أن مياه ذلك الفيضان لم تستطع أن تشق لنفسها طريقًا فى الحزام الرملى ، كما أن مجرى الدواسر لم يتأثر بذلك السيل .

كنت متشوقًا تمامًا إلى استكشاف ما وراء حدود الواحة فى اتجاه أعالى المنخفض ، أو إلى بدايته إن أمكن ذلك ، عند سفح سلسلة جبال الريّانية ، ولكن المشكلة كانت تتمثل فى أنى لم يكن لدى ما أغرى به إبراهيم على القيام بذلك ، كما أن الحكايات التى كانت تتردد عن عصابات الغزو فى تلك الأماكن هى التى جعلتنى أرضخ لذلك القرار . ومع ذلك ، ففى إحدى المرات عندما قمت بجولة قصيرة مع مجموعة صغيرة من الرفاق لم يكن إبراهيم من بينهم ، انتهزت فرصة غيابه ورحت أستكشف فى الاتجاه المطلوب بزعم الحصول على عينات من رواب بعينها على بعد مسافة قصيرة فى السهل الجنوبى . وبعد أن وصلت إلى أبعد رابية من تلك الروابى فى اتجاه الغرب ، وهى عبارة عن جبل صغير يسمونه جبل المطيعان Al Mutai'an، أصررت على العودة من طريق فيه مجموعة من أدغال نبات الغاضة ، ويقع فى الناحية الغربية من الواحة وفى مجرى الوادى . وتسبب قرارى هذا فى إحداث شىء من الاضطراب لدى رفاقى . ومضينا فى الطريق نفسه بعد أن دفعنا كشافين إلى الأمام ؛ وما إن وصل أولئك الكشافون إلى القناة حتى أشّروا لنا بالتوقف والانتظار ، ويبدو أن الكشافين عثروا على آثار خمسة عشر من الغزاة وقطاع الطرق كانوا متجهين إلى الواحة . ومن حداثة الأثر أمكن الوقوف على أن أولئك اللصوص قد مروا بتلك المنطقة مع طلوع الفجر أو قبل ذلك بقليل ، وهو ما يرجح احتمال ملاقاتنا لهم عند عودتهم من الواحة . ومع ذلك ، وبعد أن خطونا عدة خطوات إلى الأمام تبددت مخاوفنا عندما رأينا آثار أقدامهم الحديثة جدًا والتى اتضح منها أن هؤلاء اللصوص الخمسة عشر اتجهوا ناحية الغرب . وهنا تقدم طويرش ، ومعه ثلاثة آخرون فى شىء من الحذر ، سائرين على أقدامهم ، فى اتجاه قمة سلسلة جبال رملية على الضفة البعيدة للقناة ، كى يقوموا باستكشاف الأرض ، فى الوقت الذى رحنا ننتظر وصول تقريرهم ونحن

نغطيهم ونسترهم . وما إن وصل طويرش ومن معه إلى قمة سلسلة الجبال الرملية حتى شاهدوا على بعد مسافة قصيرة ، ثلاثة يركبون جمالاً ، وكان واضحًا أنهم جزء من عصابة اللصوص ، وبالتالي توصلنا إلى استنتاج مفاده أن بقية تلك العصابة لابد من أن تكون مختفية فى ثنية من ثنايا تلك السلسلة من الجبال الرملية . وقد اكتفينا بما توصلنا إليه . هذا يعنى أن عدد تلك العصابة كان خمسة عشر لصًا ، وكلهم راكبون ، بينما كنا نحن أربعة عشر رجلاً نركب على ثمانى نوق . وهنا وجهنا شطر مخيمنا أو اتجهنا إليه بأقصى سرعة ممكنة ، ولكن طويرش ومن معه تأخروا بعدنا كى يطلقوا بضع طلقات على العدو ، انطلقوا يعدون بعدها نحونا وهم يتغنون ببعض الأغانى العسكرية ، وكان واضحًا أنهم كانوا سعداء تمامًا باستعراض الشجاعة ، التى كان يمكن أن تترتب عليها نتائج وخيمة لو كانت بقية العصابة قريبة منا وتستطيع مطاردتنا وتعقبنا . وعلى كل حال ، فقد وصلنا آمنين إلى ملجأ بيارات نخيل الفراع وكانت تلك نهاية مشروع قيامى بجولة طموحة . والناس هنا يقولون : إن غالبية العصابات المغيرة التى تنتشر فى الصحراء فيما بين الوادى وواحات الأراضى المرتفعة - بيشة والتثليث ورانية - من فخذى رزق Rizq والسلم Sulam من قبيلة يام Yam ، وأن تلك العصابات جريئة جدًا ، إذ إنها تأتى إلى الواحة فى جنح الليل لتحصل منها على ماء الشرب لها ولدوابها ثم تنصرف قبل طلوع الفجر .

وبعد أن أصبح وصولى إلى برزان Barzan حقيقة واقعة ، تمنيت أن يكون الاستياء الذى سبق وصولنا قد انحسر دون حدوث فوران أو غليان ، ولكننا تحسبنا لطبيعة الجهل فى شخصية أهل دام الحقيقية ، وبخاصة أنهم حدث بينهم رد فعل عميق فى اليوم الأول لوصولنا ، وأن رد الفعل هذا كان موجهًا ضد خضوع زعمائهم وسماحهم بوجود كافر بينهم . وفى صبيحة اليوم التالى وبينما كنت أرتدى ملابسى استعدادًا للقيام بجولة إلى بيارات النخيل المجاورة ، حضر إلىَّ ابن جلهم باقتراح مفاده أننى ربما كنت أود رؤية المنظر من فوق قمة برج من الأبراج ، وعلى الفور وجدتنى أوافق على ذلك الاقتراح وأتبعه طالبًا للتنفيذ . وبينما كنت أرتقى درجات السلم شعرت بشىء من الامتعاض والاستياء عندما وجدت إبراهيم يرحب بى عند أعلى البرج ، ولكن الذى أدهشنى بحق أن إبراهيم لم يكن وحده وإنما بصحبة الأمير نفسه .

وحيانى الأمير تحية حارة ، وتحمل مشقة الإشارة إلى القرى المختلفة وإلى علاماتها الأرضية المميزة أيضًا ، وبعد لحظات قليلة انسحب إبراهيم وطلب الأمير منى الجلوس نظراً لأنه كان يريد التحدث إلىَّ فى أمر مهم للغاية . فقد تلقى الأمير إنذاراً مفاده أن أهل دام بعد أن ندموا على خضوعهم لأوامره ، فإن البعض منهم قد أعلنوا عن انتوائهم تصحيح الأمور بطريقتهم الخاصة . ومن رأى أهل دام أن قتل الكافر يعد جواز مرور أكيد إلى الجنة ، وأنه على الرغم من إعلانه على الملأ أن أية محاولة للإضرار بى سوف تترتب عليها نتائج وخيمة مباشرة على البلدة كلها ، فإنه شعر بشىء من العصبية والتوتر إزاء التغير النفسى الذى طرأ على السكان ، وتخوف من أن يقوم واحد من المتشددين بمحاولة دخول الجنة مهما كانت التكاليف . ومن ثم فقد رجانى الأمير الإقلاع ليوم واحد فقط عن الخطط التى ربما أكون قد أعددتها للقيام بجولات فى الواحة ، وأكد لى أن الأمور سوف تستقر تمامًا وعلى وجه السرعة عندما يتعود أهل البلدة على وجودى فى أراضيهم ، وشدد علىَّ ألا أغادر القلعة تحت أى ظرف فى أثناء النهار ، وأننى إذا ما أردت أن أمتع نظرى بمناظر القصر ، فإن البرج سيكون تحت تصرفى ، فى أى لحظة ، أود خلالها القيام بذلك . وقد تقدم الأمير إلىَّ بذلك الرجاء الواضح الجلى بنية صادقة ومعتمداً على أسباب وجيهة ؛ مما جعلنى أقبله فوراً وبلا تردد ، وأمضيت النهار بطوله حبيسًا بين جدران القلعة الأربعة ، التى ظلت بوابتها مقفولة ومحروسة من الداخل ومن الخارج طوال النهار ، ولم يسمح لأحد بالدخول إلى القلعة سوى الأشخاص المصرح لهم بذلك . وبطبيعة الحال ، كانت القلعة تفتقر إلى بعض وسائل الراحة ، ووجدت أننى يتحتم علىَّ أن أروح وأجىء بين الحين والآخر ، ولم أشعر بالحرج وأنا أفعل ذلك على مرأى ومسمع من أولئك الكشافين الذين صدرت لهم الأوامر بألا أغيب لحظة عن أبصارهم . وازداد الطين بلة بالرسالة التى وجهتها إلى رفاقى ، لأقول لهم فيها : إن حضورهم صلاة الجماعة - كان اليوم يوم جمعة - لن تقبل ؛ ولذلك عادوا إلى مسجد قرية مشرف ، الذى كان يمتاز بالقرب من القلعة . وفى ذلك الوقت استطعت من الفتحة العالية فى برج المراقبة ، أن أسلى نفسى ببنات البلدة نفسها وهن تجلبن الماء من بئر قريبة من أسوار القلعة ، كما شاهدت أيضًا رعاة قطعان الماعز وهم يقودون قطعانهم عند الغسق لحلب ألبانها . واعتباراً من اليوم الثانى

أصبحت حرًا أتجول حيث شئت ، فقد انهار عداء أهل دام لى فى شكل إشارة وصلتنى على شكل رسالة من كبراء البلدة ، يعتذرون فيها عن سلوكهم السابق ، والتمسوا منا إرسال وفد للاحتفال بالسلام فى أثناء شرب القهوة معهم . وأنا أعتقد بحق ، أن الدعوة فُسرت على أنى لست من بين المدعوين ، وفى اليوم التالى ، الموافق اليوم الثانى من شهر يونيو ، ترأس إبراهيم وفداً جرى انتقاؤه ، واتجهوا إلى منزل ابن ضاريمان Dhari-man، أحد كبراء تجار البلدة ، حيث جرى فى بيته بعد كثير من النقاش وشرب القهوة ، عمل مصالحة وأغلق تمامًا ملف تلك الحادثة . وأنا لا تزال لدى وفى حوزتى مذكرة بذلك الموضوع ، وهى عبارة عن شخبطة جاهلة توضح أسماء أولئك الذين دبروا تلك المؤامرة .

بلدة الدام Dam، عاصمة منطقة وادى الدواسر ، تقع على منحدر ضفة القناة اليمنى القاحل فى منتصف المسافة تقريبًا بين حوض القناة الحقيقى وسلسلة جبال أبو هويّل Abu Huwail . وبلدة دام شكلها مستطيل تقريبًا ؛ إذ يصل طولها إلى حوالى ٥٠٠ ياردة وعرضها أقل من ذلك قليلاً ، وهى تقع فوق رابية منخفضة بنيت فوقها أفضل منازل تلك البلدة ، وكان يحيط بها فى يوم من الأيام سور متين متوسط الارتفاع معظمه مدمر حاليًا ، الأمر الذى ترتب عليه حدوث كثير من الفجوات التى سهلت ، فى غياب البوابات المناسبة ، الدخول إلى ذلك البلد من عشرات الأماكن . وأفضل مبانى تلك البلدة عبارة عن منزل يشبه القلعة يطلقون عليه اسم قصر الحُسيِّن Husaiyin وهو مملوك لواحد من الرؤساء المحليين . والبلد ليس له سوق Suq منتظمة ، وإنما مجموعة من الدكاكين المتناثرة ، هى التى تمارس الأنشطة التجارية فى ذلك المجتمع ، وعدد سكان ذلك البلد يقدر بحوالى ٢٠٠٠ نسمة من فخذ الرجبان Rijiban المستقل ، الذى يعد واحدة من أقوى عشائر الدواسر . ومنازل ذلك البلد ، شأنها شأن مستوطنات وادى الدواسر كلها ، مبنية من الطوب اللبن[٢٢] ، كما أن بيارات النخيل التابعة لذلك البلد من النوع الجيد ، ويعتنى الناس بها مثل بقية البيارات الأخرى فى الواحة .

والأرض الفضاء التى بين بلدة دام وبلدة مشرف المنافس الرئيسى لها يطلق الناس عليها اسم الخمَّاسين Al Khammasin، وهو فخذ من الوُديِّن Wudda'in، الذين يمثلون القسم الأكبر من سكانها ، الذين يقدر عددهم بحوالى ١٥٠٠ نسمة ، وتلك

الأرض الفضاء يوجد فيها قصر البرزان فضلاً عن جَبَّانة كبيرة أيضاً . وبلدة مشرف نفسها هى المركز التجارى الرئيسى فى الواحة ، إذ توجد بها سوق دورية ، لا تختلف عن سوق ليلى Laila، وتضم حوالى ثلاثين دكاناً منظمة على شكل شبه مربع بالقرب من البوابة الغربية . وسور بلدة مشرف الدائرى أفضل حالاً من سور دلم من حيث الصيانة ، ولكنه مخرَّب أيضاً فى جانبه الشرقى ، حيث لا توجد بوابة . وبلدة مشرف ليس لها أية مبانى معمارية الطابع بأى حال من الأحوال ، وشوارعها ضيقة وملتوية ، كما أن قسماً كبيراً من المنازل المبنية فى الركن الشمالى الشرقى من تلك البلدة مدمر . وأنا بنفسى لم ألتق أمير الخماسين ، محمد بن سلطان ، الذى ميز نفسه ، على الرغم من كل ما حدث ، باتخاذ موقف طيب تماماً منا منذ البداية ، الأمر الذى ترتب عليه أن راح يتحمل مسئولية إمدادنا بما يلزمنا من العلف والحليب .

وبلدة صبحة Sabha التى يسكنها الولامين Wullamin – فخذ مستقل أخر من أفخاذ الدواسر – تقع على بعد مسافة قصيرة من بلدة مشرف فى اتجاه الشمال الغربى ، وقد اتخذ ذلك البلد موقف المعارضة السلبية من وجودنا ، ولذلك تهرب من مسئولية تزويدنا باحتياجاتنا ، كما تهرب أيضاً من مسئولية المعارضة الإيجابية لقدومنا . وبلدة صبحة شأنها شأن البلدات الشقيقة الأخرى مسوَّرة فى بعض أجزائها على الرغم من أنها تعد أصغر البلدات الثلاث ولا يزيد عدد سكانها بأى حال من الأحوال على ١٠٠٠ نسمة . وبيارات نخيل صبحة على الجانب الآخر من المنخفض مفصولة عن بيارات مشرف بواسطة بئر يطلقون عليها اسم الفريخ Al Furaikh . وفخذ الولامين Wullaminيضم جماعتين فرعيتين هما : آل سعد ، ويرأسهم محمد بن درعان ، فى حين يرأس مبارك بن على آل تميم .

والمربع الغربى من الواحة عبارة عن منطقة واسعة من بيارات النخيل المتناثرة التى تتخللها غابات الإثل وحقول القمح ، والناس هنا يطلقون على تلك المنطقة اسم الفراعة Fara'a. والمستوطنة الرئيسية فى الفراعة عبارة عن مجموعة من الهجر (النجوع) ، التى يطلق الناس عليها اسم الحَمرة Al Hamra، والقسم الأكبر منها عبارة عن خرائب ، وتقع على ضفة الوادى اليمنى ، والأقسام الإدارية الأخرى تطلق

عليها أسماء مستقلة مثل : خرائب حويزة Huwaiza والعُويمر AlUwaimir التى تقع فى شمال الحويزة ، ويسكنها حوالى ٣٠٠ نسمة من فخذ يحمل الاسم نفسه ، وهناك أيضًا خرائب آل حميد ، وكذلك آل معنِّى Al Ma'anni التى يعيش فيها حوالى ٢٠٠ نسمة . وتوجد بين بيارات النخيل ثلاث هجر (نجوع) أخرى[٢٣] : آل نهيش Nahish وآل جلال Jilal وهما متجاوران ، ويقدر عدد سكان الهجرة الأولى بحوالى ٢٠٠ نسمة والهجرة الثانية بحوالى ٥٠ نسمة ، أما الهجرة (النجع) الثالثة فهى سراجى Siraji وتضم حوالى ١٠٠ نسمة من الحميضان Humaidhan، الذين هم جماعة فرعية من العُويمر Uwaimir .

تقديرات السكان احتمالية إلى حد بعيد ، ويجب قبولها بشيء من التحفظ ونحن نتناول بلدًا مثل الجزيرة العربية ، التى يتعين إقناع سكانها بقبول الفوائد التى تترتب على الإحصاء الصحيح لعدد السكان . وسكان هذه البلاد ينظرون إلى مسألة التعداد نظرة غير طبيعية تمامًا ، إذ يعتبرون ذلك مقدمة لواحد فقط من شرَّين يخافونهما ؛ وهذان الشرَّان هما اللذان يزعجان إيقاع حياتهم الصحراوية : الغزو من عدو أجنبى ، أو مقدمة لجمع الضرائب . وإذا ما أضفنا إلى تحفظ هؤلاء الناس فى مثل هذه الأمور ، تحيزهم الفطرى إلى عدم التحدث عن النساء وعن الأطفال ، فضلاً عن ميلهم المسموح به فى المبالغة فى قوتهم العسكرية ، وكان من رأى دوتى الوجيه أننا ينبغى أن نسقط من التقديرات الوطنية نسبة تسعين فى المئة من الأشياء التى من هذا القبيل إن أردنا أن تكون لدينا فكرة مقبولة عن الرقم المطروح ، وكل هذه الأمور تجعل من الصعب علينا تصور مدى المصاعب التى تترتب على ذلك . ومع ذلك ، فقد وجدت أننى يتحتم علىَّ التغاضى عن التقديرات والأرقام والتضحية بها كلما أمكننى ذلك ، وأتمنى فى ضوء السيطرة على خيالى ، أن أكون قد تمكنت من الاقتراب من الحقيقة قدر المستطاع ، وبخاصة إذا ما جاءت أرقامى وتقديراتى أقل من الحقيقة وليست أكبر منها . وأيًا كانت الأحوال ، فإن سكان واحة الوادى ، باستثناء المخارم Mukharim الرحل ، يقدرون بحوالى ٩٠٠٠ نسمة منهم حوالى ٢٠٠٠ نسمة من العبيد أو الزنوج ، والباقى من السلالة الدوسرية النقية . وهذا الرقم يمكن أن يتضاعف بسهولة إذا ما أضفنا إليه العنصر البدوى المتنقل من تلك القبائل ، وهذا العنصر البدوى المتنقل يتساوى مع

العنصر المستقر ، وبالتالى يصبح الرقم الإجمالى لأولئك السكان حوالى ١٤٠٠٠ نسمة ، يضاف إليه حوالى ٢٠٠٠ نسمة أخرين من المخارم المتنقلين . وأنا أرى أننا عند هذا الحد لا نكون مخطئين إذا ما قدَّرنا عدد السكان الذين يعتمدون على وادى الدواسر بحوالى ١٦٠٠٠ نسمة من رجال القبائل ، وحوالى ٢٠٠٠ نسمة من الزنوج ، ليصبح الإجمالى حوالى ١٨٠٠٠ نسمة ، وهذا التقدير بحد ذاته كفيل بإحداث هزة فى تفاخر الدواسر بأعدادهم وتباهيهم بها .

وتاريخ وادى الدواسر ، وهوية سكانه السابقين ، والخطوات التى مر بها إلى أن أصبح فى قبضة سكانه الحاليين كلها مسائل غامضة وغير واضحة ، ولكن ليس هناك شك فى أن الدواسر جاءوا أصلاً من اليمن Yaman، الذين حصل جدهم الكبير زايد Zayid الملطب al Maltub، الذى انحدر منه الدواسر كلهم على امتداد أجيال عدة مضت ، على إذن من حكام البلاد بالنزوح عنها ، ليستقر ومعه بعض أتباعه فى الوادى بين سكانه الأصليين فى ذلك الوقت . وبمرور الزمن تناسل هؤلاء الناس وتزايد عددهم بشكل لم يمكنهم فقط من امتصاص مضيفيهم أو تدميرهم والقضاء عليهم ، وإنما انتشروا وتوسعوا أيضًا فى اتجاه الشمال إلى أن دخلوا نجد، وامتلكوا السُّليل ، والأفلاج والخرج ، التى شاهدت فيها توزيع مستوطناتهم (قراهم) ، كما امتلكوا فى الوقت ذاته رقعة واسعة من الأرض ، التى كان وادى الدواسر بمثابة القاعدة منها وامتدت حدودها النحيفة إلى أن وصلت تخوم الأحساء فى أقصى الشمال الشرقى . ومن ناحية الجنوب زحفوا على آل مرة Murra وطردوهم إلى أراضى الربع الخالى الجرداء ، ومن ناحية الشمال زحفوا على القحطان the Qahtan، الذين أوقفوا زحفهم ومنعوهم من التقدم صوب قلب نجد أو الاقتراب من ممتلكاتهم ، كما زحف باقى الدواسر أيضًا على بقايا السبيع وبقايا السهول Suhul، الذين أقاموا لأنفسهم موطنًا فى شرقى نجد . ترى من كانوا أولئك المضيفون الذين أساء الدواسر إليهم باغتصاب حقوقهم المكتسبة بالمولد ؟ آه ليتنى أستطيع القطع بذلك . ومع هذا ، فأنا أرى أن الحزر والتخمين ليسا محظورين ، ومن هنا يمكن القول : إن بقايا أولئك المضيفين الكرماء يمكن الوقوف عليها فى البقية الباقية من الجماعات القبلية المعروفة باسم أبات Abat الدواسر Dawasir، التى سبق أن أشرت إليهم وأنا أتناول واحة تمرة Tamra

وكيميدة Kimida والرويسة Ruwaisa ، والتى ينسب إليها أهل المنطقة أربعة من الأفرع الموجودة حاليًا ، والأمُر the Amur، الذين يعيشون فى تمرة والكبكابية ، وبقايا الرويسة ، والجقبان الذين يسكنون كيميدة ، والذين تمثلهم فى الوادى نفسه بعض بقاياهم المتناثرة هنا وهناك ، وأخيرًا المشاوية Mishawiyya والخيالات Khiyalat الذين جرى طردهم هم ومواشيهم وكل متعلقاتهم من ممتلكات أسلافهم ، ولا يمكن العثور عليهم حاليًا إلا فى الأحساء . وفى فترة باكرة انقسم بيت زايد المطلوب إلى فرعين : آل سُهيب[٢٤] ، الذى يشتمل على آل حسن Hasan والمساعرة والشرافة والرجبان وجماعات المخارم . وآل سلم ، الذين انقسموا بدورهم إلى فرعين : آل زيد الذين يمثلهم حاليًا العويمر the 'Uwaimir والمعنًى وناحش Nahish من الفراعة Fara'a ، وآل غانم ، الذين تنتمى إليهم جماعات الوُداعين Wudda'in والولامين Wullamin . هذا هو تصورى لهيكل قبيلة الدواسر ، التى يؤهلها عددها وتوزعها على الأرض لتكون واحدة من التنظيمات القبلية الرئيسية فى الجزيرة العربية الحديثة ، وأن تكون ندًا للقحطان ، وعتيبة ، وحرب ، والمطير ، والشمر ، والعنزة ، وسادة الصحراء ، فضلاً عن أن قرى الدواسر التى لا تحصى ولا تعد فى نجد العليا وخارج الحدود القبلية المعترف بها تعد مقياسًا لنفوذ تلك القبيلة فى تشكيل الجزيرة العربية الحديثة . وقد سبق أن أعطيت القارئ فكرة عن مشاركة تلك القبيلة مشاركة فاعلة فى مصايد اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ، ويكفى أن نشير هنا إلى وجود مستوطنة زاهرة للدواسر فى جزيرة البحرين ، وأن نعيد إلى الأذهان ذكرى أولئك الذين ساهموا فى المراحل الأولى من حملة بلاد الرافدين ، وأن معركة السنية Saniyya التى جرت فى شهر نوفمبر من عام ١٩١٤ الميلادى دارت خلال بيارات نخيل الدواسر الكثيفة على شط العرب . ويقال أيضًا إن هناك أفرعًا أخرى لهذه القبيلة فى مناطق مختلفة من ساحل الخليج الفارسى ، وربما يكون التوزع الكبير للمستوطنات المستقرة من تلك القبيلة هو الذى أسهم إسهامًا كبيرًا فى الانطباع الخاطئ الذى مفاده أن تلك القبيلة "أصبحت غير بدوية تمامًا" ، كما هو وارد فى الدليل الرسمى الذى سبقت الإشارة إليه فى مناسبات كثيرة . والدواسر بدو أولاً وأخيرًا داخل حدود منطقتهم القبلية ، كما أن توسع الدواسر فيما وراء حدود منطقتهم القبلية ليس سوى دليل على الدور العظيم الذى لعبه

الدواسر فى تاريخ الجزيرة العربية على امتداد فترة طويلة ، ضاعت بداياتها فى ضباب القدم مثلما ضاع الاسم الأصلى لتلك الواحة ، التى استعمروها تحت اسم وادى الدواسر .

ومنتجات وادى الدواسر الزراعية تشبه من جميع النواحى منتجات السُّلَيِّل والواحات الأخرى المماثلة فى جنوبى نجد . والماء متوفر فى وادى الدواسر من خلال أبيار عدة تتراوح أعماقها بين أربع قامات وخمس ، كان ذلك العمق أكثر من ذلك قبل حدوث الفيضان ، وتعمل بواسطة الإبل والحمير والأبقار . والتمر هو والقمح من المنتجات الثابته ، كما أن هناك زراعات فرعية للخضروات والفاكهة من الأنواع المعتادة . ومستوى معيشة الناس هنا منخفض جداً ، إذ يدخل اللحم والأرز والشاى ضمن مظاهر الترف ، ويندر أن ينغمس الناس فيها هنا ، فى حين يعد الخبز والحليب والثريد والتمر والقهوة وكذلك القشر – وهذان الاثنان الأخيران مأخوذان عن اليمن Yaman – وتشكل [هذه الأشياء] قائمة الطعام اليومية بلا تنويع أو بشىء قليل منه . وخزانة الرياض تجىء من وادى الدواسر ضريبة مقدارها ٥ فى المئة ، ضريبة عينية ، على الإنتاج القائم من التمور والقمح ، ولكن الزراعات الثانوية معفاة من الضرائب ، بل وينظر إليها فى واقع الأمر على أنها من مستلزمات الفلاحين الضرورية ، وذلك عندما يجرى استخدام أولئك الفلاحين فى زراعة الأرض لصالح أصحابها ، الذين من عادتهم أن يقبلوا بعض الهدايا المعتادة من الفاكهة والخضراوات ، عوضاً عن الإيجار ، إضافة إلى نصف أو ثلثى محصول التمر ومحصول القمح . وقد بلغت متحصلات تلك الضريبة فى العام السابق لزيارتى ، عندما كان ابن جلهم يقوم بعمل جابى الضرائب ، حوالى ٤٦٠٠٠ وزنة من التمور و ١٤٠٠٠ صاع من القمح فى وادى الدواسر (بما فى ذلك كيميدة) ، كما بلغت فى السليل حوالى ١٨٠٠٠ وزنة من التمور و ٦٠٠٠ صاع من القمح (بما فى ذلك قرية واحة تمرة Tamr) ومن السيح Saih وحدها ، فى الأفلاج ، التى تجبى الضرائب فيها بواقع عشرة فى المئة على المنتجات المروية بالراحة وخمسة فى المئة على الزراعة المروية من الأبيار ، بلغت تلك الضرائب ما لا يقل عن ٩٣٠٠٠ وزنة من التمور جرى تحصيلها فى العام السابق . ومن تلك الأرقام نستطيع تقدير المحصول الإجمالى بحوالى ١٢٠٠٠٠٠ وزنة من التمور و ٤٠٠٠٠٠ صاع من القمح

من قرى ومستوطنات وادى الدواسر وحده . وفى موسم الحصاد تباع التمور للزبائن من البدو بواقع خمس عشرة وزنة لقاء ريال واحد ، فى حين يتراوح الثمن المعتاد فى المواسم الأخرى بين سبع وزنات وثمانى مقابل الريال الواحد ، فى حين يباع القمح بواقع ثلاثة صاعات ونصف الصاع أو أربعة صاعات مقابل الريال الواحد . والقيمة النقدية لضريبة الأرض التى جرى جمعها خلال العام المذكور تقدر بحوالى ١٣٠٠٠ ريال أو ما يزيد على ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وهذا لا يعد إسهاماً كبيراً لدى الحكومة المركزية ، التى جمعت ، أو إن شئت فقل حصلت فى العام نفسه ضريبة أخرى على الإبل من القطاعات البدوية فى القبيلة نفسها(٢٥). وضريبة الإبل هذه تقدر بحوالى شاة واحدة أو عنزة واحدة عن كل خمسة جمال ، أو تجىء نقداً بمعدل خمسة ريالات ثمناً لكل عنزة أو شاة. ومسقى المقران Maqran هو المركز الرئيسى لتقييم الإبل كل عام عند الدواسر ، وقد جرى التقييم بواسطة ابن جلهم خلال العام المشار إليه ، وقد بلغ صافى المتحصلات بعد خصم كل المصروفات ، حوالى ١٥٠٠٠ ريال ، مما يشير إلى أن إجمالى عدد الإبل قد وصل إلى حوالى ٢٠٠٠٠ رأس لدى تلك القبيلة .

وباستثناء ذلك اليوم الواحد الذى أمضيته فى سجن انفرادى فرضه علىَّ الأمير ، أمضيت فترة بقائى فى دام فى جولات طويلة وجولات قصيرة داخل الواحة وحولها ، والتى صحبنى خلالها جماعة منتقاة من رفاقى المتحمسين وممثلان أو ثلاثة ممثلين من جانب الأمير . من بين أولئك الثلاثة رجل كان يدعى سعد ، قام برحلات كثيرة بين وديان التثليث Tathlith وبيشة Bisha ورانية فى مهام لجباية الضرائب ، هذا على الرغم من عدم معرفتى مطلقاً بالمدى الذى وصل إليه نفوذ ابن سعود المؤثر فى اتجاه الغرب وفى اتجاه وادى الدواسر نفسه ، وقد استطاع ذلك الرجل عن طريق الرسم على الرمال وعن طريق الحساب الغامض للمسيرات التى يطلقون عليها اسمَىْ المقيل والمراح ، هذين المصطلحين اللذين يدل أولهما على وقفة الظهيرة وثانيهما على وقفة المساء ، استطاع أن ينقل إلىَّ معلومات كثيرة عن المناطق التى لم يجر استكشافها حتى ذلك الوقت ، وعن المستوطنات الواحيَّة ، وعن الوديان والجبال ، وأيضاً عن المراحل التى يمر بها الإنسان عند الاقتراب من تلك الواحات عندما يكون قادماً من اتجاه الشرق ، كما أعطانى أيضاً معلومات عن موقع تلك الواحات منسوبة إلى بعضها

البعض . أما الرجل الثانى من رجال الأمير فكان صاحب شخصية مختلفة ، رجل مولد سيئ التنشئة – وهذا هو رأيى فيه – ويدعى معضة Ma'dha، وهو رجل بذيء التصرفات ، يرفض تلبية الطلبات ، وكان يجلب على نفسه كراهية مترك له بصفه دائمة ، بل إن عداءهما المتبادل المستتر وصل إلى ذروته عندما كنا فى طريقنا عائدين من محاولة القيام بجولة فى أعالى الوادى . كان ذلك اليوم شديد الحرارة ، ونظراً لأنى لم أكن أتوقع القيام بجولة طويلة ، فقد تغاضى رفاقى عن اصطحاب الماء معهم ، وكان كل ما معنا من ماء يتمثل فى الماء الذى فى القارورة التى كنت أحملها معى ، وقمت بتوزيعه على أفراد الجماعة كى أتغلب على عدم رغبتهم فى الوصول إلى المسافة التى أريدها . كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً ، وكانت حرارة الظهيرة شديدة ، الأمر الذى أثر تأثيراً كبيراً على مزاج جماعتنا . وفى أثناء مرورنا على هجر (نجوع) الحَمرة Hamra التى تجمع عندها بعض الناس كى يرونا فى أثناء مرورنا ، خطر ببال معضة Ma'dha أن يسرع الخطى ، فى حين كان من رأى مترك ، وهو محق فى ذلك ، أن المتفرجين قد يفسرون تلك العجلة تفسيراً سيئًا ، وتناسى مترك طبيعة معضة ، وطلب إليه أن يبطئ الخطى . وهنا عاد معضة بجمله إلى الخلف وهو فى أسوأ حالاته المزاجية ، وتبادل الاثنان بعض الكلمات النابية ، وقبل أن أنتبه إلى حدوث أمر خطير بينهما ، كانا قد بدءا يدوران حول بعضهما البعض وقد رفع كل منهما عصا القيادة (المشعاب) ، ويكيلان السباب لبعضهما . وتحسباً لانتهاز المتفرجين ذلك الموقف ، اتجهت بجملى إلى الأمام كى أتوسط فيما بينهما ، ولكنى قبل أن أصل إليهما كان معضة قد سحب مسدسه ، فى حين راح مترك يحاول فك بندقيته من مؤخرة سرج الجمل استعداداً للقتال . وهنا وجدتنى بين نارين ، ورحت ألعن الاثنين لعناً شديداً مستخدمًا فى ذلك اللغة التى أعرفها كلها ، ومع ذلك استمر التجهم والقدح بين الاثنين فترة قصيرة راحا يناوران بعضهما خلالها دون أى اعتبار لوجودى بينهما إلى أن انتهت الأزمة – كما هو الحال فى المشادات العربية – وخلد الاثنان إلى الصمت والسكون ، الذى كانت تتخلله مناداة الطرفين لبعضهما البعض بين الحين والآخر ، فهذا مترك يقذف الطرف الآخر مشيراً إليه وهو يقول : عبد أسود . وبعد أن وصلنا القلعة أشرت على إبراهيم بتجريدهما من سلاحيهما وحبسهما بلا طعام أو ماء إلى أن يتوبا ويندما على ما اقترفاه . وبقيا على

ذلك الحال حتى حلول المساء ، إلى أن رق قلبى لرجاء كل من تامى وابن جلهم ومعهم آخرون ووافقت على إطلاق سراحهما ، بعد مصادرة ذلول (ناقة) كان مترك قد اشتراها بثمانين ريالاً كنت قد أعطيتها له على سبيل الهدية فى اليوم السابق نفسه ، وأبلغت ُمعضة أنه بدَّد الهدية التى كان يمكن أن يحصل عليها فى ظروف أخرى .

ألقى ذلك الحادث العابر بظلال كآبته على أفراد الجماعة إلى حد ما ، ولكن أشد البلاء كان ينتظرنى قبل دخول الليل . وبينما كنا فى طريقنا من تمرة إلى كيميدة لاحظت تغيير جابر المرِّى الذى كنت أحاول جاهداً الحفاظ على صحبته من منطلق سبب خفى ، إذ كنت أتطلع إلى عبور صحراء الربع الخالى تحت تستره فى يوم من الأيام . ورداً على سؤالى عن جابر المرى أبلغنى إبراهيم بطريقة ملتوية إلى حد ما ، أنه قد أوفده أمامنا كى يقوم على أمر توفير العلف المطلوب للدواب فى مناطق الوادى التى سنمر عليها ، وكنت قد أوضحت من قبل رغبتى فى أن يكون جابر المرى مرافقًا لى بصفة دائمة . وفى صباح ذلك اليوم تحديداً لاحظت تغيب جابر المرى عن صحبتى ، وانزعجت عندما سمعت من مترك – الذى لا أثق تمامًا فى معلوماته – أنه أوفد إلى الرياض حاملاً بعض الرسائل . ومع ذلك لم أعلق على ذلك الأمر عند عودتنا وانتظرت الفرصة الملائمة التى نستطيع شرح الحقائق من خلالها ، وقد تهيأت لى تلك الفرصة عندما تجمعت الجماعة كلها بما فى ذلك ابن سُمْعان هو ورفاقه ، تجمعها المعتاد بعد غروب الشمس فى مقهى الهواء الطلق . وهنا وجهت سؤالى إلى تامى ، الذى كان جالسًا إلى جوارى : "أين جابر المرى ؟" وفى رد متعثر عشوائى ، يعكس قلقه ، أوضح تامى أنه كان من الضرورى إرسال جابر حاملاً بعض الرسائل إلى الرياض . وهنا سألت تامى ثانية : "ما هذا الذى أسمعه ؟" طرحت ذلك السؤال وأنا أوجه كلامى لإبراهيم : "هل صحيح أن جابراً أوفد إلى الرياض بالفعل ؟ ألم أقل لك منذ أيام قلائل إنى أود أن يكون جابر بصحبتى دومًا ؟ لماذا أقبلت على ذلك العمل ؟" لقد فعل إبراهيم ذلك عن عمد كى يبعد رجلاً هو يغار منه من ناحية وليغضبنى من الناحية الأخرى . ورد علىَّ إبراهيم رداً متجهمًا : "أنا أعرف أمورى جيداً ، كما أنى مسئول عن فعل ذلك الذى أراه مناسبًا". ورددت عليه قائلاً : "خلِّ عنك ، افعل ما يحلو لك دومًا ، ولكنى لن أبقى معك" . وهنا وقفت وتركت الجماعة ، وبعد ذلك بساعة ، وبينما

كنت جالسًا وحدى فى الشرفة الموجودة أمام غرفتى ، جاءنى طويريش ليقول لى إن العشاء كان جاهزًا . ورددت عليه : "أنا لا أريد عشاءً مع تلك الجماعة . ولكن ، ألا تريد يا طويرش الحصول على مائة ريال ؟" ورد طويرش قائلاً : "بلى" . قالها وعيناه تلمعان ، مثل معظم العرب ، على إثر ذكر اسم النقود . "إذن ، اركب دابتك على الفور ثم اذهب فى إثر جابر وأعده إلينا ، وسوف أعطيك مائة ريال عندما تعود ." وفغر تامى فمه ؛ إذ كان يعرف جيداً أنه لن يجرؤ على فعل ذلك ، ثم انصرف إلى حال سبيله . ثم جاء تامى مرة ثانية يطلبنى لحضور العشاء الذى أوشك أن يبرد ، ثم جاء ابن جلهم من بعده للهدف بنفسه ، وفشل الاثنان فى مسعاهما ، وتركانى وحدى وقد امتلأت غيظًا وغضبًا من ذلك الذى خان العهد . وعرفت بعد ذلك أن جابرًا وعبيدًا كانا قد أوقظا فى ساعة متأخرة عند منتصف الليل ، وصدرت إليهما أوامر بشد سرجى دابتيهما على الفور ليقوما بتوصيل الرسائل – تلك الرسائل التى كنت قد سلمتها إلى إبراهيم عن حسن نية قبل أن أنام – المهمة جدًا ، على أن تصل تلك الرسائل إلى ابن سعود فى أقرب وقت ممكن . وكان جابر قد اعترض على توصيل الرسائل ولكنه لم يجرؤ على العصيان ، ولذلك بدأ رحلته فى ساعة مبكرة قبل طلوع الفجر . لقد افتقدت بحق ضحكة ذلك الرجل العفريتية ، وأساليبه الهمجية طوال الأيام التالية ، وانقضت شهور قبل أن أرى جابرًا مرة ثانية ، وهو الآن، وا أسفاه ، فى عداد الموتى ؛ إذ كان ضحية من ضحايا مرض الأنفلونزا ، وبالتالى لن تتحقق مطلقًا تلك الخطط التى رسمناها سويًا .

عند ذلك الحد كانت قد مضت علينا فى وادى الدواسر خمسة أيام كنت أنتظر طوالها وصول أمتعتى من الرياض ، وكان آخر فيلم لدى من أفلام التصوير كنت قد استعملته فى واحة دام ، وكان رُشَيِّد أيضًا قد فشل فى الحصول على التبغ . وفى صباح اليوم التالى وبينما كنت أشرب الشاى ، رحت أتأمل ذلك الذى يمكن أن تسفر عنه مشادات اليوم السابق ، وعمن يمكن أن يظهر سوى إبراهيم نفسه ؟ قال إبراهيم : "أبشرك بوصول طورشينا وغُرضانك" بمعنى (أبشرك بوصول مراسلينا ومعهم أمتعتك) . ورددت عليه قائلاً : "الحمد لله" . قلتها وأنا أتظاهر بعدم الاهتمام ، فى الوقت الذى تراءت لعقلى فيه الأفلام والتبغ اللذين كنت أنتظرهما منذ وقت طويل . وفى أى حال من الأحوال ، لن يذوق إبراهيم طعم التبغ الذى وصلنى ، ورحت أتشفى فى

نظرات الندم التى علت وجه إبراهيم بعد نظرة الاستئساد التى سيطرت عليه بالأمس ، وفى الوقت المحدد وصلت الإبل وجرى إحضار الطرود ، وهنا تجمع إبراهيم ومعه آخرون من حولى مثل الذئاب الجائعة ، ولكنى واصلت القراءة غير مهتم بما يحدث إلى أن بدأوا فى الانصراف الواحد تلو الآخر . وعندما وجدتنى لوحدى رحت أفتح الطرود بشغف شديد ؛ كانت الطرود تحتوى على كميات كبيرة من الرسائل ومن الصحف والمجلات ، كما كانت تحتوى على قوارير كبيرة من الكحول المخلوط بروح الخشب وغيره جرى تعبئتها فى كميات كبيرة من نشارة الخشب ، ولكن الطرود لم تحتو على قصاصة واحدة من التبغ . والأسوأ من كل ذلك أن الطرود كانت خلواً من أفلام التصوير أيضًا ، وكدت أبكى غضبًا . وقلت لتامى فى وقت لاحق ، عندما جاءنى ليستطلع أخبار تناولى العشاء : "الأخبار السارة التى يحملها ملعون هى أخبار سيئة ، ولكن ما عليك ، لعنة الله على إبراهيم ، وسوف نرحل غداً عن هذا المكان". والمؤكد أن المعاناة والألم اللذين شهدتهما فى ذلك اليوم كانا أكثر من كل الآلام التى تحملها أيوب ، عندما جلست وحدى ، أفكر أننى تفصلنى ثلاثمائة ميل أو ما يزيد على ذلك ، عن البلاد التى لم تقع عليها عينا أوروبى من قبل ، فضلاً عن أنى ليس لدى أفلام ألتقط بها صوراً لتلك البلاد . وأسف تامى لذلك تمامًا ؛ نظراً لأنه كان يرى فى وصول طرودى وأمتعتى فرصة لإحداث نوع من المصالحة بينى وبين إبراهيم ، ولكن آمال تامى ضاعت أدراج الرياح . وتناولت إفطارى وعشائى لوحدى .

لم تعد إبلنا من المراعى إلا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، ولذلك أرجأنا استئناف الرحيل إلى فترة العصر من منطلق أن ليلتنا الأولى سوف نمضيها فى الراكة Raka . وكنت قد أرسلت فى أثناء الليل تاميًا ومعه بشتًا جميلاً هدية إلى عبد الله بن معمر ، تعبيراً منى له عن امتنانى لكرمه ، ولكن مما يحمد لعبد الله بن معمر ، أنه رفض قبول الهدية ، قائلاً : إنه ليس بحاجة إلى أى شىء من أى إنسان سوى ما يعطيه له الله ثم ابن سعود ، وطلب العفو عن وقاحته البذيئه . وقد أثّر ذلك الحادث هو وطريقته المحترمة ، التى استقبلنى بها رضوخًا لابن سعود وطاعة له، والتى وضح لى من خلالها أن مسألة إكرام الكافر أمر يمقته ضميره وتعافه نفسه ، هذه الطريقة وذلك الحادث أثرا فىَّ تأثيراً كبيراً عندما أصبحنا جاهزين للرحيل ، ولذلك فطنت ، عندما

ذهبت إليه أستأذنه في طلب الرحيل ، إلى أن تكون فترة بقائي معه قصيرة إلى أبعد الحدود . قلت له : "أنا ممتن لك ، أكرمك الله !" ورد علي عبد الله بن معمر قائلاً : "بلغ شكري وعظيم احترامي لعبد العزيز" . وهنا توجهت على الفور لأركب جملي .

قبل أسبوع كنا قد وصلنا إلى أسوار واحة دام ، وكنا نسير في اتجاه تلك الأسوار ونحن يراودنا إحساس بأننا كنا على وشك مواجهة أزمة من الأزمات ، ولكن اعتباراً من ذلك التاريخ بدأنا نتجول بحرية في أرجاء الوحدة ، فضلاً عن أن رفاقي رحب بهم أهل دام مرتين . ولم نعد بعد مثاراً للفضول أو حب الاستطلاع ، فضلاً عن أن قلة قليلة من نساء المدينة كن على أسطح المنازل لتشاهدن رحيلنا ونحن نسير على امتداد السور الشمالي المتهدم وعلى امتداد شارع من شوارعها الخارجية ، الموجودة على أطراف البلد . ثم واصلنا مسيرنا بعد ذلك بطول ضفة الوادي اليمنى إلى أن تجاوزنا كلاً من مقابل Muqabil ونعيمة Nu'aima، التي انتحى بعض رفاقنا عندها جانباً لوداع الأمير المضياف ، ثم سرنا بعد ذلك وسط قرية شرافة ثم مشينا بعد ذلك بطول مجرى الوادي خلفها ، إلى أن تجاوزنا إثل الغياف وصولاً إلى أدغال الراكة ، التي وصلت إلينا رائحتها الخانقة عن طريق نسمة خفيفة قبل أن نصل إليها ونُبرِّك جمالنا بينها . ويقال إن أدغال الراكة تقتصر فقط على كل من جنوب الجزيرة العربية وعُمَان ، ولكن هناك أنواعاً محددة من تلك الأدغال موجودة في العقير 'Uqair في منطقة الأحساء وفي الخرج أيضاً . وأغصان الراك الخضراء عليها طلب كبير لأنها تستعمل سواكاً للأسنان ، إذ يجري مضغ تلك الأغصان بين الأسنان أو استعمالها في دعك الأسنان ، في حين يجري مضغ لحاء الشجرة أو الأجزاء السميكة منها ، لأنها حارة المذاق ، ويستعملها الناس منقياً للنفس .

كان مناخ الوادي في تلك الأيام معتدلاً بشكل غير عادي . وكانت الرياح السائدة تهب من الشمال ومن الشمال الغربي ، مع هبوب نسيم بين الحين والآخر من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب أيضاً ، ولم يحدث ، إلا في مناسبات نادرة تماماً ، أن استطاعت تلك الرياح تحريك الرمال . وكان تفاوت درجة الحرارة وتقلبها أقل منه في السُلَيِّل ، وعلى الرغم من أن الترمومتر (مقياس الحرارة) سجل في أحد الأيام درجة حرارة مقدارها حوالي ١٠٧,٦° فهرنهيتية ، فإنه في بقية الأيام لم يسجل أكثر من

١٠٢ ، وفي يومين متتاليين وصلت أعلى درجة يسجلها الترمومتر إلى ٩٩ْ فهرنهيتية . ومن ناحيه أخرى ، فإن أقل درجة حرارة لم تقل مطلقًا عن ٧٧ْ فهرنهيتية . وكانت الرياح الشمالية هي صاحبة المدى الأكبر ، جالبة معها أكثر درجات الحرارة انخفاضاً عند الفجر ، وأعلاها في فترة العصر ، أما الرياح الجنوبية فكانت تتسبب في أعلى درجات الحرارة ارتفاعًا وأقلها انخفاضًا . وأكد الناس لي هنا انقضاء فصل الصيف ، وأن حرارة الجنوب سوف تبدأ اعتبارًا من تلك الأيام في الانخفاض التدريجي ؛ وإذا ما ثبتت صحة ذلك التأكيد ، فذلك يعني أن جنوبي نجد يتهيأ بكل تأكيد لظروفه المناخية ، التي يرجع سببها الرئيسي إلى ارتفاع أراضي الجنوب ، وجوّه الجاف ، وقربه من منطقة الرياح الموسمية في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية .

ودهشنا كثيرًا عندما وصلنا الراكة وحيّانا رجل جاء ماشيًا على قدميه من تمرة ليبلغنا أن مراسلاً آخر وصل إلى تمرة قادمًا من الرياض ومعه رسائل وأمتعة وأغراض ، وإنه توقف في تمرة ليريح راحلته ، وإنه سيصل إلينا وينضم إلينا في اليوم التالي . وقد بلغ ذلك الخبر من الحسن مبلغًا يصعب معه تصديقه ، يضاف إلى ذلك أني لم أعلّق أملاً كبيرًا على ذلك الخبر ، نظرًا لأني كنت أضيق ذرعًا بالإحباط الذي أصابني . زد على ذلك أنني لم أتحدث مع إبراهيم منذ صبيحة اليوم السابق ، فضلاً عن أنه كان هناك شيء من التغيير يخيم علينا جميعًا . وفي المساء غزا خيمتي وفد كاسر برئاسة كل من تامي وابن جلهم ومترك ، الذين جاءوا لطلب العفو والصفح عن إبراهيم ؛ والحق أن مشروع زيارتي لكل من الحوطة Hauta والحريق Hariq في أثناء رحلة العودة على الرغم من أوامر ابن سعود التي تعارض ذلك ، كان يعتمد اعتمادًا كليًا على حسن نية إبراهيم ، إضافة إلى أن رحيل جابر المرّي أصبح حقيقة لا يمكن التغاضي عنها ، هذا علاوة على سعادتي الكبيرة باهتمام الجميع بعودة العلاقات الطيبة ؛ وبعد نقاش طويل رضخت لدفاعهم وعدت أشارك من جديد في الجلسات العامة .

وفي صباح اليوم التالي صحونا مبكرين استعدادًا للترحيب بالمراسل المنتظر ، الذي وصل عند الساعة السادسة ، بعد أن قطع المسافة بين الرياض ووادي الدواسر في سبعة أيام على جمل واحد يحمل حقيبتين كبيرتين من البريد والأشياء الأخرى ، وهذا بحد ذاته أداء طيب ؛ إذ كان المراسل السابق قد قطع المسافة نفسها في ثلاثة عشر

يومًا . وعلى الفور قمت بإخراج محتويات الحقيبتين ، اللتين كانتا تحتويان على كمية كبيرة من السيجار والسجائر فضلاً عن صفيحة من زيت الكيروسين ، ولكن المؤسف أن الحقيبتين لم تحتويا على أفلام للتصوير . وتناولنا الإفطار بعد ذلك واسترخينا قليلاً ، ورحت أدخن سيجاراً بعد ثمانية عشر يومًا أمضيتها بلا تبغ ، وقرأت البريد ، في حين جلس إبراهيم ومعه رُشَيِّد ، في الوقت نفسه ، خلف دغل بعيد ومعهما علبة السجائر التي أعطيتهما إيّاها . وكانت من بين الرسائل التي وصلتني رسالة تعرفني بالتطورات الخطيرة التي حدثت في اتجاه الخُرمة Khurma، إذ كان الشريف حسين قد أبلغ السلطات في مصر ، أنه اضطر أمام نشاطات ابن سعود في ذلك الاتجاه ، إلى إرسال قوات لاستعادة النظام في الخرمة . وبعد ذلك بعدة أيام بلغني ، عندما كنت في الحَمر Hamar، أن أهل الخرمة أرسلوا لكل من القحطان ، وإلى إخوان عتيبة في الرين Rain في منطقة العارض ، كما أرسلوا أيضًا إلى الغطغط Ghatqhat يطلبون العون والمساعدة ، كما بلغني أيضًا أن كل هؤلاء استجابوا لذلك الطلب على الفور . وقد دونت في مذكراتي اليومية في ذلك الوقت ، أن موقفًا خطيراً يمكن أن ينشأ إذا ما صدقت تلك الشائعات ، وأن ذلك الموقف يمكن أن يتطور إلى حرب شبه دينية . بين ابن سعود وملك الحجاز . والواقع أن أول اشتباك كان قد حدث بالفعل في اليوم الأول من شهر يونيو ، كما انهزمت قوة الشريف حسين التأديبية على أيدي أولئك المتمردين المزعومين .

وهنا بدأنا رحلة العودة ، بأن وجهنا مسيرنا صوب حائط جرف الطُوَيِّق البعيد عبر أرض شاسعة من المنخفضات الرملية المتنقلة التي يطلقون عليها اسم القعس Al Qa'as . كانت الروابي الرملية التي تغطيها أشجار الرَّاك ونباتات الغاضة تنتشر هنا وهناك لتتغلب على منظر سطح الأرض الممل ، كما كان الناس هنا يطلقون على تلك الروابي أسماءً مميزة استطعت تسجيلها ، بفضل مبارك Mubarak ذلك المرشد الجديد الذي انتقيناه من وادي الدواسر ، تعويضًا لجهل طويرش الذي كان عديم النفع تمامًا . ومبلغ علمي أن مبارك هذا كان هو الرجل الذي جاء من تمرة في اليوم السابق ومعه خبر مجيء الأمتعة . كان عمر ذلك الرجل يقترب من الخمسين عامًا ولكنه كان يفيض حيوية ونشاطًا ، فضلاً عن كونه أيضًا صياداً ماهراً من صيادي الوعول ذائعي الصيت على المستوى المحلي ، ولديه حكايات كثيرة عن أيام طويلة أمضاها الصيادون

وسط آفاق الرمال الشاسعة . يضاف إلى ذلك أن هذا المبارك كان من قبيلة العمر the Amur .

كان من بين الروابى الرملية التى مررنا بها رابية يطلقون عليها اسم قوز الحديدة Qauz Hadida ، وهذا نقلاً عن مبارك الذى لن يضمن ، مع ذلك ، حقيقة القصة التى تقول : إن هناك كتلة من المعدن تحت رمال تلك الرابية ، وأن أبعاد تلك الكتلة ، على حد علم مبارك ، تصل إلى ثلاثة أقدام من حيث الطول وقدمين من حيث العرض . والقصة هنا ربما تشير إلى كتلة معدنية سقطت من السماء ، ولكنى لا أستطيع تأكيد المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، وعلى أى حال ، إذا ما ثبت وجود ذلك المعدن ، فقد يكون من فعل البشر .

واعتباراً من تلك النقطة فصاعداً تبدأ تلك الأرض الشاسعة ، مستوية السطح فى جزء كبير منها ، اللهم إلا باستثناء الروابى والسلاسل الجبلية التى تنتشر هنا وهناك فوق سطحها ، تبدأ فى البروز على شكل سهل متماسك التربة من الحصباء السوداء الناعمة فوق تربة رملية ، والرمل فى هذه المنطقة شأنه شأن منطقة وادى الدواسر مكوّن من بللورات بيضاء صغيرة . كان السهل فى تلك المنطقة خاليًا من الأشجار اللهم إلا باستثناء بعض أشجار السنط المنعزلة والمتفرقة التى نصبنا إلى جوارها مخيم وقفة الظهيرة بعد أن قطعنا مسافة اثنى عشر ميلاً . كان الوادى قد اختفى من خلفنا بطبيعة الحال فى المنطقة الواقعة خلف المنخفضات الرملية ، ولكننا كنا قد ألقينا من مسافة بعيدة نظرة خاطفة على قريةكِيميدة التى كانت على يميننا ونحن سائرون على الطريق . وعندما استأنفنا المسير عبر ذلك الوادى القاحل سرعان ما وجدنا أنفسنا نقترب من حاجز الطُّوَيِّق العابس ، لنتجه على امتداد أرضى يطلقون عليه اسم خشم كُميح Khashm Kumaih ، الذى يقع فى منتصف الطريق بين خشم ترجم Khashm Tirjim فى الشمال ، الذى يوجد فيه مشاش (بئر) مالح الماء ، وخشم سواد فى الجانب الأيسر من فجوة تمرة Tamra . وهناك شريط سهلى معشوشب يمتد من الشمال إلى الجنوب بين الصحراء والجرف ، وهذا الشريط تغطيه نباتات النوسى Nussi والرِّمض Rimdh والطرفة Tarfa ، التى هى شكل من أشكال الإثل القزمة ، فضلاً عن أشجار الأسل Asal ، وهم يطلقون على ذلك الشريط اسم حية Haiya ، وأهل الجنوب

يستعملون تلك الكلمة مرادفًا لكلمة سيل Sail ، أو إن شئت فقل قناة الفيضان ، ليشيروا بها إلى الحقيقة التى مفادها أن تلك الكلمة تستعمل فى مناسبة معينة ، مثلما حدث فى الربيع الماضى ، عندما استعملت تلك القناة مجرى مائيًا لنقل المياه النازلة من أخاديد الجرف إلى المجرى الرئيسى لوادى الدواسر . وهناك أيضًا حزام عريض من السبخة Sabkha أبيض هش ، يمتد بطول منتصف الشريط السهلى ، محدداً بذلك قناة الصرف الفعلية . ومن ذلك الشريط سرنا على امتداد مجرى سيل شعب كميخ Kumaih ونصبنا خيامنا على جانبه عند سفح منخفض الطويق العميق .

فى أثناء مسيرنا فى الصحراء مررنا ببعض آثار الإبل القادمة من الشمال والمتجهة إلى جنوبى الطويق . وهنا تكلم أحد أفراد جماعتنا قائلاً : "جوم ومعهم رديفين" ، وهذه العبارة تعنى أن تلك كانت عصابة من الغزاة مكونة من ستة رجال راكبين على أربع من النِّياق مرت بذلك المكان . وكان أولئك الغزاة قد ذهبوا لحال سبيلهم ، وواصلنا مسيرنا ونحن نهنئ أنفسنا باحتمال عدم ملاقاتنا لهم . وبعد ذلك بلحظات قليلة مررنا بالمزيد من آثار الجمال المتجهة إلى الناحية العكسية . وفسر خبراؤنا ذلك بقولهم : "حشاشيش" (بمعنى جمَّاع عشب) ، ولكنهم بعد ذلك بلحظة واحدة شاهدوا أثراً لرجل واحد ، وهنا استبعدوا من أذهانهم فكرة ذلك الغريب قائلين : "قنَّاص من كيميدة" (بمعنى صياد من كيميدة يطارد الغزال) . وهنا بدأ بيننا حوار عن فن قص الأثر . والغريب حقًا هو ذلك الذى يوحى به الأثر الموجود على سطح الصحراء إلى ذهن الرجل العربى ، والغريب حقًا هو السرعة والثقة التى ينتقلون بها من المشاهدة إلى الاستنتاج ، وتلك عملية معقدة للغاية . والعرب وهم يسيرون وأعينهم تتنقل بين الأفق والأرض من تحتهم ، يوجزون بطريقة فطرية الخصائص العامة للأراضى المحيطة بهم ، وطبيعة الأرض بدورها تساعد على التعرف على البشر الذين يترددون على تلك الأرض . زد على ذلك أن أثر النياق التى تجرى أو أثر الدواب المحملة ، أو أثر الإبل التى ترعى يبلغ من الوضوح حداً لا يمكن أن ينخدع معه ساكن الصحراء . يضاف إلى ذلك أن حداثة الأثر تساعد على تحديد موعد مرور الدواب التى أحدثت ذلك الأثر . هذا هو العربى العادى ، ولكن ماذا عن العربى الخبير ، المزود بقدرة فطرية تمكنه من قراءة علامات الصحراء ؟ وهو بحاجة ماسة إلى ذلك ، لأن ذلك هو الذى يبقى على العربى حيًا

بين أعدائه بحكم تنقله الكثير . وخلصت من ذلك الحوار إلى أنه إذا كانت القبائل البدوية تتمتع بشيء من المهارة في هذا الصدد ، فإن آل مرة في الربع الخالي لديهم القدرة على تحديد لون الجمل من أثره ، والمعروف أن اللون وأثر القدم عوامل ثابتة في كثير من سلالات الإبل التي تربى في الجنوب . وسكان المناطق الرملية لديهم موهبة قوية في قص الأثر أكثر من سكان السهول الصحراوية الصلبة ، وفي شمالي سنجارة Sinjara يذيع صيت الشمَّر Shammar في قص الأثر . حدثني مبارك فقال : "كان بعض العرب يعبرون سهلاً من السهول ، وفجأة راح واحد منهم ، هو شيخ القبيلة ، يلفت أنظار من معه إلى أثر أقدام ابنته الذي اعترض مسارهم متجهًا صوب شريط من النفوذ على بعد مسافة كبيرة . قال شيخ القبيلة : 'هذا هو الاتجاه الذي قصدته ابنتي لتحضر شيئًا من النوسي Nussi علفًا للإبل عندما تعود' . وواصل الرجال مسيرهم إلى أن عادوا في المساء ، ومروا بأثر عودة البنت . وهنا صاح شيخ القبيلة قائلاً : 'تبًا لي ! ألا ترون أن البنت عندما ذهبت في الصباح كانت عذراء ، وأنها عند العودة لم تعد كذلك ؟ والله ! سوف تقتل لعدم عفتها ، وسوف أقتل معها ذلك الرجل الذي أزال بكارتها . تعالوا معي وأعينوني على العثور عليه ، نظرًا لأن أثر قدميه ليس مع أثر قدميها' . وبناء على ذلك راحت الجماعة التي اشتطت غيظًا بسبب العار الذي أصاب القبيلة ، تجري بداويها صوب النفود متتبعين أثر قدمي الفتاة ، بحثًا عن أثر أقدام عشيقها ، ولكنهم لم يعثروا على ذلك الأثر في أي مكان ؛ وواصل الرجال مسيرهم عبر الرمال إلى أن وصلوا إلى المكان الذي انتهى عنده أثر الأقدام بالقرب من نبات صحراوي ، نبات الطرثوث العجيب الذي يعرفه العامة باسم قضيب الصحراء Desert Penis ، أو إن شئت فقل قضيب الحَمَد ، وهنا بكى الشيخ العجوز فرحًا عندما علم أنه على الرغم من قراءته لأثر قدمي ابنته قراءة صحيحة ، فإنه آذى ابنته بشكوكه المتسرعة ، بل إنه أساء إليها أكثر من ذلك عندما أبقى عليها فترة طويلة بلا زواج". ولم تفقد القصة شيئًا من روايتها ، وحياها الرجال بالمزيد من التصفيق . هذا يعني أننا لا يمكن أن نجد مثلاً أكثر وضوحًا من هذا المثل على فراسة قص الأثر ، نعم ، هذا ليس طبيعيًا ، ولكنه لقي الاستحسان(*) .

(*) هذه العبارة وردت باللغة الإيطالية : Sinoné Veroé ben Trovato وترجمها الأستاذ الدكتور سلامة محمد سليمان ، أستاذ اللغة الإيطالية بكلية الألسن . (المترجم)

٥- الجنوب

نظرًا لضيق الوقت ، ونظرًا أيضًا لعدم استعداد رفاقى للذهاب إلى أبعد من الحدود التي وضعها ابن سعود ، كان لابد من أن أرضى بما حققته ، وأتطلع إلى إشباع رغبتى الشديدة إلى اختراق فجوات وكهوف الربع الخالى فى يوم من الأيام ، وبخاصة بعد أن درت حول حدوده الشمالية قاطعًا إياها من الشرق إلى الغرب ، أو إن شئت فقل من الأحساء إلى وادى الدواسر . وأنا فى كل جولاتى وتجوالى لم ألتق سوى رجل واحد ، هو الرفيق جابر Jabir بن فرج Faraj من فخذ فرعى من أفخاذ السويحيت Suwaihit من فخذ البحيح Libhaih من آل مُرَّة ؛ وهذا الجابر يزعم أنه عبر الرمال الجنوبية من شمالها إلى جنوبها ، بل إنه وصل المحيط الهندى ، ومع أنه لم يكن وحده فى ثلاث من تلك المرات التى عبر فيها الربع الخالى ، فإننى أثق فى أنه هو الرجل الأول الذى سجل مثل هذا العمل باسمه . ولكن آل مرة ليست قبيلة ذائعة الصيت ، وعلى الرغم من أنه ليس من المفروض أن نسلم بأنهم أدمنوا عبور تلك الأرض الطاردة القاحلة التى تفصل بينهم وبين البحر لمجرد متعة القيام بمثل هذا العمل أو حتى لأسباب تجارية ، نظرًا لأن سوق الأحساء تمدهم بكل ما يستطيعون شراءه ، وقد عرفت من كلام جابر أن الجولات التى من قبيل الجولات التى يقوم بها هو نفسه لا تدخل فى عداد الأعمال الخطيرة التى تؤثر فى أعمال القبيلة اليومية ، والتى اعتادت منذ قديم الأزل على القيام بزيارات مفاجئة إلى جيرانها، أو إن شئت فقل إلى قبائل الساحل الجنوبى - الوهيبة Wuhiba والعوامر 'Awamir والدروع 'Duru - لتخلصهم من إبلهم الزائدة عن الحد ، وبخاصة الإبل الغالية التى يسمونها فرحة Farha والصفر Safar، التى هى عبارة عن سلالات فرعية من السلالة العمانية . ومن الطبيعى أن يقوم أهل الجنوب برد تلك الزيارات كلما سمحت الظروف لهم بذلك ، وأنا لا أشك مطلقًا فى أن من بين هؤلاء الناس أناسًا شاهدوا نخيل جابرين Jabrin، المنزل الوحيد الثابت عند آل مرة من الرُّحَّل . وعلى الرغم من كل ما قيل وما فعل ، فإن الربع الخالى ليس له ذلك اللون المتوهج الذى رسمه به بعض الرحالة الأوروبيين ، والعرب المستقرون لم يروا ذلك الربع الخالى مطلقًا ، هذا على الرغم من أن عملية عبور الربع الخالى تعد

مغامرة يجب ألا يستهين بها من ليست لديهم المعرفة أو الخبرة . والقبائل التى سبق الإشارة إليها تعيش على حدود الربع الخالى الجنوبية والغربية ، كما تعيش فى هذه الحدود أيضاً قبائل حضر موت وقبائل يم Yam النجرانية، ولكن الجميع يتفقون على أن سادة تلك الأرض الجرداء التى تكتسحها الرياح ، هم آل مرة(٢٦) ، التى تعد مثل قبيلة عرقة ، والشامير . والمطرة Matara، والعجمان Ajman'، فرعان من أسرة القبائل اليامية . وقد قطعت قبيلة آل مرة ، منذ زمن طويل ، علاقتها السياسية مع نجران ، ونظراً لأن كل حدودها الشمالية تسير على امتداد حدود وادى الدواسر ، فإن تلك القبيلة تدين بشىء من الولاء الغامض لابن سعود ، والسبب فى ذلك هو اعتماد تلك القبيلة اعتماداً جزئيًا على منطقة الأحساء ، والاعتماد جزئيًا لأن قبيلة من هذا النوع تحتاج بعض الشىء إلى شىء لا تحصل عليه من الصحراء ، وهذا الاحتياج يتمثل فى مجرد العلف اللازم لإبل تلك القبيلة ، والربع الخالى عامر بل يعج بالأعلاف .

فخذ بشر ، الذى يعد واحداً من سبعة أفخاذ رئيسية ، يرأسه الشيخ البارز على بن شريم ، الشهير بـ على اللحب Lahub ، ويعد أكبر شيوخ القبيلة كلها ويسكن فى سهل الحجر الجيرى التى يشكل زاوية منفرجة مع قناة صبحة Sabha فى المنطقة ما بين الأحساء وجبرين Jabrin . وهناك فخذ آخر - فخذ جابر - لا يعترف بقيادة اللحب ، هذا الفخذ يحتل واحة جبرين والصحراء المحيطة بها . هذا فى الوقت الذى تتركز فيه بقية الأفخاذ حول رقعة من الأرض تسمى الخيران فى وسط الربع الخالى ، باستثناء دمنان Dimnan، التى تنتشر أفخاذها الفرعية فى كل من الخيران وعلى حدود حضر موت ، وفى مواجهة نجران . وقبيلة البحيح Libhaih التى تتمركز فى الخيران تتجول فى الفراغات الشرقية من صحراء الربع الخالى فيما بين الأحساء وقطر من ناحية الشمال ، وعُمَان من ناحية الجنوب . وفى أضعف الأحوال فإن تلك القبيلة تشغل حوالى ربع مليون ميل مربع من الأرض الجرداء القاحلة .

وعلى بعد مسير أربعة أيام أو خمسة ، أو إن شئت فقل على بعد حوالى ١٥٠ ميلاً جنوبى الأحساء ، وعبر سهل من الحجر الجيرى يشبه السهب الصحراوى الذى بين الأحساء والدهناء ، تقع واحة الجبرين Jabrin، تلك الرقعة من النخيل تماثل الأحساء نفسها من حيث الحجم ، وليس من حيث كثافة النخيل وخصوبة الأرض . هذه

الواحه تقع فى وادى ضحل من سلسلتين جبليتين . وعلى حد معرفتى لا توجد فى تلك الرقعة قرى أو منازل دائمة ، باستثناء قلة قليلة من الأكواخ المبنية من الطين ، وكذلك قلة قليلة أيضًا من الأبيار التى يتجمع رجال القبائل حولها على فترات متباعدة ، أو بالأحرى فى موسم حصاد التمر ، نظرًا لأن بيارات النخيل التى لا تروى ولا يعتنى بها أحد تعطى أصحابها المبذرين كل عام محصولاً وفيرًا من التمر الطبيعى ، وأصحاب النخيل فى تلك الواحة يفضلون الابتعاد مع إبلهم فى وسط الصحراء على العيش فى تلك الواحة تخوفًا من البعوض وتحاشيًا لمناخها غير الصحى . وملاك النخيل فى تلك الواحة يخلفون فى موسم الحصاد إبلهم وراءهم فى المراعى وفى عهدة بعض الرعاة للقيام على أمرها وحراستها ، فى حين يقوم باقى أفراد القبيلة بالانتقال إلى الواحة كى يتخموا أنفسهم من تمر النخيل الطازج ، ويحضرون منه مخزونًا للاثنى عشر شهرًا القادمة . وهذه القبيلة لا تتعرض أو تنكشف إلا فى مواسم حصاد التمر ، إذ تشن عليها غارات الغزو إما من قبل أعدائها أو من قبل حاكم الأحساء ، الذى يعد مسئولاً بشكل عام عن إدارة تلك المنطقة ، ولكن تلك القبيلة يستعصى الهجوم عليها ، طوال بقية العام ، داخل معاقلها الرملية الحصينة .

وعلى مسافة حوالى خمسين ميلاً شمالى واحة جبرين Jabrin يتقاطع طريق الأحساء مع منخفض سحابة الواسع ، الذى يمتد ، بعد أن يتجاوز اليمامة فى منطقة الخرج ، عن طريق أبيار الوسيع إلى الدهناء ، واعتبارًا من الدهناء يختفى مجرد ذلك المنخفض لمسافة حوالى عشرين ميلاً ، على الرغم من عدم تغطية الرمال له تمامًا ، ثم يصبح مجرى ذلك المنخفض واضحًا بعد ذلك بشكل يمكن تتبعه بسهولة كبيرة عبر الصحراء الجيرية بعد التقائه مع وادى فاروق Faruq، إلى مسافة كبيرة من الخليج الفارسى ، الذى اعتاد ذلك الوادى أن يصب فيه ، يوم أن كان مجرى مائيًا ، كما يقول الناس هنا ، وفى المنطقة المجاورة لقاعدة جرف قطر Qatar الناتئ داخل البحر . وفى حوض ذلك المنخفض بالقرب من تقاطعه مع طريق الأحساء توجد أربعة أبيار : الخين Al Khin الذى له بيارة نخيل صغيرة ، وهناك أيضًا بئر الحرضAl Haradh وبئران أخريان .

وعلى بعد مسير يوم واحد جنوبى واحة الجبرين تبدأ الصحراء الرملية الكبرى ، التى يفصلها عن الرياض سهل قاحل مستوٍ يطلقون عليه اسم الحريصان Haraisan، كما يفصلها عن السُّلَيِّل منطقة الفرشة Farsha . وفى وسط تلك الصحراء الرملية الواسعة ، وعلى مسافة مسير خمسة عشر يومًا ، ونقلاً عن بعض التقارير ، وفى اتجاه الجنوب الشرقى ، توجد منطقة رملية شاسعة يطلقون عليها اسم الخيران Al Khiran نظرًا لوجود بعض الأبيار مالحة الماء فى هذه المنطقة . وهذه المنطقة يعيش فيها السواد الأعظم من آل مرة ، الذين يعيشون فى مخيمات متناثرة حول الماء ، وأفراد تلك القبيلة يحيون حياة هزيلة وغير متحضرة إلى أبعد ما يخطر على البال . وقطعان الإبل الكبيرة فى تلك المنطقة تسقى ، ثم تحلب ثم تترك بعد ذلك لتتجول حرة حيث تشاء بين الرمال ، وحيدة وبلا رعاة . وتعود تلك القطعان من تلقاء نفسها كل خمسة أيام أو ستة لتشرب من تلك الأبيار المالحة ؛ وهنا يجرى ، كما سبق أن قلنا ، حلبها وإطلاق سراحها مرة ثانية ، ويجرى حفظ الحليب طازجًا أو مختثرًا ، فى قراب ، يصنعونها من جلود الحيوانات ، كى يستعمله البشر ، الذين لا يشربون الماء على امتداد أشهر عدة ، والسبب فى ذلك أن المعدة البشرية لا تطيق ذلك الماء المالح الذى تنتجه تلك الأبيار ، والتى يبدو أن الإبل تنعم بها تمامًا ، والسكان هنا لا يعيشون على شىء سوى الحليب والتمر وما يصطادونه . والصيادون الذين لا يعرفون للتعب معنى ، يتغيبون أيامًا ومعهم حرابهم أو بنادق الخرطوش . وقد بدأ آل مرة يعرفون البنادق الحديثة ، ولا يقتاتون بشىء سوى قربة من الحليب ، أو يعتمدون على حليب النياق التى يركبونها ، ويتغيبون للصيد ومطاردة الفرائس ، الأرانب البرية والوعول وكذلك الطيور . وفيما يتعلق بالنعام ، الذى أتصور أنه موجود فى منطقة الرياض ، لم يكن لدى جابر شىء يقوله لى عن ذلك الموضوع ، ولكنه حدثنى عن الوعل ، أو إن شئت فقل الوضيحى Wudhaihi كما يسميه الناس هنا ، الذى يكثر فى الربع الخالى ويصطاده الناس ويأكلون لحمه . والوعل ، على العكس من الغزال ، يقال إنه يعتمد على عينيه فقط فى التحوط من العدو الذى يقترب منه ، ولذلك يستطيع الصياد الماهر الاقتراب من الوعل فى سهولة ويسر ، ولكن خجل الوعل وتخوفه من الأشياء الغريبة لا يعرف الحدود ومجرد نظرة خاطفة إلى الإنسان ، وأكثر من ذلك مجرد رؤية ذلك الوعل لآثار أقدام

البشر على الرمال كفيلة بأن تجعله ينطلق بأقصى سرعته عبر الأرض القاحلة إلى مسافة أكثر من أمنه بعيداً عن الأخطار المحتملة كلها . والوعل إذا ما جرح لابد من احترامه ، نظراً لأن الناس هنا يحكون عن أناس مهملين طعنتهم تلك القرون الحادة وأخرجت أحشاءهم . والصيادون عندما يصطادون وعلاً يسلخون جلده ويتركون بقية جثته في الشمس الحارقة ، بعد أن يضيفوا إليها قليلاً من الملح كي تجف وتتقدد ؛ ومن هنا فهم يأكلونه نيِّئًا أو مطهوًا إلى حد ما في نار المخيم ، وهم يعتقدون أن تناول لحم الوعل نيِّئًا مع حليب النياق يقوى الأعضاء الجنسية في الرجال . واللحوم المقددة تباع أيضًا في سوق الأحساء وسوق السليل وكذلك سوق الوادي ، كما تباع أيضًا في تلك الأسواق جلود الوعول وقرونها . وطعم لحم الوعل طيب جداً إذا ما طُهي طهوًا جيداً ، ويقولون إن طعمه ، على الرغم من أني لم أذق طعمه قط ، له نكهة الجيلة Jila، أو إن شئت فقل لحم الغزال المقدد . والناس هنا يأكلون لحم الأرانب البرية ، ولحم الطيور بعد طهوها إلى حد ما على جمر نيران المخيم .

وأساليب آل مرة الحياتية بسيطة بساطة الطعام الذي يتناولونه . وفيما يتعلق بالأحكام الإسلامية للعقيده والسلوك ، فهي تسود بينهم بشكل عام ، فيما يتعلق بالشكليات في أضعف الأحوال . ودخول تلك الأحكام والمعايير الإسلامية إلى آل مرة أمر حديث نسبيًا ، ولا يزال جابر Jabir يذكر تلك الأيام التي لم تكن الصلاة فيها معروفة ، فضلاً عن خلو احتفالات الزواج من العنصر الديني . فلم يكن هناك مأذون أو شهود ، وكل ما في الأمر هو أن يضع العريس المرتقب والعروس المرتقبة مشعابيهما ، أو إن شئت فقل عصَوًا قيادة الجمل منتصبتين فوق الأرض فيما بين العريس والعروس ، ثم يقومان بالطواف حولهما مرتين أو ثلاث مرات وهما يرددان سويًا صيغة بسيطة من قبيل "مالشنا"(*) (بمعنى تزوجنا) . وبعد أن يصبحا زوجًا وزوجة بتلك الطريقة يذهبان بعد ذلك ، وبلا أية احتفالات أخرى ، ليمارسا الحياة الزوجية . وختان الإناث الذي يشيع بين الدواسر ، والمناصر Manasir ، على ساحل الأحساء ، والذي تمارسه أيضًا غالبية القبائل العُمانية ، هو كما أبلغني ابن جلهم ، يقتصر على

(*) لعل الكلمة حسب النطق الصوتي :"ملكنا" ، فنطقهم للكاف أقرب ما يكون إلى الشين ، وعقد النكاح يعبر عنه بلفظ "الملْكة" عندهم. (التحرير)

العناصر البدوية المترحلة من تلك القبائل ، وهو مجرد أثر من أيام الجاهلية القديمة في الجزيرة العربية ، هذا الختان لا يعرفه آل مرة ، شأنهم في ذلك شأن القبائل النجدية الخالصة ، التي تنظر إلى الختان باعتباره أمراً شائناً ، ومبلغ علمي ، على الرغم من تحفظ جابر إلى حد ما حول هذه النقطة ، أن ختان الذكور يعد شيئاً جديداً عليهم . والنظافة الشخصية عندهم تعد فضيله ثانوية ، وقد لا تكون ضرورية في بلاد يندر فيها الماء ، والبديل عن الماء هو الرمل الذي يوجد بكميات كبيرة في تلك البلاد ، ومع ذلك يذيع صيت آل مرة من حيث الكرم . يضاف إلى ذلك ، أن اللصوصية (السرقة) ، ذلك الفن الذي تتفوق فيه قبيلة عتيبة على سائر القبائل العربية الأخرى ، وهذا باعتراف نصير بن طلق Talaq، هذه اللصوصية يعتبرها آل مرة عملاً مخزياً ومشيناً .

ومنطقة خيران Khiran مترامية الأطراف ، على الرغم من أنها كلها من الرمال تتخللها عدة ممرات ، يسمونها خرايم Kharaim[٢٧] ، بين الكثبان والروابي التي يعيش فيها الناس والدواب . في هذه المنطقة الشاسعة توجد قطعة من الأرض يطلق الناس عليها اسم جافورة Jafura ، وهي فيما يبدو عبارة عن منخفض تغطيه الرمال ، ويشيع عنها أنها موقع لمدينة قديمة ، لا يعرف الناس من تاريخها شيئاً ، على الرغم من أنه يمكن أن نقول ، من باب التخمين ، إن تلك المدينة ازدهرت في زمن ازدهار وبار Wubar، التي تبعد عنها حوالي مائة ميل في اتجاه الغرب ، وأنها كانت جزءاً من مملكة عاد بن شدّاد Ad Bin Shaddad’، الذي سبق أن رويت لكم قصته[٢٨]. أما عن وُبار Wubar نفسها فلم أستطع جمع أي شيء عنها غير العادات والتقاليد المتصلة بها ، والسبب المرجح في هذا الصدد هو أن أحداً لم يزر تلك المدينة مطلقاً ، اللهم إلا إذا كان فخذ الدمنان Dimnan من آل مرة يدرج أهل تلك المدينة ضمن سلالتهم . ومع ذلك فالجافورة Jafura، التي تعد مركزاً رئيسياً لآل مرة الذين يترددون على الأحساء من حين لآخر ، يذيع عنها عدد كبير من الشائعات ، التي يضمنها مطلقوها قدراً كبيراً من الأشياء الغريبة . ويقال إن الأحجار المتحركة التي سبق أن أشرت إليها وأنا أتناول فشل هؤلاء الناس في إثبات قواهم أمام ضيوف عبد الله بن جلوي[٢٩] ، جاءت من مدينه الجافورة . والناس هنا يقولون : إنه يوجد بالقرب من الجافورة وسط الرمال المحيطة بها ، تمثال بالحجم الحقيقي مصنوع من نوع المعادن ، لجمل من الجمال ، كما أن الرياح التي تهب على الرمل المكوّم تكشف بين الحين والآخر ، عن

أثر من آثار أعمال البشر البدوية فى العصور القديمة ، أجزاء من تماثيل : يد مقطوعة أو ذراع مقطوع أو يد من الحجر أو شكل من الرخام ، يعجب له الناس . ولكن أخشى ما يخشاه الناس هنا هو الجن Jinns أو الأشباح التى تتردد على المدينة المدفونة والتى قد يسمعها الناس فى الليالى شديدة الرياح وهى تتأوه حزنًا على المصير الذى آل إليه مسرح حيواتهم ، كما أكدوا لى أن أصحاب العقول الضعيفة إذا ما تصادف أن يكونوا قريبين من ذلك المكان فى أثناء الليل فقد يصابون بمس من الجنون بسبب الخوف الذى يعتريهم . معنى ذلك ، أن هذا المكان لابد أن يكون موحشًا ، مكانًا خربًا منذ زمن بعيد ، مكانًا بعيدًا تمامًا عن حياة البشر ، أو قد تكون البرك المالحة المحيطة بها ، هى كل ما تبقى من واحة عظيمة من واحات زمن ما قبل اكتساح الرمال لجنوبى الجزيرة العربية . وكنت أتوق دومًا إلى زيارة الأحساء مرة ثانية ، بسبب تلك الروايات والحكايات التى سمعتها عنها بعد أن غادرتها ، كى أتحرى مدى صدق تلك الروايات ، والحصول على بعض العينات من الآثار التى يمكن العثور عليها فى الجافورة ، ولكن تلك الفرصة لم تتهيأ لى مرة ثانية ، وأنا أتطلع إلى قيام شخص آخر ، يكون أكثر منى حظًا ، بتحرى مدى صدق أولئك الرواة الذين أخذت أنا عنهم تلك الحكايات والروايات .

وعن الحافة الجنوبية للربع الخالى ، الذى يطل منها على المنطقة الجبلية فى عُمَان من ناحية وعلى حضرموت من الناحية الأخرى ، لم أستطع سوى جمع قلة قليلة من المعلومات ، اللهم إلا باستثناء أن الحافة الجنوبية للربع الخالى تبعد مسافة قصيرة عن حالة البربرية الكاملة ، وبخاصة العوامر Awamir ، الذين يقال عنهم : إنهم لا يرتدون سوى النذر القليل من الملابس ، ويعيشون على ألبان النياق ولحوم الوعول ولا شىء غير ذلك . وفى كل الأحوال ، وفيما يتعلق بالطرف الغربى للربع الخالى ، الذى تنساب فى رماله السيول القادمة من مرتفعات اليمن ، والذى تتفرع فيه أيضًا قبائل اليم منطلقة من مركزها الرئيسى فى منطقة نجران ، لتعيش جنبًا إلى جنب مع آل مرة ، فقد استطعت جمع قدر كبير من المعلومات ، ولو أنها غامضة الطابع وعشوائية ، من أناس كثيرين التقيت بهم خلال تلك الجولة وخلال الجولات التى قمت بها أيضًا إلى أماكن أخرى على طول مجرى وادى الدواسر .

وادى الدواسر – كما سبق أن أوضحت – يضرب حافة الربع الخالى على مسافة تقدر بحوالى خمسين ميلاً جنوبى بلدة السُلَيِّل . وتقول التقارير إنه على بعد مسافة مماثلة ، وفى اتجاه الجنوب الغربى من السليل ، نجد أن امتداد مرتفعات الطُوَيِّق فى اتجاه الجنوب يدفن نفسه فى الرمال المنجرفة ، فى منطقة يطلق الناس عليها اسم المندفن Al Mundafan فى منتصف الطريق الذى يتفرع الحاجز عنده ، فيما بين المندفن وقناة وادى الدواسر ، إلى قسمين بفعل مجرى مائى يشبه الوادى ويعرف باسم الفاو Al Fau ، الذى هو مجرى مائى ينزل من الجبال الغربية ، ثم ينساب فى اتجاه الشرق نحو مقبرة من الرمال . وفى أقصى الغرب تقع سلاسل جبال اليمن ، التى تندمج منحدراتها الشرقية التى تتخللها الواحات الزاهرة فى الوديان الوعرة ، مع الرمال الجارفة . هذا فى الوقت الذى تتجه فيه وديان التثليث وبيشة ورانية فى أقصى الشمال ، إلى داخل مرتفعات عسير لتشكل وادى الدواسر عن طريق اقترانها على السهل . هذا هو الوصف العام لتلك المنطقة ، التى تظل بعد ذلك بحاجة إلى إبراز تفاصيلها . والقسم الأكبر من تلك المنطقة لم يسبق لأى أوروبى أن زاره من قبل ، باستثناء نجران وحدها التى زارها جوزيف هاليفى فى عام ١٨٧٠ الميلادى وقدم وصفاً لها ، كما أن معرفتنا لتلك المنطقة ترتكز على المعلومات المتداولة التى جمعها الرحالة الفضوليون من أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية .

مبلغ علمى أن الواحات التى تتخلل وادى رانية يستوطنها السبيع بصفة أساسية ومعهم بعض القحطان وبعض الدواسر ، فى حين تكاد تكون وديان بيشة والتثليث ، وكذلك الجبال الواقعة خلفها ، تكاد تكون مقصورة على القحطان ، تلك القبيلة التى يبدو أن فخذها الذى كان يعيش فى الأراضى المرتفعة ، كان يتمتع باستقلال شبه تام فى ظل سيادة تركية اسمية وغامضة من مدينة أبها ، وأن ذلك الفخذ بدأ يكشف فى السنوات الأخيرة عن ميل واضح إلى ربط مصيره بابن سعود ، الذى يعيش تحت حكمه الفخذ الرعوى المترحل من القحطان ، فى صحراء نجد بدءاً من حدود وطنهم الجبلى إلى منطقة الرياض نفسها ، بل ويمتد أيضاً إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الشرق . وهذا الكلام أكيد ، نظراً لأننى عندما كنت فى الجزيرة العربية جرى تداول بعض الرسائل فيما بين أمير القحطان وابن سعود ، بخصوص رغبة أمير القحطان فى مد

النفوذ الوهابى غربًا إلى منطقة الجبال ، وفى الوقت ذاته كان أمير القحطان يتلقى مرتبًا من الأتراك .

مستوطنات وادى رانية يمكن الوصول إليها بسهولة ويسر بعد مسير مقداره خمسة أيام من واحة الوادى ، الذى يتجه الطريق منها إلى أعالى وادى الدواسر متجاوزًا رابية يطلقون عليها اسم حُلَيَّة Hulaiya ثم يمر عبر الشريط الرملى إلى الرَّيانية Raiyaniyya، التى يمكن الوصول إليها فى مساء اليوم الثانى من المسير . وبعد مسير يوم آخر عبر سهل تتخلله تفرعات من الوديان الثلاثة الكبيرة ، يصل الإنسان إلى تل باجير Bajir، ومنه يسير الإنسان على امتداد قناة رانية إلى أن يتجاوز مجموعة من الأبيار التى تعرف باسم رغوة Rghwa إلى أن يصل إلى الرجاع Rija أولى مستوطنات وادى رانية ، وهى عبارة عن مجموعة قليله جدًا من قصور حقول القمح . واعتبارًا من تلك المستوطنة ، وعلى بعد مسافات قصيرة يمر الإنسان بسوق المراغين Maraghin، ذلك النجع (الهجرة) الصغير ذو النخيل ، والشميسات Shumai-sat، التى هى عبارة عن بعض القصور ، وسط النخيل ، وكذلك الضُّرم Al Dhurm التى هى عبارة عن نجع (هجرة) ونخيل ، ثم يصل المرء بعد ذلك إلى العاملة Al 'Amla، آخر مستوطنات الواحة وأهمها ، والعاملة عبارة عن بُلَيْدَة صغيرة فيها حوالى ٢٠٠٠ نسمة . وإذا ما تتبع المرء وادى رانية إلى مسافة عشرة أميال إلى ما بعد تلك النقطة ، سيصل إلى حافة بعض الجبال السوداء ، الأرجح أنها حرة نواصف Harra Nuwasif، إلى أن يصل إلى وادى ترابة Turaba، الذى توجد فى مجراه واحة تحمل الاسم نفسه ، وتبعد مسير يومين شمال غربى العاملة Al 'Amla، وواحة ترابة تبعد المسافة نفسها عن جنوب غربى الخرمة Khurma، التى تقع فى المجرى نفسه تحت اسم مختلف "وادى سبيع" . واقع الأمر أن سعدًا ، الراوى الذى يرافقنى ، كان يرى أن وادى ترابة Turaba يعد فرعًا من أفرع وادى رانية ، وليس استمرارًا لوادى سبيع ، ولكنى فضلت فى هذا الصدد الاعتماد على معلومات الآخرين الذين أثق بهم أكثر من سعد ، على أن أترك حل هذا اللغز لأحد الرحالة الأوروبيين فى المستقبل .

الطريق المؤدى إلى واحة بيشة يمتد من الوادى فى أقصى الجنوب الغربى متجاوزًا روابى المطيعان Mutai'an وأبرق Abraq والمجاريب Majarib ، ثم يمر عبر السهل

الذى تتخلله الروابى والتباب إلى أن يصل إلى قناة التثليث التى يعبر أجزاءها المنخفضة على مسافة حوالى خمسين ميلاً من الوادى . والطريق بعد أن يعبر رقعة من الأرض المتموجة يصل عرضها إلى حوالى عشرين ميلاً ، وتقع فيها مجموعتان من الآبار هما : حبية Hibaiya وملاح Malah فى قيعان شعبين ، يبعدان عن بعضهما البعض حوالى ثلاثة أميال ، يصل (الطريق) إلى قاعدة وقار الحَمر Waqar Hamar، تلك السلسلة الجبلية المرتفعة التى يبدو أنها تشكل الفاصل بين واديَىْ التثليث وبيشة ، ثم يصعد الطريق بعد ذلك تلك السلسلة الجبلية عن طريق ممر . وخلف تلك السلسلة الجبلية توجد رقعة من الأرض الرملية العريضة المتموجة ، فيها العديد من الشعاب التى تتجه إلى سلسلة جبال الراك Rak، التى يمكن الحصول على الماء عند قمتها من مجموعة من ثقوب المياه التى يصل عددها إلى حوالى خمسة عشر ثقبًا . وهناك شريط آخر عبارة عن سهل رملى قاحل يؤدى إلى منخفض شهير ، يسير الطريق بمحاذاته إلى أن يصل إلى اقترانه بوادى بيشة نفسه ، الذى يقع بالقرب منه جرف وعر يطلق عليه اسم خشيم الذيب Khushaim al Dhib . وتوجد فى الوادى عند تلك النقطة غابة من نباتات الحلفة Halfa وأدغال أشجار الطرفة Tarfa، إضافة إلى بيارة نخيل تقع خلف تلك الغابة ، وتعد بمثابة النقطة التى يبتعد الطريق عندها عن الجبال ليدخل فى رقعة من التلال السفحية ، التى يهبط من خلالها هبوطًا متدرجًا يسمح بالزراعة على نطاق واسع فى حوض ذلك الشعب . والطريق عند تلك النقطة يسير على امتداد مجرى القناة إلى أن يتجاوز المستوطنات المختلفة التى تشكل واحة بيشة الروشان Raushan، القرية ذات النخيل ، ومن خلف الروشان ، هناك نجيع Naji' له الطابع نفسه ، وبه قلعة كبيرة يطلق الناس عليها اسم قصر بنى ثور Bani Thaur . والوادى يعبر بعد ذلك النجيع سهلا يتفرع خلاله إلى عدة أفرع هى التى تربطه بوادى رانية من ناحية وبالتثليث من الناحية الأخرى ، إلى أن يصل إلى باجر Bajir والريانية ، التى عاد منها سعد ، الذى زار تلك المستوطنات ، مستخدمًا الطريق المشار إليه ، إلى محل إقامته فى وادى الدواسر ، بعد أن أمضى ستة عشر يومًا فى جولة دائرية كان يمكن أن يقطعها فى عشرة أيام لو أنه زاد من سرعته بعض الشىء .

كان سعد قد زار أيضًا واحة التثليث متخذًا طريقًا جنوبيًا غربيًا من الوادى متجاوزًا سلسلة جبال بَرَيْم البيض Baraim al Bidh، وضاربًا قناة التثليث عند أبيار ريَّان Raiyan بعد مسير مسافة تقدر بحوالى خمسة وخمسين ميلاً . وقد شدت سعدًا مجموعة أبيار الكيف the Kaif، التى تبعد عدة أميال فى أعالى مجرى الشعب إلى قريتى جاش Jash وقوينة Quinna وبيارات النخيل ، التى تقع على الجانب الأيمن من القناه الرئيسية للشعاب الفرعية لأبيار أفَّازة Affaza، غير أنه لم يزر تلك الأماكن . وقرية الحامضة Hamdha الكبيرة التى يبلغ عدد سكانها حوالى ١٥٠٠ نسمة تقع على مسافة مسير يوم كامل فى المنطقة الواقعة خلف أبيار أفَّازة . وبعد مسير يوم كامل آخر فى اتجاه أعالى المجرى وصل سعد إلى عمق Amq'، القرية الأولى من قرى تلك المجموعة ، التى تقع فى حوض كبير تتخلله قصور وبيارات نخيل ، وهذا الحوض ، كما يقول سعد ، هو المكان الذى ينبع منه شعب التثليث ، على الرغم من أنى أتصور أن تلك هى النقطة التى يخرج التثليث عندها من الجبال ، ومن نقطة الوصل التى تضم ٣٠٠ سيل ، أكد لى سعد أنها كلها تخلط مياهها فى ذلك المكان . وخلف الجبال ، وفى اتجاه الغرب وفوق هضبة عسير تقع مدينة خميس مشيط Khamis Mushait[٢٠]، ذلك السوق الزاهر ، والتى تصعب فيها زراعة النخيل بسبب ارتفاعها الشاهق .

وفى جنوب التثليث تنطلق من الجبال وديان على بعد مسافات متساوية ، وقد ذكر لى حسن أسماء ما لا يقل عن سبعة عشر واديًا من تلك الوديان تقع فى المسافة ما بين التثليث ووادى الجوف الكبير ، الذى توجد فيه بقايا سد مأرب الشهير والذى يعد نواة (أساسًا) لوديان حضر موت ، التى تقع فى اتجاه الشرق عبر السهل فى اتجاه الربع الخالى . والذى لا شك فيه ، أن بعضًا من تلك الوديان تتحد مع بعضها لتكون قناة الفاو Fau التى تخترق حاجز الطُّوَيِّق ، غير أن السواد الأعظم من تلك الوديان ليست له أهمية عملية، ولا يجوز أن نذكر منها سوى واديين فقط ، هما : وادى حبونة Habuna ووادى نجران . وهما واديان خصبان يفيضان بالحليب والعسل، كما "يشتهران باعتبارهما آخر ملاذ للمسيحية فى الجزيرة العربية" ، وقد لا يقلان شهرة عن موقع اليهود المتقدم ، والذين لا يزالون يتجولون فى شبه الجزيرة العربية . وهذان المنخفضان يفصلهما عن بعضهما البعض هضبة ، أو إن شئت فقل سلسلة جبلية تمتد

محاذية لهما فى اتجاه الشرق إلى أن تدخلا المناطق الرملية وتختفيا فيها[٣١]. وفى هذين الواديين توجد واحات زاهرة وواسعة بها كثير من النجوع (الهجر) والقرى التى يسكنها أناس شبه رحّل ، كما تنساب خلال هذين الواديين أيضًا غدران المياه الجارية ، التى هى شبه دائمة ، إن لم تكن دائمة فعلاً . هذه القرى (المستوطنات) التى يتحدث عنها سكان وادى الدواسر الفقراء حديثًا مبهورًا ويطلقون عليها اسم آل نجران ، والتى يتحدث عنها سكانها الأصليون حديث فخر وكبرياء ، باعتبارها مركزًا للحضارة والازدهار . هذه القرى بعد كل ما يقال عنها ويفعل من أجلها ، ليست سوى مجموعة من الواحات المزدهرة محدودة القدرة ، تعول جماعة من السكان ، القسم الأكبر منهم لا يزال يتجول مع الماشية فى الصحارى ، ولا يزال يمارس القرصنة وقطع الطرق على حركة مرور الجنس البشرى المسالم .

ونجران لا تزال تبدو كبيرة فى المشروع التجارى فى الجزيرة العربية باعتبارها ميناء صحراويًا ، تقصده سفن جنوبى نجد البرية طلبًا لشحنات من حبوب البن اليمنى ، تلك البضاعة الثمينة التى تجرى مقايضتها ببالات القماش الهندية والمستلزمات الأخرى فى أسواق المدن الداخلية . وفى نجران تلتقى كثير من الطرق القادمة من الجوف Jauf فى اتجاه الجنوب ومن صعدة Sa'da فى الجبال ، ومن حضر موت التى يستغرق السفر إليها حوالى عشرة أيام فى اتجاه الجنوب الشرقى ، ومن السليل ومن الوادى ، اللذين يستغرق الوصول إلى أيهما حوالى ستة أيام فى اتجاه الشمال ، وفى اتجاه الشمال الغربى كلاً على حدة ، إذ تقدر المسافة بين نجران وكل منهما بحوالى ١٢٠ميلاً و ١٥٠ . ومن السليل يمر الطريق عبر منحدر الطُّوَيِّق الشرقى ، الذى توجد فى واحد من منخفضاته بئر واحدة يطلقون عليها اسم الحاسى Hassi التى تقع على مقربة من وادى الفاو Fau الواسع ، والذى يمكن العثور على الماء فيه أيضًا فى موسم السيول ، وبالتحديد فى منخفض الجيلات Al Jilat . وبعد تلك المنطقة تبدأ المرتفعات فى التناقص إلى أن تصبح أرضًا رملية قاحلة ، يسير الطريق محاذيًا لحافتها الخارجية نظرًا لوجود الماء فى أبيار منعزلة فى كل من شعبى حما Hima والوريك Wuraik، اللذين يبعدان مسير يوم واحد عن حبونا Habauna . والمنطقة هنا موحشة ، إضافة إلى أن المسافة الطويلة بين حاسى Hassi وحما Hima تعد

اختباراً قاسياً للقوافل التى تحمل أحمالاً ثقيلة من البن وبخاصة فى موسم الجفاف . يضاف إلى ذلك أيضًا أن تلك المنطقة موبوءة بالعصابات وقطاع الطرق ، الذين لا يهتم أحد بكسر شوكتهم أو السيطرة عليهم ، وهذا هو أيضاً حال الطريق القادم من الوادى إلى نجران ، والذى يتوفر فيه الماء على نحو أفضل من الطريق سالف الذكر . والطريق القادم من الوادى يمر بأبيار عويفرة Uwaifara' ، التى يصل عددها إلى حوالى اثنتى عشرة بئراً فى منخفض ضحل ، فى اليوم الثانى من المسير ، ثم يصل الطريق بعد ذلك إلى أبيار واجد Wajid بعد ذلك بيوم ، وأبيار واجد هذه عبارة عن بئر واحدة فى وادى قيرى Qiri، الذى ينحدر نازلاً من المرتفعات ، ويمكن الوصول إلى تلك البئر فى اليوم الرابع . ثم يمتد الطريق بعد ذلك إلى حابونا عبر واديَىْ نجد وهيما اللذين يخلوان من الماء ويتجهان صوب الشرق ، وهذان الواديان يأتيان من المرتفعات الغربية .

ومسألة تقدير عدد سكان منطقة نجران حابونا أمر يصعب تحديده أو القطع به . والمؤكد هو أن عدد السكان المستقرين وكذلك السكان الرُّحَّل يفوق بكثير عدد سكان وادى الدواسر ، والعنصر السائد بين أولئك السكان هو الاتحاد القبلى الذى يعرف باسم أهل يام Ahl Yam، وهو الفرع المتبقى فى موطنه الأصلى من أسرة أعطت نجد كثيراً من القبائل . وإذا ما استبعدنا تلك الأفخاذ ، التى تحولت إلى قبائل ، نجد أن تلك الأسرة تزعم أن لها أصلاً مشتركاً مع اليام عن طريق سلف معروف فى الموروث باسم وعيل Wu'ail ، ومن هنا يمكن تقسيم تلك القبيلة إلى ثلاث جماعات رئيسية : آل سليمان Al Sulaiman وآل فاطمة Al Fatima ثم آل مدكر Madkar . وإلى الجماعات التى تتمثل فى الأفخاذ الموجودة حالياً . وأنا لم أستطع أن أتبين أو أكتشف إن كانت تلك الأفخاذ القبلية لا تزال تحتفظ بهوياتها المستقلة فى منطقة السكان المستقرين ، كما هو الحال بين مختلف تقسيمات الدواسر ، كما لم أستطع أن أتبين إن كانت تلك القبائل قد مرت بعملية انصهار أو اندماج ، مثلما هو واضح فى مستوطنات وقرى وسط نجد ، أو إن كانت تلك المستوطنات تخضع لسلطة حاكم واحد أو نظام واحد ، هذا على الرغم من أنى قد تولد لدىَّ ، من خلال حديثى مع سُمعان Sum'an، ومع حسن وآخرين ومن ملاحظاتهم عن تباين المعتقدات الدينية السائدة بين تلك المستوطنات ، انطباع مفاده أن قرى نجران تعكس بصورة أمينة تلك الانقسامات

والتباينات ، بل وحتى العداوات السائدة بين مختلف الجماعات المترحلة التى تعتمد على تلك القرى ، كما تولد لدىَّ انطباع أيضًا عن أن أقرب شكل من أشكال التنظيم الذى تعرفه تلك القرى والجماعات يتمثل فى غريزة الحفاظ على النفس ، التى تجمعهم صفًا واحدًا فى وجه العدو المشترك ، وسرعان ما تخمد تلك الوحدة عقب زوال الخطر ، وفى أحيان أخرى تتناحر تلك القرى وتلك القبائل وتتشاجر وتتخاصم فيما بينها كما هو حال العرب .

ويقدر ما يقال إن أى فخذ من تلك الأفخاذ هو المسيطر فإن الفخر بالمكان والتباهى به يجب أن يعزى إلى الماشل Mashil،الذين يذيع صيت رئيسهم الأكبر ، محمد بن سجوة ibn Sajwa، الملقب باسم والدته تماشيًا مع ما هو متبع فى الجنوب ، يذيع بأنه من خيرة قادة الرجال . ولكن فخذى الاتحاد اللذين لهما سمعة بالغة السوء هما الرزق Rizq والسلم Sulum، تلك العصابات التى تستعصى على الإصلاح والتقويم ، لعنة الطرق المباشرة فى الجنوب ، ومصدر الرعب والفزع فى الوادى . والمذهب العام (الواحد) الذى يعد فى نجد أداة قوية للحفاظ على القانون والنظام ، يستبدله أهل نجران بتباين كبير فى العقيدة الدينية وفى الممارسة الدينية أيضًا ، الأمر الذى يزكى الاتجاهات الطاردة المركزية بين الوحدات القبلية فى نجران . فيما يتعلق بالعقيدة يعد كل إنسان قانون (شرع) نفسه نظرًا لأن الأفخاذ المختلفة تبدو مختلفة بسبب الانقسام والانشقاق الداخلى. وفى مثل هذه الظروف لابد أن تكون أية محاولة لتصنيف الانقسامات القبلية على أساس من المذاهب بعيدة تمامًا عن الصحة ، وهذا هو ما فهمته جيدًا من الروايات غير الدقيقة وغير المترابطة التى حصلت عليها من مختلف الرواة . والحقيقه الواضحة تتبدى فى أن قبائل اليام ، كانت إلى عهد قريب مقسمة إلى مذهبين رئيسيين هما : الإباضية Biyadhiyya عُمانية الأصل ، والرُّفاضة [أو الرافضة] Rufadha، ذلك المصطلح الذى يقصد الرواة به طائفة الإسماعيلية . والإسماعيلية تضم جماعتى الفاطميين ومذكر Madhkar، على الرغم من وجود أناس لا يعدون من المسلمين إطلاقًا ، بين فخذى الرزق والسلم ، وبالتالى فهم لا يزالون يحتفظون ببعض طقوس العبادة الوثنية التى يوقرونها تحت اسم الصُّلاة Sullah، وإضافة إلى عبادة الله كالمسلمين لدى الرُّفاضة جبل فى بلادهم ، يقدمون له قرابين من اللحم والزبد وأشياء أخرى ، يتركونها أمام الجبل لكى تستهلكها الشمس وتأتى عليها . وأقسام الماشل Mashil المختلفة تعتنق الإباضية ، تلك النحلة التى تشترك مع الوهابية فى بعض المعتقدات ،

التى حققت ، فى السنوات القلائل الأخيـرة ، تقدمًا كبيرًا بين أفخاذ كثيرة من ذلك الاتحاد ، بسبب رواجها وحداثتها . والمؤكد أن مثول الرشيد Rashid والفهادFahhad أمام محكمة ممثل ابن سعود فى الوادى كان يعد اعترافًا حقيقيًا منها بارتدادهما ، هما وآخرين عن عقيدتها ودخولهما فى عقيدة ابن سعود . وذيوع ذلك الاتجاه بين بقية الأفخاذ لا يمكن أن يفشل فى تمهيد الطريق أمام انتشار صولجان ابن سعود فى اتجاه الجنوب ، وهذا التطور الطارئ يمكن أن يسمح بانتشار الأمن والسلام فى ربوع الجنوب المضطرب ، يضاف إلى ذلك أن التطورات الدينية التى ستحدث فى نجران فى السنوات القليلة المقبلة تستحق المزيد من الدراسة المتأنية ، من قبل كل أولئك الذين يهتمون بمستقبل الجزيرة العربية . ومذهب الإباضية يستغنى تمامًا عن الأذان Adhan، وعن صلاة الجماعة ، فى حين حكى لى الرواة عن بعض الغرائب التى تسود بين أتباع طائفة الإسماعيلية الشيعية الذين يقولون : "حى على خير العمل"[٣٢] بدلاً من العبارة الدينيه الصحيحة : "حى على الصلاة" فى أذان الصلاة ، كما أن الشيعة يحذفون التأمين Amin فى صلاة الجماعة بعد السورة Sura الأولى من القرآن ، التى تبدأ بها الصلاة .

ومن بين جملة النِّحل التى تفرق نجران عن واحات نجد وتوحى بشىء من التسامح الذى يستثير الدهشة فى تلك المناطق السماح بوجود قرية يهودية صغيرة تضم أربع عائلات ، انحدرت ، كما يقول الناس هنا ، عن المستوطنة اليهودية الكبيرة فى صنعاء . ونظرًا لأن الجيران المسلمين تركوا بنى إسرائيل هؤلاء يمارسون طقوسهم الدينية الخاصة ، ويعيشون أيضًا بطريقتهم الخاصة دون أى تدخل من أى نوع كان ، راح أولئك اليهود يسدون رمقهم من خلال حياة عزلة بين رفاقهم غير المتحضرين ، وبرعوا تمامًا بحكم مهارتهم فى حدادة صنع البنادق والأعمال المعدنية ، كما برعوا أيضًا فى العمليات المالية ، وكونوا طائفة حرة تحظى بالاحترام . وتذيع بين العرب سمعة جرابات الخناجر التى يصنعها أولئك اليهود هى وأشياء زينية أخرى من الفضة والذهب .

تلك كانت نجران ، ولكنى لم أسمع شيئًا سوى شائعات غامضة عن مدينة الجوف ، مركز الحضارة السبئية العريقة ، أو عن سد مأرب الشهير الذى أدى انهياره فى الأيام الخوالى إلى نشر الخراب والدمار فى قرى ومستوطنات اليمن السعيد الزاهرة .

الهوامش

(١) تلك كانت أربعة قصور يطلقون عليها اسم المشهابيات Mishhabiyat بالقرب من النخ Al Nakh؛ وكانت أبيار وقصور بلاد الحوسيين Husaiyin المدمرة تقع في أعالي الشعب ؛ وفي حين كانت أبيار المغارة Mughara تقع في الناحية الغربية من القرية .

(٢) يحصل أولئك الذين ليس لهم نصيب من بيارات النخيل على قسم من محصول التمر كل عام وذلك على سبيل الإحسان تمشياً مع العرف القديم .

(٣) يملك آل محمد من أبيار لتوة Latwa التي يبلغ عددها أربعًا وعشرين بئرًا ثلاثَ أبيار، في حين يملك آل حنيش بقية الأبيار .

(٤) يعرف الاتحاد الحقيقي لهاتين القناتين باسم المفرش Al Mafrash .

(٥) المسافة بين الفرشة ورمال الربع الخالي يقال إنها عبارة عن سهل صخري صلب يقال له الحيضة Hidha ويصل عرضه إلى عشرين ميلاً .

(٦) وقد سأل عبد الله أسئلة ذكية أخرى عن مسألة إدارة المدفعية في مسقط وعن أنشطة القوات الهندية في الحرب .

(٧) الأنواع السائدة هنا هي السيرى Siri والمكويزى Makwizi .

(٨) غالبية بيارات النخيل تطلق عليها أسماء خاصة مثل : البطيحة Butaiha، والصوفيَّة Sufaiya، إلخ .

(٩) اللوبية .

(١٠) ينمو الإثل هنا بكثرة ، وقد شاهدت العديد من نباتات زيت الخروع (انظر من ١٩٨ وما بعدها) .

(١١) سالت شعاب المجمعة ثلاث مرات خلال فصل الشتاء والربيع الماضيين .

(١٢) من نوع نبات السواد Suwad نفسه .

(١٣) [مثل] شعب سمير Sumair وشعب لبيات Libat .

(١٤) انظر المجلد الأول ص ١٢٥ .

(١٥) كانت أسعار تلك الأشياء في الوادي أعلى منها في أي مكان آخر ، إذ كانت وزنة البن الواحدة تباع بدولار . ووحدة الوزن ، شأنها شأن العملة بشكل عام في وسط الجزيرة العربية ، هي الدولار أو الريال ، والوزنة التي تختلف من منطقة إلى أخرى ، إذ تقدر تلك الوزنة في الرياض بما يساوي ثقل خمسين ريالاً ، وما يعادل ٥١ أو ٥٢ ريالاً في القصيم ، ٥٥ ريالاً في السليل و ٦٠ ريالاً في الوادي ، كما أن

الصاع يساوى وزنتين فى كل مكان ؛ وعليه إذا ما تجاوزنا عن الفرق فى الوزنة نجد أن الدولار يشترى ما وزنه ٧٣ ريالاً من البن فى السليل ، ٦٠ ريالاً فى الوادى .

(١٦) يقول الناس للأغنام البيضاء هنا حبس Habs .

(١٧) قبيلتا السلُوم ورزق بصفة خاصة .

(١٨) هاجر القسم الرئيسى من الأمُر إلى واحة تمرة ، كما هاجر الحنابجة إلى الحمَر Hamar فى مرتفعات الأفلاج ، وهناك قصر مدمر يقع فى الأرض الفضاء فيما بين اللُفاف وشرافة ، ويقال إن ذلك القسم كان منزلاً لواحد من كبار الأمُر Amur فى الماضى ، وأن اسم ذلك الرجل كان "حمد بن جبال" .

(١٩) أهم تلك القصور هو قصر المراديح ، وقصر منصور فى الطرف الغربى من القسم ، والثمامية Tham-amiyya (القصر والبئر) فى الوسط .

(٢٠) انظر المجلد الأول ص ١٦٢

(٢١) ربما تكون النباتات قد أحضرت من مرتفعات الطويق عن طريق سيول المجمعة .

(٢٢) طوب اللبِن المستعمل فى القسم الأوسط من الواحة لونه أحمر فاقع ، بينما نجد أن لون ذلك الطوب رمادى فى أماكن أخرى .

(٢٣) جماعة فرعية عن العويمر ، وأمير آل نهيش هو أمير بن تامى ، أما أمير سراجى فهو موفى بن عبيد .

(٢٤) الأفخاذ أو الأقسام الداخلة ضمن هذا الفرع يطلق عليها اسم آل سحاب Al Sahaba .

(٢٥) مبلغ علمى أن جماعات وادى الدواسر وجماعات الأفلاج هى المقصودة هنا ، أما جماعة الخرج وكذلك المراعى الشرقية فكان يجرى التعامل معها كلاً على حدة .

(٢٦) هم ينسبون أنفسهم إلى على آل مرة .

(٢٧) جمع خريمة .

(٢٨) انظر ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢٩) انظر المجلد الأول ص ٤٧ .

(٣٠) هناك طرق يمتد من تلك البلدة إلى الوادى عن طريق جاش Jash، والمراحل التى تتوسط تلك المسافة هى تاريبى Taribi (مسير يوم ونصف اليوم) والسبيخة Subaikha (مسير يوم واحد) من تاريبى ، كما تبعد المسافة نفسها أيضًا عن جاش Jash .

(٣١) يظن الناس أن شعب حابونا Habauna رافد من روافد وادى الدواسر ، ولكن الأمر ليس كذلك ؛ فقد وردت تقارير تفيد أن وادى نجران ينساب فى وادٍ آخر يسمونه وادى عفطانة Aftana او عفطان Aftan، ومنه إلى الرمال ، غير أن جميع التحريات والاستقصاءات التى قمت بها فشلت ولم أحصل على أية معلومات فيما عدا أن وادى نجران يستمر فى الجريان إلى أن يندفن فى الرمال . وأنا أرى أن الاسم عفطانة ربما كان مشتقًا من ملاحظة من هذا القبيل ولم يلق الناس لها بالاً .

(٣٢) هذه العبارة تعنى فى ظاهرها "سارع إلى الأمل الممتاز" ، وليس معناها "سارع إلى العمل الممتاز" ، أى أن الكلمة الأخيرة معناها "أمل" وليس "عمل" .

الفصل الحادى عشر

حاجز هضبة الطُّوَيْق

١- وسط روافد وادى الدواسر

قضينا ليلة اليوم السادس من شهر يونيو فى خليج جميل من خلجان جرف الطُّوَيْق عند النقطة التى يبرز عندها مجرى سيل الكميح Kumaih من ضفته الهزيلة وسط جلاميد من مخلفات الصخور . كانت الصخور القاتمة ترتفع شامخة من فوقنا إلى ارتفاع يصل إلى حوالى ٥٠٠ قدم أو أكثر على شكل جُرف هارٍ من الحجر الرملى الأحمر ومن فوقه قشرة رقيقة من الحجر الجيرى الذى يميل لونه إلى الاصفرار ، وتحيط بقاعدته كومة من أحجار الجير المتساقطة ، تراكم من عمل الطبيعة على امتداد عصور طويلة . كما كانت تنتشر هنا وهناك أشجار السنط الشهيرة وبقع من نباتات المرخ تكسو عُرْى المنظر ، كما كانت هناك أيضًا أعشاب خشنة حاولت إطالة ذكرى السيل (الفيضان) الفائت .

كان إبراهيم ورفاقه يتطلعون إلى العودة من الطريق المطروق الذى سبق أن سلكناه إلى الوادى ، ولكنى أصررت بشدة على أن نسلك طريقًا مختلفًا ، ولكنهم استسلموا على مضض لما أقوله ، من باب أن ذلك من قبيل مواساتى فى الغضب الذى فرضوه علىَّ بطردهم جابر المرِّى . وطالما أن الطريق ليس هو الطريق الذى جئنا منه ، فأنا لا يعنينى إن كان ذلك الطريق يسير بمحاذاة الحافة الغربية لحاجز الطويق ، أو يسير عبر مرتفعات ظهر الطويق العريض ، ووقع خيارنا على المسار الأخير باعتباره أقل جدبًا وسأمًا عن المسار الأول ، فضلاً عن أن المسار الثانى تتوفر فيه المياه أيضًا .

وعلى امتداد الأيام الثمانية عشرة التى تلت ذلك كنا نشد رحالنا جاهدين بمحاذاة قمة هضبة الطويق إلى أن وصلنا الرياض مرة ثانية ، وطوال مسيرة العودة استطعت عن طريق الاستفسار وعن طريق الملاحظة ، الربط بين وديان الهضبة ومجاريها المائية التى تنحدر من مرتفعاتها من جهة ، وبين المجارى المائية الرئيسية التى عبرناها فى رحلة السفر [من جهة أخرى] ، كما استطعت أيضًا من خلال بعض الوقفات القصيرة إلقاء نظرة خاطفة على المناطق الجبلية الموجودة فى الناحية الغربية ، والتى سبق أن عبرتها خلال رحلتى إلى البحر الأحمر فى شهر ديسمبر الماضى .

كان الصعود من السهل الغربى إلى قمة الهضبة عن طريق الاختناق الضيق المنحدر لشعب الكميح Kumaih عملية شاقة ، انطوت مناقشتها على توتر شديد أصاب الجمال المحمَّلة كما أدى إلى إبطاء معدل مسيرنا وتقدمنا . وهذا الاختناق أو الممر الضيق يصل عرضه عند بدايته إلى ما يقرب من مائة ياردة ، وتنساب فيه المياه فى أثناء موسم السيول منحدرة إنحداراً حاداً ، ولكن هذا الممر سرعان ما يضيق بين الصخور ، والطريق يسير مع مجرى السيل نفسه فيما عدا نقطتين جرى فيهما قطع الصخور على شكل درج (سلم) ، يسقط منه الماء على شكل شلال يصل ارتفاعه إلى أربعين قدمًا أو خمسين فى موسم الأمطار .

وعند سفح واحد من تلك الشلالات عثرنا على بركتين من مياه السيول محصورتين بين جلاميد الصخور ، وتوقفنا برهة لنسقى جمالنا ونملأ قراب الماء ، وسعدنا بذلك الماء بعد اعتماد طويل على ماء الآبار المالح فى الوادى ، سعدنا بتذوق لماء السيل البارد العذب مرة ثانية ، صحيح أن به طينًا عالقًا ولكنه منعش. كان مجرى السيل الرملى ملىء بالماء ، على نحو يطوله المرء بيده ، ومن ذلك الماء أخذنا بغيتنا فى حين أطفأت الإبل ظمأها من البركتين الراكدتين . وبينما توقفنا لجلب الماء لاحظت أن سطح قرميد من الصخر تصل مساحته إلى حوالى عشرة أقدام مربعة موجود إلى جانب إحدى البركتين ، كان محفوراً باستعمال أدوات غريبة بدائية الطابع ، والذى لاشك فيه أن تلك النقوش التى على القراميد هى من فعل عربى عاطل فى وقت غير بعيد ، وبالتالى ليس لها معنى أو مغزى ، ولكن وجه القرابة هنا يتمثل فى ندرة النقوش فى هذه البلاد ، وإذا ما وجدت فهى مجرد إشارات أو علامات ، أو إن شئت فقل سمات

أو علامات من صنع القبائل ومملوكة لها أيضًا . وفى هذا الطرف ، اتضح لى أن رفاقى لم يكن لديهم مثل هذا التفسير لتلك العلامات ، التى نسخت منها صوراً طبق الأصل .

كان ذلك الجرف الهارى الناتج عن الشلال بمثابة العقبة أمام تقدمنا إلى أبعد من النقطة التى وصلنا إليها ؛ الأمر الذى جعلنا ندور من حول ممر ضيق خطير، وذلك عن طريق الجرى على طول حافة بارز منحوتة فى الجدار على الجانب الأيسر من الغور الذى بين الجبلين ،.والذى كانت تسده جلاميد الصخر المتساقط بين الحين والآخر . ولكنى فضلت تسلق قمة ذلك المرتفع على قدمى ثم جلست أراقب بقية القافلة وهى تحذو حذوى . وعلى الرغم من أن الجمل يبدو عابساً فإنه يتمتع بخفة الحركة ، ورحت أعجب وأنا أراقب تلك الإبل التى تحمل أمتعة ثقيلة وهى تمشى ببطء وبثقة صاعدة ذلك الممر الخطير . ولم يعكر صفو المضى قدماً سوى حادث واحد ، وقع بعد أن عرَّفنا ستة من الإبل الطريق المطلوب ، ولكن الجمل الثانى فى الترتيب من تلك الجمال الستة رفض التحرك بتاتًا وأغلق الطريق تماماً على بقية الإبل التالية له . وقد حتَّم ذلك علينا محاولة إخلاء الطريق ، الذى اتخذ شكل دحرجة جلاميد كبيرة من الصخر بعيداً عن الطريق ثم تركها تهوى إلى مجرى السيل فى الأسفل ، وقد أسفر ذلك عن تحسن طفيف فى الطريق . وهنا جرى التحايل على الجمل الحرون كى يقوم بمحاولة أخرى ، ولكنه لم يسر سوى خطوات قليلة بدأ يحرن بعدها من جديد ثم وقع بكل ثقله على الأرض الصخرية ، ولم يحل ذلك الحادث دون حث الجمل على مواصلة عملية الصعود ، على الرغم من أنه ثبت بعد ذلك أنه قد أصيب إصابة داخلية خطيرة تكفى ، لإدراجه ضمن العاجزين عن مواصلة القتال ، وفى النهاية زودناه بالمزيد من الشحم ، الذى حتَّم علينا استبداله باللحم أن نعتمد على المصادفة فى التقائنا الرعاة فى تلك المرتفعات المضيافة ، التى يمر بها طريقنا .

زد على تلك العقبة أن مجرى الشِّعب كان من الحجر الصلد الذى نعم سطحه بفعل مرور السيول ، كما كانت تتخلله هنا وهناك نباتات وأدغال السمار والحشائش الجافة ، ويصل عرض ذلك المجرى حوالى خمسين ياردة فيما بين كتل الصخرة المتساقطة ، التى ترتفع جدران المضيق من خلفها ارتفاعاً حاداً يتردد بين ٢٠٠ قدم أو ٣٠٠ فوق رءوسنا .

والجرف الثانى الذى كان ينتظرنا فى ذلك القسم من المضيق جرت مناقشته بلا أية مشكلات ، وأوصلنا عن طريق مسار متعرج إلى مستوى أعلى مما كنا عليه ، أى ارتفاع يزيد حوالى ٣٠٠ قدم عن المستوى المخيم الذى خيمنا فيه فى الليلة السابقة ، وذلك من واقع قراءة البارومتر المعدنى . وتحول المضيق فى تلك المنطقة إلى واد قاحل يصل اتساعه إلى حوالى ٢٠٠ ياردة فيما بين التلال الأقل انحداراً عن الصخور التى خلفنا ، وربما لا يزيد ارتفاع تلك التلال عن ١٠٠ قدم . وعند قمة ذلك الوادى هناك سلسلة من الجبال المنخفضة تشكل الحد الفاصل بين شعب الكميح وشعب الكماح Kumah، الذى هو عبارة عن واد ضيق عميق يتجه جنوبيًا عبر متاهة من الروابى المتداخلة والسلاسل الجبلية المتداخلة التى تُكوِّن الطُّوَيِّق فى المنطقة الشمالية من وادى الدواسر ، أو إن شئت فقل منطقة أفجة Afja من ذلك الوادى ، الذى يعد شعب الكماح مجرد رافد من روافده .

وعند تلك النقطة وصلنا إلى أخطر مرحلة من مراحل ذلك الصعود ، ألا وهى ذلك المدق Track الذى يسير فوق قمة سلسلة جبلية طويلة تشبه الخازوق وتفصل بين الواديين . وقد جربنا فى البداية طريقًا بديلاً على جانب تلك السلسلة الجبلية ، ولكننا تخلينا عن ذلك الطريق عندما اكتشفنا أن سيلاً حديثًا كان قد اجتاح القسم الأكبر منه . ولم يكن الطريق الذى انتخبناه أفضل كثيراً من ذلك الطريق ، إذ كان عرضه لا يزيد على عشرة أقدام ، ومنحدر انحداراً شديداً على كل جانب من جانبيه ، ويسده جلمود صخرى ضخم فى أحد أجزائه ، نجم عنه وجود ممر لا يزيد عرضه على قدمين على كل جانب من الجانبين . واستطعنا بمزيد من الحذر والصبر جعل تلك الدواب المسكينة تتجاوز تلك العقبة بسلام ، ووصلنا بعد ذلك بلحظات إلى رجمة جرى إنشاؤها لتكون إشارة إلى قمة الهضبة ، التى ترتفع حوالى ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر أو ٥٠٠ قدم عن مستوى مخيمنا السابق .

هنا بدأ يطالعنا منظر الأرض الذى كان عبارة عن منخفضات قاحلة تنحدر نحو الأسفل . وفى الناحية الغربية ، شاهدنا عن بعد السهل الرملى الذى عبرناه فى أثناء قدومنا من وادى الدواسر . وفى الناحية الشمالية شاهدنا عند الأفق منحدرات جنوب الطويق القاحلة التى تحتوى على امتدادات بُكارات Bukarat وامتدادات خشم حقبان

Haqban الجبلية التى تمتد على شكل نسق فى اتجاه الجنوب الغربى . كما ظهر نخيل السُلَيِّل فى تجويف بعيد فى الناحية الجنوبية الشرقية ، فى حين شاهدنا هضبة الطويق فى الناحيتين الشرقية والشمالية وقد تخللتها أعداد كبيرة من الوديان التى تحمل مياه تلك المناطق إلى مجرى وادى الدواسر الرئيسى . وشعب المراغة Maragha هو شريان تلك المرتفعات الرئيسى ، وهو ينبع من نقطة تقع على بعد حوالى خمسين ميلاً شمالى هذه النقطة فوق السلسلة الجبلية ، التى تشكل الحد الفاصل بين كل من وادى الدواسر ومنظومات تصريف مياه مرقن Marqan .

وبعد أن حصلنا على قسط من الراحة بعد العناء الذى أصابنا جراء عملية الصعود ، واصلنا مسيرنا عبر تموجات الهضبة الهيِّنَة فيما وراء أو عبر بعض الشعاب(١) الصغيرة النازلة إلى شعب الكماح Kumah ، ثم توقفنا وقفة قصيرة لتناول طعام الإفطار فى أكبر تلك الشعاب ، ألا وهو شعب مذحورة Madhhura، ومن ارتفاع كبير ألقيت من جانبه الأيمن آخر نظرة لى على منطقة السليل .

والهضبة فى تلك المنطقة تنحدر نحو الأعلى انحداراً هيِّنًا لاحظناه عندما كنا نسير فى اتجاه الشمال نحو سلسلة جبلية متقاطعة ومنخفضة يطلقون عليها اسم خُتَيِّم خانوقة Khutaiyim Khanuqa، وهنا بدأ رفاقى يهللون فرحًا عندما بدأت عرفج Arfaj تتبدى لهم ثانية بأشجارها القصيرة والكثيفة ، والعرفج نبات يقال إنه لا يوجد سوى فى شمال وادى الدواسر . كان وهج الشمس شديداً على سطح تلك الأرض القاحلة التى أحرقتها حرارة الشمس ، وبدأت تتبدى لنا من خلال الضوء المنعكس عن البللورات المختلفة التى تنتشر فوق كل جزء من سطح تلك الأرض القاحلة ، وعلى الرغم من هبوب نسيم بارد مستمر من جهة الشمال ، فإننا أحسسنا بالسعادة عندما حان وقت توقفنا طلبًا لقيلولة الظهيرة .

استأنفنا مسيرنا فى فترة العصر نازلين منحدراً هينًا يتجه صوب الشرق فيما بين سلسلة جبال خُتَيِّم Khutaiyim والارتفاع البسيط الذى يوجد خلف تلك السلسلة ، والذى يكوِّن امتداداً ينتهى انتهاء مفاجئًا فى شق شعب سديرة Sudaira الصخرى العميق ، الذى توقفنا فيه لقضاء الليل بجانب برك خانوقة Khanuqa . كان جانبا ذلك

الشق من أعلى على ارتفاع حوالى أربعين قدمًا ، أما مجراه فكان من القراميد الصخرية الكبيرة التى نَعُمَ سطحها بفعل حركة الماء ، ويصل عرضه إلى حوالى ثلاثين ياردة ، وتغطيه النباتات المدارية غزيرة النمو ونباتات أخرى من أنواع غريبة ، أبرزها النبات الذى يطلقون عليه اسم الشَّفلَّة Shafallah ، الذى له ثمار متدلية غريبة تشبه ثمرة الباذنجان من حيث الشكل ، على الرغم من أن لونها يكون أحمر عندما تنضج ، وتحتوى على كمية من البذور السوداء التى تتخلل لحاءً أبيض ، والناس يأكلون تلك البذور التى لها طعم حار يشبه طعم المستاردة ، وهو طعم مستساغ . كما لاحظت من بين الأدغال الأخرى نبات الوهت Wahat، الذى له أشواك تشبه المخالب ، وتلك كانت أول مرة أشاهد فيها ذلك النبات بعد أن غادرت الرياض قاصداً الجنوب .

وبرك الخانوقة عددها ثلاث تنتشر على مساحة حوالى ميل بدءًا من رأس الشعب الذى يمتد شرقًا بعض الشيء ثم يتجه جنوبًا ليقترن بشعب المجمع Majma'، والصخور الموجودة فى أجزاء ذلك الشعب السفلى أعلى من الصخور الموجودة فى أعالى ذلك الشعب . وأولى تلك البرك الثلاث : البركة التى توقفنا عندها لقضاء الليل ، تقع فى منخفض صخرى عميق ، مساحته حوالى عشرين ياردة مربعة بالقرب من أعالى المضيق . والبركة الثانية ، التى يطلق عليها اسم جُلَيْطة التعامر Julaita Ta'amir ، أبعادها أصغر من أبعاد البركة الأولى ، إذ يصل طولها إلى حوالى عشرين قدمًا ، وعرضها عشرة أقدام ، وعمقها خمسة أقدام ، وينضب ماؤها فى فصل الصيف فى أثناء فترات الجفاف . هذا بالإضافة إلى البركة الثالثة التى أتينا على ذكرها ، والتى يطلق عليها اسم خانوقة Khanuqa . هذه البرك الثلاث هى بمثابة السمات المميزة للمنظر فى هذا المكان ، ويقال إن بركة خانوقة أكثر عمقًا ويشيع عنها أن ماءها لا ينضب أو ينتهى ، وهى على شكل مثلث متساوى الساقين ، رأسه عند أعالى المجرى المائى وضلعاه الطويلان تحيط بهما جدران صخرية يصل ارتفاعها إلى حوالى خمسة أقدام فوق مستوى سطح الماء ، أما قاعدة المثلث فهى عبارة عن قطعة من الأرض الرملية على مستوى مجرى الشعب نفسه ، وتنحدر انحداراً هيِّنًا على شكل رف عند حافة الماء ، ويصل طول تلك البركة إلى حوالى ثلاثين قدماً ، وعرضها عند قاعدة المثلث يقدر بحوالى خمسة عشر قدماً .

مناظر ذلك الوادى الصغير ونوعية الحياة النباتية فيه ومن خلفهما الصخور القاحلة ، وكذلك برك ذلك الوادى ومعها ذبابه الضخم الذى يحوم حول النباتات على ضفاف تلك البرك ، كل ذلك كان له سحره وجاذبيته الخاصة ، وسيظل ذلك المنظر عالقًا دومًا بذاكرتى ، بينما تتلاشى المناظر الأخرى ، وذلك من منطلق أن هذا المنظر الساحر يعد واحداً من الأشياء القلائل التى تنفرد بالجمال الطبيعى ، والتى صادفتها خلال تجوالى فى الجزيرة العربية . وأنا آسف أشد الأسف لانتهاء مخزونى من أفلام التصوير ، ويزداد أسفى أيضًا لأنى لم تكن لدى وسيلة أخرى أستطيع بها الاحتفاظ للآخرين بتلك الانطباعات التى لا تزال حية فى ذاكرتى .

وبعد أن عدت إلى مخيمنا بعد جولة قمت بها إلى أكثر تلك البرك الثلاث انخفاضاً وجدت أن رفاقى على أحسن ما يرام فيما بينهم ومع العالم كله . فقد حكم أولئك الرفاق فى أثناء غيابى ، بعدم صلاحية الجمل الذى تعثر وسقط فى الطريق ، وقرروا أنه لم يعد صالحًا للحياة ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الحكم الذى لم يكن مؤيداً بأى من الاعتبارات البيطرية ، سرعان ما شمله التنفيذ . وهنا جرى قطع بلعوم ذلك الحيوان الكبير من الكتف إلى الكتف مع ذكر اسم الله عليه ، وسرعان ما وجدت الأيدى الدءوبة تبدأ العمل فى الذبيحة القريبة منها بركة من الدم الذى يلطخ الصخور . وبدأت استعدادات تجهيز العشاء ، فى الوقت الذى جلس فيه إبراهيم وآخرون حول نار المخيم يتمتعون بفاتح الشهية المتمثل فى شرائح كبيرة من كبد الجمل راحوا يطهونها نصف طهى على جمرات النار بعد أن غطوها بالملح . وانضممت إلى تلك الجماعة وتذوقت قطعة من ذلك الكبد ، جعلتنى أشعر بالغثيان ، لقد كانت خشنة ونيئة أيضًا ، ولكن الآخرين كانوا ينظرون إلى ذلك باعتباره تكريمًا ، وراح كل واحد منهم يحصل على نصيبه . وطبخوا لحم الجمل طبخًا جيداً وقدموه مع الأرز ليكون بديلاً عن عشاء خال من اللحم ، ولكنى أرى أن لحم الجمل ليس فيه ما يفضل تناوله ، اللهم إلا فى عدم وجود أنواع الطعام الأخرى . ولحم الجمل حسن ، وليس طريًا وبه كثير من الألياف ، كما أن له نكهة غير محبوبة إلى حد ما ، على الرغم من أن الجمل ، موضوع حديثنا هنا ، كان من سلالة جيدة ، إذ كان رباعًا Ruba'، أى أنه كان فى العام الخامس من العمر . وهنا قال ابن جلهم : "نحن حظيظون فى واقع الأمر لأننا تمتعنا بنعم الحياة البدوية

الثلاث : الأمان ، لأننا هنا فى مأمن من خطر العصابات . والماء ، من مياه البرك . ثم النعمة فى شكل مقدار وفير من اللحم " . وقد دامت معنا كمية اللحم هذه أيامًا عدة طوال مسيرنا فى البلاد الخالية من الأغنام ، فضلاً عن أن غزالها ، الذى شاهدنا منه زوجًا ونحن نقترب من منطقة البرك ، كان سريع الروغان والزوغان .

معروف أن عمر الجمل المعتاد يتراوح بين خمسة عشر عامًا وخمسة وعشرين ، أى مدة جيل ، تلك الفترة ، التى يحسبها العرب فيما بين تزاوج جيلين من الأسرة نفسها ، والجمل الذى يأتى فى شبابه إلى رجل على شكل مهر يدفع للعروس ، يتوقع له أن يظل "تحته" عندما يحين موعد زواج ولده . وأقصى عمر تعيشه تلك الدواب ثلاثين عامًا ، تنجب الناقة خلالها من عشرة إلى اثنى عشر بعيرًا طوال حياتها .

واعتبارًا من تلك النقطة وحتى الحد الشمالى لما يمكن أن نطلق عليه مستجمع مياه وادى الدواسر ، نجد أن مرتفعات وادى الطويق يمكن تقسيمها من حيث خطوط الطول إلى قسمين متميزين لكل منهما طابع مختلف تمامًا ، هما : القسم الغربى الذى يشتمل على سطح متموج تموجًا هينًا فى هضبة جرداء تنحدر انحدارًا هينًا أيضًا من حافة الجرف الغربى إلى اتجاه الشرق ثم تتلاشى على شكل ثنيات ضحلة تجاور انسياب مياه الصرف. أما القسم الشرقى فهو عبارة عن متاهة من السلاسل الجبلية شديدة الانحدار ، والوديان العميقة التى تتصل بالمضيق الرئيسى لشعب المراغة Maragha، الذى يجرى من الشمال إلى الجنوب إلى أن يخرج من الأرض المرتفعة إلى وادى السليل تحت اسم شعب المجمع . والانتقال من أى قسم من هذين القسمين إلى القسم الآخر يكون مباغتًا وشديد الانحدار ، ولذلك كان طريقنا يسير محاذيًا للخط الفاصل بين القسمين ليمر بالقرب من أعالى الوديان المختلفة التى تنقل مياه الهضبة إلى القناة الرئيسية .

وبعد أن صعدنا إلى مجرى شعب سديرة إلى مستوى هضبة الطويق وجدنا أنفسنا ننزل إلى وادى أم حُصية Umm Husaiya الواسع ، الذى هو رافد من روافد شعب السديرة ، وبه أيضًا بعض البرك المائية ، كما تقول التقارير ، عند اقترانه بشعب السديرة . وفيما وراء وادى أم حُصية مررنا خلال العديد من المناطق المعشوشبة التى تغطيها أدغال أشجار السنط الكثيفة من نوع الوهت ، ومن نوع الكداد Kidad، الذى

ينتج الصمغ من أشجاره . وفى الوادى التالى ، الذى يطلقون عليه اسم شعب ثرر Tharar، المأخوذ من شجرة لا تختلف عن أشجار السدر Sidr، على الرغم من معرفة الناس أنها لا توجد إلا فى الجنوب ، وتوجد بكثرة إلى جانب أشجار السنط وكثير من الأعشاب الأخرى ، توقفنا فى ذلك الوادى لتناول طعام الإفطار . والشعب الذى يجرى منحدراً إلى شعب المراغة ، والذى يعد رافداً من روافده المهمة ، يصل عرضه إلى حوالى سبعين ياردة ، وبه بعض الصخور المنحدرة انحداراً هيناً على جانبى الشعب، ومجرى ذلك الشعب مكون من قراميد صخرية فى بعض أجزائه ، ومن الرمال الناعمة فى البعض الآخر .

بعد أن تجاوزنا جرفًا منخفضًا شديد الانحدار ، يُكَوِّن أعالى شعب أم الحمام Hamam، وصلنا أعالى مضيق شعب نير Nir حيث تقع بركة أم الهيشة Hisha الكبيرة ، فى الخليج المكون من جرف هار شبه دائرى يصل ارتفاعه إلى حوالى أربعين قدمًا ، ومحمول جزئياً على رف من الصخر ، هذا على الرغم من عدم وجود النخل القزم الذى اشتق منه اسم تلك البركة . وتصل مساحة تلك البركة إلى حوالى أربعين قدمًا مربعًا ويقال إنها كبيرة العمق ، يضاف إلى ذلك أن جدر ذلك الجرف تنحدر إلى حافة الماء من ثلاثة جوانب ، فى حين أنه فى الجانب الرابع نجد أن مجرى القناة يغطيه بساط أخضر من الحشائش والسُّعَّادى .

وروافد شعب النير Nir الأخرى[٢] تقع على جانب الطريق الذى نسير عليه خلف تلك النقطة ، غير أننا لم نصادف الماء مرة ثانية إلا عندما وصلنا وادى حفنة Hifna، ذلك الرافد المباشر من روافد شعب المراغة ، والذى يصل عرضه إلى حوالى ثمانين ياردة . وقد تكوَّن ذلك الرافد بفعل التقاء بعض غدران تصريف مياه الهضبة ، وهذا الرافد مغلق بواسطة الصخور المنحدرة المجوفة فى كثير من مناطق الرافد ، ويصل عمق تلك الصخور المجوَّفة حدا يجعلها تشبه الكهوف ، التى يلجأ إليها الرعاة لحماية أنفسهم من حرارة الشمس ومن المطر ، وبخاصة أولئك الرعاة الذين يترددون على تلك المنطقة ليسقوا قطعانهم . وفى حوض ذلك الرافد الزلطى وفى تجاويفه الصخرية عثرنا على بعض البرك الضحلة التى تحتوى على ماء رائق جميل ، وتمتعنا بقيلولة فى ظلال

تلك الكهوف خلال ساعات النهار الحارة فى فترة العصر . ومن بين الدلائل التى تشهد على الأجيال الكثيرة من الرعاة الذين استفادوا من ذلك المكان من قبلنا ، لاحظت فُرْنًا بدائيًا من ثلاثة قراميد جرى سندها إلى الجدار الصخرى ، والناس هنا يطلقون على الفرن الذى من هذا القبيل اسم محنضة Mahnidha ، ومن حولنا شاهدنا عظامًا كثيرة تختلف عن الوجبات التى سبق أن تناولها من جاءوا قبلنا إلى ذلك المكان ، كما شاهدنا أيضا روث الأغنام والإبل التى شربت من ذلك الرافد . ويعرف ذلك المكان بأنه ملاذ يقصده رعاة السويلم (الوُداعين) الذين يسكنون السليل ويقيمون فيها .

استأنفنا مسيرنا فى ساعة متأخرة من النهار واتجهنا شمالاً ، وكانت سلسلة الجبال التى تكون الضفة اليمنى لقناة المراغة ، تطبق بالتدريج على الطريق الذى كنا نسير فيه من ناحية اليمين . ولكننا قبل أن نصل إلى مكان مخيم المساء حالت بيننا وبينه سلسلة جبلية أخرى . تلك كانت قرون الخطيم Qurun Khataim وقرون الخطيم هذه ليست سلسلة جبلية متميزة وإنما هى مجرد خط من الروابى والتباب مستوية السطح ، يجرى من خلفها شعب القرون نازلاً إلى شعب المراغة . وبالقرب من واحدة من تلك الروابى نصبنا مخيمنا لقضاء الليل ، ومن فوق قمة تلك الربوة شاهدت قبل حلول الليل منظر البلاد المحيطة بنا الجميل ، شاهدت الهضبة الجرداء فى جانب ومتاهة الوديان على الجانب الآخر .

بعد ذلك ، بدأنا نحتضن حافة روابى القرون فى أثناء نزولنا إلى أعالى الشعب نفسه ، وأعالى ذلك الشعب عبارة عن منخفض واسع معشوشب يصل عرضه إلى حوالى ٤٠٠ ياردة ، وله ضفتان منحدرتان انحدارًا هينًا على الجانبين . ونباتات السمار Samar، وكذلك أشجار السدر Sidr فضلاً عن نباتات المرخ Markh تنتشر هنا وهناك فى تلك القناة ، التى يتكون مجراها ، مثل سائر القنوات التى فى هذه المنطقة ، من قراميد صخرية وأماكن رملية . وبعد مسافة كبيرة فى مجرى ذلك الشعب ، وداخل حافة التلال التى حجبت عنا رؤية الجزء الأسفل من مجرى ذلك الشعب ، يُقال إن هناك بئرين ، الماء فيهما على عمق أربع قامات . وخلف ذلك الوادى سرنا فى مجرى رافد من الروافد الضحلة ، ينحدر نازلاً من جهة الشمال إلى شعب القرون . هذا الرافد اسمه دحلة البقر Dahlat al Baqar ، الذى صادفنا فى مجراه بعض الغزال ، وأسرابًا صغيرة عديدة

من طيـور الطيـهـوج[٢] التى يطلق العـرب عليـهـا اسم الحـجلة Hajala أو الدراج Daraj وأعالى ذلك الشعب تقع فى سلسلة جبلية عرضـية منخفضة ، هى بمثابة الحدود بين المصرف الذى يتـجه جنوبيًا إلى وادى الدواسر ، كمـا ينسـاب فى النهاية فى منخفض المقـرن . ومن فـوق رابيـة من الروابى الكثيـرة على جـانب ذلك المصـرف (الشـعب) شـاهدت منظر الأرياف ، ولكن المنظر كـان هو المنظر نفسـه فى الاتجـاهـات كلهـا هضبـة لا نهاية لها ومتاهـة لا نهاية لهـا أيضـًا من التـلال على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب أيضًا .

٢- منابع المقرن

كان طريقنا إلى أن وصلنا هذه النقطة ، يسير عبر قمة الهضـبة نفسـها محاذيًا للحافة الخارجية ، أو إن شئت فقل الحافة الغربية ، لرقعة من الأرض تنتشر فيـها الروابى والتـلال الصـغيرة ، وتتوجه وديانها إلى شـعب المراغة ، المغذى الوحيد للأجزاء الوسطى المنبسطة من وادى الدواسـر . واعتبـاراً من هذه المنطقة لا يتـجه التـصـريف العام لمياه الهضـبة نحو الجنوب وإنما ناحية الشرق لتصب فى منخفض المقرن ، الذى سبق أن تناولت بالوصف بحـيراته الكبـيرة ومـجراه الطويل خـلال صـحـراء الرياض ، عندمـا كنت أتحدث عن مرورنا عبر تلك الصحراء فى أثناء قيامنا برحلتنا إلى الجنوب . وكما سبق أن أوضـحت ، فإن صرف منطقة مرتفعات الطويق التى نحن عليها الآن ، يخـرج من ذلك المكان الضـيق ليدخل الوادى على امـتـداد قناة الضـبـاعيةDhaba'yya وقناة شـعب شطبـة Shutba، ووسط الأراضـى المنبسطة العليـا لهـذين المـمرين المائيين نحن نسير الآن ، تاركين سطح الهضبة المستوى نسبيا بعيداً عنا فى الجهة اليسرى ، ومواصلين مسيرنا على امتداد هـاتين القناتين عبر مضيقيـهمـا العميقين فى قلب تلك المنطقة التى تنتشر فى الربى والتلال المنخفضـة ، فى الوقت الذى يخيم علينا صمت القبور الذى لا تكسره سوى أصداء أصواتنا .

وأعالى قناة الضـبـاعية تقع فى منطقة واسـعة من الأدغال التى تمتد إلى مسـافة ميل واحد أو ميلين على الجانب الأيسر فوق سطح الهضبة ، الذى ينحدر انحداراً هيّنًا

من جميع الجوانب متجهًا صوب قناة الضباعية ، ثم تحول ذلك السطح بعد ذلك إلى سلاسل جبلية منخفضة مثل سلاسل سيفرين Saifarin الجبلية ، ليصبح امتداداً لخط تقسيم المياه الذى تجاوزناه حاليًا . هذا المنخفض ، الذى يسمونه منخفض مقوة Moqua، هو الذى يجمع صرف المناطق المحيطة القادمة من عدد من القنوات الصغيرة ، البعض منها مهم ويستحق أن يطلق الناس عليها بعض الأسماء كما هو الحال فى قناة أم السُليم Umm Sulaim وقناة أبو العشوش Abul 'Ashush، أما البعض الآخر فليس مهمًا ولا يستحق أن يطلق الناس عليها أسماءً . ومنخفض مقوة ينقل تلك المياه من خلال فتحة فى جانبه الشرقى لتدخل بعد ذلك إلى مجرى سيل رملى يصل عرضه إلى حوالى عشرين ياردة ، يمكن أن نتعرف فيه على منابع شعب الضباعية . وسرنا على امتداد ذلك المجرى الرملى المتعرج خلال غابات خشبية جميلة مسافة ميل تقريبًا ، إلى أن وصلنا إلى بداية مضيق صخرى له عمق معقول ، تنساب فيه السيول فى موسمها من خلال عشرات الشقوق ، التى عثرنا على بركة ماء(٤) فى واحد منها ، وكان عرض تلك البركة حوالى عشر ياردات وقاعها من الرمل ، وتقع عند سفح منحدر منخفض .

كان طريقنا وعراً جدا ولكنه لم يكن يشكل لنا صعوبة كبيرة نظراً لأننا كنا نهبط نازلين صخوراً متساقطة ، هى صورة طبق الأصل من وديان الطويق ، مجرى من الصخر والرمل يصل عرضه إلى حوالى خمسين ياردة بين جدران من صخور الحجر الجيرى تآكلت بفعل الطقس متحولة إلى ما يشبه الشرفات العالية التى يصل ارتفاعها على الجانبين إلى حوالى أربعين قدمًا ، ويتزايد ارتفاعها وراءنا إلى ما هو أكثر من ذلك . كانت أرضية القناة مغطاة بسجادة جميلة من الأعشاب الخشنة التى كانت تخفى تحتها بعض التجاويف الصخرية ، التى مازالت تحتفظ ببقايا مياه الأمطار والسيول ، على شكل برك من الماء الصافى متباينة العمق ، إذ يصل عمق بعضها إلى بوصات قليلة ويغطيها زبد أخضر ، تعلق متشبثًا بقراميد الصخر الناعمة التى تتبخر عندها الرطوبة . وسط ذلك المشهد الذى يوحى بالأمن والسلام كانت هناك مجموعة من النخيل محملة بأحمال ثقيلة من التمر الذى يزال أخضر ويابسًا ، ولكنه يوحى بحصاد صغير فى غصون شهر ، وهذا شاهد على وجود الإنسان فى تلك المنطقة فى ماضى الزمان . وقررنا التوقف هنا فى ذلك الظل الحانى طلبًا لقيلولة الظهيرة ، وقد بلغ جمال

المكان حدا جعلنا ندخل القيلولة ضمن وقفة المساء أيضًا . وبالقرب من مجموعة النخيل عثرنا على بئر عميقة ، كانت ممتلئة إلى حد ما ببقايا السيل الأخير . كان مرشدونا يعرفون تلك البئر تحت اسم الثقيب Thuqaib، ولكننا اكتشفنا تلك البئر مصادفة بعد أن قررنا التوقف بالقرب من بعض البرك المؤقتة الأخرى[٥]، التى كانت تكفى لتحقيق أغراضنا .

معروف أن تلك البئر كانت مسقى صيفيًا من مساقى رعاة الحانش Hanish والسويلم Suwailim من أهل السُّليل ، والذين وجدنا سماتهم Wasms (إشاراتهم) محفورة على وجه صخرة من الصخور فى الأسفل ، إشارة إلى انتوائهم التخييم فى ذلك المكان خلال شهر رمضان ، الذى أوشك على الحلول ، وخلال الموسم الذى يليه ، أو إن شئت فقل موسم التمر . وللوهلة الأولى كان ذلك المكان يبدو غريبًا على إقامة قبلية طويلة من ذلك القبيل ، ولكن سبب وقوع الاختيار على ذلك المكان اتضح لنا فى اليوم التالى عندما هبطنا إلى الوادى ، قادمين إلى المنحنى المجاور ، والذى كان منه شريط متقطع رفيع ، يمتد إلى ما يقرب من ميلين بطول حدود البرك الطويلة الضيقة ، التى لابد من أنها كانت تشكل مجرى مستمرا فى الماضى . كان عدد النخيل ، الذى يعتمد على التسميد الطبيعى ، يقدر بحوالى ٥٠٠ جزع ، معظمها هزيل النمو ويوحى منظره بالتحلل ، ولكنها كانت مثمرة ، على الرغم من أن تمر بيارات التخصيب الطبيعى لا يكون بمثل حجم أو حلاوة التمر الذى يجرى تخصيبه بواسطة الإنسان .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن مثل تلك النوعية من التمر تشكل إضافة إلى مخزون الطعام عند البدو ، الذين خَصُّوا أنفسهم بحق امتلاك محصول ذلك الوادى ، وأنا أعجب لعدم قيام أولئك البدو منذ زمن طويل بتحويل هذا المكان إلى واحة كبيرة زاهرة ، والسبب فى ذلك ، فى رأى ابن جلهم ، الذى لا يعرف أحد بلاد الجنوب حق المعرفة مثله ، أن واحة الحوطة الزاهرة[٦] تكونت من بداية من تلك البدايات .

كان المضيق فى تلك المنطقة أضيق عن ذى قبل ، وتوجد على جانبيه صخور أكثر ارتفاعًا وانحدارًا عن صخور أعالى الوادى ، ولكن عند أسفل آخر بيارة من بيارات النخيل ، الذى تشهد جذوعه المتفحمة على حريق محلى ، يبدأ الوادى فى الاتساع مرة

ثانية ليصل عرضه إلى حوالى ١٥٠ ياردة ، ويزداد ارتفاع الصخور الموجودة على جانبيه إلى أن وصلنا إلى فتحة واسعة عند ملتقى شعب سيرى Siri مع الوادى الرئيسى . وهنا تركنا الوادى الرئيسى لنجرى على امتداد متاهة الروابى المتداعية الموجودة خلف الوادى ، الذى يلتقى به فى تلك المتاهة رافد آخر ، شعب خروم Khurum ، ينساب فى الوادى الرئيسى من خلف سلسلة مستعرضة من الجبال تحمل الاسم نفسه ، ثم تسلقنا الأرض المرتفعة على الضفة اليسرى بطول حافة قناة سرى Siri وبمحاذاة سلسلة جبال خروم التى كانت تبعد عنا مسافة حوالى ميلين على الجانب الأيمن .

وبعد أن قطعنا مسافة ربع ميل فى اتجاه أعالى وادى سرى Siri، أسفل صخرة منحدرة ، وجدنا بركة ماء عثرنا فى المنطقة المجاورة لها على بعض الجمال التى كانت ترعى . وكانت العلامات الموجودة على تلك الإبل على أنها مملوكة للقحطان Qahtan، الذين لاحظنا سماتهم (إشاراتهم) أيضًا على الصخور القريبة من بئر الثقيب Thuqaib، ومعها أيضًا سمات الدواسر ، ولكننا لم نر حولنا أية دلائل أو علامات على البشر الذين يرافقون تلك الحيوانات . ويجب ألا يغيب عن بالنا هنا أن تعدى قبيلة أجنبية على الحدود المعترف بها لقبيلة أخرى ، يسمح به طبقًا للعرف البدوى ، بشرط تقديم المعتدين عن طريق رفيق ، يقوم فى مثل هذا الحال ، بدور المضيف نيابة عن أهل قبيلته ، مع أصدقائه الذين يتجولون وسط أهل قبيلته بصورة مؤقتة .

وتوقفنا فى ذلك المكان طلبًا لتناول طعام الإفطار ، الذى كان مكونًا من بقايا لحم الجمل الذى انتهت أيامه عند برك خانوقة Khanuqa، موفرًا لنا بذلك لحمًا لبَّى احتياجنا منه على مدى ثلاثة أيام . وبينما كنا نخيم فى ذلك المكان قمت بجولة قصيرة إلى قمة نقطة من نقاط سلسلة جبال خروم Khurum، التى ترتفع ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، كى أشاهد البلاد من حولى ، ولكن نظرًا لاتساع مجال الرؤية ، فقد بدا المنظر قفرًا ؛ إذ كان مكونًا من مجموعة من المرتفعات الخالية من الملامح التى لا توحى بالرتابة .

وعقب استئناف مسيرنا أنذرنا تامى Tami محذرًا إيانا من أنه شاهد جماعة مكوَّنة من حوالى خمسة عشر جمَّالاً يسيرون عبر الريف الوعر فى مؤخرتنا فى اتجاه المكان الذى توقفنا عنده لتناول طعام الإفطار ، ولكن كل الذين تجمعوا – وقد ظهر

القلق على وجوههم لتحرى الأمر- أجمعوا على أن تلك الجماعة ، فى أسوأ الأحوال ، كانت عبارة عن أصحاب الجمال التى كانوا يركبونها ، يضاف إلى ذلك أن منظرنا ومظهرنا الصارمين هما اللذان جعلا تلك الجماعة تتوارى بين الوديان إلى أن ننصرف إلى حال سبيلنا . والمرجح أن تلك الجماعة ذهبت إلى المكان الذى كنا نخيم فيه ، كى يقصوا أثرنا ثم يتركونا وشأننا ، ولكن من باب زيادة الحرص نقشنا على الرمل الوسم الدال على ابن سعود وأسرعنا الخطى .

وبعد حوالى ميل واحد دخلنا منخفضًا رمليا ضحلاً عرضه حوالى ٢٠٠ ياردة ، وتكسوه الأدغال ، ويطلق الناس عليه اسم شعب المُغَارة Mughara، الذى يمثل أعالى الوادى الثانى من وديان منظومة مرقان العظيمة . وهذا الشعب يعرف باسم المُغَارة ، نظراً لأن الأجزاء الوسطى المنبسطة من شعب المهبط Mahbat وكذلك القسم الأسفل من مجرى شعب شطبة Shutba توجد على بعد أميال قلائل من النقطة التى نحن فيها حاليًا ، وهذا بحد ذاته أدى إلى تباين طبيعة وادى المغارة ونحن نسير فيه ؛ ففى البداية بدأ الرمل يتلاشى تدريجيا إلى أن تحول إلى مجرى من الصخور ، له ضفتان على شكل رفَّين متدرجين من الحجر الجيرى المتآكل بفعل عوامل التعرية ، وقد استمرت هاتان الضفتان إلى أن وصلنا إلى منحدر حاد ، أو إن شئت فقل شلال حاد ، يصل عمقه إلى حوالى خمسة عشر قدمًا فى جرف هار من قراميد الحجر الجيرى ناعمة السطح بفعل مرور مياه الفيضان والسيول فوقها . وهنا يصبح مجرى ذلك الشعب وعراً تماماً وتتخلله جلاميد صخرية كبيرة متناثرة بطريقة عشوائية ، بينما كان ارتفاع صخور الضفتين يصل إلى حوالى أربعين قدمًا . والوادى كله فى هذه المنطقة تكسوه حشائش غزيرة وأشجار كثيرة من النوع الذى يسميه الناس هنا شجر البان[٧] . وأنا لم أر قط هذا النوع من الأشجار من قبل ، والذى قال عنه رفاقى إنه لا يوجد سوى فى قلة قليلة من الشعاب الموجودة فى المنطقة المجاورة ، وهذا النوع يشبه من حيث الشكل والغطاء الورقى أشجار الطرفاء ، أو إن شئت فقل أشجار الإثل ، اللهم إلا باستثناء أن شجر البان هذا له ثمرة شهيرة ، تشبه القرن كثير الأبعاد ، ويحتوى على حبوب متماثلة الحجم ، والعرب يسمونه هنا عضو Penis البان . ويتردد طول كل حبة

من تلك الحبوب بين اثنتى عشرة بوصة وثمانى عشرة ، ولكن أصدقائى بعد أن شدهم اهتمامى بالموضوع ، خرجوا وعادوا إلىَّ بحبة يزيد طولها عن قدمين .

توقفنا في أثناء حرارة الظهيرة بضع ساعات في نتوء من نتوءات الوادى بجوار بعض البرك رائقة الماء التى تحيط بها نباتات غزيرة ، وتعكس الجوانب المنحدرة للصخور العالية المحيطة بها على الجانب الأيمن . ومن سوء الطالع أن تلك الصخور كانت على الجانب المقابل على عكس مما كنا نشتهى ، وسرعان ما لجأت إلى خيمتى تحاشياً لأشعة الشمس الحامية والقاسية فى وادٍ خالٍ من الهواء . وتلك البرك تعد بركًا دائمة اعتماداً على الفيضانات الموسمية ، غير أنه حتى فى السنوات التى لا تحدث فيها الفيضانات أو السيول ، يمكن العثور على الماء دومًا فى تلك البقعة بمجرد حفر رمال مجرى الوادى إلى عمق بوصات قلائل .

وتنتشر فى الوادى هنا وهناك على بعد مسافات بطول مجراه بعض برك الماء ، وبخاصة فى المنطقة التى يلتقى عندها وادى مُغَارة Mughara بوادى كلاوة Kilawa ذى الجانبين المنحدرين ، الذى يلتقى خلفه مباشرة وادى المغارة بوادى مهبط ، ذلك المضيق الواسع الذى يصل ارتفاع صخوره إلى ما لا يقل عن مائة قدم ، وشعب المهبط هذا ينحدر إلى وادى مغارة عبر الهضبة قادمًا من منبعه فى الشمال الغربى . وعند تلك النقطة ، وصلنا وعبرنا ممرا واسعًا معشوشباً وسط مناظر صخرية رائعة . ووسط ذلك المنظر كانت هناك بيارة نخيل ، مهلهلة المنظر ولكنها كانت أكثر تماسكًا وصلابة من بيارة نخيل الثقيب ، فى حين كانت تنتشر حول تلك البيارة بقايا بعض الأكواخ الصخرية ، أو إن شئت فقل: آثار مستوطنة (قرية) سابقة كانوا يسمونها دلهم Dilham، التى تنتمى – هى ومستوطنة أخرى من مستوطنات شطبة Shutba تقع على بعد يتراوح بين خمسة عشر ميلاً وعشرين فى اتجاه أسفل ذلك الممر– إلى فخذ خضران Khadhran من قبيلة الدواسر ، غير أن تلك المستوطنة ، شأنها شأن بقية المستوطنات الأخرى المماثلة ، يتركها أهلها من البدو لرحمة الطبيعة، ولا يزورونها إلا فى الموسم Mausim لجمع المحصول . ونباتات البوص والقصب وأشجار السنط وأشجار الطرفاء وأدغال

من أنواع أخرى ، كلها تشهد بوفرتها وغزارتها على وفرة الماء وغزارته فى تلك المستوطنة ، وبخاصة أنى عثرت على دلائل كثيرة أكيدة فى قاع بئر مبنية ومهجورة ، على عمق حوالى قامتين ، كما عثرت على الماء أيضاً فى بعض البرك الضحلة .

ضفة الوادى اليمنى تنحدر فى هذه المنطقة انحداراً شديداً نحو مجراه ، الذى يصل عرضه إلى حوالى ٣٠٠ ياردة ، غير أن ضفة ذلك الوادى اليسرى التى يممنا إليها مسيرنا عن طريق ممر ملتوٍ سهل تنحدر انحداراً هيناً . وبعد أن وصلنا قمة ذلك الوادى ، بدأنا السير على امتداد سطح جرف هارٍ يشكل الضفة اليسرى لشعب المهبط فى الأجزاء العليا المنبسطة منه ، والذى لاحظنا الكثير من برك الماء عند الأسفل فى مجراه . ومن خلفنا فى جميع الاتجاهات شاهدنا منظراً رائعاً للمرتفعات التى تساقطت صخورها ، والتى تتخللها وديان عميقة ، فى حين شاهدنا من أمامنا هضبة تثير فى النفس كثيراً من الملل يتزايد ارتفاعها تزايداً متدرجاً وتحيط بها على بعد مسافة قصيرة فى الناحية اليمنى سلسلة مصغرة من الجبال الوعرة بنية اللون .

وبعد أن انحرف مسارنا عن طريق المهبط ، الذى يمتد من خلفه سهل الهضبة الرئيسيه الواسع ، واصلنا مسيرنا عبر رافد ضحل من روافد شعب شطبة **Shutba** يطلقون عليه اسم شعب سُرمان **Surman** ثم عبرنا الحد الفاصل بين ذلك الشعب وشعب الرحابة **Rahaba**، أو إن شئت فقل الحافة الجنوبية لمرتفعات الأفلاج . وهذه السلسلة الجبلية تشكل مفرق الماء بين منظومة المقرن والمجارى المائية التى تعبر سهل الأفلاج الكبير لتتلاشى بعد ذلك فى فراغات البياض **Biyadh** الصحراوية .

عند هذا الحد كنا قد قطعنا مسافة كبيرة فى ذلك اليوم ، وقررنا التوقف فى منخفض الرحابة الضحل ، تلك الرقعة من الأرض الجافة التى تحكى عن عدم سقوط الأمطار الموسمية فى هذه المنطقة ، شأنها فى ذلك شأن كل من وادى الضباعية ووادى شطبة ، وهما ينبئان عن امتيازهما واخضرارهما . وهنا شاهدنا ثلاثة من الغزلان التى يميل لونها إلى البياض ، غير أنها لم تكن ، كما قال خبراؤنا ، من غزلان الريم التى تعيش فى الصحراء الرملية ، شاهدنا تلك الغزلان وهى تجرى فراراً من أمامنا قبل أن نتوجه نحوها ، ويفشل مبارك فى اقتناصها . ورحبنا بهلال شهر رمضان ،

ونحن نتناول وجبة خالية من اللحم ، شرع طهاتنا فى إعدادها وتجهيزها ، فى الوقت الذى توجهت فيه معْ بعض الرفاق إلى مرتفع مجاور كى أستطلع من ناحية الغرب ظهور الرمز السنوى لرحمة الله بالجنس البشرى . وعندما غربت الشمس واختفت عن انظارنا ، ظهر الهلال الخافت النحيل وسط سديم يميل لونه إلى الاخضرار ، وهنا يكون صيام رمضان قد بدأ . وكانت التحية التى حيًّا بها رفاقىَ ذلك الهلال الوليد "لا إله إلا الله" ، وكان الكثيرون منهم سعداء فيما بينهم ، وبلا أدنى شك لأن شهر الصوم أدركهم وهم على سفر .

٣- مرتفعات الأفلاج

يتعين علىَّ هنا أن أنوِّه بصورة مقتضبة إلى الظروف المناخية طوال الأيام الأربعة التى انقضت منذ صعودنا إلى هضبة الطويق قادمين من السهل الغربى ، وأن أنوِّه أيضًا إلى الأسبوع الذى تحتم علينا أن نقضيه فى ذلك القسم من منطقة الأفلاج التى سبق(٨) أن أشرت إليها على أنها تقع بكاملها داخل ثنيات حاجز الهضبة . هذه الرقعة المرتفعة من الأرض ، التى تقع بالشكل التى هى عليه بين خطى عرض ٢١ و ٢٣ المتوازيين وسط بلاد صحراوية ، قد يتوقع لها الناس أن تكون حارة بشكل غير مريح فى شهر يونيو عندما كانت الشمس عمودية على رءوسنا فى وقت الظهيرة ، غير أن المنغصات الموسمية التى سبق أن وطدت نفسى عليها سلفًا ، غابت ولم يكن لها وجود ، وأنا عندما أنظر إلى الفترة التى أمضيتها فى تلك المناطق أجد أنها كانت من بين أجمل الظروف المناخية التى عشت فيها فى الشرق فى أثناء شهور الصيف . والرياح السائدة التى كانت تهب يوميا وبشكل منتظم على ظهر الهضبة كانت تأتى من الشمال ، وقد تصادف أن يكون هبوب تلك الريح السائدة بكل قوتها فى الوقت الذى تشتد فيه حرارة أشعة الشمس . والذى لا شك فيه أن تلك الظروف هى وارتفاع تلك المنطقة الشديد ، وكذلك جفاف الغلاف الجوى ، أبقت على درجة الحرارة فى نطاق الحدود المعقولة حتى فى أشد ساعات النهار حرارة ، وهى أيضًا السبب فى أن درجة الحرارة كانت تنخفض انخفاضًا كبيرًا فى الساعات السابقة لطلوع الفجر. وكانت أعلى درجة

حرارة سجلتها خلال هذين الأسبوعين هى ١٠٥° فهرنهيتية ، وأدنى درجة حرارة كانت ٥٩° فهرنهيتية ، هذا فى الوقت الذى سجل الترمومتر (مقياس الحرارة) عند الساعة العاشرة صباحًا ٥٧° فهرنهيتية بصورة منتظمة تمامًا . ومن بين الأشياء المهمة أيضًا بين تلك التسجيلات هو أن أقصى درجة حرارة وأدنى درجة حرارة اللتين سبق أن أشرت إليهما جرى تسجيلهما فى يوم واحد ، يضاف إلى ذلك أن الظاهرة التى تعد تلك الحقيقة مثالاً واضحًا عليها لم تكن ظاهرة عارضة ، وأن القاعدة تقول : إن اليوم الذى يبدأ بدرجة حرارة منخفضة ينتهى بدءًا من فترة العصر بدرجة حرارة مرتفعة ، أما الصباح الخانق الخالى من الهواء فيعنى احتمال بقاء درجة الحرارة متساوية وعدم حدوث تقلبات . وعلى سبيل المثال ، إذا كان قد جرى تسجيل أعلى درجة حرارة فى اليوم نفسه ، فإن أعلى درجة حرارة دنيا سجلتها كان (٩٥°) وكذلك كانت أدنى درجة حرارة عليا (٧٣°) . وغنى عن القول : إن الأيام التى تباين المدى الحرارى خلالها كانت هى أجمل الأيام من الناحية المناخية . وقد وصل متوسط ارتفاع درجة الحرارة خلال تلك الفترة إلى ١٠١° فهرنهيتية ومتوسط انخفاض درجة الحرارة إلى ٦٦° فهرنهيتية . أما الرياح فكانت خفيفة إلى معتدلة ، مع حدوث هبوب للرياح المفاجئة من حين لآخر ، ولكننا لم نخبر ريح السموم سوى مرة واحدة فقط ، تلك الريح الحارة الشمالية ، التى يرحب بها العرب ترحيبًا شديدًا فى ذلك الفصل من العام نظرًا لأنها تساعد على نضج التمر .

كانت طبيعة البلاد فى ذلك الجزء منها الذى مررنا خلاله فى اليوم التالى ، تختلف من بعض النواحى عن ذلك الجزء الذى خلفناه وراءنا . كانت الهضبة التى تقع على الجناح الغربى للطريق الذى نسير فيه تنحدر ، حتى الآن ، نحو حافة رقعة من الأرض الوعرة التى تنتشر فيها الروابى المنخفضة ، التى تصل إليها مياه تلك الهضبة من خلال مضايق عميقة تحمل تلك المياه إلى الوادى الذى يقع خلف تلك الرقعة من الأرض . ولكن اعتبارًا من النقطة التى نحن فيها الآن ، يبدأ انحدارها نحو جرف ثانوى منخفض ، يمتد من قمته رف منبسط وعريض إلى حد ما ، ليصل إلى حافة تلك المنطقة الوعرة ، التى تنطلق منها حواف بارزة فى اتجاه الغرب لتعبر الطريق الذى نسير فيه على بعد مسافات متباينة . زد على ذلك أن انحدار الهضبة كان ينحدر بصورة واضحة

تمامًا ناحية الشمال ؛ الأمر الذى ترتب عليه تشكيل قُمع ينتهى إلى منخفض حسرج Hasraj العميق ، الذى تصل مياه صرف الهضبة من خلاله إلى السهل . من هنا فإن منخفض الرِّحَاب Rahabe' هو وبعض المنخفضات الضحلة الأخرى الشبيهة به ، والتى سبق أن عبرناها ومررنا بها قبل أن نصل إلى منخفض حسرج Hasraj ، أى منخفض دحلة Dahla ومنخفض سدير ومنخفض دحلة الأرانب ومنخفض الطريفة Turaifa ، فضلاً عن المنخفضات الأخرى التى لا تحمل أسماء لها ، لا تصرف شيئًا من مياه الهضبة الرئيسية ، وإنما توجد منابع تلك الشعاب والمنخفضات الضحلة فى الحافة الشرقية للرف الثانوى ، الذى تنحدر منه تلك الشعاب والمنخفضات نازلة لتواصل جريانها بين السلاسل الجبلية المنخفضة عبر المنطقة الوعرة لتصل بعد ذلك إلى الحنو Hunnu ومنها إلى البياض Biyadh .

وفى صباح اليوم التالى قطعنا مسافة سبعة أميال فى أرض جرداء مملة إلى أن وصلنا وادى طريقة ، الذى زادت من حوله وعورة الأرض . كان مجرى الوادى نفسه ينخفض حوالى خمسة عشر قدمًا أو عشرين عن مستوى سطح السهل فيما بين الصخور المتآكلة ، التى كان سطح حجرها الرملى الأحمر يتباين هنا وهناك عن طريق بقع من الطباشير الأبيض الناعم . ومن خلف ذلك الوادى كانت هناك سلسلة جبلية تفصل قنوات الصرف الصغيرة التى سبق أن عبرناها خلال الفترة الصباحية ، عن مضيق حسرج Hasraj، الذى يممنا مسيرنا نحو الجزء العلوى منه ، الذى يسير محاذيًا لمجرى متعرج صخرى لشعب يطلق الناس عليه اسم شعب أم الدقة Umm al Diqqa بمعنى "أم المتاعب" . وعلى بعد مسافة كبيرة من أمامنا شاهدنا سلسلة جميلة من الجُرُف العميقة ، التى ينتهى كل منها عند الهضبة على شكل امتداد أرضى شديد الوضوح ، وكل تلك الجُرُف ليست سوى تكرارات لبقية مكونات ذلك النسق ، وهذا بحد ذاته يشكل واحداً من السمات المميزة للجرف الغربى الرئيسى فى حاجز الطويق . وعلى حد علمى وفهمى فإن تلك المنطقة الوعرة التى تنتشر فيها الروابى والتلال المنخفضة ، والتى لازمتنا طوال ذلك الوقت عن يمين الطريق الذى نسير فيه ، انتهت فجأة إلى هضبة مزدوجة ، قسم منها ينحدر نحو الأسفل انحدارًا هيِّنًا من الحافة الخارجية للصخور الغربية إلى سفح الصخرة الثانوية ، الذى يبدأ القسم الثانى

انحداره من قمتها إلى الأسفل فى اتجاه سهل الأحساء . والفارق الوحيد بين القسمين يتمثل فى أن الهضبة ألشرقية تخترقها على بعد مسافات وديان عميقة هى التى تحمل مياه صرف الهضبة الأخرى من أماكن مناسبة ، وتحملها عبر الحاجز الثانوى .

الجزء السفلى من شعب أم الدقة Umm al Diqqa ، معبّد بقراميد ملساء من الحجر الجيرى ، وهو يؤدى إلى الجزء العلوى من جرف هار هائل ، يتحتم أن يسقط ماء الفيضان والسيول عليه فى موسم السيول على شكل شلال ضخم . وارتفاع ذلك الشلال لا يقل عن ٢٠٠ قدم بأى حال من الأحوال ، ولم نكتشف المسار المناسب الذى يسير محاذياً لجانب الصخرة - رغم صغره وانتشار الجلاميد فيه - إلى أن يصل إلى الوادى الذى يقع عند أسفل تلك الصخرة ، إلا بعد أن قطعنا مسافة محددة بمحاذاة حافة ذلك المضيق .

والمؤكد أن مضيق الحسرج Hasraj فى تلك المنطقة كان يمثل أروع المناظر الطبيعية التى شاهدناها ، وصخور ذلك المضيق المنحدرة تطغى على قاع الوادى الضيق الذى تكسوه الأدغال وتتخلله البرك التى تتلألأ فى ضوء الشمس ، والتى تتصل من الناحية الشمالية بسهل الحدّار Haddar الذى تحيط به الجدران الصخرية من كل جوانبه على وجه التقريب .

بعد أن غادرنا الراكة Raka عند حافة وادى الدواسر قبل خمسة أيام ، لم نر أحداً غير الرجال الذين كانوا بصحبتنا ، ولم نر أثراً للبشر أو علامة دالة عليهم اللهم إلا باستثناء نظرة عابرة على جماعة بدوية التى تسببت لنا فى شىء من القلق فى اليوم السابق ؛ ولكننا الآن ، وبعد أن توقفنا لحظة لاستيعاب ذلك المنظر وخط سير قافلتنا نحو المنحدر الصعب ، شاهدنا فى الأسفل الخيام السوداء والقطعان البيضاء التابعة لمخيم الرعاة ، وابتهجنا من جديد لأننا أصبحنا على مدى أناس من جنسنا ، جماعة من أحد أفخاذ المسرور Masrur الفرعية ، التابعة لمساعرة Misa'ara الدوسرى ، والتى تسكن أو تستوطن سهل الحدّار Haddar .

وما إن وصلنا إلى قاع سهل حدّار ووقع اختيارنا على بركة من البرك غير المشغولة كى نقيم إلى جوارها مخيم استراحة الظهيرة ، حتى أرسلنا بعض المبعوثين

للاجتماع إلى الرعاة ، وليحضروا لمن خلفوهم وراءهم ، ليس مجرد أخبار اليوم التى لم تكن كثيرة ، وإنما ذلك الذى رحبت به بقية الجماعة ترحيبًا شديداً ، كمية من اللبن الطازج ، أو إن شئت فقل كمية من خُضَاضَة لبن الأغنام ، واثنين من الماعز لوجبة العشاء .

لم نكن فى ذلك الوقت نبعد عن سهل حضار سوى خمسة أميال وأخذنا الأمور على محملها الحسن ، ولكننا استأنفنا مسيرنا فى فترة العصر متوجهين إلى الجزء الأسفل من المضيق . ورحنا نتجاوز البرك واحدة بعد الأخرى ، لنشاهد حول كل واحدة منها مخيمًا صغيرًا ومعه قطيعًا من الأغنام أو الماعز ، إلى أن وصلنا إلى بيت ريفى (قصر) مخرب له بئر عند ملتقى وادى الحمد Hamid الواسع مع مضيق حسرج Hasraj، الذى تحول فى هذه المنطقة إلى وادٍ واسع مستدير ، سرنا خلاله إلى أن وصلنا إلى كتف من الصخور البارزة على الجانب الأيمن . ونحن نرى الآن أمامنا وعلى مسافة قريبة منا ، وعلى شكل زاوية حادة تكونت بفعل الصخور ، نرى واحة حدَّار Haddar، تلك الرقعة شديدة الخضرة ومن خلفها صخور حمراء اللون .

وتمر خلال واحة حدًّار قناة شعب العاصفة ، تلك اليد الرملية العريضة ، الذى خيمنا وسط بيارات النخيل على ضفته اليسرى بالقرب من واحدة من الهجرات الاستيطانية الأربع . وواحة الحدَّار ، التى تمتد حوالى ميلين من الغرب إلى الشرق محاذية لجزء منبسط من قناة حسرج Hasraj تتجه صوب الشرق ، فوق مستوى النقطة التى تلتقى عندها قناة حسرج بمضيق ضيق يمر خلال الحاجز الصخرى ، وواحة حدًّار هذه تشمل مساحة كبيرة من بيارات النخيل وحقول القمح المقسمة إلى أربعة أقسام واضحة ، يتبع كل واحد منها هجرة من الهجر الأربع . ومن ربوة عالية تقع على بعد حوالى ميل شمالى مخيمنا ، وترتفع فوق مستوى السهل ، شاهدت منظرًا جميلاً ورائعًا للمستوطنة بكاملها ، كما اغتنمت الفرصة فى الوقت ذاته وتجولت راكبًا خلال الواحة ووصلت إلى منتهاها قبل أن نستكن لقضاء الليل .

كانت هجرتان ببيارات نخيليهما تقعان على طول الضفة اليمنى لمجرى السيل فى حين كانت بقية الهجرات الأخرى تقع على الضفة اليسرى . وأبعد تلك الهجر (القرى) فى الناحية الغربية تضم حوالى سبع بيارات متدنية من بيارات النخيل ، فضلاً أيضًا

عن عدد كبير من القصور المبعثرة التى لا تستحق أن نطلق عليها اسم هجرة (قرية) ، غير أن هذا العدد من القصور يعرف باسم الوحدة القبلية التى ينتمى إليها سكان ذلك الجزء ، أو إن شئت فقل فخذ الخليف Khulaiyif الفرعى من الوُدِيِّن ، الذين يتزعمهم شخص هو فيصل بن مهتاج Mihtag . هذا القسم من الواحة يقع على ضفة القناة اليمنى ، شأنه شأن القسم التالى من أقسام الضفة الشرقية ، والذى يطلقون عليه اسم المسارر Misarir، ويضم كتلة كثيفة من بيارات النخيل الزاهرة التى يصل عددها إلى حوالى خمس عشرة بيارة ، تغطى سطح الأرض من تحتها أشجار الكروم وأشجار أنواع أخرى من الفاكهة ، وكلها تتركز فى هجرة (قرية) محكمة ، فيها عدد من القصور المبعثرة خلال البيارات ، والتى تضم عدداً من السكان يصل إلى حوالى ٣٠٠ نسمة ، ويترأس تلك الهجرة (القرية) محمل Mahmal بن فهيد Fuhaid . وعدد سكان الخليف Khulaiyif لا يزيد على ١٠٠ نسمة .

وقناة العاصفة ، التى يصل متوسط عرضها إلى ٤٠٠ ياردة ، هى الحد الفاصل بين تلك العناصر من سكان الواحة التى تتباهى بأصلها الدوسرى ، كما يتباهى جزء آخر من أولئك السكان بأصله العنزى ، وهم يحتلون القسمين المتبقيين من المستوطنة ، واللذين يعيدنا بقاؤهما على قيد الحياة إلى تلك الأيام الخوالى التى كان العنوز خلالها يحتلون منطقة الأفلاج ، والتى سبق أن تناولتها بالفعل(٩) عندما كنت أتحدث عن تاريخ البديعة Badi'a . والمعروف أن الفخذين الفرعيين من النتيفات Nutaifat ومن الفحيل Fuhail من فرع جُمَيْلة Jumaila من العنزة أعطيا اسميهما للهجرتين (للقريتين) اللتين يعيشون فيهما ، واللتين يصل عدد سكان كل منهما إلى حوالى ٢٠٠ نسمة ، وذلك رغمًا عن جيرانهم المشاكسين الدواسر المتعبين ، إذ إن القتال – وإلى وقت قريب جدا – لم يتوقف بين هؤلاء العنزة والدواسر ، وبخاصة بين النتيفات والمسارر ، ولكن الفضل يرجع لابن سعود هو والقرارات والإجراءات التى اتخذها للسيطرة على فوضى واضطرابات رعاياه ، مما جعل واحة حدَّار Haddar تعرف الأمن والسلام طوال عقد كامل من الزمان . وقد انتقينا لمخيمنا مكانًا قريبًا من قرية النتيفات لنمضى فيه الليل فى ظل حماية رئيس النتيفات ضافى Dhafi بن نصحان Nushan ، الذى يعترف عبد الرحمن بن مير Mair ، رئيس قسم الفحيل ، بسلطته ونفوذه على السكان العنوز كلهم .

وبيارات نخيل قسم الفحيل لا تعدو أن تكون أربع بيارات أو خمسًا ، وهى بيارات مهلهلة ، غير أن منطقة تلك البيارات يكثر فيها الإثل ، فى حين يحتوى قسم النتيفات على منطقة مزروعة تضارع منطقة المسارر Misarir، كما تحتوى أيضًا على قصرين وبيارات نخيل على ضفة القناة اليمنى على مقربة من ممتلكات الجماعة الأخرى المنافسة .

واحة الحدّار تتنافس مع واحة الحَمر Hamar، التى تحتل الموقع الأول بين القرى (الهجر) أو إن شئت فقل المستوطنات فى تلك الرقعة المرتفعة من الأرض. يضاف إلى ذلك أن واحة الحمر تخضع لأسباب إدارية ولأغراض الدخل ، تحت السيطرة المباشرة لحاكم منطقة الأفلاج . وبيارات نخيل واحة الحمر وكذلك المنطقة الزراعية فيها مملوكة لسكان المستوطنات (القرى) ، فى حين لا يتمتع القسم البدوى من السكان بأى حق من حقوق تلك الملكية فى تلك البيارات أو الأرض الزراعية ، هذا على الرغم من توافد أولئك السكان البدو – كما هو الحال فى المناطق الأخرى – على تلك الواحة خلال موسم حصاد التمر ، وليس من اللائق أو المسموح به أن يعود أولئك البدو خاوين الوفاض . وبيارات النخيل التى تفرض عليها ضريبة بواقع ٥ فى المئة من إجمالى إنتاجها إلى خزانة الدولة ، هى تلك التى تعتمد اعتمادًا جزئيا على الرى من الفيضانات الموسمية ، التى يجرى صرفها عن طرقها الرئيسية ، عن طريق حواجز خفيفة من كتل أخشاب النخيل وحطب الوقود ، حتى تصل إلى عدد من القنوات الفرعية ذوات الضفاف المنخفضة ، كما تفرض تلك الضريبة أيضًا التى تعتمد اعتمادًا جزئيا على الرى برفع الماء من الآبار التى يجرى حفرها فى الحدائق لتصل إلى عمق يتردد بين سبع قامات وثلاث عشرة قامة فى ضوء موقع تلك الآبار داخل الوادى ، كما تعتمد أيضًا على حالة الفيضان والسيول . من هنا فإن الآبار فى الطرف العلوى من الواحة تكون أعمق من الآبار التى يجرى حفرها فى الجزء السفلى من ذلك الوادى ، وهناك تباين فى أعماق تلك الأبيار قد يصل إلى قامتين ، من موسم إلى آخر .

كان صوم رمضان قد بدأ بالفعل ، وأصبح سكان واحة حدّار ، بعد أن اجتازوا الألم الذى يترتب على حرمان أيام الصوم الأولى ؛ ذلك أن الأيام الأولى من تعويد الذات على الظروف الجديدة تشهد ذروة ذلك الألم وبخاصة مسألة الامتناع عن الماء فى صيف حار كهذا ، لم يعودوا قادرين بعد على التجوال فى المنطقة المحيطة بنا .

وصيام اليوم ينتهي عند سماع أذان المغرب ، ولكن هناك من بين الوهابيين من ينتظرون سماع المقطع الأخير من الأذان قبل أن يفطروا ، وهناك بعض آخر لا يواظبون على ذلك أو يراعونه ، بل إن هناك كثيراً من المؤذنين الذين يرفعون الأذان وهم يحملون فنجال القهوة بين أيديهم . ومن يكون على سفر يعفى من الصوم ، والمقصود "بالمسافر" هو الشخص الذى لا يكون موطنه أو أسرته فى المكان الذى يتصادف أن يكون فيه ، وتلك رخصة لأن النبى (ﷺ) نفسه لم يصم عندما كان فى مكة لأن موطنه كان فى المدينة (المنورة) . ومن يعودون إلى مواطنهم فى يوم من أيام الشهر الفضيل ، يرخص لهم بأنهم عندما تصبح أوطانهم على مرأى منهم ، أن يتوقفوا ويأكلوا ويشربوا حتى الشبع ، ولكنهم بعد أن يستأنفوا مسيرهم ويركبوا رواحلهم يصبح الصوم ملزماً لهم وسارياً عليهم ، ويظل الصوم لزاماً عليهم إلى أن تصبح مواطنهم على غير مرأى منهم . والطعام والشراب ليسا هما المحرمان على الصائم [فقط] ، ولكن الجماع محرم على الصائمين أيضاً فيما بين طلوع الشمس وغروبها ، كما أن المسلم الذى يدمن تدخين التبغ يتعين عليه الابتعاد عنه طوال تلك الفترة أيضاً ، وهذا هو أشد وأقصى أنواع الحرمان على الرغم من أنه ليس كذلك للوهابى الملتزم أو أولئك الذين ينظرون إلى التبغ على أنه من الأعمال المحرمة وغير الشرعية .

وقد يكون من المناسب هنا أن أعرض لموضوع الصلاة بين الوهابيين بصورة عامة فى أرض الوهابيين أيضاً . فالوهابيون فى أثناء سفرهم مرخص لهم باختصار الصلاة من خمس صلوات إلى ثلاث فقط ، ولكن ذلك لا يعنى [تقليل عدد] الصلوات ، على الرغم من أن المصطلح الذى يطلقونه على تلك العملية هو تقصير Taqsir الصلوات نفسها(*) . وصلاة الفجر تؤدى فى موعدها المعتاد ، أى عند ظهور خيوط الفجر الحقيقى ، وليس الفجر الكاذب ، فى السماء الشرقية ، سواء كان المرء مسافراً أو غير مسافر ، ولكن المسافر مرخص له أن يجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر ، فى وقت يتوسط الزمن بينهما ، وإذا ما حدث أى شيء ، فقد يكون الوقت المناسب هو الذى يكون قريباً من العصر وليس بعده ، وعند غروب الشمس يجوز للمسافر أن يجمع بين صلاة العشاء وصلاة المغرب Maghrib ، ولكن الوقت المحدد لذلك ثابت ويتمثل فى اللحظة التى تغرب الشمس فيها وراء الأفق أو كما يقول بعض الحرفيين عندما يصبح الضوء الذى يعزى إلى الشمس غير مرئى .

(*) التقصير هو تقليل عدد الركعات فى الصلاة الواحدة ، وهو غير الجمع ، وكلاهما جائز حال السفر. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى الجزء الأول ، الفصل الرابع : طريق الحج. -التحرير)

وصيغة الأذان هي الصيغة نفسها التي تعرفها أفرع المذهب Church السني الأخرى ، مع إضافة العبارة الوهابية المفضلة "لا إله إلا الله" في نهاية الأذان . وبعد الأذان يتجمع المصلون خلف المسجد Masjid، أو ذلك الخط الذي يرسمونه على الرمل وبه انتفاخ متجه إلى الخارج يمثل المحراب Mihrab أو الاتجاه صوب المسجد الحرام ، والذي يتقدم إليه الإمام ، الذي يجرى اختياره عادة ليؤم الصلاة بحكم كبر سنه ، أو مكانته ، أو علمه . والذي قام بذلك الدور بين جماعتنا كان هو ابن جلهم . والإمام عندما يجتمع خلفه شخصان أو ثلاثة، يبدأ في رفع أذان الإقامة مرة ثانية كي يعطي الفرصة للمتأخرين بعض الشيء ، ثم ينهي أذان الإقامة بترديد عبارة "قد قامت الصلاة" مرتين . وهنا تبدأ صلاة المغرب التي تشبه صلاة العشاء ، وعند نهاية الصلاة ، يدير الإمام رأسه ناحية اليمين ثم بعد ذلك ناحية اليسار مردداً في كل مرة عبارة "السلام عليكم ورحمة الله" . وهنا تمر برهة زمنية وجيزة يتنحنح خلالها ثم ينهضون من الجلوس إلى وضع القيام لبدء صلاة العشاء التي تفاصيلها على النحو التالي :

(يقف المصلون جميعهم) ويكبر الإمام قائلاً : "الله أكبر" . ثم يقرأ بعد ذلك الفاتحة وبعد انتهائه يؤمن المأمومون تأميناً جياشاً .

يظل المأمومون واقفين ، بينما يقرأ الإمام ما تيسر له من القرآن ، وبعد انتهائه من التلاوة ينحني المصلون بعد الإمام قليلاً إلى الأمام ، بينما يقول الإمام : "سمع الله لمن حمده" Inna 'allah liman hamada. وهنا يستأنف المصلون الوضع واقفين مرة أخرى ، وهنا يسجد الإمام ومن بعده المصلون ثلاث سجدات مكرراً عبارة " الله أكبر" في كل سجدة .

وفي المرة الرابعة يكرر العبارة نفسها وينهض المصلون والإمام واقفين على أقدامهم .

وتُكرر العملية نفسها مثلما حدث من قبل بدءاً بالفاتحة حتى التكبيرة الرابعة ، التي ينهض المصلون بعدها من السجدة الأخيرة إلى الوضع جالساً ، ثم تعقب ذلك فترة قصيرة من الصمت ، ينظر الإمام بعدها عن يمينه وعن شماله ، ناطقاً بالسلام مثلما حدث في صلاة المغرب ، قائلاً : "السلام عليكم ورحمة الله ." وبعدها يعتدل الإمام في جلسته ليواجه المصلين ، مكرراً صيغة التسبيح ، بواقع ثلاث وثلاثين مرة لكل جزء منها ، أو تسع وتسعين مرة هي إجمالي التسبيح أو ختام الصلاة .

(*) هكذا في الأصل، ولعله خطأ طباعي أو سماعي ، صوابه "..Sama 'allah". (التحرير)

ويتلو هذه العملية كثير من التنحنح ، وفترة من الاطمئنان المشوب بالتقدير والاحترام الذى يتخلله حديث عن الأمور الدينية ، وبعد انتهاء الصلاة ينصرف المصلون إلى شئونهم .

لقد وجدت من المناسب أن أسجل عينة من الصلاة التى يؤديها الوهابيون بالصورة التى شاهدتها بنفسى ، لا من منظور أن تلك الصلاة تختلف عن صلاة بقية المسلمين أتباع المذهب السنى بشكل عام، وإنما لأبلغ المهتمين بمسألة إن كان الوهابيون يصلون أو لا يصلون صلاة مماثلة لصلاة الآخرين . الوهابيون يصلون الصلاة نفسها ولكن مع بعض الفروق الطفيفة ، والوهابيون يختلفون عن الآخرين فى الشكليات فى المواقف ، والتى يتركونها لتمييز الفرد نفسه ، كما يختلفون عن الآخرين أيضًا فى مسألة تركيز القلب الواحد على أركان الصلاة ، فقد شاهدت الوهابيين وهم ينهضون واقفين على أقدامهم من وضع السجود كى يجروا وراء جمل شارد ثم يعودوا مرة أخرى إلى صلاتهم كما لو أن شيئًا لم يحدث .

يبدو لنا الآن أننا عدنا إلى الحضارة من جديد ، ولم نعد بحاجة ماسة إلى أولئك الجنوبيين الذين صاحبونا إلى الآن لإرشادنا، من ناحية ، إلى الطريق الصحيح عبر أرض الهضبة القاحلة الخالية من الدروب والمدقات ، ولإطلاق سراحنا ، من الناحية الأخرى ، إذا ما وقعنا فى أيدى عصابات من القبائل التى ينتمون إليها . وتأسيسًا على ذلك ، وقبل أن نركب دوابنا فى اليوم التالى لاستئناف رحلتنا فى اتجاه الشمال ودعنا ثلاثة من جماعتنا وداعًا لن نراهم بعده مطلقًا . وكان طويرش بن قاسم ، الودينى ، قد رافقنا اعتبارًا من واحة ليلى بصفته مرشدًا لنا ، ولكنه سرعان ما جُرِّد إلى وضع أدنى أصبح معه طفيلاً غير مرغوب فيه ، وقد افترقت عن طويرش وأنا غير آسف على ذلك ، مستشعرًا أنى لن أسمع بعد الآن لهجته الأنفية المبتذلة مرة ثانية ، فقد اكتشفت بعد ذلك ، أنه كان على استعداد لاختراع أسماء للأماكن والخصائص الطبيعية الأخرى بدلاً من الاعتراف بجهله ، مخافة أن يؤدى ذلك بى إلى ضياع نيتى الحسنة تجاهه ، ومعها أيضًا المكافأة المالية . كان طويرش ، يجىء فى المرتبة الثانية بعد إبراهيم ، كما أن هذين الرجلين سيظلان دومًا بين ذكرياتى السيئة عن جولتى فى الجزيرة العربية . كان مبارك ، صياد الغزال ، رجلاً مختلفًا تمامًا ، ودعته بمزيد من

الأسف والحزن عليه ، لأنه ظل واقفًا بجانبى طوال الوقت ، لا يعرف كللاً أو مللاً من خدمتى ، وكان على استعداد دومًا لوضع معرفته تحت تصرفى ورهن إشارتى ، مع أن تلك المعرفة كانت محدودة تمامًا ، فضلاً عن أن أحدًا لم يكن يعرف محدودية تلك المعرفة سواه هو نفسه ، ولم يحدث له أن تجاوز حدود الأدب مطلقًا . ومن باب العلم بالشىء فقد اعتمدنا عليه فى تزويدنا بلحم الغزال ، ولكنه خيب آمالنا إذ كان يعود إلينا بجعبة خاوية ، نظرًا لأن صيد الغزال فى أثناء تحرك القافلة ، أو إن شئت فقل فى أثناء المسير يعد من أصعب العمليات ، هذا على الرغم من أن التعب والمسافة لم يحولا بينه وبين مطاردة الغزال . زد على ذلك أن الفشل لم يعكر صفوه أو طريقته اللطيفة فى الكلام والحركات التى تولدت فيه بسبب معيشته الطويلة فى الصحراء . ولكن على الرغم من لطف شخصيته ، فإنها كانت متأثرة بشخصية ثالث أفراد الثلاثى الراحل ، حسن بن غانم المهشيلى من بلاد اليم Yam المحيطة بنجران ، ذلك الرجل الذى يتمتع بجاذبية طبيعية أكثر من أى شخص آخر التقيته من بين العرب . كان ذلك الرجل هو وقعوده[١٠] الذى أحبه وأشبع رغباته هما بمثابة خلاصة جماعتنا . كان ذلك الرجل قد تجاوز منتصف العمر وله صوت موسيقى عذب ، وذو سلوكيات لطيفة سواء فى الكلام أو الحركات ، كانت تبدو لى وكأنها خلاصة السلوكيات العربية ، وقد أذهلنى صمود ذلك الرجل وثباته فى وجه القسوة والمعاناة ، والسبب فى ذلك أنه عندما جاء إلينا كان جلد ساق أحد قدميه قد تشوه بفعل تقيح مفتوح طوله حوالى ثلاثين بوصة ، الأمر الذى جعل أية محاولة للمشى أمرًا مستحيلاً نتيجة الألم ، وبخاصة أن حسنًا كان يقوم خلال الوقفات التى كنا نقفها ، يومًا بعد يوم ، بكوى ذلك الجرح بميسم من الحديد كان يسخنه إلى درجة الاحمرار ، وذلك من باب إظهار الشجاعة وليس من باب النجاح ، ومع ذلك رحل عنا حسن وجرحه لا يزال بلا تحسن . وقد فرحت لأنه فى أضعف الأحوال ، معه القعود ليحمله إلى موطنه ، فى الوقت الذى سوف يتعين فيه على كل من مبارك وطويرش ، اللذين ركبا مع بعضهما البعض بطريقة خادم المركبة طوال المسيرة كلها ، أن يعودا إلى موطنيهما سيرًا على الأقدام . قال حسن وهو يفارقنا : "الله يسلمك . وإذا ما حضرت مرة ثانية إلى هذا الجزء من البلاد فلا تنس أن تسأل عن

حسن بن غانم فى السليل وسوف أفرجك على أثر الوعول فى الرمل " . ورددنا عليه قائلين له : "فى حفظ الله". ثم تحولنا عنه فجأة لنمضى إلى حال سبيلنا على طريقة العرب .

تقع امتدادات الجرف الثانوى الأرضية : شعب فردة Farda وطريفة Turaifa والخرطام Khartam على شكل نسق ، الواحدة خلف الأخرى على جناح (جنب) مسيرنا فى ذلك اليوم عندما كنا نسير على طول قاعدة السلاسل الجبلية التى تنتهى فى تلك الامتدادات الأرضية عند الحافة الخارجية للهضبة الخارجية التى يمكن تمييز حافتها فى اتجاه الغرب مع الامتدادات الأرضية التى تشكل مجرى تلك الهضبة الخارجية خشم عجبان Khashm 'Ajban فى أقصى الامتدادات المرئيةمع كل من هُميمة Humaima ومَرْخِيَّة Markhiyya حسب هذا الترتيب فى اتجاه الشمال . والمعروف أن مَرْخِيَّة تقع على خط واحد ، أو إن شئت فقل بجانب جرف خشم خرطام المل الذى يقع عند حافة امتداد الجرف الداخلى على بعد ميلين على أكثر تقدير من امتداده الخارجى ، وخشم خرطام هو الذى يسيطر على المنظر كله فى هذه المنطقة . وسطح الهضبة فى هذه المنطقة كان وعراً جدا وتحيط به الكتل المتساقطة التى تشكل منخفضات قاحلة شققنا طريقنا خلالها فى اتجاه أعالى وادٍ يطلقون عليه اسم وادى دحلة Dahla الذى ينحدر نازلاً إلى سهل الحسرج Hasraj خلف قرية (هجرة) فحيل Fuhailالواقعة بين سلاسل جبال الشعب وسلاسل جبال فردة . وينحرف هذا المدق (الطريق) غربًا عن المسار الذى نسير فيه بعد أن اجتزنا ممرات الواحة عبر الهضبة إلى المنطقة المجاورة لامتداد مرخية الأرضى ، حيث يبدأ مسارنا عند تلك المنطقة فى النزول إلى السهل ويمر خلاله ، رحلة يوم أو بعض يوم إلى أن يصل إلى إحدى الملاحات ، التى يستخرج الناس منها فى تلك المناطق ، الملح الصخرى الذى يكثر فى تلك المنطقة على عمق خمسة أقدام من السطح فى وسط نفود ضاحى Nafud Dahi .

وبعد أن تجاوزنا ربوتين صغيرتين تبرزان من أنف الشعب ، أصبح مسيرنا سهلاً ويسيراً عبر تربة دحلة Dahla الغرينية القاحلة والتى توقفنا فى أعاليها ، أو بالأحرى فى رافد من روافدها لتناول فطور يوم من أيام رمضان تحت جرف فردة Farda المنحدر . وعليه ، بدأنا نشق طريقنا طلوعًا ونزولاً عبر الأرض الوعرة ، ثم شققنا طريقنا عبر شعب طريفة، نازلين من الامتداد الأرضى الذى يحمل ذلك الاسم ومن

أخدود آخر يطلقون عليه اسم المهينى Muhaini إلى شعب الخرطام الذى يرتفع ٢٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر ، وتسيطر على أحد جانبيه صخرة بارزة من خشم خرطام نفسه الذى كانت قمته ترتفع من فوقنا إلى حوالى ٢٠٠ قدم . وهناك طريق مباشر يصل حدَّار Haddar بالحَمر Hamar من فوق جانب الصخور ، كان يسير محاذيًا للطريق الذى نسير فيه ، وعبر الهضبة المرتفعة الموجودة خلف هاتين الواحتين ، ثم ينحدر الطريق بعد ذلك نازلاً فى سهولة ويسر من واحة الحَمر نفسها ، غير أن ذلك الطريق لا تسير فيه سوى الجماعات التى لا تحمل معها متعلقات ثقيلة ، وتحتم علينا أن نتخذ مسارًا ينطوى على أقل قدر ممكن من المتاعب .

تعد السلسلة الجبلية التى تصل خشم خرطام بامتداد مَرْخِيَّة الأرضى نهاية للهضبة الخارجية التى كنا نسير بمحاذاة حافتها الشرقية إلى هذه اللحظة ، كما تعد تلك السلسلة أيضًا نقطة اقترابنا من المنطقة التى يبدأ عندها سطح حاجز الطويق الموحد فى اتجاهه صوب الشمال ، كما يبدو الحاجز نفسه عند هذه النقطة أيضًا كما لو كان هضبة تنحدر انحدارًا هيِّنًا ناحية الشرق من خط أعلى ارتفاع لها على امتداد حافة الجرف الغربى . ولكننا يتعين علينا عبور منطقة الحَمر مسدودة المسالك ، قبل الوصول إلى تلك النقطة ، التى نراها رؤية واضحة الآن من خلال فجوة جرف الخرطام ، وتمتد الرؤية أيضًا إلى أن تصل إلى امتداد خشم عشيرة Khashm 'Ashaira الأرضى الذى يصطدم – كما هو الحال فى امتداد الخرطام الأرضى – اصطدامًا مباشرًا بالصخور الخارجية. وفيما بين هاتين النقطتين يقع سهل يشبه الوتد تتخلله بعض الوديان الضحلة والسلاسل الجبلية والروابى ، ويرتكز على خط يصل طوله إلى حوالى عشرين ميلاً محاذيًا لقمة الجرف الغربى . وتقع أعالى ذلك السهل فى واحة الحَمر التى تقع على بعد حوالى خمسة عشر ميلاً إلى ناحية الشرق من ذلك المرتكز عند ملتقى العديد من قنوات الصرف ، على شكل زاوية حادة تكونت بفعل التقاء صخرتين إحداهما تمتد فى اتجاه الشمال الشرقى والثانية تمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى من كل من امتدادى خرطام وعشيرة الأرضيين . واعتبارًا من تلك النقطة بدأ طريقنا يسير فى مجرى قناة كيريز Kiriz محاذيًا لسلسلة جبال خرطام إلى أن يصل إلى الحمر Hamar، ومنها إلى سفح صخرة دحمان Dahman . معنى ذلك أن الطريق يسير على امتداد

ضلعى مثلث السهل إلى أن يصل إلى امتداد عشيرة الأرضى ، الذى اتجهنا منه صوب الشرق عبر ممر يشبه جرف خرطام ، ثم يسير بعد ذلك بمحاذاة وادى عشيرة 'Ashaira إلى أن يصل إلى سفح منحدر الهضبة، وإلى حافة سهل الأفلاج الذى يختفى فيه تمامًا .

ولكن يتعين علىَّ هنا - قبل أن أمضى قدمًا فى حديثى - أن أتناول المناظر الطبيعية فيما وراء بلاد الطويق ، تلك المناظر بدأت تطالعنا فجأة عندما كنا نقف على قمة جرف الخرطام ، والتى ألقينا عليها نظرة خاطفة ثانية وأخيرة ونحن نمر عبر ممر عشيرة بعد ذلك بيومين . ففى الأمام ، وفى اتجاه الشمال والجنوب شاهدنا امتداد حافة الجرف الخارجى الوعرة وقد تكسرت على بعد مسافات بفعل الكتل النحيفة من امتداداتها الأرضية الكبيرة : عجبان والحميمة ومرخيَّة ووعيرة Wu'aira، ومُسيفح Mu-saifih وجويفة ثم الحُسان Husan ، وكلها على مسافة بعيدة من عشيرة 'Ashaira . ومن خلف ذلك الخط شاهدت انخفاضًا حادًا يتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ قدم يتجه صوب السهل الموجود فى الأسفل ، كما شاهدت أيضًا شريطًا صحراويًا تغطيه الأشجار القصيرة الكثيفة يبرز من بين نفود شاسعة قاحلة ووردية اللون ، والتى ربما يعرفها الناس أو يعتبرونها جزءًا أساسيًا من نفود ضاحى Dahi ، والتى يمثل خط وادى سرَّة Wadi Sirra حدها الشمالى ، فى حين يصطدم حدها الجنوبى بوادى الدواسر نفسه . ولكن على بعد مسافة كبيرة بين الرمال أو بعدها كانت تتراءى لنا الحدود الخارجية الخافتة لبعض السلاسل الجبلية الكبيرة ، ومما لاشك فيه أن تلك السلاسل هى السلاسل نفسها ، التى سبق أن شاهدناها فى جنوبى طريق الحج فى أثناء تجوالنا فى اتجاه البحر الأحمر ، على الرغم من أن مسألة التعرف على القمم والسلاسل الجبلية التى يشاهدها الناس من زوايا مختلفة ، فى بلد مثل الجزيرة العربية ، له مثل هذه الخصائص والسمات المملة ، تتحول دومًا إلى مجرد استنتاج أكثر منه اقتناعًا ، وأنا لا أعتمد كثيرًا على المعلومات التى حصلت عليها من أولئك الذين كانوا مرشدين لى فى تلك المناسبة . ومن بين أولئك المرشدين ، كان هناك رجل اسمه عثمان ، وهو من النتيفات Nutaifat، وقد تعاقد معنا ليقودونا إلى الحَمر Hamar ، بلغت منه الأمانة مبلغًا جعله يحذرنى من أن معرفته بتلك البلاد البعيدة ، اعتمدت على الدليل السمعى الذى حصل عليه من العرب القادمين من تلك المناطق ، والذين رافقهم على ذلك

الطريق نفسه إلى قرية الحَمر Hamar ، وأن تلك المعرفة لا يمكن المساواة بينها وبين معرفته للعلامات الأرضية التى ولد وتربى بها . والمرشد الثانى هو فالح Falih بن جهيم Juhaim، وهو رجل متين من رجال قرية الحمَر ، كان يراعى الصيام بكل شروطه وصرامته خلال مسيرنا فى أثناء النهار طوال مرافقته لنا ، كما قلل من شأن الفكرة التى مفادها أن وضعه المؤقت معنا باعتباره مسافراً قد جعله فى حل من كل التزامات المشورة عند الحاجة . هذا الفالح كانت لديه معرفة كبيرة بسطح الأرض البعيدة ، التى تنقل خلالها ، غير أنه كان يخجل من دقة التحديدات التى كان يلزم بها نفسه ، على الرغم من تأكيده لى أن جبل سبها Sabha العظيم لا يمكن رؤيته من ممر عشيرة ، وأن القمة التى حددها المرشد السابق له على أنها جبل سبها لم تكن كذلك ، وإنما كانت قرية سماخ Samakh، التى تقع جنوبى جفار Jafar فى سلسلة جبال جد Jidd . يضاف إلى ذلك أن أقصى السلاسل الجبلية التى يمكن رؤيتها من تلك النقاط قد تكون ، فى أحسن الاحتمالات ، سلسلة جبال سوادة Suwada، وسلسلة جبال حصاة Hasat قحطان وربما أيضاً هضب Hddhb الدواسر ، فى حين أن سلسلة الجبال الطويلة المنخفضة التى شاهدتها خلف النفود مباشرة قد تكون ، فى أفضل الأحوال ، الامتداد الجنوبى لمرتفعات العارض التى تقع فيها قرية القويعية فى اتجاه الشمال الغربى من قرية الحَمر ، وذلك نقلاً عما قاله لى المرشد . وعلى أى حال ، قد يكون من المعقول ومن المنطق أيضاً التسليم بالحقيقة التى مفادها أننى كنت فى تلك المناسبات أنظر إلى ذلك الشريط العظيم من ذلك البلد الجبلى ، الذى سبق أن نظرت إليه من الاتجاه المعاكس عندما كنت أسير على طريق الحج ، وإذا ما صح ذلك ، أكون قد استطعت الحصول على انطباع طيب من الاتجاهين ، عن تلك المنطقة الشاسعة التى يجرى استكتشافها ، وأنا أترك تناول تفاصيل تلك المنطقة لرحالة آخرين فى المستقبل .

أهم قنوات الصرف التى تتلاقى عند قمة الحمر Hamar مسدودة المسالك لتكون غور باطن Batin الحمر ، نظراً لأن هذا الاسم هو الذى يطلق على هذه القناة اعتباراً من ذلك المكان فصاعداً إلى أن يصل إلى قريتى خارفة والسيح فى سهل الأفلاج الذى سبق أن عبرناه وسرنا بمحاذاته فى رحلة الذهاب ، هو شعب كيريز Kiriz الذى هو عبارة عن ساحل تنتشر فيه الصخور والحصى ، ويقع منبعه على قمة جرف خرطام

ويمتد متعرجًا نازلاً إلى المنحدر الحاد إلى الأراضي المنخفضة في الأسفل . وقد تتبعنا مجرى ذلك الشعب خلال ممر وعر ضيق إلى نقطة أصبح عندها انحدار ذلك الشعب هيّنًا ليّنًا ، كما يتجه وادى شعب كريز من تلك النقطة أيضًا إلى ناحية الشرق بمحاذاة الصخور في وادٍ يصل عرضه إلى حوالى نصف ميل تكسوه الحشائش والأعشاب القصيرة الكثيفة .

وإلى الآن ، وعلى امتداد أيام عدة بدأت إبلنا تعانى معاناة شديدة من السير بصفة دائمة على سطح الهضبة الصخرية الصلب الذى يسخن بفعل حرارة شمس الصيف ، الأمر الذى جعل تلك الإبل تكشف عن أعراض ودلائل آلامها ، وبخاصة تورم أقدامها ، أو إن شئت فقل إن أخفاف الجمل تلتهب وتتشقق ، الأمر الذى يترتب عليه دخول شظايا الصخر فى التجاويف الناتجة عن تلك الالتهابات ، مما يجعل تلك الإبل تعرج فى أثناء المشى . لقد تأثرت إبل كثيرة من تلك العملية ، ونظرًا لأننا لم نكن فى عجلة من أمرنا ، وكنا أيضًا قد عقدنا العزم على التوقف يومًا كاملاً فى الحَمر التى وصلناها فى ساعة متأخرة من الليل أو فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، فقد قررنا إرجاء وصولنا إلى الواحة إلى صباح اليوم التالى ، واستغلال تلك الفترة فى تضميد أخفاف تلك الجمال ، التى سوف تستفيد أيضًا من المراعى الوفيرة والممتازة فى الأراضى القريبة منا . ووادى شعب الكريز بكامله ، هو وأرض الحَمر مسدودة المسالك يشكلان – فى واقع الأمر – المرعى الذى يفيد منه أهل الحمَر ، الذين يقال إنهم اشتروا كامل حقوق تلك المراعى من ملاكها السابقين ، أو إن شئت فقل : من نتيفات حدّار ، الذين كانوا يسيطرون من قبل على تلك المناطق ، ولكنهم ممنوعون حاليًا من رعى ماشيتهم فى تلك المراعى إلا بإذن صريح من جيرانهم الأقوياء . ولكن المسافرين حسنى النية لا تنطبق عليهم تلك القيود فى مناطق الحما Hima أو إن شئت فقل مناطق الحظر Hadhr كما يسمونها .

الأساليب التى يلجأ العرب إليها لتضميد أو علاج أخفاف الجمال بدائية للغاية، على الرغم من أنها فعالة ومؤثرة وبلا ألم من الناحية الشكلية، والعربى بعد أن يطرح الجمل المصاب على جنبه ويربط رأسه إلى ظهره ربطًا محكمًا – الأمر الذى يجعل تحرك الجمل أمرًا مستحيلاً – يأخذ رقعة صغيرة ، غالبًا ما تكون من جلد الجمل ،

وشريطاً صغيراً من الجلد نفسه أيضاً ، ثم يخيط تلك الرقعة بواسطة إبرة غليظة ، فوق الجزء المشروخ وعلى نحو يستحيل معه دخول الأجسام الغريبة فى ذلك الشق مرة ثانية ، ثم تتآكل الرقعة بعد ذلك وتصبح جزءاً من الخف . جرى علاج الإبل الواحد بعد الآخر بتلك الطريقة ، ثم تركها الرجال ترعى فى الحمى ، وقد أشرف على تلك العملية كل من تامى Tami ورشيد ، اللذين أثبتا على الرغم من حبهما للراحة وعدم الاكتراث ، أنهما قادران على تحمل المشاق والمتاعب التى تترتب على العمل الشاق فى الجو الحار فى أثناء النهار ، لصالح المنفعة العامة . كانت وقفتنا الطويلة فى ذلك المكان تغييراً جميلاً عن السفر المتواصل ، بالنسبة لبقية أفراد الجماعة ، أما أنا فقد أمضيت فترة العصر كلها داخل خيمتى فيما عدا جولة قصيرة قمت بها سيراً على الأقدام إلى قمة المنخفضات التى تشكل الضفة اليسرى للشعب ، ومع ذلك ، فقد اكتشفت خلال تلك الجولة أن المنظر من تلك القمة كانت تحجبه تموجات الهضبة من جانب وصخور الخرطام من الجانب الآخر .

وفى اليوم التالى كان مسيرنا على امتداد مجرى الشعب الزلطى ، الذى توقفنا فيه للإفطار عند مصب واد فرعى صغير يسمونه أم الحمحم Umm Himhim ، الذى يهبط نازلاً من المنخفضات التى عن يسارنا ، والتى بدأت تتحول اعتباراً من تلك المنطقة إلى سلسلة واضحة من الجبال تسير موازية لصخور الخرطام . وكان المنحدر الداخلى لتلك السلسلة الجبلية تغطيه حتى قمته طبقة من الصخر المفكك القاحل ، كما كانت تبرز من جانب تلك السلسلة رابيتان منحنيتان جميلتان تعرفان باسم الفرايد Al Faraid . وبينما كان الرفاق يعدون طعام الفطور ، تمشيت إلى قمة السلسلة الجبلية ، التى اكتشفت أن المحار الحفرى ينتشر فوقها ومعه أصداف أخرى ، جمعت منها عدداً كبيراً كى أصحبه معى فى أثناء العودة . وقد مررت فى اليوم التالى بتجربة مماثلة على قمة ربوة تطل على ممر عشيرة ، ووصلت المجموعة بكاملها معى سليمة إلى الرياض ، كى أتركها مع أمتعتى الثقيلة عندما تحركت مع ابن سعود لبدء حملته على ابن الرشيد فى شهر أغسطس التالى . والمفترض أن تكون تلك المجموعة ، ما زالت فى المكان الذى تركتها فيه ، وبخاصة بعد أن باءت بالفشل ، كل المحاولات التى بذلتها من أجل الحصول على تلك المجموعة من المحار والأصداف ، بعد أن غادرت الجزيرة العربية .

ومن ثم ، فأنا فى الوقت الراهن أرى إرجاء مسألة الكلام عن طبيعة تلك الحفريات ، على الرغم من أنه قد يكون من حقى التخمين بأن تلك الحفريات تنتمى إلى العصر الجيولوجى نفسه الذى تنتمى إليه تلك الحفريات التى عثرت عليها على هضبة الطويق شمالى الرياض بالقرب من بداية وادى حنيفة ، والتى أحضرتها معى من هناك كى يقوم المختصون فى المتحف البريطانى فى جنوب كينسنجتون Kinsington بدراستها وتصنيفها على أنها من العصر الجوراسى . وقد سبق دراسة وفحص حفريات مماثلة جرى الحصول عليها من بعض أخاديد مرتفعات اليمن Yaman، كما قام المختصون بتصنيف تلك الحفريات أيضًا ، ولكن حسب مبلغ علمى ، هذه أول مرة يجرى فيها إحضار حفريات من مكان فى داخل الجزيرة العربية [١١] . يقول دوتى Doughty الذى اكتشف عددًا من الأدوات المصنوعة من الصوان Flint فى شمالى الجزيرة العربية إنه لم يعثر على أى نوع من أنواع الحفريات طوال تجواله .

وبعد أن استأنفنا مسيرنا بطول الوادى مررنا ببركتين من الماء فى سهل واسع معشوشب ، تشكل صخور خرطام من حوله منحدرًا واسعًا يتجه صوب الجنوب ، كما عثرنا فى ذلك السهل على بعض الأبقار الحمراء والسوداء ، التى هى من سلالة محلية هزيلة ، كانت ترعى فى ذلك السهل أيضًا . وبالقرب من تلك الأبقار ، شاهدنا بقايا قصر قديم وسط رقعة من النخيل القزم الذى يرجع تاريخه إلى احتلال النتيفات Nutaifat لتلك المنطقة ، ثم مررنا بعد ذلك مباشرة بقصر آخر من النوع نفسه يطلقون عليه اسم أم شجرة Umm Shajara ، وبه بئر مهملة فيها قليل من الماء المتعفن على عمق حوالى قامة . وعند تلك النقطة شاهدنا صخرة وعرة من صخور الفريد Faraid على بعد مسافة قريبة منا فى الجانب الأيسر ، وهنا بدأ وادى الكريز يضيق إلى أن وصل عرضه إلى حوالى ربع ميل تقريبًا فى المسافة ما بينه وبين امتداد زويرة Zuwaira الأرضى ، الذى يبرز من الصخور المقابلة ، والذى ينزل عليه من تلك المنطقة الطريق الرئيسى القادم من منطقة حدَّار Haddar ويطلقون عليه اسم الحريثة Al Huraitha .

فى تلك المنطقة تبدأ صخور سلسلة جبال الفريد فى الانتشار عبر الطريق الذى نسير فيه ؛ الأمر الذى يتسبب فى تصنيف مجرى السيل ليصبح اختناقنا ضيقًا ، وهنا بدأنا نتسلق فى سهولة ويسر كتف ذلك المجرى المنحدر ، لنجد أنفسنا بعد ذلك

فوق قمة سلسلة جبال الفريد التى رأينا منها واحة الحَمر واضحة جلية ، على شكل خط معتم من النخيل انعكس خياله على صخور سلسلة جبال الضمان Dhaman الرمادية اللون ، ويمتد على طول شريط مجرى السيل إلى أن يصل إلى الزاوية الناتجة عن التقاء المجرى بصخور الخرطام . وعلى الجانب الآخر من تلك الصخرة تتصل قناة شعب سفيحة Sufaiha الواسعة بشعب الكريز ، ومن خلف ذلك الشعب تمتد أيضاً قناة صرف ضامان ، والتقاء قناة شعب سفيحة بكل من شعب الكريز وقناة ضامان ينتج عنه سهل رملى واسع تقع فيه واحة الحمَر التى هى أمامنا مباشرة .

بعد أن مررنا من بين مسورتين جدرانهما من الطين وبهما نخيل جرى زرعه مؤخراً ، وصلنا إلى الحزام الرئيسى ، ومررنا فوق إبلنا بين مجموعتين من بيارات النخيل اليانع ، وكانت كل بيارة من هاتين البيارتين تحتوى على قصور وإشارات أخرى تدل على الحياة ، غير أن القرية بكاملها كانت تبدو كما لو كانت خالية من السكان ، وهذا هو ما اكتشفناه بالفعل عندما وصلنا منزل الأمير الذى يشبه القلعة ، هذَّال Hadhdhal بن عقيَّان Uqaiyan' ، على الجانب الأيسر من مجرى السيل ، ونزلنا عن دوابنا كى نخيم طلباً للراحة .

هرب كل سكان القرية فيما عدا قلة قليلة منهم لم تلق لنا بالاً ، ولم ترد علينا التحية كلما التقيناهم ، أو كانوا يردُّونها بعبارات مبهمة تنم عن الاشمئزاز والرفض ، وكان هناك أيضاً فالح بن جهيم Juhaim، ممثل الأمير الذى تركوه ليقوم باستقبالنا ويلبى لنا احتياجاتنا . وعلى الرغم من أوامر إبراهيم الصارمة والمعاكسة والتى ربما كان يريد بها جعل مساره - وبالتالى مسارنا أيضاً - وعراً إلى أبعد حد ممكن ، فإن جابراً Jabir وعبيداً Ubaid'، استشعاراً منهما للإحساس بالظلم نتيجة طردهما من الوادى بصورة مفاجئة ، كانا قد روَّجا حكايات وشائعات عن مجىء كافر ، فى القرى التى مرَّا بها ، وهنا استقبلت تلك القرى ذلك النبأ كل بطريقته الخاصة . أهل حدَّار على سبيل المثال ، وجدوا من غير الضرورى ألا يقلقوا هدوء حياتهم ووتيرتها بما يخصنا أو يتصل بنا ، وبالتالى لم يكشفوا عن عدم موافقتهم أو رضاهم عن وصولنا إلى قريتهم ، ولكن الأمر تطلب إجراء بعض المشاورات ، وبالتالى عندما وجد هذَّال أن مسألة تحدى دخول جماعة تحت رعاية ابن سعود يعد أمراً وقحاً وبذيئاً ، فقد لجأ إلى

البديل وأخلى الواحة من كل سكانها ولم يبق غيره لاستقبالنا . وقد قام السكان بذلك العمل خير قيام ، إذ نأوا بأنفسهم كما قال فالح ، على الرغم من المتاعب التى تترتب على بعدهم عن منازلهم فى أثناء شهر الصوم ، وذهبوا إلى قرية الوسيط الصغيرة ، التى تقع فى مضيق باطن الحَمر ، والتى تقع على مسافة حوالى عشرة أميال بالقرب من حافة سهل الأفلاج ، والتى لن يعودوا منها إلا بعد أن تنتهى تلك الزيارة غير المرغوب فيها .

وقد عبَّرت بقية السكان عن رفضها بأن رفضت أن تبيع لنا الضروريات التى كنا بحاجة إليها ، غير أننا لم نجد صعوبة فى الالتفاف حول ذلك الموقف بأن جعلنا مشترياتنا كلها عن طريق فالح Falih، الذى بدا واضحاً أنه عقد العزم على الاستفادة إلى أبعد حد ممكن من ذلك العمل بأن زاد اهتمامه بنا وتعاونه معنا إلى أبعد الحدود ، الأمر الذى كافأناه عليه مكافأة طيبة .

وبينما كان رفاقنا ينصبون خيامنا انضممت إلى ابن جلهم وعدد قليل من أفراد الجماعة عندما كانوا يجلسون فى ركن ظليل منعزل من بيارة نخيل الأمير ، رحنا نشرب القهوة فيه تحت ظلال المجموع الخضرى المتداخل لكثير من مختلف أشجار الفواكه ، ونلنا قسطاً من الراحة ودخلنا فى حديث مستفيض عن موضوع الجنة ، ذلك المكان الذى لدى الوهابيين عنه مفاهيم تشبيهية محددة ، تجعلهم يؤمنون إيماناً راسخاً مفاده أنهم فى الجنة ، بعد أن يكبروا إلى أحجام بدنية هائلة ، سوف يتمتعون بكل المباهج التى حرمت عليهم أو لم تكن فى متناولهم فى الحياة الدنيا . وقد أصبت بصدمة عندما أدركت أن ابن جلهم ، على الرغم مما اقترفه على امتداد ثلاث سنوات ، أو خبرته الكبيرة بمباهج الحياة ، كان يتطلع برضا كامل بتحوله السريع إلى تلك الحالة من السعادة ، التى يستطيع من خلالها وبطاقة مضاعفة ، تجديد مباهج هذه الدنيا التى أصبحت عنده بمثابة ذكريات من الماضى .

يقول الموروث إن المستوطنين الأول لواحة الحَمر كانوا فرعاً من فخذ داود Daud من القحطان الذين انتزع منهم ملكية تلك الواحة محاربان من فخذ شكرة(١٢) Shakara من الدواسر ، وإن هذين المحاربين هما ظافر Dhafar وإدريس Idris، وهما أيضاً عمَّى العقيان 'Uqaiyan، ووالدى كل من زيد ، وهذَّال الأمير الحالى لواحة الحَمر . وهذه

الواحة ، شأنها شأن واحة الوسيط ، تقتصر ملكيتها على الشكرة Shakara، الذين يصل عددهم إلى حوالى ٦٠٠ نسمة ، لا يدخل ضمنهم العنصر البدوى ، الذى يقدر بمثل هذا العدد أيضًا ، ولكنهم ليس لهم أى حق أو نصيب من الواحتين ، ولهم تنظيم مستقل يرأسه عقاب Aqab بن حفيض Hufaidh، رئيس له أهميته ، يبدو أنه يحتل أولوية مهمة فى المجالس القبلية ، وهو يجىء فى الترتيب قبل هدَّال نفسه ، بل إنه يمارس شيئًا من السلطة على هذال نفسه وعلى السكان المستقرين أيضًا .

بيارات النخيل ، التى تقع فيها وبالقرب من منتصفها قرية واحدة كبيرة وبعض القصور المبعثرة هنا وهناك ، هذه البيارات تمتد بعرض متوسطه حوالى ربع ميل إلى مسافة ميل ونصف الميل على امتداد الشعب ، ثم تنتهى فجأة مع بداية مضيق باطن الحَمر Hamar،الذى تقع فيه وعلى مسافة نصف ميل تقريبًا قرية المويصل Muwaisil المدمرة والمهجورة والمزدوجة ، التى تحيط بها أشجار الإثل وبعض حقول القمح . وكان من عادة أهل الحَمر Hamar العيش فى ذلك المكان غير أنهم تركوه فى الأيام الأخيرة وتخلوا عنه على الرغم من أنهم لا يزالون يزرعون حقول القمح المحيطة بتلك القرية . ومظهر بيارات النخيل فى هذه الواحة يوحى بالازدهار ، واحتوائها على غطاء نباتى ثرى من أشجار الفاكهة والخضراوات ، أشجار الرمان الذى شاهدناه هنا ثانية وللمرة الأولى بعد أن غادرنا سهل الأفلاج ، وكذلك أشجار الخوخ ، والليمون ، ونباتات القطن ، ونوع من النبات المتسلق الذى يلتف حول جذوع النخيل ، وكذلك الباذنجان فضلاً عن الفلفل الأحمر الحار . ولم أر أى أثر للكروم ، وجدير بالذكر هنا أن أشجار الرمان كانت خالية من الثمار ، والسبب فى ذلك أن الناس فى هذه المنطقة يقطفون ثمار الرمان قبل نضجها ليصنعوا من قشرها صبغًا بنيًا يميل لونه إلى الاصفرار ، يستعملونه فى صباغة ملابس النساء ، ولا يتركون من تلك الثمارشيئًا ينضج حتى يأكله الناس . وواحة الحَمر Hamar أثرى من واحة حدَّار وأكثر منها اكتنازًا ، وبخاصة أن واحة حدَّار تدهور ازدهارها قياسًا على واحة الحَمر ولكنها ظلت حية فى ذاكرة الجيل الحالى . والآبار فى واحة الحَمر ، تتردد أعماقها بين سبع قامات وثلاث عشرة قامة ، اعتمادًا على مواقعها واعتمادًا أيضًا على الفصل من العام ،هذا فى الوقت الذى تشتمل الثروة الحيوانية فيه على قليل من الماشية وقطعان كبيرة من الماعز ، ومن

الواضح أن تلك الواحة خالية من الأغنام ، والماعز يجرى جزُّها هنا للحصول على شعورها ، التى يستعملونها فى صناعة الخيام والقماش ، وذلك على النقيض تماماً من أهل الشمال الذين يجزُّون الأغنام للأغراض نفسها .

ومن طرف الواحة المنخفض يمتد مدق متجه إلى أعالى أخدود طبيعى ضيق إلى أن يصل إلى قمة سلسلة جبال ضمان Dhaman التى يمتد خلالها على شكل خط عبر الهضبة المحصورة بين تلك السلسلة الجبلية والضفة اليمنى لوادى عشيرة إلى أن يصل قرية (مستوطنة) ستارة Sitaraالتى ستكون المرحلة القادمة من رحلة عودتنا . ولكن ذلك المدق (المسار) أصبح غير مطروق بسبب بعض الانهيارات الصغيرة ، التى حدثت خلال فصول الأمطار الأخيرة ، وتركت بلا إصلاح ، وأنا لم أندم على أننا لففنا ، بسبب ذلك على شكل دائرة حول ذلك المكان ، بدءاً من أعالى وادى عشيرة . وكان طريقنا فى اليوم التالى يسير محاذياً لقنوات الصرف[١٣] التى تلامس سفح صخرة ضمان ، وتسير على امتداد مدق القيعية ، الذى يعد طريق الحجاج الرئيسى القادم من منطقة الأفلاج ، إلى أن يصل إلى النقطة التى يهبط عندها نازلاً إلى صخور الجرف الغربى على امتداد المجرى الصخرى لشعب الجُوَيْفَة Juwaifa . .

ذلك الأخدود الطبيعى كان يستحق بحق تلك التحويلة التى أقبلنا عليها أملاً فى رؤياه ، شق رائع فى الحائط الصخرى الذى تحيط به من الجانبين جلاميد ضخمة ، بعضها كان موضوعاً فى توازن عجيب فوق بروزات متأرجحة أو منحدرات انقاض سائبة ، كما كان يبدو عليها أنها تكاد تهوى إلى أعماق ذلك الأخدود الذى يتردد عمقه بين ٣٠٠قدم و ٤٠٠ . والطريق المنحدر إلى الأسفل يسير محاذياً لمجرى ذلك المجرى المائى ، الذى ينزل هابطاً من بروز إلى بروز إلى وادٍ يتزايد اتساعه وتغطيه الأدغال ، ويقع عند مصبه كل من امتداد جويفة Juwaifa الأرضى ، فضلاً عن امتداد آخر مجهول الاسم وأقل روعة . وقد حكى لى رفاقى ، أن قوة عربية صغيرة استطاعت أن تصمد وتتماسك أيام الغزو التركى لنجد Najd ، ربما كان ذلك بعد الاستيلاء على الدرعية بعقد أو عقدين ، وتصد مفرزة تركية مكبدة إياها خسائر فادحة الأمر الذى أدّى إلى رفع الروح المعنوية بين أهل الأفلاج .

كنت أتخيل حتى ذلك الحين ، أن صرف السهل الواقع خلف صخور الطويق كان يتجه صوب الجنوب في اتجاه وادى الدواسر ، ولكنى اكتشفت حاليًا ومن خلال الاستفسار والتساؤل أن مياه ذلك الصرف تنحدر نحو الشمال ، هذا يعنى أن المياه التى تجرى فى ذلك الاتجاه فوق حافة الهضبة عن طريق قناة واسعة وضحلة لتظهر فى النهاية عند وادى سرّة Sirra فى المنطقة التى يتغير فيها اسم ذلك الوادى إلى اسم آخر هو وادى برك Birk ، ثم يتجه شرقًا بعد ذلك عبر الحاجز . والحد الفاصل بين الصرف الشمالى والصرف الجنوبى يقع – فيما يبدو – فى مكان ما من المنطقة المجاورة لامتداد خش عجبان Khashm 'Ajban الأرضى ؛ إذ يبدو – على حد علمى – أن حافة النفود تبعد حوالى عشرة أميال عن السهل الذى يتوسط المسافة فيما بين الصرفين الشمالى والجنوبى .

انتهينا من تناول طعام الإفطار ثم استأنفنا مسيرنا فى اتجاه أعالى شعب أبو الصافى Abul Safi إلى أن وصلنا بداية ذلك الشعب فى مضيق عشيرة ، الذى اكتشفت على سطحه الذى تنتشر فيه الأحجار الجيرية والأحجار الرملية عددًا كبيرًا من الحفريات . وهذا المضيق يقطع خط صخور ضامان ، التى تبرز شامخة على ارتفاع يصل إلى حوالى ٣٠٠ قدم فوق رءوسنا على الجانبين ، ويخترق تلك الصخور وصولاً إلى وادى عشيرة ، متجهًا ، بعد ذلك ، شرقًا فيما بين ضفتيه إلى مسافة نصف ميل ، ويتردد ارتفاعه ما بين ١٠٠ قدم و ٣٠٠ فوق مستوى الارتفاع العام لذلك الغدير . وعلى بعد مسير يوم تقريبًا أو بعض يوم شمالى ذلك المكان ، وفى وادٍ جانبى أو فرعى ، يتصل بمجرى وادى عشيرة فى واحة الغيل ، تقع مستوطنة (قرية) حرضة Haradha، تلك الهجرة (القرية) الصغيرة المقامة وسط النخيل – كما أبلغونى – ويسكنها أناس من فخذ قبابنة السهول Qubabina Suhul [١٤] ، لا يزيد عددهم على خمسين نسمة .

وهنا بدأنا نتتبع مجرى حوض السيل الرملى المتعرج الذى يغطيه الحصى والزلط فى منتصف الوادى ، وتوقفنا وقفة الظهيرة على بعد ثلاثة أميال فى منطقة كثيفة من الحشائش وأشجار السنط ، وفوق منحنى أخفى عن أنظارنا بدايات ، أو إن شئت فقل طلائع ، قرية مهجورة منذ زمن بعيد ، وقصور مهدمة تحيط بها حقول مهجورة ، كان شاغلوها أو محتلوها يزرعونها فى يوم من الأيام ، وكانت هناك أيضًا آبار مهدّمة ، التى كان البعض منها لا يزال يحتوى على شىء من الماء ، وتشكل فى الوقت الراهن

مركز مخيم بدوى لرعاة القحطان الذين كانوا يقاسون بؤس صوم يوم كامل يستمر حتى غروب الشمس . كان ذلك هو حال الجداوية Jidawiyya . ولم نعرف أن الجداوية كانت مأهولة بالسكان إلا بعد أن صادفتنا الخيام البدوية السوداء ، كان منها خمس عشرة خيمة مختفية فى غابة من أشجار السنط الشوكية فى ركن مستور من أركان الوادى ، ولكن سرعان ما اتضح لنا أن وجودنا بينهم لم يكن أمرًا خافيًا عليهم . إذ كان جابر المرى قد سبقنا وأشاع خبر مجىء الكافر ، فضلاً عن أن وصولنا إلى مخيم الظهيرة كان معروفًا لدى المراقبين الموجودين على جوانب التلال .

ولما كنا قد أرسلنا أمامنا الدواب الحاملة لأمتعتنا فى فترة العصر ، وكانت تلك الدواب قد مرت على مخيم أولئك البدو ، فى الوقت الذى كنت مع إبراهيم وفالح ضمن القوة الرئيسية ، فقد لاحظنا حركة ونشاطًا غير عادى بين الخيام ، إذا كان هناك رجال يجيئون ويروحون بلا سبب واضح . وابتعدنا تمامًا عن الخيام بأن التزمنا ضفة الوادى الأخرى ، ومع ذلك باءت بالفشل احتياطاتنا كلها بفعل أصدقائنا . ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا صوت مترك Mitrak ينبعث من المؤخرة وهو يسب ويلعن ، فى حين كان البدو يردون على ذلك السب واللعن بألعن منه ، وعندما استدرت وأنا على ظهر الجمل ، كى أستطلع ما يدور ، شاهدت عبداً اسمه عبد الرازق يركب دابة تعدو فى اتجاه خيام البدو ، وكان يرفع بندقيته ويشهر سيفه فى أثناء الركوب . ولم أكتشف ذلك الذى كان يرمى إليه عبد الرازق من تلك المغامرة التى أقدم عليها ، وإن هى إلا لحظة بعد نزول عبد الرازق من على سرج جمله بقدر كبير من الشجاعة وليس التوقير ، حتى أطبق عليه البدو الغاضبون ، وراحوا يمرغونه فى التراب ، وضاع العقل والمنطق من بيننا . واتفق الجميع وراحوا يعدون بدوابهم طلبًا للانقاذ والخلاص ، وتركنى وأنا أشتط غيظًا وسط الحملة مع جارية girl-Slave كانت بمثابة الرفيق الأوحد لى ، كانت تلك الأمة ابنة أخى واحد من الأتباع الذين عثرنا عليهم فى الحَمر Hamar فى اليوم السابق ، والتى كانت بصحبة عمها عائدة إلى الرياض ، بعد أن مات عنها والدها مؤخرًا . وتوجهت إليها طالبًا المشورة ، ولكنها ردت على طلبى مشيرة فى اتجاه الخيام حيث كان يجرى تمثيل مشهد من المشاهد المدهشة ، مشهد محفوف بالاحتمالات المأساوية ، وقفت أمام منع وقوعه بلا حول أو طول .

انطلق سكان الخيام - رجالاً ونساءً وأطفالاً - انطلاق الزنابير الغاضبة من عشها بعد أن يعتدى عليها أحد المارة ، فى اتجاه رفاقى ، وجرت معركة استخدمت فيها السيوف ، واختلط فيها عويل النساء وصراخهن بصياح الرجال ، فى الوقت الذى رحن خلاله تتحركن داخلات وخارجات بين قعقعة السيوف والبنادق المُعَمَّرة . وخطر ببالى أن ذلك الاحتكام إلى البنادق لابد من أن يحول ذلك المشهد الهزلى إلى مأساة ، ولكن الموقف لم يكن فى صالح رفاقى ، على الرغم من تسلحهم الأفضل ، والسبب فى ذلك أنهم كانوا هم الأقل عدداً .

وعلى كل حال ، فإن تلك العواصف ، على حد علمى وخبرتى تكون قصيرة الأمد ، وعنيفة أيضًا إذا ما استمرت . وسرعان ما انتهى ذلك الجدل انتهاءً مفاجئًا بالتزيد فى ألفاظ السباب لدى الجانبين ثم افترق طرفا المعركة ، وكل منهما راض بنصره المعنوى . وهنا اقتاد إبراهيم رفاقه عائداً إلى الإبل ، وهنا فقط تهيأت لى فرصة السؤال عن الأسباب التى دعت إلى ذلك الهياج الذى لا معنى له ، كما رحت أناقش أيضًا مع قادتنا تلك الحماقة التى دفعتنا إلى أن نكون على شفا مأساة . وهنا قال مترك بينما كان يبرر تصرفه : "والله ، لقد عرف هؤلاء الناس بمقدمنا من جابر المرِّى ، وشاهدونا أيضاً ونحن ننصب خيامنا عند الظهيرة فى الشعب . يضاف إلى ذلك ، أنهم لعنوا الحملة عندما مرت بهم لأن كافراً كان بين أفراد الجماعة . ولعل ذلك هو السبب الذى جعلنى أصرخ فيهم محذراً إياهم موضحاً لهم كيف أنهم سبوا أتباع ابن سعود ولعنوهم ، وكيف رد عليهم أولئك الأتباع قائلين : 'لعنة الله عليكم جميعًا أيها الكفار ، أنتم أنفسكم ، ومعكم ابن سعود' . ثم تلا ذلك أن ركب عبد الرازق جمله وهجم عليهم ، وبعدها شاهدتم أنتم ذلك الذى حدث بعد ذلك ". واحتججت عليهم أنهم لم يكن من حقهم أن يلقوا بالاً للأعمال الصبيانية التى من هذا القبيل ، ولم يكن من حقهم أن يعولوا كثيراً على كل منغص من المنغصات التى واجهوها . وهنا رد الرفاق قائلين : "والله ، مثل هؤلاء الناس يتشجعون إذا ما تركتهم يتمادون فى حماقتهم ، ولو لم نبادئ هؤلاء الناس بالهجوم عليهم لكانوا قد انتظروا إلى أن تجاوزناهم ثم فتحوا النار علينا من الخلف . ولكنهم الآن خائفون من أننا سوف نشكوهم إلى ابن عفيصان Affaisan ونطلب إليه معاقبتهم " .

والذى لا شك فيه أن هؤلاء القوم كانوا يشعرون بشىء من الخجل إزاء ما اقترفوه ، ولكنى أعربت عن عدم موافقتى على ما يقولون ، الأمر الذى ترتب عليه قفل الموضوع وعدم الحديث فيه ، على الرغم من أنهم كانوا يعاودون – على الطريقة العربية الخالصة – الحديث عن ذلك الموضوع عن طريق الهمهمات التى تنم عن الغضب بين الحين والآخر ، إلى نهاية اليوم . وفيما يخصنى فأنا مازلت ألتزم الحياد فيما يتعلق بصواب أو خطأ تصرفهم فى مثل هذه الظروف، على الرغم من أنى أرى أن احتمال متابعة البدو أو مطاردتهم لجماعة مسلحة تسليحًا جيدًا مثل جماعتنا أمر غير ممكن لو أننا لم نلق بالاً لسبابهم العشوائى .

بدأ اتساع الوادى – فى هذه المنطقة – يضيق إلى أن أصبح حوالى ربع ميل تقريبًا ، فضلاً عن أن ضفتيه بدأتا فى الانخفاض وتصبحان أقل انحدارًا ، إضافة إلى أن الهضبة على الجانبين بدأت تتخللها الغدران الضحلة القادمة من الوديان الفرعية [١٥] وعلى جانب الطريق الذى كنا نسير فيه كنا نشاهد هنا قصرًا مهدمًا وهناك بئرًا مهدمة أيضًا ، كما كان ذلك الطريق يمر عبر بعض الحقول المهجورة الواقعة حول بئر الحفيرة Hafira فى مزرعة المليجى Mulaiji، التى هى عبارة عن خط رفيع من النخيل ، الذى يبلغ عدده حوالى ٢٠٠ نخلة ، ويمتد ذلك الخط مسافة ميل فى الوادى ، وتنتشر فيه أدغال الطرفاء والتين الشوكى[١٦] وبخاصة فى المنطقة التى يلتقى عندها مضيق حنوة Hanwa مع الشعب الرئيسى .

بعد أن تجاوزنا تلك النقطة بحوالى ميل واحد دخلنا واحة ستارة Sitara لقضاء الليل فى مخيمنا ، بجوار أسوار تلك القرية الصغيرة التى تشبه القلعة التى تأوى القسم الأكبر من سكانها . لقد قطعنا مسيرة طويلة على غير المعتاد ، إذ وصل طولها إلى ما يقرب من ثلاثين ميلاً ، قطعناها بشكل معقول بسبب اعتدال درجة الحرارة من ناحية ، ونسيم شمالى من الناحية الأخرى ، وسعدنا تمامًا لأننا لم نر على وجوه جماعتنا ما يدل على استعدادها لتكرار العداوة التى كانت عليها خلال فترة المساء .

مجرى السيل فى تلك المنطقة واسع ورملى ، ويمر خلال الواحة على شكل شبه دائرة ، وتنبت على جانبيه بيارات النخيل شديدة الكثافة وبخاصة فى أعالى القرية وفى

أسفلها أيضًا ، والقرية تقع على أرض مرتفعة فوق ضفة الوادى ، وتواجه الجزء الكثيف من بيارات النخيل الذى يشغل خليجًا عميقًا فى منتصف الجزء المقعر من المنحنى . وعند هذه النقطة ينحدر الطريق المباشر القادم من الهضبة نازلاً إلى الوادى . وإذا ما نظر الرائى من أعالى مجرى السيل إلى منحنى الواحة الجميل ومعه قرية ستارة Sitara نفسها ، تلك القلعة الصغيرة بيضاوية الشكل التى يصل طولها إلى حوالى ١٠٠ ياردة وعرضها حوالى ٦٠ ياردة ، وبها ثمانية أبراج علاوة على ثلاثة بوابات متواضعة ، يجد فى ذلك منظرًا ريفيا يسر الخاطر من النوع الذى يتوقع الإنسان وجوده فى مثل هذه المناطق . وهناك قصر منعزل فى واحدة من بيارات النخيل ، هو بمثابة المنزل الوحيد الذى يقع خارج قرية ستارة ، ولا يمكن أن يزيد إجمالى عدد السكان فى هذه المنطقة عن خمسين نسمة ، على الرغم من أن مجرى السيل ، يوم أن زرنا تلك القرية ، كانت تنتشر فيه مخيمات البدو فى الواحة لقضاء فترة الصوم . والواضح أن السكان المستقرين فى قرية ستارة كانوا يتكونون أصلاً من عائلة الأمير المحلى ومعه خدمه وأتباعه، والأمير المحلى للقرية هو عبد الله بن ذيب ، ذلك الرجل ذائع الشهرة والصيت بين القبابنة Qubabina، الذين يعتمد حوالى ٢٠٠ فرد منهم على إنتاج الواحة .

هذه القرية تمتد إلى مسافة ما يقرب من الميل ونصف الميل على امتداد مجرى السيل ، وحافة القرية المقعرة تقع خلفها صخرة عالية يصل ارتفاعها إلى حوالى خمسين ياردة ، فى حين إن الضفة المقابلة من الوادى تتكون من سلسلة من الروابى المنخفضة التى تكوّن منخفضًا متدرجًا . والقرية ليس بها غطاء نباتىٌ أرضىٌ كثيفٌ حتى يمكن لها أن تزهو به ، ولكنى لاحظت بعض أشجار الرمان والتين البرى وكذلك أشجار الكروم المسنودة بسنادات بالقرب من فتحات الأبيار .

وسرعان ما بدأنا الاقتراب من نهاية وادى عشيرة ، وبعد أن قطعنا مسافة حوالى اثنى عشر ميلاً وصلنا بعدها إلى قرية الغيل Ghail فى اليوم التالى ، وتلك القرية الزاهرة تقع فى الأجزاء السفلى المنبسطة من تلك المنطقة ، أو بالتحديد عند نقطة التقاء تلك القرية بسهل الأفلاج ، والوادى من خلف قرية ستارة ، يصل اتساعه فى بعض أجزائه إلى ما يزيد على الميل ، ولكن الاهتمام بمجرى الوادى فى تلك المنطقة لم يحظ باهتمام كبير . وكل ما تبقى هنا من أنقاض قرية (مستوطنة) جنينة Junaina

هو عبارة عن ثلاث أو أربع نخلات من النخيل القزم القصير ، إضافة إلى كثير من الأبيار المهدمة . وخلف قرية جنينة مررنا بمصب شعب من الشعاب الفرعية اسمه شعب سمران Samran، الذى قيل : إن منبعه يقع بالقرب من خشم حسان Khashm Husan. ومن خلف تلك النقطة تبرز أرض الضفة اليسرى المرتفعة على شكل لسان نحيف من الصخر الذى تعرى بفعل الطقس . وهذا اللسان يقسم الوادى إلى سهلين واسعين دائريين عليهما طبقة كثيفة من اللهم (الغرين) الذى تجمع على امتداد عصور طويلة ، كما يتصل ذلك اللسان أيضًا بممر ضيق ، يمر خلاله مجرى السيل نفسه. والصخور التى تشكل ملجأً من حرارة الشمس أسفل امتدادتها المعلقة ، يعرفها الناس هنا باسم أبو ديدى Abu Didi، ويقال إنها كانت مركزًا من مراكز العبادة والتقديس عند سكان هذه البلاد أيام "الجاهلية" . وهذه هى المرة الوحيدة التى صادفت فيها أثرًا من آثار عصر عبادة الأصنام ، ولم أعوِّل كثيرًا على لفت انتباه زوار تلك الصخرة إلى شىء سوى أن تجاويفها الداخلية تعد ملاجئ جيدة من أشعة الشمس .

صادفنا عند أسفل تلك الصخرة أطراف واحة الغيل Ghail، وقصورًا مهدمة من حولها حقول القمح التى تنتشر إلى مسافة ثلاثة أميال من تلك النقطة إلى بداية بيارات النخيل الأساسية . وحالة الخراب التى عليها تلك المبانى ، هى وخلو الحقول من القش والجُذامة ، يعدان دليلاً كافيًا على التحلل الذى اعترى تلك المنطقة التى اشتهرت ، فى وقت من الأوقات ، بمساحتها الكبيرة وازدهارها ، كما خطر ببالى أيضًا أن سنين كثيرة لابد من أن تكون قد مرت على توقف أى جزء من أجزاء تلك الرقعة من الأرض عن إنتاج أى محصول من المحاصيل ، على الرغم من أن فالحًا Falih يقول : إن أناسًا من أهل الغيل النشيطين يحاولون زراعة تلك الأجزاء عندما يزداد معدل سقوط المطر والفيضانات والسيول . وقناة العاصفة تمر خلال قرية الغيل على شكل مجرى سيل اتساعه حوالى عشرين ياردة ، وتنخفض حوالى عشرة أقدام عن مستوى الأرض على الجانبين ، ويمكن القول إنه فى الوقت الذى تفيض فيه الفيضانات غير العادية على الحقول ، فإن السبب الرئيسى فى تدهور أرض تلك القرية هو ارتفاع مستوى سطح الوادى ارتفاعًا مضطردًا بفعل ترسب اللهم (الغرين) بفعل الفيضانات المتتالية .

هذا المشهد القاحل كانت تتخلله بعض خيام بدو المطارة السوداء ، إلى أن تجاوزنا منحنى من منحنيات الوادى ، وأصبحنا على مرأى من واحة الغيل Ghail، تلك الغابة الكثيفة من النخيل الذى يملأ الفراغ الواقع بين صخور الحجر الجيرى شديدة الانحدار الموجودة على جانبى ذلك المضيق . وهنا اختفى مجرى السيل وسط النخيل ، فى الوقت الذى واصل الطريق سيره على امتداد صخرة من الصخور البارزة عند سفح الصخرة مكونًا بذلك الضفة اليسرى من ضفتى ذلك المنخفض . وكانت أول قطعة من الأرض المزروعة عبارة عن بيارة من بيارات النخيل الصغيرة المحملة بالثمار غير الناضجة ، ويقع فى منتصفها قصر من القصور المهدمة ، ومن خلف ذلك القصر شاهدنا الطرف الآخر لذلك الفراغ ، الذى كان يحتوى على قلعة كبيرة مهدّمة فيها برج عالٍ من أبراج المراقبة ، يمثل المناطق العليا من دفاعات واستحكامات قرية الغيل . ومن خلف تلك الدفاعات شاهدنا بيارات النخيل ، التى تبعد مسافة ٣٠٠ ياردة من الجانب إلى الجانب الآخر ، وتوجد على الجانبين صخور عالية يصل ارتفاعها إلى حوالى ١٠٠ قدم . واستطعنا عن طريق جسر بدائى ، الوصول إلى أخدود شعب فرعى ضيق من شعاب الوادى ، إلى أن أوصلنا الطريق الذى يخترق واحة الغيل ، ويسير على امتداد مجرى السيل الرئيسى، إلى قرية البديعة Badi'a،التى نصبنا خيامنا بالقرب منها، على مساحة صغيرة أسفل صخور الضفة اليمنى المنحدرة .

من قمة تلك الصخرة رأيت منظراً رائعًا للواحة والمناطق المحيطة بها . فأنا أرى فى الأسفل ومن تحتنا مباشرة ، كتلة كثيفة من بيارات النخيل التى تمتد على شكل خط متصل على امتداد الوادى إلى مسافة تقدر بحوالى ميلين ، ويصل متوسط عرضها إلى حوالى ٣٠٠ ياردة من برج المراقبة التى سبق الإشارة إليه فى الجانب العلوى من المجرى إلى برج آخر عند الطرف المنخفض الذى ينحنى المضيق عنده نحو الجنوب . وعلى مستوى أعلى من هذا المستوى نجد أن الهضبة الجرداء تمتد من جميع الجوانب مع انحناء حاد نحو الشرق فى اتجاه سهل الأفلاج ، الذى يندمج معه بشكل غير ملحوظ على مسافة قريبة لا تبعد كثيراً عن تلك النقطة . والسهل نفسه تحده عن بعد سلسلة من الجبال الخارجية هى سلسلة جبال البياض Biyadh القاحلة ، التى يراها من ينظر إليها رأى العين ، غير أن مجال الرؤية فى ذلك الوقت كان محدوداً بفعل

الغبار الذى كان يغلف المشهد ويجعل من الصعب التحقق من كل تفاصيله . ومع ذلك فإن الجزء الوعر من شعبى عرس Ars' وميرة Mira، كان واضحًا تمامًا من ناحية الشرق بسلاسل جباله السوداء والبيضاء ، ولكن واحات الأفلاج كان من الصعب تمييزها أو تمييزها فقط على شكل بقع زراعية معتمة يصعب تحديدها أو التعرف على تفاصيلها .

واحة الغيل التى سميت بذلك الاسم نظرًا لوجود غيل دائم فى وسطها ينبثق من مجرى قناة العاصفة وينساب بصورة مستمرة ، على الرغم من أن ذلك ليس بكميات كبيرة ، ليغمر المزارع إلى أن ينضب بسبب الطلب الكبير على مياهه من الزراع. وواحة الغيل تضم ثلاث قرى (مستوطنات) : قرية عمير Amair' التى تقع وسط النخيل فى أعالى المجرى المائى ويصل عدد سكانها إلى حوالى ١٥٠ نسمة . والبديعة ، مجموعة من ثلاث قرى تقع على الضفة اليسرى للمجرى المائى ، وفى القسم الصحراوى من الواحة ويصل عدد سكانها إلى حوالى ٣٠٠ نسمة ، بما فيهم الأمير المحلى ، الذى يعيش فى القرية الوسطى التى تعد أكبر تلك القرى الثلاث . ثم هناك أيضًا قرية المشرف Mishrif التى تنقسم إلى قسمين صغيرين وتقع على مسافة حوالى ربع ميل تقريبًا من قرية البديعة ، ولكنها تقترب أكثر من ضفة الوادى اليمنى ، ويصل عدد سكانها إلى حوالى ١٠٠ نسمة . وفيما عدا تلك القرى ، هناك أيضًا حوالى عشرة قصور منعزلة يشغل أحدها موقعًا حاكمًا فى منتصف الطريق إلى صخور ضفة الوادى اليمنى ، كما يشرف أيضًا على قرية البديعة . ويقدر إجمالى عدد سكان القرية بحوالى ٧٠٠ نسمة ، القسم الأكبر منهم من مستأجرى بنى خضير Bani Khadhir الذين يمتلكون تلك البيارات ويزرعونها فى الواحة بمقتضى عقود واتفاقات يبرمونها مع الملاك الحقيقيين الذين هم من القبابنة Qubabina، الذين يفضلون حياة الترحال والبداوة ، ولا يعودون إلى الغيل إلا فى شهر رمضان وفى موسم حصاد التمر أيضًا . والرئيس العام المعترف به من كل تلك الأفرع هو نصير Nasir بن شقيط Shukait، الذى أوكل تحت قيادته المصالح القبلية داخل الواحة إلى حمد Hamad بن ثلاّب Thallab، الذى تسبب مؤخرًا فى استياء ابن سعود ، والذى أعيد إلى ممارسة مسئوليات وظيفته ومهامها بعد فترة من السجن أمضاها فى سجون قرية ليلى Laila . ولم يكن نصير أو حمد موجودين فى الواحة عندما زرناها ، ولكن حمدًا كان حضوره متوقعًا نظرًا لأنه أعرب

عن رغبته فى قضاء شهر رمضان فى موطنه . وعلى كل حال ، لقد سمع أحمد بخبر وصولنا ، ونظراً لاستعادته لذكريات العقاب الذى أنزل به فى المرة السابقة عندما تمرد على أوامر وسلطة سيده ، فقد بادر إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتحذير كل رعاياه وتذكيرهم بأعمال الضيافة التى يتعين عليهم القيام بها نحونا . وأنا لا أستطيع القطع إن كان ما حدث نتيجة لتحذيراته ، أو لطبيعة سكان الغيل المضيافة ، ولكنى أسجل بالشكر والامتنان الحقيقة التى مفادها أننا لقينا عند وصولنا استقبالاً أكثر من ودى ، وكانت نساء البديعة يتجمعن لتحيتنا فى أثناء مرورنا فى القرية ، وهن يشكرن أفضال ابن سعود ، فى حين كان الأطفال يمرحون فى الشوارع ، وعندما وصلنا المخيم ، جرى وعلى وجه السرعة إحضار كل ما نحتاجه من مؤن وعلف لدوابنا . وتمور الغيل ، وبخاصة السيرى Siri منها ، ممتازة ، كما أحضروا لى شخصيا سلة من العنب ، كان ذلك أول أنواع العنب التى ذقتها فى الجزيرة العربية ، ولكن تلك لم تكن آخر مرة أتذوق فيها ذلك العنب ، أو أحسن الأنواع التى ذقتها ، نظراً لأن ذلك العنب كان من بشائر الموسم ، إذ كان عبارة عن حبات حصرم لا نفع منها سوى أنها كانت مجرد فاكهة طازجة . وأبيار واحة الغيل يصل عمق الواحد منها إلى حوالى ست قامات ، أما أبيار واحة ستارة فلم يزد عمق الواحد منها على أربع قامات ، ومع ذلك فإن القرية تستمد اسمها وكذلك ازدهارها الكبير من المياه التى تنساب من تلك الأبيار .

وفى صبيحة اليوم التالى استأنفنا مسيرنا ، وعبر الغدير مرة ثانية صعدنا مطلعًا منحدرًا صعبًا إلى أن وصلنا إلى أعلى الصخرة ، وتجاوزنا القصر الذى سبق أن أشرت إلى وجوده على قمة الهضبة ، التى شاهدت منها منظرًا غائمًا لسهل الأفلاج هو وواحاته خرفة وليلى وبقية الواحات ، على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الجنوب الشرقى . وفى تلك المنطقة بدأ مسارنا يتجه من جديد ، صوب الشمال عبر الأرض القاحلة التى تشكل الطرف الشرقى لهضبة الطويق وتندمج بشكل غير ملحوظ مع ارتفاعات الهضبة العالية من ناحية ، ومع الأراضى الوعرة المنخفضة فى منطقة رجد Rajd من الناحية الأخرى . وألقينا هنا وهناك نظرة خاطفة على العلامات الأرضية المميزة لرحلتنا القادمة ، ولكن المنظر من حولنا كان خاليًا من المعالم المميزة نظرًا لأنه

لم يكن محدوداً ، فضلاً عن أن ذلك اليوم كان واحداً من أسوأ الأيام التى واجهتنى خلال تجوالى فى الجزيرة العربية .

كانت تتخلل سطح الأرض الممل المنحدر على بعد مسافات بعض الوديان التى كانت تعترض طريقنا ، وكان الواديان الأولان من تلك الوديان ، وهما على وجه التحديد شعب المليزى Mulaizi وشعب حرضة Haradha، وهما روافد لوادى عشيرة ، واللذان يقترنان به قبل أن يصل إلى السهل ، كما أن شعب عشيرة هو نفسه قناة التصريف المماثلة لتلك القناة التى تجرى خلال قرية (مستوطنة) وسيلة Wusaila . وخلف هذين الشعبين عبرنا واديين صغيرين[١٧] ، هما رافدان من روافد مضيق أم الجرف Umm al Jurf العميق ، الذى يعد أساساً لقناتى عرس Ars' وميرة Mira فى سهل رجد Rajd ؛ وقد وصلنا مضيق أم الجرف بعد مسير ثلاث ساعات . كان نزولنا إلى ذلك المنخفض الواسع الذى يغطى الغرين (اللَّهَم) أرضه صعبًا وإن لم يكن شديد الانحدار ، ولكن الضفة المقابلة كانت حائطًا منحدراً من الصخر يتخلله ممر ضيق وصعب من الأمام ، وكنا نتجه صوب ذلك الممر ، ولكننا سمعنا صوت طلق نارى ، كان فى اتجاهنا ، جاء يدوى بين جانبى المنطقة التى كانت الصخور تكونها من حولنا . ومرت لحظة دون أى تفسير لذلك الذى حدث ، ولم نلاحظ أثراً لأى من البشر غيرنا فى تلك المنطقة ؛ وكان علينا أن نتوخى الحذر مخافة تعريض أنفسنا للوقوع فى كمين نصب لنا ، ولكننا بعد أن عقدنا مجلساً للنظر فى الأمر تقدم تامى قادماً من المؤخرة ومعه خبر مفاده ، أنه بعد أن شاهد رجلاً وحيداً عن بعد ، ناداه وطلب منه الاقتراب ؛ الأمر الذى دفع ذلك الغريب لفتح نيران بندقيته على سبيل التحذير وفر هارباً بعد ذلك .

تلك هى إنذارات وتحذيرات السفر عبر الصحراء. وعبرنا وادياً[١٨]، ونحن نسير فوق أرض جرداء قاحلة ، كما بدأت إبلنا تكشف عن علامات إرهاقها على الرغم من قصر المسافة التى قطعناها والقسط الكبير من الراحة الذى أخذناه فى اليوم السابق . وبدأت سلسلة الجبال الطويلة السوداء والمنخفضة والتى تمتد بطول شعب غينة Ghina، تتبدى لنا على الجانب الأيمن ، كما بدأت تظهر لنا ربوة مخروطية الشكل بالقرب من صخرة عرس Ars'، ولكن لم يكن هناك ما يشد انتباهنا ، وسعدنا عندما نادينا بالتوقف لقضاء الليل فى منخفض مجهول الاسم من منخفضات الهضبة ، وقد جاء قرارنا

باتخاذ تلك الوقفة بناء على المعلومات التى مفادها أن أبيار الورحية Warhiyya، التى كنا نود الوصول إليها ، كانت تحتلها جماعات عدة من البدو الدواسر والقحطان ، والقبابنة ، وآخرين ، وبناء أيضًا على فكرة مفادها أنه ليس من الحكمة فى شىء الإقدام على مخاطر لا لزوم لها ، وذلك عن طريق تمضية الليل وسط أولئك البدو .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى دخلنا منخفض شعب درعى Dara'i الواسع وتبعناه إلى مسافة معلومة ، وكان قد سبق لنا عبور الأجزاء السفلى المنبسطة من ذلك المنخفض(١٩) خلال رحلة السفر ، وها نحن الآن نصعد خارجين منه مرة ثانية إلى الهضبة لنتمتع بمنظر واسع خالٍ من الإيحاء مثل المنظر الذى شاهدناه طوال اليوم السابق . وها هى منطقة إنسالة Insala تبدو أمامنا على مقربة منا عن يميننا ، وها هو أيضًا سطح الهضبة المنبسط وقد بدأ يتحول إلى منخفضات متموجة على جانبى شعب رملى آخر واسع ، يعرفه الناس هنا باسم غلغل Ghulghul الذى يكون رافدًا من روافد شعب الدرعى Dara'i . وقد وصلنا إلى ذلك المنخفض عن طريق منحدر هيِّن ، لنجد فيه قطعانًا ومجموعات كبيرة من البدو الذين تجمعوا حول بئرى الورحية Warhiyya . واتضح أن أولئك البدو كانوا من القحطان من فخذ شيرين Shirin، وأنهم شغلوا الموقع طوال الليل ، وانتهوا بالفعل من سقيا أغنامهم ، وبالتالى أفسحوا الطريق لنا ، ولكن ما إن دخلنا إلى الموقع حتى شاهدنا جماعة كبيرة من القبابنة وهى تبتعد عن مكان السقيا فى منطقة البعيجة Ba'aija متجهة صوب الشمال إلى الغيل Ghail، شاهدنا تلك الجماعة عند خط الأفق على سلسلة الجبال ، التى تشكل الضفة اليسرى من الوادى ، وقد بدأت تتحرك نحونا . والمعروف أن منظر القبيلة البدوية فى أثناء تحركها من المناظر الرائعة التى تسر الخاطر ، وبالتالى لم يكن أولئك القبابنة استثناء من تلك القاعدة ، إذ كانت الجماعة تضم حوالى ثلاثين رجلاً يتقدمون ذلك الموكب وهم ركوب على سُرُج مزينة ومزركشة فوق ثلاثين ناقة ، كما كانت هناك أيضًا حوالى ١٠٠ امرأة أو ما يزيد على ذلك ومعهن أطفالهن وتركبن عرباتهن الغريبة أو تركبن فوق الأحمال التى تحملها دواب الجمل ومعهن أيضًا حوالى ستة كلاب من كلاب الصيد والحراسة . كانت النسوة كلهن ترتدين ثيابًا حمراء اللون ، وتضع كل واحدة منهن خمارًا أسود على رأسها ، ولكنهن فيما عدا ذلك كن يتمتعن بحرية الحركة بين الرجال ، فضلاً عن

أنهن كن يتحملن نصيب الأسد من الأعمال التى تترتب على وصول الجماعة إلى الأبيار – نصب الخيام وفرز الأمتعة والأعمال التى من هذا القبيل – فى حين يجلس الرجال على شكل حلقات مريحة ويصلحون القهوة ، ويتسامرون إلى أن يحين موعد السقيا . ورئيس تلك الجماعة ، شخص يدعى حمد Hamad من أقرب أقارب ابن الثلاب Ibn Thallab، أمير الغيل ، تقدم نحو خيامنا ليعرض علينا خدماته ، وقد استطاع أن يقنعنى بصلاحيته إقناعاً غير عادى . وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث أصرَّ حمد على أن يرافقنى إلى البئر ، حيث وجدت الكثيرين من رجاله يعاونون رفاقى فى سقيا الإبل . وسألنى واحدٌ منهم إن كنت أود "كتابة نقد مجامل" للبئر ، إذ يشيع بين العرب هنا ، أن الأجانب الذين يزورون بلادهم يفعلون ذلك العمل لا لشىء سوى تسجيل عجائب هذه البلاد ، وأنهم لا يخطئون خطأً كبيراً عندما يفعلون ذلك .

ومن بين البئرين ، اللذين يكونان مجموعة أبيار الورحية ، بئر تكاد تكون مملوءة بالرمل الذى وصل ارتفاعه إلى ما يقارب مستوى الهيكل المبنى الذى يحيط بفتحة البئر ، فى حين يصل عمق البئر الأخرى إلى حوالى خمس قامات ، وهو ليس مبطناً ، ولكنه محاط بدائرة من كتل الحجر الغشيم عند فتحته من أعلى . والطلب المتزايد على ماء تلك البئر يجعل مستوى الماء فيها منخفضاً بصورة دائمة ، ولكن الماء متوفر فى التربة الرملية الموجودة فى قاعدة البئر ، ويتزايد الماء فى تلك البئر بعد أن يتركها الناس لحال سبيلها ، ومجرد حفر الرمل داخل البئر كفيل بزيادة مائها بصورة مؤقتة . ونوعية ماء تلك البئر ممتازة سواء فى هذا المكان أو فى المساقى غير الدائمة التى تقع على بعد حوالى ثلاثة أميال فى اتجاه أسفل الوادى بالقرب من اقترانه بشعب الدرعى Dara'i والذى يطلق الناس عليه هنا اسم قلحة Qalha .

وعندما تألب عريف 'Araif – الذى كان يطالب بالعرش[٢٠] – على ابن سعود وهرب أمام زحف ابن سعود عليه ، وكان بصحبة العريف بعض الأتباع من أعيان قرية الحوطة وقرية الحريق ، اقتفى ابن سعود أثر قوة العريف وتتبعها إلى ما بعد تلك المنطقة إلى أن وصل إلى أبيار مشاش العرس Mashash al 'Ars ، التى توقف عندها العريف هو وأتباعه وهم فى طريقهم إلى قرية ليلى Laila . وقد سبق لى أن سجلت بالفعل[٢١] الأسلوب الذى تحلى به أهل تلك القرية عن أولئك الهاربين وسلموهم إلى ابن

سعود وشاهدوا إعدام تسعة عشر رجلاً من زعماء هذه الفتنة وتلك المؤامرة ، من بينهم سبعة من كبار مواطني الحريق Hariq، رجال من فخذ الحزازنة من العنزة Anaza' . وبالقرب من تلك الأبيار لاحظت جبّانة (مقبرة) كبيرة على ضفة الشعب اليمنى ، ولكنى لم أستطع التوصل إن كانت تضم رفات أناس سقطوا فى إحدى المعارك ، أو رفات أناس آخرين وافتهم المنية فى المنطقة المجاورة لتلك الأبيار .

وعندما استأنفنا مسيرنا ، وبعد أن نلنا قسطًا من الراحة واستعدنا نشاطنا ، خرجنا من الشعب إلى المرتفعات المحيطة به ، ومنها خرجنا تماماً من منطقة الأفلاج لندخل إلى منطقة الفراع Al Fara' ، والسبب فى ذلك أن الغلغل Ghulghul هو وارفد آخر يطلقون عليه اسم نعض Na'dh غلغل ، اللذين سرنا على امتدادهما مسافة معينة إلى أن وصلنا إلى الحد الذى يفصل نعض غلغل عن وادى نعض بعيجة Ba'aija، هما قناتا التصريف اللتان تقعان فى أقصى شمال تلك المنطقة ، وهما لا تصرفان حصتهما السنوية من مياه الفيضان فى شعب العجيمى Ajaimi' الكبير ، وإنما تشقان طريقهما إلى شعب دية Daiya، باعتبارهما رافدين من روافد شعب الدراعى ، ومنه تتجهان جنوبياً إلى سهل الأفلاج وصحراء البياض Biyadh التى تقع خلف ذلك السهل .

٤- منطقة الفراع

اسما الحوطة والحريق اسمان بارزان فى حوليات تاريخ نجد ، غير أن اسم المنطقة التى تشكل هذين الاسمين – القريتين الرئيستين فيها – كان قد زاغ أو إن شئت فقل وتهرب من الجغرافيين الأوروبيين ، وزاغ أيضًا عن أعين جامع كتاب دليل الجزيرة العربية الرسمى ، ومع ذلك كان ذلك الجامع حكيمًا عندما التزم الحذر وهو يحاول تلخيص نتف المعلومات القليلة والمتضاربة التى توفرت له حول هذا الموضوع . يقول جامع ذلك الكتاب : "سواء أكانت هاتان المنطقتان منطقة واحدة أم منطقتين ، تحملان هذا الاسم أو أى اسم آخر ، وسواء – أيضًا – كان هذان المكانان يحملان هذين الاسمين ، اللذين هما بكل تأكيد اسمان للقريتين الرئيستين ، فإن كل هذه الأمور تظل مجرد تساؤلات ولا يمكن التحدث عنها بشكل يقينى أو قاطع" . وقد شطَّ بالجريف شططًا

كبيراً عندما حدد موقع تلك المنطقة فى مكان يقع على حافة الصحراء الجنوبية الكبرى ، معتمداً فى ذلك على ما رآه هو رأى العين[٢٢] ، ولكن صاحب كتاب دليل الجزيرة العربية يرفض ذلك الدليل الذى قدمه بالجريف باعتباره شاهد العيان الوحيد ، ويستعمل بدلاً منه الوصف غير الدقيق لتلك البلاد ، الأمر الذى جعله يحدد موقع هذا المكان على الخريطة فى المكان نفسه الذى تشغله تلك المنطقة نسبة إلى كل من الخرج والعارض ، أو إن شئت فقل فى غربى الخرج وجنوبى العارض ، ولكن صاحب هذا الكتاب يخطئ هو الآخر عندما يحدد موقع تلك المنطقة فى جنوبى الأفلاج ، معتمداً فى ذلك على بالجريف ومفضلاً إياه عن لوريمر Lorimer ، الذى قدم رأياً صحيحاً عن الموقعين النسبيين لهاتين القريتين ، معتمداً فى ذلك على كثير من التقصى والتحرى الذى قام به من خلال الزوار العرب الذين كانوا يتوافدون على الخليج الفارسى .

اسم تلك المنطقة هو الفراع ، أو إن شئت فقل الوادى فى أحسن الأحوال ، والسمة الرئيسية المميزة لتلك المنطقة هو مضيق المجمع 'Majma العميق ، الذى يكوِّن أيضاً الحد الشمالى لتلك المنطقة ، وتقع واحتا الحريق والحوطة العظيمتان عند طرفى مجراه الذى يمر خلال مرتفعات الطويق . وشمالى ذلك الخط يقع ذلك القسم من الطويق الذى يعرف باسم العارض ، الذى تنتشر فوق القسم الجنوبى الغربى منه كتل العُليا 'Alaiya العالية ، والتى تعد أكثر أجزاء الهضبة ارتفاعاً ، ومصدراً للسيول التى كونت وأوجدت هاتين الواحتين الكبيرتين . هذه المنطقة التى تمتد عبر عرض مرتفعات الطويق بكامله متجهة من الغرب إلى الشرق ، أى مسافة تقدر بحوالى ثلاثين ميلاً تقريباً ، تمتد أيضاً مسافة خمسين ميلاً أخرى تقريباً من الشمال إلى الجنوب ، حيث تمتد موازية لمرتفعات الأفلاج وعلى امتداد الحد الفاصل بين كل من قناة تصريف البعيجة وقناة تصريف الدرعى Dara'i . وهنا يمكن القول إن تلك المنطقة تغطى مساحة تقدر بحوالى ١٥٠٠ ميل مربع من المناظر الطبيعية شديدة الوعورة ، وشديدة الانكشاف للرياح فى وسط الجزيرة العربية ، الذى تمثل تلك المنطقة من جوانبه الطبيعية والبشرية ، إن قدر لنا أن نقارن الجزء بالكل - خلاصة الخلاصة - بعيدة كل البعد عن المجاملات وليست مجرد مثيرة فى المجمل على الرغم من أنها شديدة الإثارة ، والسبب فى ذلك أننا نجد فى تلك المنطقة العرق القديم لبنى تميم Bani Tamim فى

أفضل أحواله وأدائه ، ذلك العرق شديد التفاخر والتباهى بفلاحيه الأشداء ، القانعين تماماً والراضين تماماً أيضاً عن عزلتهم عن العالم من حولهم ، العالم الذى يحتقرون قيم الشرف والكرم فيه ويرفضونها ، ولا يطلبون أى شىء غير ذلك الذى يمكن أن يبتاعونه بالمنتجات التى هى من عملهم وكدهم . وبنو تميم يصنفون مع قرويى العارض على أنهم من بين محاربى الجزيرة العربية الأشداء ، وبنو تميم من الوهابيين المخلصين من النوع القديم ، ويفخرون بولائهم لرئيس الدولة الوهابية ، ذلك الولاء الذى دلل عليه بنو تميم وأثبتوه إبان الاحتلال الرشيدى ، عندما قاموا بتأديب جابى الضرائب على مسمع ومرأى من الناس فى سوق الحوطة ، عندما ظهر ذلك الجابى بينهم وراح يطالبهم بدفع العشور لخزانة الدولة . وقد حافظت منطقة الفرع Fara' على استقلالها طوال فترة ذلك الاضطراب ، وعندما أعيد عرش الرياض إلى الأسرة الملكية الشرعية عن طريق الفرع العسكرى من أسرة سعود ، لم تتورع الحوطة والحريق عن إظهار تعاطفها مع الفرع الكبير (الرئيسى) وربطوا مصيرهم به طلباً للسلطة والقوة الأمر الذى انتهى إلى إعدامات ليلى ؛ فلم يكن ابن سعود ذلك الرجل الذى يمكن أن يترك الباب مفتوحاً لحدوث تمردات مستقبلية ، عن طريق السماح بالتحدى المباشر لأوامره وسلطته دون عقاب ، كما أن هجوم ابن سعود السريع على الحريق ، وكذلك مطاردته للهاربين وتعقبهم فى الوادى خلال الحوطة ، كل ذلك يعد ، حسب التقديرات المحلية ، من بين الحملات العسكرية العظيمة التى جرت إبان حكم ابن سعود . وقد رفع راية العصيان والتمرد سعود بن عبد العزيز بن سعود ، أكبر المطالبين بالعرش ، فى قرية الحريق وبمعاونة وتأييد من سكانها . وجرى سلب الحريق ونهبها ، وإحراقها جزاءً لها على عصيانها ، كما أن الحوطة نفسها ارتعدت فرائصها أيضاً تخوفاً من إنزال العقاب نفسه بها إن هى عارضت الملك الغاضب . ولم يحدث أى اعتراض ، وأعقب إخماد التمرد معاملة طيبة من ابن سعود لتلك المنطقة التى أساءت إليه ، فقد أعطى ابن سعود أهل تلك المنطقة الحكم الذاتى الكامل طبقاً لمفاهيمهم ، وداخل إطارهم ، مقابل أن يعترفوا له بحقه فى حكم تلك المنطقة ، والمواظبة على دفع الضرائب ، ومد قوات الدولة المسلحة بفرقة من الرجال . وقد التزم الطرفان بذلك الاتفاق التزاماً أميناً بعد التوقيع عليه ، وقرى الفرع فى الوقت الراهن لا يقل تفاخرها بولائها لحاكم

الأراضى الوهابية عن تفاخرها بالامتياز الذى حصلت عليه ، ويعطيهم الحق فى إدارة شئونهم من خلال أمراء ، هم الذين يختارونهم من بينهم هم أنفسهم .

ولم يكن هناك من هو أعرف من ابن سعود بطبيعة مواطنى ، أو إن شئت فقل أهل تلك الرقعة من البلاد ، وبالتالى لم يكن تحذير ابن سعود لى وهو يودعنى ، بأنى مسموح لى بالتجوال فى كل انحاء بلاده على امتداد طولها وعرضها ، على أن أتحاشى منطقة الفرع . وقد كرر ابن سعود ذلك التحذير لإبراهيم فى حضورى ، ولذلك فقد أخذته على محمل أنه رغبة واضحة من رغبات مضيفى ، واعتبرت ذلك التحذير بمثابة القيد الوحيد على حرية تحركاتى ، ولكن إبراهيم ، فى لحظة شديدة – وذلك من باب تعويض التصرفات السيئة الأخرى – كان قد أغرانى بعرض يقوم بمقتضاه بإدخالى إلى الأرض الممنوعة ، وكنت قد استجبت بدورى لذلك الإغراء انطلاقًا من فضولى الزائد إلى شىء من تلك المنطقة ، التى يتكلمون عن سكانها بأنفاس مبهورة . يضاف إلى ذلك ، أننى من باب تطلعى إلى جعل المشرف على تحركاتى يلتزم بالوعد الذى قطعه ، فقد تحملت فى شىء من التواضع المزيد من تلك التصرفات السيئة التى ارتكبها إبراهيم عندما كنا فى وادى الدواسر ، زد على ذلك أننى اكتشفت الآن ، ونحن نعبر حدود منطقة الأفلاج لتدخل حدود تلك الأرض المحرمة ، أننى شخصيًا كنت مستاءً من عملية التأجيل مخافة أن يكون إبراهيم قد نسى الوعد الذى قطعه على نفسه ، الذى آثرت أنا من جانبى ألا أذكره به وفاء بشرط الصمت الذى فرضه علىّ فى الوقت الذى كان يقطع فيه ذلك الوعد على نفسه .

وأنا بطبيعة الحال لم تكن لدى أية فكرة عن الموقع الدقيق لقريتى الفرع ، وخطر ببالى أن الطريق الذى كنا نسير فيه كان ينحو بنا بعيداً ناحية الشرق فى اتجاه وادى العجيمى ، تاركًا مرتفعات الطويق عن يسارنا . وفى ظل تلك الظروف وجدتنى أتشجع فى الليلة نفسها ، وأحاول إثارة الموضوع مع إبراهيم ، ولكن التغير الغريب الذى طرأ على وجه إبراهيم عندما ذكرته بوعده ، أقنعنى أننى كنت على حق فى تخوفى من أن يحنث إبراهيم فى وعده . فقد رد على إبراهيم قائلاً : "ألم يحذرنا ابن سعود قبل أن تبدأ رحلتنا بأن طلب إلينا أن نتحاشى كلا من الحريق والحوطة ؟" وأجبته : "هذا صحيح ، ولكن ألم تعدنى أنت بنفسك أن تصحبنى إلى تلك الأماكن ، قائلاً : إن ابن

سـعـود كـان يعنى ألا نـتوقف وسط هؤلاء الناس ؟ ألم تعـدنى بأننا عندمـا نقـتـرب من الحريق سوف يتعين علينا إرسال الحملة قبلنا فى أثناء الليل ، وأننا سوف ننتظر طلوع الفجـر ، ثم نركب دوابنـا ونمضى سـراعًـا خـلال الحريق ثم نتجه نـحـو مصب الشـعب مـروراً بالحوطة ؟ ألم تقل لى إن أهل هذه المناطق لن يلاحظوا مطلقًا أى شىء غريب بيننا ؟" وهنا حثنى إبراهيم قـائلا : "والله ، لو أننا أردنا أن نفـعل ذلك لما سـرنـا فى الطريق الذى سلكناه حتى نجىء إلى هنا ، وإنما كان يتعين علينا سلوك طريق صـخـور الطويق على الجانب الآخر إلى أن نصل إلى المضيق المؤدى إلى الحريق ، ولكننا عندما كنا فى الوادى ، قلت : إنك تود أن ترى الحَمـر Hamar وحدَّار ولم يكن بوسـعنا زيارة الاثنين " . وهنا قلت له : " لقد خدعتنى يا إبراهيم ، فضلاً عن أن خدمتك لى لم تكن على مـا يرام طوال هذه الرحلة . لدينا من الوقت مـا يكفى للقـيـام بجـولة خـلال تلك الأماكن ، ولكن الأمر كله بيديك ، وكل مـا أسـتطيع قوله هو ما يلى : إذا لم أزر قرى الفرع حسب ما وعدتنى ، فـأنا لم أعـد بحـاجة إليك اعـتـبـاراً من لحظة وصـولنا إلى الرياض . وإلى أن يحدث ذلك فأنت مسئول عن تحركاتنا ولن أقول أكثر من ذلك " .

وهنا أحسست أن إبراهيم ، بعد أن عرف رأيى فى مسألة خديعتـه ، سوف يحـاول الوفاء بشىء من وعده تحت أى ظرف من الظروف ، نظراً لأننا عند تلك المرحلة كنا قد قطعنا شوطًا كبيراً يجعل مسألة الوفاء بالوعد كله أمراً مستـحيلاً ، ولم أكن مخطئًا فى تصورى هذا ، غير أنى ينبغى ألا أستبق الأحداث . يتـخـذ مـجرى سيل نعض بعيجة مسـاراً مـتـعرجًا خـلال فجوة بين الصـخـور المتداعية على الجانبين ، ينتهى فى منطقة مـجـاورة لمخـروط صـخـرى كـبـيـر يطلقـون عليـه اسـم الربِع 'Ruba، الذى يقـتـرن عنده بمضـيق أحـمـرة Ahmara، ذلك الغـدير الكبيـر ، الذى يقع رأسه فى مرتفـعـات غـربى الطويق ، فضـلاً عن أن تلك الرأس تشكل الجـزء العلوى المنبسط داخل هضـبة شـعب البـعيـجـة ، الذى سـبق أن تجاوزنا نقطة اقـتـرانه مع شـعب الحلفاوى عند بداية وادى العجيمى منذ أكثر من شهر عندما كنا متجهين صوب الجنوب .

ووادى أحمرة Ahmara تحفه من الجـانبين جُرُفٌ تشبـه الدعامـات تستند عليها جدران الهضبة ، ويمتد فى اتجاه شـمـالى شرقى من النقطة التى دخلناه منها ، وتغطيه النباتات الصـحراوية الكثيفة المنخفضـة الكثيفة وكثير من أشجار الطلح Talh، وأشجار

السنط وكذلك أشجار المرخ التى تشبه أشجار نبات الوزّال . ووادى أحمرة تسده هنا وهناك كتل شاسعة من الطمى (اللّهم) المتراكم ، التى يزيد ارتفاعها على عشرة أقدام ، ويجرى خلالها حوض مجرى السيل الذى يتكون فى معظمه من الرمل والزلط ، وينساب على شكل منحنيات رفيعة حول الأكتاف الصخرية البارزة من الروافد الجانبية . وعلى بعد مسافات تتراجع الصخور على الجانبين متحولة إلى خلجان ضحلة تستقبل الصرف القادم من الأرض العالية الموجودة فى الخلف من خلال شعاب(٢٣) فرعية صغيرة .

وعلى مسافة تقدر بحوالى خمسة أميال على امتداد مجرى الشعب وصلنا إلى بئر البعيجة ، التى نصب حولها حوالى خمسين خيمة سوداء من خيام بدو القبابنة ، تجمعوا فى ذلك المكان قادمين من المناطق المجاورة استعداداً للتحرك فى اليوم التالى صوب الغيل . ولم يتسبب ظهورنا المفاجئ عند منعطف من منعطفات الوادى فى أى شكل من أشكال الإثارة بين شاغلى تلك الخيام الذين كانوا يعرفون حق المعرفة أن وصولنا إلى تلك النقطة لابد من أن يكون قد حتم علينا المرور خلال الوديان والمرتفعات العامرة بأهلهم ، وبعد أن مررنا بالبئر - التى هى عبارة عن حفرة واحدة يصل عمقها إلى حوالى خمس عشرة قامة وتزخر بالمياه الوفيرة ذات النوعية الممتازة - التى تجمع حولها حوالى مائة جمل وأعداد لا تحصى من الأغنام استعداداً لسقيا المساء ، نزلنا عن دوابنا فى مكان بعيد عن أولئك القوم ، ونصبنا خيامنا لقضاء الليل . كان حمد بن ثلاب أمير الغيل شخصيا موجوداً فى ذلك المكان ، ولم يكتف فقط بإرسال خروفين لنا على سبيل الهدية الودية لوجبة العشاء ، وإنما حضر إلينا بعد تناول وجبة العشاء طلباً للسمر وتجاذب أطراف الحديث وشرب دور أو دورين من القهوة معنا حول نار المخيم . وكان قد انضم إلينا لتناول العشاء ثلاثة أفراد من دواسر الشكارة Sha-kara بحثاً عن أخبار مواطنهم وديارهم التى تغيّبوا عنها فى المراعى أشهراً عدة ، ومن سوء الحظ أننى كنت قد انسحبت إلى خيمتى كى أكتب وأقرأ وذلك عقب انصراف أولئك الضيوف ، وبالتالى لم أتمكن من رؤية حمد ، الذى سمعت رفاقى يمتدحون وده فى اليوم التالى ، وفسروا ذلك بحقيقة العقاب الذى أنزله به ابن سعود مؤخراً . ومسألة حكم بلد مثل الجزيرة العربية لا تعد مهمة سهلة ، مهمة تحتم تبادل الضربات بشكل حتمى ، كما أن ابن سعود هو الشخص الوحيد الذى يعرف كيف يشفى الجراح التى

أحدثها هو بنفسه . والذى لا شك فيه أن ابن سعود هو الوحيد القادر على ذلك ، كما أن الدليل على نجاحه يكمن فى حكاياته الطويلة مع الأعداء السابقين الذين تحولوا إلى أصدقاء مخلصين لا بطريق العطايا أو الهدايا أو المعاملة الطيبة، وإنما عن طريق صب جام غضبه الشديد على كل المجرمين، وصفحه الكريم عن الذنوب بعد العقاب .

فى اليوم التالى تتبعنا الوادى فى اتجاه مصبه إلى النقطة التى يبدأ فى الاتساع عندها فيما بين ضفتيه اللتين يتناقص ارتفاعهما ، ويمتد الوادى بعد ذلك إلى سهل العجيمى من خلال الزاوية المحصورة بين منخفضات إنسالة Insalah ومنحدر الطويق الخارجى السهل . وبعد وقفة قصيرة لتناول الإفطار فى ذلك الشعب الرملى الذى يسمونه أم الرمل Umm al Ramal استأنفنا المسير من جديد عبر كتف منخفض من أكتاف الهضبة ، يبرز ممتداً فى السهل ، ومن فوق قمة ذلك الكتف شاهدنا وادى العجيمى العلوى يمتد أمامنا ، ذلك الحوض الدائرى الشاسع الذى شهد تجوالنا من قبل والذى توجد فيه العلامات الأرضية المميزة مثل خشم خرطام Khashm Khartam وامتداد نسوان Niswan الأرضى اللذين شاهدناهما على بعد مسافة كبيرة عند أطراف وادى العجيمى .

هنا بدأنا ندور حول حافة منحدر الطويق ، وكنا نسير فوق سطح ثابت "Pat" وعبر الأراضى المنبسطة العليا من شِعْب تلحة Tilha بالقرب من النقطة التى يفترق عندها عن واديه المرتفع متجهاً إلى السهل ، وقاصداً خليجاً واسعاً يمتد خلال الهضبة ويحده من الجانبين سلاسل جبلية منخفضة وقاحلة جرداء . هذا الخليج الذى يفصل مصبه عن السهل لسان رملى عريض ، ثبت أنه هو وادى برك Birk، الذى يشكل مثلثاً أرضياً واسعاً رأسه موجودة فى النقطة التى يتوقف عندها امتداد الوادى بين صخرتين شديدتى الانحدار ، ثم يمتد الوادى بعد ذلك إلى قاعدة المثلث التى قد يصل طولها إلى حوالى ميل تقريباً عند النقطة ، أو فى المنطقة التى يقترن الوادى فيها بالسهل . لم يكن فى ذلك الغدير أية إشارة أو دليل على وجود قناة دائمة من قنوات العواصف ، ولكن من المحتمل أن ينتشر الفيضان فى موسم الأمطار ليغمر ذلك المثلث بكامله متجهاً صوب السهل ، حيث تتجمع مياه ذلك المثلث على شكل قناة طبيعية

صغيرة ، ثم تحفر في قاع تلك القناة الصغيرة مجرى السيل في الرمال والصخور ، التي سبق أن شاهدتها على بعد مسافة كبيرة في السهل .

واصلنا مسيرنا في اتجاه أعالي الوادي إلى رأس المثلث الذي نصبنا فيه خيامنا في ظلال بعض أشجار السرحة Sarha، التي تكاد تلامس بعض البرك المائية الخالية حاليًا تمامًا من الماء والتي يعرفها الناس هنا باسم مزعب Maz'ab . ثم توجهت إلى ربوة قريبة منخفضة أملاً في الحصول على رؤية أفضل للبلاد المحيطة بنا ؛ وبينما قمت بمسح المشهد والمنظر المحيط بنا كان يراقبني أحد البدو ، كان يبحث عن جمل تائه . وتخوفًا من أن أكون قد أذنبت جراء الكشف عن المكان الذي نحن فيه لمن يراقبوننا من عصابة الغزو ، تراجعت مسرعًا عائدًا إلى مخيمنا وفي أثري الأعرابي الذي كان يراقبني ، والذي شعرت بالارتياح عندما وصل إلينا وأصبح بيننا ، واكتشفت أنه لم يكن يبحث عن شيء سوى جمله التائه ، وأنه عندما رآني مشغولاً في المهمة نفسها توصل إلى استنتاج مفاده أنني بعد أن عثرت على جمل رحت أبحث عن صاحبه التائه أو الضائع . ورحل الرجل عنا بعد أن تناول معنا شيئًا من المرطبات ، ليستأنف من جديد بحثه عن جمله الضائع .

نحن الآن على بعد ميل أو بعض ميل من رأس المثلث حيث توجد بركة جافة يطلقون عليها اسم ثقب الحيد Thaqab Haid، هي بمثابة العلامة المميزة للطرف الشرقي من القناة الطويلة التي تحيط بالصخرة ، التي يشق عندها نهر وادي برك العظيم الجاف طريقًا له عبر حاجز الطويق الضخم ممتدًا من الشرق إلى الغرب . هذا الوادي الذي ينبع من مكان بعيد في مرتفعات نجد ، في المنطقة التي سبق اجتيازها بالقرب من منبع ذلك الوادي في أثناء الرحلة التي قمت بها إلى جدة قبل عدة أشهر ، هذا الوادي الذي يعرفه الناس في الأجزاء العليا المنبسطة منه باسم وادي سرّة ، له امتداد ومجرى طويل خلال المنطقة الرملية والجبلية المجهولة في الناحية الغربية من الطويق ، ثم يتغير اسم ذلك الوادي إلى برك Birk عندما يدخل الحاجز ويقسمه إلى قسمين ، كما هو الحال في وادي الدواسر في الجنوب وفي نساح Nisah وها Ha وعطس Ats في أقصى الشمال ، ثم يعود الوادي إلى الظهور مرة ثانية في هذه النقطة لتنضم فيضاناته إلى فيضانات وادي العجيمي هو وروافده الرئيسية . لم يكن هناك ما

يلفت النظر إلى تلك الصخور فى هذه المنطقة من المضيق ، ولكن رفاقى أخبرونى أن الصخور على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه أعالى الوادى ، وبخاصة عند النقطة التى يدخل مجرى الوادى عندها ، إلى الحاجز، ترتفع شامخة ارتفاعًا شاهقًا فوق مجرى الوادى ومع ذلك لا توجد قرى أو مستوطنات على امتداد طول ذلك الوادى ، على الرغم من أن الوادى يعد ملاذًا رعويًا مفضلاً عند البدو الرعاة ، والناس يعتبرون الوادى هنا بمثابة الحد الجنوبى لمنطقة الفرع ، فضلاً عن كونه أيضًا الحد الشمالى للتجوال ، أو إن شئت فقل تطواف القبائل التى تعد منطقة الأفلاج "ديرة" لها .

هناك سلسلة جبلية ضيقة تفصل مصب وادى برك عن وادى الفريعة Fari'a، الذى يبدو للوهلة الأولى كما لو كان رافدًا من روافد ذلك الوادى ، على الرغم من أنه ليس كذلك فى واقع الأمر . وهناك حاجز شبه ملحوظ يقع عبر رأس المثلث الأرضى ، وهذا الحاجز هو الذى يحرِّف مياه وادى برك إلى ناحية الشرق فى اتجاه السهل ، ويتحكم فى صرف الهضبة المجاورة له ويوجهه إلى شعب الفريع Fari'a، وبخاصة أن مياه صرف تلك الهضبة المجاورة تذهب من خلال اثنى عشر رافدًا صغيرًا إلى وادى النصابية Nasabiyya، القصير العريض الذى تكسوه النباتات الخشبية . ونصبنا خيامنا عند بداية وادى النصابية . ووادى النصابية على الرغم من كل مقاصدة العملية يعد جزءًا لا يتجزأ من وادى الفريعة ، الذى يمثل واحدة من أغرب الظواهر الطبيعية التى صادفتها طوال فترة وجودى فى الجزيرة العربية ، والسبب فى ذلك ، أنه بحكم امتداده مسافة ميلين أو ثلاثة أميال من مجراه العلوى بحيث يكون ذلك الامتداد موازيًا لوادى برك المتجه ناحية الشرق ، فضلاً عن أن وادى النصابية يبعد مسافة لا تزيد على ميل واحد عن وادى برك ، نجد أنه يمتد فى الاتجاه المعاكس تمامًا ، كما لو كان يهاجم المنطقة الصخرية فى وسط الطريق مفضلاً ذلك على السير فى الخط السهل الخالى من العوائق ، إلى أن يقترن بوادى برك ، ثم يتجه بعد ذلك شمالاً ليتصل بوادى المجمعة فى واحة الحوطة ، التى تتجه منها القناة الموحدة ، شرقًا إلى السهل ثم تتجه عبر السهل لتقترن بوادى العجيمى فى منطقة الخرج . ومن ثم فإنه ابتداء من النقطة التى نصبنا فيها خيامنا لقضاء الليل عند بداية ، أو إن شئت فقل رأس وادى المجمع إلى النقطة التى دخلنا الوادى عندها مرة ثانية فى اليوم التالى بعد مسير حوالى خمسة

عشر ميلاً فى اتجاه الشمال ، نجد أن وادى القريع عبارة عن شبه دائرة خلال الهضبة ، وأنه يحفر لنفسه أخدوداً عميقًا خلال الصخر الصلب ، وفى الوقت المناسب يشق طريقه من جديد إلى السهل الذى يبدأ اعتباراً من حافة مساره فى الاتجاه العكسى .

وبين أدغال ذلك الوادى قام بعض رجالنا بمحاولة فاشلة لاصطياد أول الحبارى التى صادفناها منذ أن غادرت منخفضات الصِّمان Summan فى فصل الربيع ، وما إن تخلى رجالنا عن مطاردة تلك الحبارى ، حتى شاهدنا قطيعًا من الغزال يرعى على بعد مسافة كبيرة أمامنا . وتوقفت القافلة بكاملها فى الوقت الذى راح صيادونا فيه يمارسون مهام عملهم ، ولكنهم عادوا من جديد خاوين الوفاضَ ، إذ فر الغزال الخائف هاربًا إلى الأرض الجرداء . وفى الصباح الباكر كنت قد شاهدت فى مضيق أحمرة Ahmara حبارى رمادية اللون(٢٤)، ولكن الصيد فى أثناء السير يكون صيداً محفوفًا بكثير من المصاعب، الأمر الذى جعل الصيد أمراً نادر الحدوث على قائمة طعامنا ، والذى كان يمكن أن يكون شيئًا مطلوبًا ، وبخاصة فى تلك الأيام ، نظراً لأن مخزوننا من الشاى والأرز – وهما السلعتان اللتان لا يمكن ابتياعها من أسواق الجنوب – قاربا على الانتهاء ، فى حين وجدنا أن التمر الذى اشتريناه من الغيل بدأ يدب فيه السوس ، وحتم علينا تفتيشه تفتيشًا دقيقًا قبل أن نضعه فى أفواهنا . وفيما عدا ذلك المكان لدينا مقدارٌ كافٍ من اللحم ومن الدقيق الذى يمكن أن نصنع منه خبزًا خشنًا ، ناهيك عن فريك القمح الذى يكثر استعماله فى الجنوب فى عمل الجريش Jirish .

وهناك طريق واضح المعالم تماماً يصعد نحو الهضبة قادمًا من وادى النِّصَابية ، ونظراً لوجودنا فى تلك المنطقة فقد عبرناها على شكل زوايا قائمة مع الممرات المتخلفة عن جمّاع العشب والحشائش من قرى الفرع ، كما عبرنا وأعدنا المرور على جولاتهم المتكررة إلى مراعى البياض Biyadh قادمين من واحة الحلوة ، التى يمثل طرفها الجنوبى ، أو بالأحرى الرُّجم الموجود على صخرة فوق ذلك الطرف الجنوبى ، موقع قرية القويع Quai' الذى كنا نراه فى اتجاه الشمال الغربى من تلك النقطة . ووادى القريع هو ووادى المجمع ومعهما أيضًا وادى الفرع، الذى هو عبارة عن الواديين بعد اقترانهما فى واحة الحوطة ، إلى أن يصلا إلى وادى طارش ، يمنع أصحابهما الرعى فيهما منعًا باتًا اللهم إلا باستثناء مواشيهم هم أنفسهم، ويشيع عن أهل هذين الواديين

أن غلظتهم وفظاظتهم تصل بهم إلى منع البدو من سقى حيواناتهم ، مثلما حدث قبل يوم أو يومين ، عندما رد أهل هذه المنطقة جماعة القبابنة التى كنا قد التقيناها عند بئر البعيجة ، ومنعوهم أيضاً ولم يسمحوا لهم بسقى إبلهم العطشى وأغنامهم العطشى من أبيار الواحة. وجيران هؤلاء القوم يطلقون عليهم اسم الثيران Thiran نظراً لبلادة أرواحهم وحدة طبعهم ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء القوم يخشون الأجانب ويخافونهم دوماً مخافة أن يعرف أولئك الأجانب أسرار الخنادق الطبيعية التى يعيشون فيها على الكفاف فى جوف الطويق ، مكتفين ومعتمدين على الخصوبة غير العادية لواحاتهم الصخرية ، وفى مأمن من أى شكل من أشكال العدوان الخارجى عليهم ، بفضل المساحات الجرداء القاحلة المحيطة بواحاتهم ، والتى لا يمكن لأى عدو أن يبقى فيها فترة طويلة من أجل حصار المعاقل القوية التى يقيم فيها أهل الحوطة . كان أهل الحوطة قد دخلوا ، قبل عام أو عامين ، فى عملية ثأر مع مترك Mitrak بصفة خاصة ومع قبيلته بصفة عامة ، التى تكون مضاربها خلال القسم الأكبر من العام فى الفجوات التى بين جبال عَلَيَّة 'Alaiya ، دونما احترام لقوانين الضيافة ، الأمر الذى أصاب البلاد كلها بصدمة ، نظراً لأن شقيق مترك كان قد ظهر فى الميدان العام فى القرية الرئيسية من قرى المنطقة ، أو إن شئت فقل الحلة Hilla فى واحة الحوطة ، ضيفاً من ضيوف إحدى الشخصيات البارزة فى الحوطة ، ولكن أهل القرية ألقوا القبض عليه وقتلوه مع سبق الإصرار. وكان رؤساء الشامر Shamir قد عقدوا اجتماعاً تشاوروا فيه وتقدموا لابن سعود بطلب للحصول على تعويض ، كما طلبوا منه أيضاً أن يأذن لهم بتصفية حسابهم مع أهل الحوطة بطريقتهم الخاصة ، غير أن ابن سعود لم يوافق على القتال مخافة أن تترتب عليه نتائج خطيرة ، ولذلك طلب ابن سعود إلى الشامر إرجاء اتخاذ أى إجراء انتظاراً للنتيجة التى ستسفر عنها المفاوضات ، التى أمر بها هو نفسه حتى يمكن تسوية ذلك الصراع بشكل نهائى . كان ذلك هو الموقف عندما مررنا خلال تلك المنطقة ، وقد خلف ذلك مرارة شديدة فى حلق مترك ، ولكنى لا أعرف شيئاً عما آل إليه ذلك الصراع .

وعندما بدأنا مسيرنا فى اليوم التالى على طريق الهضبة المطروق ، كان من الواضح أن إبراهيم لم يكن قد اتخذ قراراً بشأن التعامل مع الموقف الحرج الذى نشأ على تذكيرى إياه بالوعد الذى قطعه لى على نفسه . كان المنظر من حولنا واسعاً ، فقد

كانت الحافة الشرقية لمنحدر الطويق تبعد عنا مسافة ثلاثة أميال في اتجاه الجنوب ، على حدود وادي العجيمي ، في حين كانت الهضبة تمتد على مدد شوفنا في اتجاه الغرب آخذة في الارتفاع التدريجي في اتجاه الحدود الخارجية الضبابية لجبال علَيَّة Alaiya' على بعد مسافة كبيرة منا ، غير أن الهضبة كانت تكشف هنا وهناك عن ومضات من الصخور التي كانت تحيط بالشق العميق لمضيق المجمعة . وبالقرب منا ، وربما على بعد ثلاثة أميال أو أربعة ، وفي الاتجاه نفسه ، بدا لنا وادي الفريع Fari'a وكأنه يمتد موازيًا للطريق الذي نسير فيه . في حين كان المنظر عن يميننا وفي اتجاه الخرج مباشرة ، تسده سلسلة جبال شعرة Sha'ara، التي هي ضاحية منفصلة من ضواحي الطويق ، ويفصلها عن هضبة الطويق رقعة من الكثبان الرملية يطلقون عليها اسم الكرّاضية Karradhiyya .

في أثناء مسيرنا ، وبعد أن قتلنا خمسة عقارب صغيرة وجدناها تتحرك هاربة في ظل شجيرة من الشجيرات المنخفضة ، بدأ يطالعنا منظر نخيل الحلوة من بين أعماق مضيق الفريع إلى الغرب منا . واعتبارًا من الطرف الجنوبي عند قرية القويع 'Quai، تبدأ واحة الحلوة في امتداد على شكل خط متصل من بيارات النخيل الزاهرة ، يصل طوله إلى حوالي أربعة أميال أو خمسة ، إلى أن تصبح على بعد مسافة قصيرة من بيارات النخيل الأولى هي وقرية الحوطة . وفي تلك المنطقة يوجد حوالي ثلاث قرى كبيرة ، القويع 'Quai والحلوة وعطيان 'Atiyan ، وعدد كبير من القصور المنعزلة التي يعيش فيها عدد من السكان يقترب من ٥٠٠٠ نسمة ، معظمهم من فخذ المرشد Marshad من بني تميم ، ذلك القسم من السكان الذي له وزنه وقوته في واحة الحوطة ، جنبًا إلى جنب مع أبناء عمومتهم كثيري العدد من فخذ آل حسين Husain . وتظهر عناصر بني خضر Bani Khadhir ، تلك السلالة من أوباش الناس ، بشكل كبير بين سكان الواحتين ، كما تظهر تلك العناصر أيضًا في واحة الحريق التي يشكل الهزازنة[٢٥] Hazazina أحد أفخاذ العنزة ، وكذلك الختالين Khathalin، وذلك الفخذ من السبيع ، العنصران الرئيسيان من عناصر السكان .

عند تلك النقطة كنا لا نزال على بعد مسافة كبيرة من واحة الحلوة ، بينما كنت لا أزال في المؤخرة أستوعب مشهدًا من المشاهد ، وهنا لاحظت أن إبراهيم وابن جلهم

اللذين كانا يتقدمان الجماعة ، لاحظت أنهما يتجهان فجأة وبزاوية قائمة على الطريق الذى نسير فيه صوب الغرب ، عندما وصلا إلى رابيتين صغيرتين مخروطيتين وبارزتين أيضًا ، يطلق الناس عليهما اسم بنى دريم Duraim، ثم اتجها بعد ذلك صوب رجمة فوق قمة صخور الفريع . وهنا بادرت بالمسارعة إلى الأمام تطلعًا منى إلى أن تكون تلك المناورة الجديدة إشارة إلى حدوث تغيير فى مخططاتهما ، ولكنى اكتشفت أن الهدف من ذلك لم يكن سوى السماح لى بإلقاء نظرة خاطفة على واحة الحلوة . ومن فوق تلك الرجمة كان الوادى لا يزال يبعد عنا مسافة ميل تقريبًا ، مما أدى إلى أن تكون رؤيتى للواحة منصبة على بعض أجزائها ، ولكنى عندما نظرت إلى الأمام تمكنت من تبين طريق مضيق المجمع ، وألقيت نظرة خاطفة على قرية الحلوة ومن خلفها النخيل بالقرب من نقطة اقتران الواديين .

وانفتحت شهيتى للحصول على المزيد ، وبشىء من العصبية رضخ إبراهيم للضغط الذى مارسته عليه ، الأمر الذى جعله يوافق على سماحه باستمرار مسيرنا على امتداد الصخرة إلى أن وصلنا إلى رأس مجرى عميق يعرف باسم شعب مرهيج Mirhij، الذى توقفنا فيه لتناول الإفطار ، وأطلقنا الإبل أسفل المنحدر كى تشرب من منطقة القصر الموجود عند أسفل ذلك الأخدود الطبيعى . وحاولت الاستفادة من التأخير فى زيارة موقع حاكم يطل على الوادى ، ومن ذلك الموقع تمتعت بمنظر هو - إلى حد ما - لبعض أجزاء من واحة الحوطة ، كما يشمل أيضًا جزءًا من قرية الحلة Hilla الكبيرة . كان ذلك هو ما تفضل به علىَّ هذان الاثنان - رؤية أرض تفيض عسلاً ولبنًا ، يحتمل أن أدخلها الآن.

وعلى بعد حوالى مسافة ميل إلى الخلف من رأس شعب مرجح ، يقترن ذلك الشعب بشعب آخر هو شعب الفريع ، فى منطقة واسعة ، تظهر فيها أطراف واحة الحوطة التى تفصلها مسافة ميل تقريبًا عن الطرف الشمالى لبيارات نخيل الحلوة . فيما بين هذه النقطة والنقطة التى يقترن عندها شعب الفريع بشعب المجمع ، والتى تتميز بغابة كثيفة من أشجار النخيل ، هناك صخرة مرتفعة تحجب ذلك المنظر عن الرائى ، ومن حافة تلك الغابة يبرز جزء من مدينة الحلة غير المسوَّرة ، والسبب فى عدم تسوير ذلك الجزء راجع إلى أن الطبيعة منحت قرية الحلة كل التحصينات اللازمة لها

على شكل صخور شامخة مرتفعة على جانبى الوادى . فمن حول قرية الحلة توجد بعض القصور التى تنتشر هنا وهناك ، فضلاً أيضًا عن وجود هجرة (قرية صغيرة) يبدو عليها الخراب والدمار . وهناك هجرة عند أحد أطراف الواحة تبدو وكأنها مخربة ومهجورة تمامًا ، وبالقرب من تلك الهجرة وأسفل الصخرة الكبيرة التى تشكل الضفة اليسرى من شعب الفريعة يوجد قصر ابن خُرَيِّف Khuraiyif، أمير فخذ الحسين Husain . فى شعب مرجح نفسه يوجد نخيل " أبو" تيوس Abu Tuyus ، الذى يحيط بهجرة تحمل الاسم نفسه ، وهى الأقرب إلى المكان الذى توقفنا فيه الذى يطلقون عليه اسم قصر الشعابة فى بيارة صغيرة كانت إبلنا تشرب منها .

وقرية الحلة ، على حد علمى من واقع القسم الذى رأيته منها ومن واقع المعلومات التى حصلت عليها من رفاقى حتى الآن ، تغطى مساحة يبلغ طولها حوالى ثلاثة أرباع الميل وعرضها حوالى ٣٠٠ ياردة فى أعرض أجزائها ، وهى بيضاوية الشكل تقريبًا ، وهى مكونة من منازل مبنية من اللبن لا يوحى شكلها بالعظمة أو الأبهة . ويقدر عدد سكان الحلة بحوالى ١٠٠٠٠ نسمة ، ولكن يمكن إدراج هذا العدد من السكان ضمن عدد سكان الواحة الذى يقدر عدده الإجمالى بحوالى ٢٠٠٠٠ نسمة . وخلف قرية الحلة وفى منطقة اقتران شعب السُّلامية Sulamiyya ، مع شعب الفريع تقع هجرة (قرية صغيرة) فخذ آل حسين ، التى يطلقون عليها اسم العميرية Amair'iyya التى ألقيت عليها نظرة خاطفة بينما كنا نعبر الشعب بعد أن استأنفنا مسيرنا .

وعن ذلك الجزء ، وهو القسم الأكبر من الواحة ، والذى يقع فى مضيق المجمع عند أعالى اقتران شعب الفريعة بشعب المجمع ، والذى ألقيت مجرد نظرة على طرفه ، أستطيع القول ، والعهده هنا على رفاقى، إن ذلك الجزء يمتد غربًا مسافة سبعة أميال أو ثمانية ، إلى نقطة تلتقى صخور الجانبين عندها مكونة عنقًا ضيقًا، أو إن شئت فقل : اختناقًا ضيقًا . وفيما بين هاتين النقطتين هناك حزام كثيف من النخيل يغلِّف الوادى من الجانبين ، وله امتدادات فى عدد من الخلجان التى تكونت بفعل الأخاديد الفرعية الطبيعية ، كما أن الطرف العلوى من الواحة تقع فيه هجرة كبيرة يطلقون عليها اسم البريِّك Buraik ولا يسكنها سوى أناس من فخذ المرشد Marshad بصفة أساسية .

وبعد ذلك ، وإلى امتداد أميال عدة فى اتجاه أعالى الشعب يخلو ذلك المضيق من الزراعة أو المستوطنات (القرى) إلى أن يصل إلى واحة الحريق التى تقع فى منطقة اقتران ست شعاب تنحدر قادمة من المرتفعات المجاورة ، وهذه الشعاب الست تكون نواة شعب المجمع ، وتضم مساحة كبيرة من أشجار النخيل ، كما أن فيها أيضا قرية كبيرة ، وقريتين صغيرتين ، فيها عدد كبير من القصور يصل عدد سكانها إلى حوالى ٧٠٠٠ نسمة . والوادى على طول منطقة اقتران شعب الفريع بشعب المجمع ، يطلق عليه اسم الفرع Fara' أو إن شئت التبسيط فقل الباطن ، ولا يحتوى إلا على القليل من بيارات النخيل ، التى تخنقها من الخلف كثبان رملية تتعرج على بعد مسافة قصيرة ، تدخل بعدها إلى سهل العجيمى فيما وراء الحافة الخارجية لمنحدر الطويق .

ونقلاً عن ابن جلهم ، تعد قرية (واحة) الحريق أقدم مستوطنات الفرع ، ويرجع تاريخ ازدهارها بوصفها مركزاً زراعيًا إلى الوقت الذى كان وادى المجمع فيه أرضًا قاحلة مثل وادى الضباعية Dhaba'iyya فى الوقت الراهن . فى تلكم الأيام يمكن تصوير الحريق على أنها كانت مأهولة ببقايا من بنى تميم ، الذين راحوا يتجولون بعد أن طردهم العنزة الغزاة من أراضيهم ، فى اتجاه أسفل الوادى ، وعندما وجدوا أن الماء كان وفيراً فى تلك المنطقة ، على الرغم من وجوده على عمق كبير – يصل عمق آبار الحوطة إلى حوالى سبع عشرة قامة – أنشأوا مستوطنة جديدة سموها الحريق تخليداً لاسم موطنهم السابق حوطة الحريق . وقدِّر لتلك المستوطنة على مر الزمن أن تغتصب مكان المدينة القديمة ، وتصبح عاصمة لتلك الرقعة من الأرض . وواحة الحريق ، يؤمن اسمها ذكرى حريق مدمر حدث فى الأزمان الماضية ، أما الحوطة فما تزال إلى الآن بكامل حيويتها وشبابها ، على الرغم من أن إنشاء ها يعود إلى الزمن الماضى الذى انقضى وأصبح فى عداد النسيان .

وبعد أن استأنفنا السير عبر الهضبة نزلنا إلى شعب السلامية Sulamiyya بالقرب من رجم مزدوج يطلق الناس عليه هنا اسم أبو اثنين Abu Ithnain ، وتجاوزنا ذلك الرجم لنهبط إلى الهضبة مرة ثانية عن طريق مسار وعر منحدر . وفى تلك المنطقة أصبحت حافة منحدر الطويق قريبة منا مع استمرار نفود الأجنبة the Ajniba فى مواصلة خط كثبان الكراضية Karradhiyya الرملية فى الجانب القريب من سلسلة

الجبال الصحراوية ، وبعد مسيرة قصيرة عبر الأخدود الصخرى المتعرج ، الذى يطلق الناس عليه هنا اسم أم الحيران Umm al Hiran ، الذى يقع بين صخرتين يصل ارتفاع كل منهما إلى حوالى أربعين قدمًا ، وصلنا إلى ذلك الوادى الذى تخنقه الرمال ، والذى يسمونه هنا أم الأديان Umm al Adyan ، ومنه وصلنا بعد ذلك إلى وادى الفرع فى النقطة التى يخرج عندها ذلك الوادى من الهضبة ليمتد إلى السهل . كانت السلاسل الجبلية الرملية العالية التى يكسوها غطاء نباتى مختلف الأنواع ، أشجار السنط ، وأشجار المرخ ، وأشجار الإثل ونباتات السرحة Sarha ونباتات الشية Shaia وكذلك نباتات الأضير Adhir وما إلى ذلك من النباتات الأخرى ، تنتشر بطريقة عشوائية غير منظمة حول مصب وادى الفرع الذى نصبنا خيامنا عنده وتوقفنا طلبًا للحصول على قسط من الراحة فى أثناء قيلولة الظهيرة ، فى مأوى تحت سلسلة جبلية طويلة ، كانت تشكل بالنسبة لنا الحد الشمالى لمنطقة الفراغ .

٥- حدود جبل العُليًا Alaiya'

كان رفاقى قد أشاروا عندما توقفنا لحظة عند بداية مضيق ساقطة فى شهر ديسمبر السابق كى نلقى نظرة على المشهد الرائع قبل النزول إلى وادى ضرمة Dhruma، أشارو فى اتجاه الجنوب إلى قمة واضحة مسطحة من أعلاها، تبرز تمامًا بين كتلة جبلية ، أطلقوا عليها اسم العُليًا Alaiya' . ولم تسمح الظروف لى بالاقتراب من تلك الصخور الوعرة ، التى كانت قممها ترتفع شامخة إلى ما يقرب من ٥٠٠ قدم أو ما يزيد على ذلك فوق حافة ، هى بحد ذاتها عبارة عن جرف هارٍ شديد الانحدار يصل ارتفاعه إلى حوالى ٦٠٠ قدم أو ٨٠٠ ، ويواجه السهل الغربى . وأنا أرى أن قمم جبل العليا Alaiya' يصل ارتفاعه إلى ما لا يقل عن ٣٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، كما أن هضبة الطويق تنحدر انحدارًا مفاجئًا من جانبها الشرقى نحو سهل العجيمى وسهل الخرج ، الذى تعين علينا ، بعد خروجنا من منظومة وادى الفراغ ، السير على امتداده لندور حول حافته الخارجية فى اتجاه الرياض Riyadh نفسها ، الأمر الذى حتَّم علينا أن نسير فى خط مستقيم فى بعض المناطق وذلك عن طريق اختصار الطريق

بالسير عبر السلاسل الجبلية المنخفضة ، التى تبرز من ذلك السهل على شكل دعامات لحافة سهل الخرج ووادى حنيفة .

الهضبة بكاملها ، بما فيها مرتفعات العليا Alaiya'، اعتبارًا من وادى الفراع فى ناحية الجنوب إلى قناة شعب عطس Ats الكبيرة فى الناحية الشمالية ، يطلق الناس عليها اسم العارض Aridh'، بمعنى الحاجز ، أو إن شئت فقل الحاجز بين الصحارى الغربية والمراكز الحضارية المرتبطة باسم بنى حنيفة ، اليمامة ، ومنفوحة والرياض ، والدرعية ثم العيينة . ومنطقة العارض بالشكل التى هى عليه حاليًا تضم – علاوة على مناطق الطويق الواقعة غربى المحمل Mahmal وضرمة Dhruma – المناطق الجبلية الثلاثة ، التى هى على وجه التحديد: المحمل المرتفعة ، التى تقع خارج نطاق هذا الكتاب ، ويحدها من ناحية الجنوب وادى حنيفة ، ومنطقة وادى حنيفة تنتهى من ناحية الجنوب عند منطقة الحائر Hair وكذلك خط شعب ها Ha ، وأخيرًا جبل العليا Alaiya' نفسه. وجبل العليا فى حد ذاته عبارة عن رقعة من الأرض خالية من القرى (المستوطنات) حاليًا ، على الرغم من عدم خلوها من الدلائل والإشارات الواضحة إلى المضارب الإنسانية القديمة ، فأنا لم أر من ذلك الجبل سوى حوافه الخارجية ، ولست على ذلك القدر من الكفاية الذى يمكننى من رسم صورة عامة لذلك الجبل . وعلى كل حال يبدو – والعهدة هنا على مترك Mitrak الذى تجول سنوات عدة خلال تلك الأماكن بصحبة رفاقه من رجال القبائل ، وذلك بدءًا من مرحلة شبابه وما بعدها ، وقبل أن يدخل فى خدمة ابن سعود – يبدو أن جبل العليا يضم منطقة من المرتفعات البرية ، التى تتخللها فى كثير من الأحيان غدران المضايق الجبلية القادمة من أعالى تلك الجبال من ناحية حافتها الغربية . ورعاة الشامير هم وقطعانهم يتجولون آمنين فى تلك المناطق ويحتمون بأغوارها الجبلية ، التى كانوا ينقضون منها بلا انقطاع على القوافل التى كانت تتنقل بين الخرج وبلاد الجنوب فى زمن الفوضى . وقد روى لى مترك حكايات كثيرة عن دوره فى تلك الحملات ، عندما كنا نقترب من المناطق التى وقعت فيها ، ونحن ركوب فوق جمالنا ، والسبب فى ذلك أننا مثل سائر القوافل الأخرى ، كنا نسير عبر ذلك الجزء المستوى من السهل ، الذى كانت تتفتح عليه مصبات تلك المضايق ، التى كان قطاع الطريق يكمنون فيها انتظارًا لقدوم القوافل حسنة النية والطويّة .

قال مترك في حكاياته : "حدث ، في يوم من الأيام ، أن السماء كانت تمطر ، بينما كنت راكبًا حصاني وأسير وحدي سعيًا إلى كسب عيشي ، وفجأة شاهدت أمامي شخصًا يركب دابته ويشته من فوق رأسه يحاول به تفادي المطر . ولم يرني أو يسمعني وأنا أجري تجاهه قادمًا من ورائه ، وبعد أن اقتربت منه أمسكت ذراعيه من الجانبين . وخوفًا على حياته استسلم الرجل بكل تواضع في الوقت الذي أخذت فيه كل ما كان معه ، وكان في منتهى السعادة بعد أن سمحت له بالمضي إلى حال سبيله . تلك كانت الطريقة التي كنا نكسب بها عيشنا في تلك الأيام . والله ! لقد ربوني على أن أكون هنشاليًا hanshali ، أو إن شئت فقل لصًا أو من أفراد العصابات ، أما الآن فبفضل الله ، ثم بفضل ابن سعود ، فالأمن يعم البلاد ، واللصوص وقطاع الطرق يعاملون بمنتهى الشدة ، وقد أصبحت لدينا الآن طرق جديدة لكسب العيش ، فضلاً عن أن أمثالي يرحَّب بهم في خدمة ابن سعود ، وابن سعود يستعمل أمثالي لنقل الرسائل المهمة عبر الصحراء ، والسبب في ذلك أن أهل الحضر لا يستطيعون السفر مسافات طويلة وحيدين وبلا طعام أو ماء مثلما نفعل نحن البدو Badu".

أخبرني مترك أن مرتفعات العليًا 'Alaiya تكثر فيها الفهود التي تحدث أضرارًا كبيرة للقطعان التي ترعى في تلك المناطق . أخبرني أنه كان يجلس مع رفيق له في غار صخري يزجيان وقتهما ، ينتظران عودة الصيَّاد ، وأنهما مرت بهما لحظات قليلة عصيبة ومضطربة ، عندما هجم عليهما الفهد ، الذي كان قد أصيب بجراح بالغة ، ونهش ذراع مترك نهشًا شديدًا قبل أن ينجحا في إبعاده عنهما باستعمال سكاكينهما . كما توجد بين صخور تلك الرقعة الجبلية الملاذات التي تأوي إليها الوعول[٢٦] .

كانت الظروف الجوية قد تغيرت إلى الأسوأ تغيرًا كبيرًا بعد أن غادرنا مرتفعات الأفلاج الباردة ، وفي ذلك اليوم بصفة خاصة كان جهاز قياس الحرارة (الترمومتر) عندما كنا نجلس في ظل شجرة من أشجار السرحة Sarha، التي كانت تنمو وسط تلك الأرض الرملية الشاسعة ، قد سجل ١٠٧° فهرنهيتية ، عند الساعة الرابعة بعد أن استأنفنا المسير ، وقبل ذلك كان الترمومتر قد سجل ١٠٩° فهرنهيتية ، وزادت الحرارة شدة وقسوة بفعل ريح (نسيم) هبَّت من الجنوب ، وظلت تلازمنا طوال الأيام القليلة التي تلت ذلك ، الأمر الذي أدى إلى رفع درجة الحرارة إلى ما يقرب من ١١١° أو ١١٢°

درجة فهرنهيتية . وقد يرجع ارتفاع درجة الحرارة إلى التغيير المفاجئ فى اتجاه الريح من ناحية وإلى نزولنا إلى مستوى أرضى منخفض ، ولكن ابن جلهم أكد لى أن البلاد فى المنطقة الواقعة شمالى الأفلاج كانت أشد حرارة من المناطق الجنوبية طوال فصل الصيف .

هنا نجد أن جوض شعب الفراع ، الذى سرنا على امتداده بطول حافة السهل الواقع بين منحدر الطويق من ناحية ، وخط نفود الأجنبة Ajniba من الناحية الأخرى ، فقد تمامًا شكل الوادى بدءًا من هذه المنطقة إلى النقطة التى يتفرع عندها ، متحولاً إلى أكثر المنخفضات ضحالة فى تلك المنطقة . واعتباراً من هذه النقطة نجد أن فرعًا من فرعى وادى الفراع يجرى عبر السهل ، متتبعًا منحنى النفود ليقترب بعد ذلك بشعب العجيمى ، فى حين يتجه الفرع الثانى الذى يحمل اسم صوت Saut، نحو حافة منحدر الطويق ، إلى مسافة قصيرة ، قبل أن يتجه نحو الاقتران بقناة العجيمى فى واحة الديلم Dilam .

وأول رافد من روافد منحدر الطويق يقترن برافد صوت المتفرع عن شعب الفرع هو رافد أم سليم Umm Sulaim ؛ وهما يقترنان بالقرب من الشوكة Fork ، وبعد نقطة الاقتران تلك وصلنا إلى مجموعة كبيرة من أنقاض المبانى ، التى كانت مستوطنة فى الأزمان القديمة ، غير أن تلك المستوطنة لا يوجد فى الموروث المحلى ما يشير إليها أو يعطى فكرة عنها أو عن تاريخها . والاسم الذى يطلقه الناس هنا على أنقاض تلك المستوطنة هو أبو صحرة Abu Sahra ، وهذا أيضًا هو الاسم الذى يطلق على واد من الوديان الصغيرة[٢٧] فى الطويق ، ويقترن برافد صوت Saut فى منطقة أكثر انخفاضًا ، ومما لاشك فيه أن تلك المستوطنة المدمرة يرجع تاريخها إلى الفترة التى شهدت إنشاء مستوطنة ماوان Mawan ، التى تحتم علينا الوصول إليها فى اليوم التالى ، ومع ذلك فإن صمت الأسطورة يفتح أمامنا باب التحزير بأن مهندسى تلك المساكن الحجرية عاشوا - رغم كل الظروف - قبل التحرشات التى قام بها سادة المكان الحاليين ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك الماضى البعيد جدًا .

نصبنا خيامنا لقضاء الليل عند مصب شعب العشيران Ashairan، ثم تحركنا في اليوم التالي على امتداد رافد الصوت، الذي تقع فيما بينه وبين شعب الفرع الذي ينحرف انحرافًا سريعًا ، رقعة من المنخفضات الحجرية الجرداء ، التي تبدو وكأنها امتداد لمنحدر الطويق . ورحنا نتجاوز مصبات كثير من الشعاب الصغيرة الواحد بعد الآخر، تلك الشعاب الصغيرة التي تنحدر نازلة إلى السهل : العشارية Ashariyya، والقرينة ، وأبو فريدة Farida ، وقهلول Qahlul ، ومعهم مصب القراضة Qarrada الذي يخرج من المنطقة المنخفضة المقابلة ، وكذلك مصب أبو فهيد Fuhaid، وأم نخلة Nakhla ، وطارش Tarsh ، إلى أن وصلنا إلى مجرى سيل الوثيلان Wuthailan الذي يتكون في معظمة من الحصى والزلط ، والذي يصبح أيضًا بمثابة القناة الرئيسة لشعب الصوت ، ثم يواصل مسيره تحت أي من هذين الاسمين أو كلاهما على حد سواء إلى أن يصل إلى شعب الديلم Dilam في المنطقة الواقعة خلف سلسلة جبال خشم كلبKhashm Kalb، التي تمثل علامة أرضية بارزة في رحلة الذهاب .

في المنطقة المجاورة لمصب شعب طارش ، كان الوادي بكامله مغطى بغابة كثيفة من أشجار السنط ، وأشجار السرحة ، وأشجار السدر ، وأنواع أخرى من الأشجار ، وتشكيلة متنوعة من الحشائش والأعشاب ، وبذلك نجد أن تلك المنطقة من الأرض تشكل الحد الشمالي لمنطقة الرعي الخاصة بأهل الفراع . ومسألة تخصيص أراضي للرعي هذه تعد أمرًا نادر الحدوث في القسم الشمالي من نجد الذي ينفرد فيه ابن سعود وحده بحقوق الرعي الكاملة ، كما هو الحال في منطقة الخفس Khafs، ولكن هذه المسألة تتزايد بشكل كبير في مناطق الجنوب ، إذ تشكل مناطق الرعي أراضٍ عامة ، لكل الجماعات حق فيها على الرغم من أن الأفراد لا يمتلكون فيها شيئًا .

ويقترن بقناة الوثيلان Wuthailan بعض الروافد الفرعية(٢٨) الصغيرة ، على امتداد قناة الوثيلان بعد اقترانها بشعب الصوت ، وهنا نجد أن المنطقة كلها تشكل مرعى ممتازًا تتردد عليه قطعان الأغنام وقطعان الماشية التي تأتي من الخرج . كما لاحظت في أثناء المسير طيور طيهوج الرمال هي والحمام وهي تحلق من فوقنا على

ارتفاعات كبيرة ، في الوقت الذى شغل مترك Mitrak نفسه فيه – وبلا هدف أو جدوى – بمطاردة أربعة من الغزال ، الذى تراءى له عن بعد أمامنا فى المنطقة التى يتسع الوادى فيها خلال شريط ضيق من النفود[٢٩] فى سهل الخرج .

سرنا عبر امتداد منخفض[٣٠] من هضبة الطويق متخذين مسارًا شماليًا تاركين خشم قلب هى ومنطقة الخرج عن يميننا . وكانت تلك المنطقة غير مريحة إلى حد ما ، وتركز كل همى على إسراع الخطى إلى أبعد حد ممكن ، غير أن رفاقى لم يكن لديهم أى علم بما يدور فى ذهنى . وكنت قد رضخت للتوسلات الشديدة بالتوقف وسط مراعى غابة طارش الثرية ، على الرغم من أن الساعة كانت تشير إلى السابعة ، وكان لا يزال بيننا وبين موعد الإفطار وقت طويل ، ولكن بعد ذلك بساعتين أو ما يقرب من ذلك بدأت مؤشرات الجوع تكشف عن نفسها ، وهنا بدأت التمتمة والهمهمة بين أفراد القافلة . ونظرًا لأنى كنت أسير على رأس القافلة وفى مقدمتها فقد مررت ببقعة معشوشبة فى شعب التمير Tumair، الذى يمتد عبر منحدر الهضبة الهين ليقترن بشعب الوثيلان فى منطقة السهل ، وهنا جاءنى مترك – موفدًا من قبل بقية القافلة – وخاطبنى مترك قائلاً : "انتبه ، ذلك العشب القادم هو آخر الأعشاب التى قد نلقاها قبل أن نتناول الفطور". وسألته : "كم تبعد ماوان Mawan عن هنا ؟" وأجابنى قائلاً : "والله ! سوف يحل علينا وقت الظهيرة قبل أن نصل إلى ذلك الشعب ، أنا أعرف هذا الجزء من البلاد حق المعرفة ، إذ تجولت خلاله مرارًا وأعرف مواطن العشب والحشائش سواء هنا أو هناك". ورددت عليه فى شىء من الإصرار قائلاً : "إن شاء الله ، سوف نصل إلى أحد المراعى بعد مسافة قصيرة ، وفى أى حال من الأحوال ، لا يزال الوقت باكرًا على وقفة الظهيرة ، فضلاً عن أننا أضعنا كثيرًا من الوقت فى مرعى شعب طارش Tarsh . يتعين علينا أن نسير مسافة قليلة ، وسوف نجد ، إن شاء الله ، مرعى خلال نصف ساعة من الآن ". كانت تلك نبوءة جريئة منى ، والسبب فى ذلك أن السهل من أمامنا كان يوحى بتحقيق تلك النبوءة إلى حد ما ، ولكنى سرت فى طريقى وواصلت القافلة مسيرها فى صمت مطبق . وسرت فى مقدمة القافلة بحثًا عن الدراهم التى تمكننى من الانتصار على مرشدى ورفاقى والتغلب عليهم .

ومع مضينا قدماً فى مسيرنا بدأ سطح مترك المنحدر الناعم يزداد وعورة ، وبعد عشرين دقيقة من الحديث الذى دار بينى وبين مترك وجدنا أنفسنا على شفا مجرى سيل واسع مغلق فيما بين ضفتيه بخضرة صحراوية ، وتنبثق خارجة من قناة تتجه نحو الصخر فى ثنيات الأرض العالية الموجودة على يسارنا . وهنا استدرت إلى مترك وسألته : "ما هذا ؟" وأجابنى قائلاً : "والله ! عشب ." وأردفت قائلاً : "ألم أخبرك أن الله سوف يهيئ لنا المرعى فى الوقت المناسب ؟ انتبه يا مترك ، فأنت مرشدى ، وأنت أيضاً رجل من أهل هذا البلد ، ومع ذلك فقد كذبت علىَّ . هل تدرى ماذا سأفعل الآن ؟ والله ، سوف لا نتوقف هنا إلا بعد أن نصل إلى ماوان Mawan نفسها . هيا بنا نواصل مسيرنا ، ولا تكذب علىَّ بعد ذلك . ما اسم هذا الشعب حتى يتسنى لى الكتابة عمَّا يحتويه من الحشائش والأعشاب ؟" ورد على مترك وقد أصابه الارتباك : "والله ، يا صاحب ! لقد مضت سنوات كثيرة على مغادرتى لتلك الأجزاء من البلاد ، إضافة إلى أننى لم يسبق لى زيارة ذلك المكان من قبل مطلقًا ، والمؤكد أن هذا لابد أن يكون شعب ماوان Mawan ولا شيء غيره . لقد سبق أن زرت القصور وبرك الماء الموجودة فى أعالى ذلك الشعب ، ولكنى لم أذهب إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الجزء السفلى منه ." ورددت عليه قائلاً : "وأنت ، يا من تعرف هذه البلاد حق المعرفة ، وتعرف كل حجر فيها ، وكل عشب ينبت على أرضها ، أبلغتنى أنها تبعد مسير ساعات كثيرة عن شعب التمير ! مترك ، لقد كذبت علىَّ ، مع سبق الإصرار على الكذب ، وأنا أعرف أنك فعلت ذلك بناء على مبادرة ، أو على طلب من إبراهيم . وسوف ترى بنفسك كيف سأعاملكم جميعًا على تلك الفعلة . لعنة الله عليكم جميعًا أيها الكذابون والمرشدون الزائفون ."

توقفنا بعد ذلك الحديث الذى دار بينى وبين مترك ساعات عدة فى ذلك المكان المعشوشب ، قبل أن نستأنف مسيرنا فى اتجاه أعالى الشعب مستهدفين الوصول إلى أنقاض مستوطنة ماوان المدمرة ، على بعد حوالى ثلاثة أميال ، حيث أنهينا مسيرنا اليومى فى ذلك المكان . وهنا قلت لإبراهيم : "انتبه واسمع ما سأقوله لك : من بداية هذه الرحلة إلى منتهاها وأنت على ما أنت عليه ، لقد صعبت علىَّ الأمور ولم تيسرها ، لقد سامحتك مرات ومرات ، ولكنك لم تتغير ، وكنت تحاول إحباطى وتثبيط همتى . أنت تعلم أن ابن سعود ينتظر عودتنا على مضض ، نظرًا لأننا تأخرنا أكثر من اللازم ،

ومع ذلك كنت تحاول كل يوم أن تزيد من تأخيرنا عن طريق التوقف هنا والتوقف هناك . لقد سئمت كل ذلك ، واعتباراً من الآن ستكون عاقبة تأخيركم على رءوسكم أنتم إذا كانت الجمال متعبة ، فاتركوها ترتاح ، وإنها قد ترتاح إذا ما توقفنا هنا غداً بطوله . وربما يكون مسيركم في يوم باكر أفضل ". واستقبل رفاقي ذلك القرار بخيبة أمل ، وبذل الجميع محاولات عدة في فترة المساء علهم يجعلوني أتراجع عن قراري ، ولكني أصررت على موقفي وثبت عليه ، وأمضينا يوماً طيباً ، على الرغم من حرارته ، بالقرب من برك مياه ماوان Mawan بين خرائب وأنقاض تلك المستوطنة القديمة . والعربي ، بحكم كراهيته للسير المتواصل لمسافات طويلة ، إذ يكفيه السير لمدة ساعتين يحصل بعدها على قسط من الراحة يتناول خلاله القهوة فيما بين الوقفات قبل استئناف المسير مرة ثانية ، يكره أيضاً التوقف لفترات طويلة في الصحراء . وفكر العربي في أثناء المسير يتركز على العودة إلى بيته ، ولكنه يفضل العودة إلى ذلك البيت بطريقته الخاصة ، وأسلوبه في السفر يقوم على السفر وفي أثناء الليل وفي أثناء النهار ، ولكن على شكل مراحل قصيرة تتخللها فترات ينال خلالها قسطاً من الراحة . وشعرت بالأسف لأن مترك ، الذي كان أخلص وأوفى صديق لي من بين أفراد الجماعة ، أباح لنفسه ورضي لها أن تستغل مجرد أداة لتنفيذ مخططات إبراهيم ، ولكني أعلنت للاثنين وبلا مواربة أنهما لن يكون لهما نصيب من الهبة أو العطية التي سوف تعد مؤشراً إلى وصولنا إلى الرياض . ونفذت ما قلت ، ولم أندم طوال أشهر عدة ، بعد ذلك عوضت مترك عن ذلك الذي خسره في تلك المناسبة ، عندما استعنت بخدماته طوال الفترة المتبقية من تجوالي في تلك البلاد .

كنت قد قررت تمضية يوم من الكسل الحريص في جولة في أعالي الوادي بعد تجميع الإبل استعداداً لذلك الغرض عندما أستيقظ ، ولكن السلسلة الطويلة من الليالي التي كانت تتخللها نوبات الصحيان المبكر جعلتني أشعر بالضيق ، ولذلك قررت أن أرتاح يوماً مما أسفر عن أن خروجي الوحيد كان عبارة عن جولة في أعالي الوادي لمسافة ميل على وجه التقريب،عدت بعدها إلى المخيم عن طريق قمة الصخرة على ضفة الوادي اليسرى .

كان المكان الذى خيمنا فيه عبارة عن انتفاخ أو بروز دائرى واسع فى الوادى الذى كان يضيق فى تلك المنطقة ليصل عرضه إلى ما يقرب من مائة ياردة فيما بين ضفتيه . هذا الاتساع ربما وصل إلى ما يقرب من ربع الميل فى أوسع أجزاء ذلك الوادى ، وتحيط به خلجان صغيرة تبطنها الصخور ، أما سطح الوادى فكان مكوناً أصلاً من الرمل الذى به تراكمات من الغرين (اللَّهَم) تنتشر هنا وهناك ، راح القادمون من قرية الحلوة Hilwa عاماً بعد عام ، والذين ترتكز عليهم الزراعة لسبب غامض غير معروف ، راحوا يزرعون القمح فى حقول اقتطعوها من تلك التربة الغرينية الخصبة . وأهل الحلوة الذين يزرعون تلك الحقول يروونها من مياه الفيضان ومن سلسلة من نهيرات وغدران الرى الدائم ، التى تنبثق من ينابيع موجودة أسفل قاع الوادى المكَّون من الرمال ، وهذا بحد ذاته ملمح مميز تماماً من ملامح تلك المنطقة ، خط متواصل من المجارى المائية الضيقة ، التى ينتهى آخر مجرى منها فى بركة معقولة الأبعاد بالقرب من المكان الذى نصبنا فيه خيامنا . ونقلاً عن المعلومات التى استقيتها من مجموعة من الرعاة الذين زاروا ذلك المكان عندما كنا فيه ، فإن تلك النهيرات والغدران يغلب عليها الجفاف فى أواخر فصل الصيف ، ولكن فى السنوات التى يزداد فيها معدل سقوط الأمطار يبقى الماء فى تلك الجداول من الموسم إلى الموسم ، وبذلك تضمن للرعاة والفلاحين مدداً مستمراً من المياه .

وأنا لا أستطيع القطع بالأسباب التى جعلت تلك المنطقة خلواً من الحياة المستقرة مثلما كانت عليه فى الزمن الماضى ، غير أنه تتبقى لنا مع ذلك الحقيقة التى مفادها أن أنقاضها الكثيرة موجودة منذ قديم الأزل ، الأمر الذى يصعب معه توفر أى موروث سواء أكان موروثاً سكانياً لمن عاشوا فى تلك المنطقة ، أم الأسباب التى جعلت سكان تلك المنطقة يرحلون عنها أو تسبب فى انقراضهم . والجزء العلوى من ذلك الوادى تكسوه غابة كثيفة من أشجار الحور ، وأشجار الصفصاف ، وقصب الحلفاء الطويل ، فى حين نجد أن المساحة المنزرعة قمحاً بواسطة النازحين الموسميين ، تعد مساحة كبيرة جداً ، وشاهدنا أيضاً بجوار كل مجموعة من مجموعات حقول زراعة القمح أرضاً للدرس (جرنا) به كومة كبيرة من تبن المحصول السابق . كما شاهدنا أيضاً أبياراً حفرها الناس هنا وهناك يصل عمق الواحدة منها إلى أربع قامات ، كما شاهدنا فى غور من

أغوار تلك الأنقاض ترس أحد الأبيار خلفه أصحابه وراءهم على أمل عودتهم إلى ذلك المكان مرة ثانية ، وتلك إشارة واضحة ، على الرغم من أن الأمر ليس كذلك تمامًا ، إلى أمانة البدو .

ووسط أشجار الحور فى أعالى الوادى كانت هناك قلة قليلة من القصور شاهدنا من بينها قصرًا سليمًا تمامًا من الخارج ، على الرغم من أن القصر من الداخل كانت تتكدس فيه البقايا والنفايات بسبب إهماله فترة طويلة من الزمن ، هذا بالإضافة إلى أن ذلك القصر كان يكشف عن عاديات الدهر . كان ذلك القصر فى معظمه مبنيا من الطين وبه أيضًا بعض التدعيمات المبنية ، وأهم ملمح فى ذلك القصر كان يتمثل فى هيكله الذى يشبه البرج الصغير الذى يبرز إلى الأمام من فوق مدخل القصر الرئيسى ، وبه مساليت[٢١] أو إن شئت فقل فتحات أو مزاغل تتحكم فى الفراغ الموجود أسفل ذلك البرج . وفوق قمة الصخرة الموجودة على الضفة اليسرى ، تلك الصخرة التى تبرز إلى الأمام إلى انتفاخ الوادى ، كان هناك قصر آخر كبير الأبعاد ومبنى من الحجر ، وحاول صاحبه الاستفادة من الجدران الصخرية ، الأمر الذى جعل ذلك القصر يشبه قلعة طبيعية فيما عدا الجانب الداخلى المتجه نحو الأرض ، الذى كانت الجدران القوية المبنية تتحكم فى نقاط الاقتراب القادمة من الهضبة . وعلى جانب من أجناب ذلك القصر كان هناك صدع أو شق كبير فى الصخور الطبيعية يصل طوله إلى حوالى عشرين ياردة وعرضه بضعة أقدام ، وقاعه المقعر يشير إلى أنه كان يستخدم فى يوم من الأيام لتخزين مياه الأمطار حتى يمكن أن تفيد منها حامية ذلك القصر .

ومع ذلك يبدو أن الجزء الرئيسى من المستوطنات عبارة عن قصر ، أو إن شئت فقل قرية مبنية على شكل شرفات فوق منحدر صخور ضفة الوادى اليمنى ، كما تمتد القرية إلى مسافة معقولة إلى الخلف من قمة تلك الصخور فى اتجاه الهضبة ، ويحيط بكل المنشآت والشرفات سور مبنى كبير ، تتحكم مزاغله فى كل من الوادى والهضبة من جميع الاتجاهات ، التى يحتمل شن هجوم منها على ذلك المكان . وفوق أركان ذلك السور توجد أبراج ناتئة ومنيعة ، كما توجد داخل دائرة السور بئران ، وهذا كله يعد

شاهداً على فترات القلاقل والاضطرابات فى الزمن الماضى ، وبخاصة فى الأوقات أو الفترات التى كان يتحتم خلالها على سكان تلك المستوطنة الاعتماد على أنفسهم اعتماداً كاملاً فى مواجهة الحصار الذى كان يفرضه عليهم أعداؤهم .

حمل العرب الذين زارونا فى ذلك اليوم ، معهم نبأ توجه تركى الصغير إلى القصيم على رأس فرق عسكرية من الخرج ومن ضرمة Dhruma، قوامها حوالى ٥٠٠ رجل ليكونوا بمثابة نواة للقوة التى سوف يشن بها هجومه على الشمّر Shammar . كما أبلغونا أيضًا أخبار القتال الدائر فى الخرمة Khurma، التى قيل إن قوات الشريف حسين كان يقودها واحد من أبنائه ، وأن تلك القوة جرى دحرها على أيدى رجال قبيلة السبيع الذين كانت تدعمهم عناصر من عتيبة Ataiba' لبت نداء العون والمساعدة الذى وُجِّه إلى مجتمعات الإخوان فى كل من الرين Rain والغطغط Ghatghat . وفيما عدا ذلك لم يحدث أى شىء مهم فى أثناء فترة تغيبنا اللهم إلا باستثناء أن جباة الضرائب التابعين لابن سعود كانوا قد أوفدوا لجمع الزكاة السنوية ، فقد أوفد ابن سويليم إلى بلاد القحطان ، وأوفد ابن زيد Zaid إلى منطقة الخرج ، فى حين كنا ننتظر على مضض مجىء ابن جلهم Jilham عائداً إلى وادى الدواسر للغرض نفسه .

وفى ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالى لتوقفنا عند أنقاض ماوان Mawan يممنا مسيرنا مرة ثانية إلى الشعب الذى يمر مجراه البعيد حول سلسلة جبال خشم الكلب Khashm Kalb ، ثم يقترن بعد ذلك بشعب الوثيلان Wuthailan فى السهل قبل قرية الديلم Dilam . ومع ذلك واصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال حيث تبتعد القناة عن المضيق ، ثم سرنا بعد ذلك على حافة الأرض العالية التى كان مسيرنا فيها هيِّنًا وليِّنًا بشكل نسبى . وبعد أن عبرنا الغبيِّد Ghubaiyid، ذلك الرافد غير المهم من روافد شعب الماوان ، صعدنا مرة ثانية إلى الأراضى المرتفعة ، التى هى عبارة عن رقعة من المنخفضات المتدحرجة ، شاهدنا منها منظراً واسعًا لسهل الخرج وصل مداه إلى سلسلة جبال فيرزان Firzan .

وصلنا بعد ذلك إلى حوض شعب سوَيس Suwais الصخرى الواسع الذى يجرى بين صخرتين ارتفاعهما حوالى أربعين قدمًا ليقترن بمجرى شعب العين Ain'، ثم توقفنا

لتناول طعام الإفطار فى المرتفعات المكسرة التى تقع خلف مجرى ذلك الشعب ، فى منخفض ضحل يطلقون عليه اسم إرزة Irza، الذى تتخلله رُجُمْ Cairns تمثل المثوى الأخير لكثير من ضحايا صراعات الأزمان القديمة التى دارت بين سادة الشامير Shamir فى مراعىٰ العُليا Alaiya' والغزاة من بنى هاجر Bani Hajir ، الذين جرى دفعهم إلى الخلف فى صحراء الأحساء . والشامير هم حالياً السادة الذين لا ينازعهم أحد ملكية تلك المنطقة بكاملها ، وأبناء عمومتهم ، المطارة Matara والعارقة Arqa'، يحتلون كل على حده سفوح مرتفعات الأفلاج والمنخفضات التى تقع جنوبى السُلَيِّل sulaiyill والتى تمتد إلى منطقة نجران.هذا هو التوزع القبلى الحديث الذى نشأ عن انتشار العجمان Ajman' شرقًا ، فى الأزمان السابقة ، فى اتجاه الأحساء ، والسبب فى ذلك أن تلك الأفخاذ الأربعة تزعم أنها تربط بينها صلة قرابة ، ويطلقون على أنفسهم لقب العجمان باعتبار ذلك اللقب أمرًا ضروريا لهم .

بينما كنا نتناول طعام الإفطار مرت علينا جماعة من بدو الشامير الرُحل ومعها قطعانها ، وأبلغونا خبراً مفاده أن ابن سعود ، بعد أن تلقى تقرير إبراهيم عن استقبالنا فى وادى الدواسر ، بادر على الفور باتخاذ الإجراءات اللازمة لإثبات سلطته وصولجانه . والذى حدث أن ابن درعان Dara'an، الذى كان ولده واحداً من زعماء الحركة التى تألبت علينا ، كان قد زار الرياض فى ذلك الوقت وتركها فى طريق عودته إلى محل إقامته ؛ وهنا أرسل ابن سعود فى أثره ، وعلى وجه السرعة ، رُسَلاً لإحضاره ، والذى لاشك فيه أن ذلك الوالد التعيس كان محتجزًا فى العاصمة جزاء له على خطايا ولده .

شعب عين Ain' الذى وصلناه عقب استئناف مسيرنا ، ينساب نازلاً إلى السهل الواقع بين نعجان Na'jan والضباعة Dhaba'a، وهو يمثل عينة رائعة من عينات مضيق الطويق ، نظراً لأن شعب عين بمجراه الواسع المكوّن من الزلط والحصى يمتد متعرجاً خلال واد تحده من الجانبين صخور يصل ارتفاعها إلى حوالى مائة قدم ، وهى شديدة الانحدار بشكل عام . ونزلنا إلى الوادى عن طريق أخدود طبيعى ، له جانبان منحدران انحدارًا هيّنًا ، وتبعناه إلى مسافة عدة أميال إلى أن وصلنا إلى شعب صغير اسمه شعب الغوينان ، صعدنا منه مرة ثانية إلى الهضبة . وعلى بعد مسافات متساوية طوال

مسيرنا فى اتجاه أعالى الوادى مررنا بمجموعات صغيرة من خيام بدو الشامير السوداء المنصوبة بصورة مؤلمة فى ظل الأدغال والشجيرات – القسم الأكبر منها من أشجار الصفصاف وأشجار السنط – بالقرب من بعض البرك المائية الضحلة المتبقية من فيضان العام السابق . واقع الأمر أن الماء يمكن الحصول عليه فى كل أنحاء ذلك الوادى بلا مشقة ، نظراً لأن مجرى ذلك الوادى الرملى لا يتطلب الحفر إلا لعمق قدم أو اثنين على أكثر تقدير ، يمكن بعدها الحصول على مخزون المياه السطحية ، يضاف إلى ذلك أن كل مجموعة من تلك الخيام يمكنها الحصول على الماء من خلال تلك الثقوب الضحلة . بعض أجزاء ذلك المضيق لها غطاء كثيف من الحشائش والأعشاب وأشجار الطرفة Tarfa، التى استطعنا عن طريق التسلل من بينها إلى مداهمة غزال شاهدناه وهو يندفع مسرعاً فى اتجاه أعلى ضفة الوادى المنحدرة ، ثم يختفى بعد ذلك وراء خط الأفق ، كانت أكبر مجموعة من الخيام تضم حوالى عشرين بيتًا أسود ، ، اجتمع كل ذكورها تحت غابة من أشجار الصفصاف بالقرب من بركة مياه هزيلة ليمضوا النهار فى النوم والحديث .

كانت الصخور على جانبى شعب الغوينم Ghuwainam تتخللها فجوات على شكل كهوف ، استفدنا منها فى القيلولة بعد أن سقينا إبلنا من مجموعة من العيون التى جرى حفرها مؤخراً عند مصب الشعب . ومستوى ارتفاع الهضبة الذى وصلناه بعد أن قمنا باللف والدوران مدة خمس دقائق فى مجرى الوادى الصخرى فى أجزائه العليا ، يصل إلى ما يقرب من ٢٠٠ قدم فوق مستوى ارتفاع شعب العين ، فى المنطقة التى غادرناها. نحن نرى أمامنا الآن منخفضاً متموجاً تموجًا هينًا ، ظل أمامنا طوال فترة العصر إلى أن وصلنا إلى واحد من المنخفضات الثلاثة[٣٢] ونصبنا فيه خيامنا ، وبخاصة أن اقتران تلك المنخفضات الثلاثة على بعد مسافة كبيرة أسفل المنحدر ، يكوِّن ذلك الذى يطلقون عليه اسم شعب بلجن Baljan، الذى يعد أبعد روافد شعب العين فى اتجاه الشمال . وعلى الجانب الأيسر كانت الهضبة تتدحرج من أمامنا مبتعدة عنا ، ثنية فى إثر أخرى ، فى اتجاه سلسلة جبال العليا 'Alaiya العالية ، التى يكسر استمرارها فجوة بارزة تحف بها شبه دائرة من القمم المتآكلة بفعل ظروف الطقس ، وتمثل فى ظل كل الاحتمالات – على الرغم من عدم حصولى على معلومات دقيقة

عن ذلك الموضوع – النقطة التى يدخل عندها شعب نساح Nisah، الذى يعد مضيقًا آخر من المضايق العالية ، التى تتميز بها هضبة الطويق ، ذلك الفلق ، أو إن شئت فقل الشق الذى يمثل مجرى ذلك الوادى خلال حاجز الطويق . كان سطح الهضبة فيما بيننا وبين سلسلة جبال العليا يتميز بشقوق أو صدوع تمثل رءوس الشعاب الصغيرة الكثيرة ، التى تقترن بالأراضى العالية المنبسطة من شعب العين ، وعن يميننا كان المنحدر ينزل نزولاً هينًا نحو حدود الخرج التى تبعد عنا مسافة خمسة أميال أو ستة ، والتى كان ملمحا أبو ولد Abu Waldd ، وخشم الكلب Khashm Kalb من ناحية وسلسلة جبال فرزان Firzan هى والروابى من الناحية الأخرى ، تشكل تلك الروابط المألوفة لنا عن تلك البلاد التى سبق أن اجتزناها فى المراحل الأولى من جولتنا . وقد ظهرت أمامنا على بعد مسافة كبيرة خلف سلسلة جبال فرزان صخرة الجبيل الطويلة هى وامتدادات الجبيل الأرضية التى تكون نسقًا ، ينتهى فى اتجاه الشمال إلى صخور خشم هيث Khashm Hith الضخمة .

وبعد صعود قصير فى أثناء خروجنا من منخفضات البلجن ، وهبوط طويل إلى منحدر الهضبة السهل ، وصلنا فى صبيحة اليوم التالى إلى حافة شعب نساح Nisah، الذى دخلناه عن طريق وادى سدير الصخرى الوعر ، الذى تبدى لنا منه مخروط أم رغيبة Umm Rughaiba عند الجانب البعيد من شعب نساح ، فى الجانب الغربى من سلسلة جبال فرزان التى تشكل الضفة اليسرى لشعب نساح .

يصل عرض مجرى النساح حوالى ميلين فيما بين سلاسل الجبال الصخرية المنخفضة التى تحد مجرى ذلك الشعب ، ذلك المجرى الرملى العريض ، الذى يمتد بطوله خيط رفيع من التربة الطينية المتماسكة ، يمثل قناة العاصفة ، ومجرى شعب النساح هذا يتجه غربًا وشرقًا فيما بين الفجوة الموجودة فى جبال العليا 'Alaiya، التى سبق أن أتيت على ذكرها ، والدلتا الواسعة التى ينبثق من خلالها ليدخل سهل الخرج .

ارتقينا رفًا بعد رف فى المدق المحدد تحديدًا جيدًا الذى يمتد عبر الجزء الوعر من البلاد من ناحية الجانب البعيد ، وأصبحنا ونحن على قمة ذلك المدق ، على مرأى من رابية عبدة Abda' وسلسلة جبال الزويليات Zuwailiyyat فى الجانب البعيد من وادى

حنيفة Wadi Hanifa . وتقاطع طريقنا مع طريق آخر يؤدى إلى بعض الأبيار فى شعب بعيجة Ba'aija الذى بُدا لنا مضيقه العميق على الجانب الأيسر ، ويتلوى خلال الهضبة متجهًا صوب وادى حنيفة . نزلنا إلى الشعب ، أو بالأخرى إلى ذلك المنخفض الدائرى الذى تشكل أعلى نقطة فيه الحد الفاصل بينه وبين شِعْب داهو Dahu، الذى هو شِعْب فرعى من شعاب وادى حنيفة . نزلنا إلى ذلك الشعب من حول كتف رابية عبدة 'Abda، وكنا نتزحلق ، بدلاً من السير ، عبر تلك البحار الرملية المنحدرة التى تكدست على جانب الرابية الأيسر . ومع حلول الظهيرة توقفنا وسط الأدغال الشوكية التى كانت تنتشر فى المنخفض ، وبالقرب من ضفة قناة بعيجة ، التى كان يغطى مضيقها الدائر حول الصخور ، نباتات الحرمل Harmal، ونباتات الرمض Rimdh فضلاً عن النباتات الأخرى ، كما يصل عرض قناة بعيجة إلى حوالى ٢٠٠ ياردة ، وسرنا بعد ذلك على امتداد مجرى زلطى ضيق إلى أن وصلنا إلى منحنى ، بدأت تلوح لنا من خلفه طلائع نخيل الحائر Hair . وبعد لحظات قليلة أصبحنا فى قناة وادى حنيفة ، لنرى من جديد مشاهد الواحة المألوفة لنا ، التى طرأ عليها تغيير عما قبل أن خلفناها وراءنا خلال الأيام الأولى من فصل الصيف ، فقد انخفض حجم البركة المائية الرئيسية انخفاضًا لا بأس به ، واتخذت ثمار النخيل شكل التمر بدلاً مما كانت عليه ، كما ازدادت كثافة أدغال أشجار الصفصاف عن ذى قبل ، كما كانت تنتشر هنا وهناك خيام بدو السبيع السوداء ، الذين تجمعوا بمناسبة شهر الصوم وانتظارًا لمحصول التمر . وفيما عدا ذلك ، كانت القرية نفسها ، هى وبيارات نخيلها ، وكذلك الأبراج المشرفة على الصخور ، على حالها السابق ، وبالحال التى هى عليه ، بل وستظل عليه عبر العصور .

كانت تلك آخر ليلة من ليالى جولتنا . وكان قد جرى إيفاد المراسلين أمامنا ليحيطوا ابن سعود علمًا بمجيئنا ، وحضر إبراهيم إلى خيمتى بعد تناول العشاء طلبًا لمهادنتى ، ولكن المستقبل كان ينتظرنى ، وكنت قد عقدت العزم على ألا يكون لإبراهيم أية علاقة بمجيئى وخروجى . وتحقيقًا لذلك ، كان من الضرورى الإبقاء على الموقف المتحفظ الذى اتخذته ، بعد وقوع حادث ماوان Mawan من قادة الجماعة ، وهيأ لى مسير النهار سببًا وجيهًا للإبقاء على ذلك الموقف والحفاظ عليه . وبينما كنت راكبًا دابتى استدرت إلى ابن جلهم وعلى مسمع من إبراهيم ومترك وتامى وآخرين أيضًا

وسألته مع سبق الإصرار ، إن كان الحديث العابر الذى جرى فى ماوان قد تخلف عنه أىّ أثر . سألت ابنْ جلهم قائلاً : "ما هو الطريق الذى سنسير فيه بين الحائر والرياض ؟" وجاءنى على الفور رد ابن جلهم : "والله ! مع الوادى" (عن طريق وادى حنيفة ، بطبيعة الحال) . كان همهم الوحيد العودة إلى ديارهم ، العودة على وجه السرعة بغض النظر عن معرفتهم برغبتى فى زيارة ذلك الجزء من البلاد الذى لم يسبق لى رؤيته من قبل . ورددت عليه ملْتَمسًا : "ولكنى أفضل الذهاب من طريق آخر نظراً لأنى سبق أن شاهدت الوادى وكل ما فيه ." ورد على ابن جلهم قائلاً : "لا ، ولكن الطريق الوحيد إلى الرياض من الحائر هو طريق الوادى نفسه ، اللهم إلا إذا صعدنا مرة ثانية إلى ها Ha ، عن طريق ضرمة ، ثم نرجع ثانية من ها عن طريق أبا الجد Abaljidd " . وهنا احتفظت لنفسى برأيى فى وجه المؤامرة الواضحة التى كانت تهدف إلى إثنائى عن تحقيق ذلك الذى أريده ، ولكن إبراهيم عندما جاءنى فى المساء وهو يبتسم إعجاباً بنفسه ، ولكن مع قليل من الخجل ، ليهنئنى بسلامة الوصول وانتهاء مغامرتنا العظيمة ، جابهته دون حرج أو وجل . قلت له : "يا إبراهيم ، أنا أعلم أن هناك طريقًا يؤدى من هنا إلى الرياض عبر الهضبة بدلاً من طريق الوادى ، وأنا أود ، مهما كان الحال ، العودة عن طريق ذلك المدق (الطريق) ، وأنا لا يهمنى أن تكون أو لا تكون بصحبتى فى أثناء عودتى من ذلك الطريق ، وأتمنى أن تلتزم وترتب الأمر كما قلت لك ." وهنا بدأ إبراهيم متوسلاً : "والله ! لقد سمعت أنت اليوم بنفسك أنه لا يوجد طريق غير هذا الطريق ، طريق الوادى ، ولا أحد منا يعرف طريقًا آخر غير هذا الطريق ، ولكن لدينا بعضًا من أهل القرية يشربون القهوة معنا من حول نار المخيم ، وسوف أذهب لسؤالهم عن ذلك الطريق ." وعاد إلىَّ إبراهيم خلال لحظات بمعلومات مفادها أن هناك طريقًا ، غير أنه وعرا جداً ، وأن ذلك الطريق يمر عبر أخدود من أخاديد ها Ha ليصل بعد ذلك إلى قمة الهضبة . ورددت عليه قائلاً : "ليكن ما يكون ، فسوف أعود من ذلك الطريق". وبناء عليه جرى اتخاذ الترتيبات اللازمة للعودة من ذلك الطريق . وعند فجر صباح اليوم التالى ، وبينما كنا نمر من خلال الواحة متجهين إلى أعالى مضيق ها Ha بصخوره العالية ، وبيارات نخيله ، بدأت أستظرف على حسابهم ، وأعيِّرهم ساخراً ومداعبًا بفشلهم فى خداعى عن طريق الكذب . وهنا أقسم تامى

بشرفه أن أحداً منهم لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك الطريق الذى تحدث عنه أهل الحائر Hair . وتساءلت قائلاً : "كيف عرفت ذلك الطريق أنا نفسي ، الذى لست سوى غريب فى هذه الأجزاء من البلاد ؟ لا ، لقد عملت طوال تلك الأيام طبقًا لاتفاق واحد هو تعطيلى وإثناء عزمى عن طريق الكذب والخداع . هل نسيتم حكاية مرعى ماوان Mawan هى والمناسبات الأخرى التى كذبتم فيها علىَّ ؟ ألم تلاحظوا أننى كنت أدون كل يوم كل ما أراه وأسمعه ؟ انتبهوا ، واصغوا إلى كل ما سأقوله لكم . إن واحداً منكم هو الذى عرَّفنى إلى ذلك الطريق عندما وصلنا إلى الحائر قبل شهرين ، وهذا مكتوب ومدوَّن فى كراساتى . وبناء عليه فقد عرفت ذلك الطريق" . وبعد أن أصابهم الرعب جراء ذلك التوضيح تحولت أنظارهم إلى من خانهم ، ولكن مترك Mitrak، الذى كان قد نسى كل ذلك الذى سبق أن قاله لى ، أعلن على الملأ أنه لم يسمع قط عن ذلك الطريق ، وأن الطريق الذى سبق أن أخبرنى به إنما هو طريق ضرمة Dhruma .

وهنا سألتهم : "إذن ، أين مرشدينا ؟ ألم تسألوا واحداً من أهل القرية أن يدلنا على الطريق المؤدى إلى أعالى المضيق ؟" وردوا علىَّ بأن أحداً لم تكن لديه الرغبة فى مرافقتنا ، فيما عدا أن مترك هو الوحيد الذى يعرف مصاعب الطريق . وأعقبت ذلك لحظات قصيرة من التمثيل الصامت غير الجيد ، الأمر الذى جاء فى صالحى ، إذ جرى إيفاد الكشافين للتجسس على أسرار فتحات المضايق بحثًا عن آثار المدقات والطرق المؤدية إلى أعالى تلك المضايق ، وقام مترك بقيادتنا على وجه السرعة ، وبغريزة المرشد الخبير بالبلاد المألوفة لديه ، أوصلنا إلى المكان المناسب ، الذى كان فيه طريق مطروق تناثرت عليه بقايا روث الإبل وآثار أقدامها على الأرض الثابتة ، أوصلنا إلى عنق أو اختناق ضيق تنتشر فيه جلاميد الصخر عند قمة المضيق ، كما أوصلنا أيضًا إلى الهضبة المفتوحة الموجودة خلف ذلك المضيق ، والتى تقترن بها خطوط طريق الجمال المتعرج . وحاول رفاقى الاستفادة من المصاعب المؤقتة التى ترتبت على عملية الصعود ، ولكنهم توقَّفوا عن الحديث عن تلك المصاعب عندما وصلنا إلى بداية الطريق المؤدى إلى الرياض عبر الهضبة ويميل قليلاً إلى جهة اليمين ، ويتجه إلى الأمام صوب منخفض وادى حنيفة الواسع .

وعلى بعد مسافات كان الطريق ينزل ، ثم يرتفع صاعداً من خلال بعض الشعاب الضحلة[٣٢] التى تتجه صوب وادى حنيفة ، وعن يسارنا كانت هناك أرض جرداء قاحلة من الهضبة ، تميزها ثلاثة جبال صخرية منخفضة يطلقون عليها اسم القصيعان Kusai'an : وهنا بدأ مترك يعدل من عناده السابق إذ بدأ يعطينى أسماء الملامح المميزة التى كانت تقابلنا فى أثناء مسيرنا ، ومع ذلك فقد أعربت عن تشككى فى قيمة المعلومات التى كان يعطينى إياها نظراً لأن تلك الزيارة كانت تعد الزيارة الأولى التى يقوم بها مترك لهذه المنطقة ، ورفضت فى شىء من الفخر والتباهى بمعلوماتى ، تدوين تلك المعلومات فى كراسة الملاحظات ، أو إن شئت فقل فى مفكرتى ، وقد بادرت إلى تصحيح ذلك الحذف فى أقرب فرصة هيأت لى القيام بذلك دون أن يرانى أحد .

أخيراً ظهر لنا فى أثناء المسير ، ظل واسع داكن ، من بين حوض من الصخور المتساقطة وسلاسل جبلية بعيدة ، كما أوحت إلىَّ التنهدات الدينية التى صدرت عن رفاقى أن نخيل العاصمة الوهابية بدأ يتراءى إلى عيوننا . وبدأ المنظر الباهت يتحدد شيئاً فشيئاً، ولكننا بدأنا نفتقد ذلك المنظر مرة ثانية عندما بدأنا نهبط نازلين إلى وادى حنيفة فى المنطقة التى سبق لنا أن توقفنا فيها فى رحلة الذهاب إلى شعب برقة . وبناء عليه بدأنا التوجه إلى أعالى وادى حنيفة عبر أنقاض جزة Jiza، إلى أن وصلنا أول موقع متقدم فى واحة منفوحة ، أو إن شئت فقل قصر مزعل Miz'al، التى غادرناها ، تاركين مصانع Masana' عن يسارنا ، وسرنا بمحاذاة حافة بيارات النخيل إلى أن وصلنا إلى منفوحة نفسها .

وقبل أن نصل قرية منفوحة بلحظات قليلة التقانا أحد الخيالة ، هو عبد العزيز بن الرباعى ، الذى أوفده ابن سعود لاستقبالنا بمناسبة عودتنا سالمين . أبلغنا عبد العزيز ابن الرباعى ، أن ابن سعود خلد إلى الراحة فى سكنه بعد اجتماعات ومقابلات الصباح ، وسوف يعود مرة ثانية إلى مجلسه لاستقبالنا فى أواخر فترة العصر، وبقينا طوال تلك الفترة على راحتنا لنرتاح حيث كنا ، كما أن الإتيكيت (أداب السلوك) حتَّم علينا فعل ذلك ، أى تأخير دخولنا إلى أن يسمح وقت مضيفنا باستقبالنا . وكان ابن رباعى قد أحضر لى معه حقيبة بريد فيها رسائل وفيها صحف استعنت بها على تمضية ساعات

النهار الحار ، متمتعًا فى ذات الوقت بكمية وفيرة من البطيخ الممتاز[٣٤] الذى يزرع فى أرياف هذه البلاد ، وكانوا قد وضعوا تلك الكمية أمامى ، والتى أتذوقها للمرة الأولى .

أخيرًا جاء الموعد الرسمى لدخولنا الرياض ، وبعد مسير قصير عبر سلسلة الجبال التى أحرقتها الشمس ، فيما بين قسمى الواحة وأعالى مجرى سيل الشمسية ، الذى تنتشر فيه حاليًا أعداد كبيرة من خيام البدو الزائرين ، وصلنا إلى بوابة الرياض الرئيسة فى الجانب الشمالى الشرقى . دخلنا الرياض بعد خمسين يومًا بالتمام والكمال بعد أن ركبنا دوابنا متجهين صوب الجنوب، وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ، الموافق اليوم الرابع عشر من شهر رمضان ، شهر الصوم العظيم ، الذى صادف ، وهذا يحدث مرة واحدة ، أن يكون أطول أيام العام ، وجلب على هؤلاء الناس الذين يتمتعون بضمائر يقظة وحية فى طاعة أوامر الله الأمر الذى يسبب لهم أقصى المتاعب البدنية ويهيئ لهم أقصى درجات السعادة الروحية . كانت شوارع العاصمة الخالية من البشر ، والتى كانت ذرات الغبار التى تغطيها تتوهج فيما بين أشعة شمس منتصف الصيف ، تبدو كما لو كانت شوارع مدينة من مدن الموتى ، ونحن نمضى فى صمت للوصول أمام القصر الضخم الذى يقيم فيه ابن سعود .

الهوامش

(١) يطلقون عليها أسماء السمير Sumair، وأم الطول ، ووعرة Wa'ra والثيبة Ithiba وشوقيب Shuqaib فضلاً عن شعاب أخرى .

(٢) منها أيضًا أم حييشة Umm Hiyaisha وأبو نُميس Abu Numais .

(٣) أنظر صفحة ٢٨٣ ، هامش رقم ١ أو ما بعده .

(٤) يسمونها طيبة الاسم Taiyibat Ism .

(٥) تعرف تلك البرك باسم ثقب Thaqb (وجمعه ثُقبان Thaqban) .

(٦) انظر ص ٢٨٨ وما بعدها .

(٧) الاسم العلمى لذلك النوع من الشجر هى Moringa Peregring Fiori والإنجليز يقولون له : Morningan .

(٨) انظر ص ٦٨ وما بعدها .

(٩) انظر ص ١٠٨ وما بعدها .

(١٠) الجمل الذكر.

(١١) منذ أن دونت هذا الكلام جرى العثور والحصول على الطرد الضائع ، وقام السيد د. بولر Bullerنيوتن بفحص المجموعة ودراستها. وأنا أورد مقتطفات من ذلك التقرير على شكل ملحق لهذا الكتاب ، كى يفيد منه المهتمون بتلك الأمور .

(١٢) انظر ص ١٠٨ وما بعدها .

(١٣) المعيذر ، والنيدار ، وضامان ، وسدير ، وأبو السافى Abulsafi .

(١٤) واحده سهلى .

(١٥) شعاب متهاج وملوى ودهينة Dahina وحنوة Hanwa والقبورية Quburiyya حسب هذا التسلل .

(١٦) الاسم الدارج لذلك النبات هو Hamàt .

(١٧) شعب سُميرين Sumairin، وقناة مجهولة الاسم .

(١٨) شعاب الحنشالية Hanshaliyya، والسديرات Sudairat ورافد مجهول الاسم من روافد الشعب الأخير وكذلك أم هيشة Umm Hisha .

(١٩) يعرف باسم شعب دِية Daiya : انظر ص ٦٥ وما بعدها .

(٢٠) انظر المجلد الأول ص ١٠٢

(٢١) انظر ص ٧٨ وما بعدها .

(٢٢) انظر وليم جليفورد بالجريف ، المجلد الثانى ، ص ١٢٨ .

(٢٣) السميرية Sumairiyya فوق بئر بعيجة ، ومسيدير Musaidir، وأم الفريد Faraid، والعبيران Ubai-ran' وأم طليحة Tulaiha فى الأسفل .

(٢٤) هذه الحبارى يرجح أن تكون من نوع آخر غير حبارى السيسى Sisi، يضاف إلى ذلك أن الحبارى رمادية اللون هى من النوع المألوف لدى سكان الهند .

(٢٥) واحده هزّانى Hazzani .

(٢٦) واحده "وعل" وجمعه "وعول" .

(٢٧) يقترن رافد أبو صخرة صغير من وديان الحملان Hamlan قبل أن يصل إلى رافد الصوت Saut .

(٢٨) هذه الروافد الفرعية هى : أبو حلفة ، وخمسة ، وأم سلام .

(٢٩) يسمونها قصيم Qusaim .

(٣٠) كان هناك مضيقان صغيران يتقاطعان مع ذلك البروز : دهلة القعود Dahlat Qu-'ud ومندسة Man-dasa ، اللذان كانا يقترنان بالوشيلان .

(٣١) واحدة "مسلوت" وهو الفتحة أو المزغل الصغير الذى يتحكم فى مساحة أو فضاء يكون أسفله .

(٣٢) يطلق على تلك المنخفضات الثلاثة اسم "البلاجين" .

(٣٣) هذه الجبال الصخرية الثلاثة هى : العويجة 'Awaija وأمهات الفرايد Ummahat al Faraid وأم غار Umm Ghar .

(٣٤) هم يطلقون على "البطيخ" اسم "الجاه" أو "الحبحب" ، ولكن كلما "بطيخ" هى وكلمة "رقى" Raqqi يشيع استعمالها فى بلاد الرافدين ، ويندر استعمالهما فى الجزيرة العربية .

ملاحق الكتاب

الملحق رقم (١)

(مقتطفات من تقرير عن مجموعة من الحفريات)

هذه مقتطفات من التقرير الذى كتبه البروفيسور ر . ب . نيوتن ، من المتحف البريطانى ، عن مجموعات الحفريات القادمة من وسط الجزيرة العربية (جبل طويق) .

مجموعة من الحفريات ، يشكل البت فيها موضوع هذا التقرير ، وقد استطاع السيد فيلبى الحصول على تلك المجموعة من الحفريات ، من وسط الجزيرة العربية خلال فترة عبوره تلك البلاد فى عام ١٩١٨ الميلادى ، من المنطقة فيما بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر يوم أن كان مكلفًا بمهمة دبلوماسية حكومية فى تلك المنطقة .

ومع أن تلك العينات عبارة عن نتف ، فإنها تعطى دليلاً مهما على الحيوانات الجوراسية البحرية التى ترتبط بعلاقة مع المادة التى سبق تصنيفها بالفعل بعد أن جاءت من الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية .

حصل السيد / فيلبى على تلك الحفريات من أربع مناطق :

(١) منطقة باشين Bachain [بكَيِّن] BAKKAIN فى المنطقة المجاورة لقرية سدوس Sadus (خط طول ٤٦ْ ، وخط عرض ٢٥ْ) . التى تقع على ارتفاع ٣٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، والتى يتلوَّن الحجر الجيرى فيها بلون الحيوانات البحرية ، وهذا الحجر الجيرى من النوع شديد الصلابة ، وهو سيليكونى فى أضعف الأحوال ، وبه ارتباطات اتفاقية من "البيكايت" Beekite، كما يكشف فى بعض الأحيان عن بنية سرئية ، أو إن شئت فقل بنية حبيبة .

(٢) منطقة الهيش EL HISH [AL HISH] ، ويحتمل أن تكون هى الأخرى قريبة من سدوس ، ويقال إن منطقة الهيش تقع على ارتفاع حوالى ٢٨٠٠ قدم فوق مستوى

سطح البحر . وهذه العينة تعد مثالاً جيداً على صخور Isastraea التى خضعت لعوامل التعرية واكتسبت لون ألقشدة ، وخالية من مادة الترابط ، وجرى العثور عليها فى تلك المنطقة ، وهو الأمر الذى يبرز فرضية اكتساب الحجر الجيرى للون مماثل للون المنطقة السابقة .

(٣) منطقة عشيرة ASHAIRA ['ASHAIRA] (خط طول ٤٦ْ ، وخط عرض ٥٠ً ٢٢ْ) – لون الحجر الجيرى الحضرى فى تلك المنطقة هو لون قشدة . وهذه المنطقة ، وكذلك المنطقة التالية ، حَمر Hamar، تقعان على مسافة ١٥٠ ميل جنوب سدوس .

(٤) منطقة حَمر HAMAR (خط طول ١٠ً ٤٦ْ وخط عرض ٣٠ً ٢٢ْ) . لون الحجر الجيرى فى تلك المنطقة هو لون خام الحديد ، ويحتوى فى أغلب الأحيان على حبيبات دقيقة من فوق أكسيد الحديد ، هذا بالإضافة إلى صلابته الشديدة لكونه حبيبات كلسية مشكلة يغلب عليه شكل الحجر الرملى الخشن

(والآتى بعد هو وصف مفصل لتلك الحفريات)

* * *

الحفريات المرفقة التى جرى تصنيفها ووصفها هى بقايا حيوانات بحرية نمت وازدهرت عبر مساحة كبيرة لما يسمى حاليًا بالجزيرة العربية وذلك خلال العصر الجوراسى . وقد جرى إحضار تلك الحفريات من باشين Bachain بصفة أساسية ، ولم يعثر سوى على عينتين فقط من العينات التى تقبل التحديد، من منطقة الحمر Hamar، وعينتين أخريين من عشيرة ، فى حين جاءت عينة واحدة من الهيش EL HISH ...

كشفت بعض هذه العينات – على رغم عدم اكتمالها بشكل عام – عن بنية تسمح لنا بالتحديد الدقيق ، ومن المؤكد الاعتراف والإقرار بأن تلك العينات تنتمى إلى العصرين السكوينى Sequanian والعصر الكمريدى Kimeridgian من العصور الجوراسية العليا . ومع ذلك، فنحن نجد أيضًا أن التركيب،الذى يقال له Exogyra Bruntrutana يوجد أيضًا فى التركيب Portlandian على الرغم من أن ذلك التركيب ناشئ أصلاً عن التركيب Oxfordian، هذا فى الوقت الذى يتراوح التركيب Chalmys Articulatus بين

الـ Bathonian والـ Kimeridgian، كما أن التركيب Polyzoan لا يعرف إلا في العصر الـ Bathonian . وقد لاحظنا بالفعل أن التركيب Nerinea موجود في صخور العصر الجوراسي الأعلى في شمالى عدن ، كما وجدنا أن عينات الباشين Bachain التابعة لذلك الجنس لها علاقة أيضًا ببعض الحفريات المعروفة التى تمثل العصر السكوينى - الكمريدىKimeridgian - Sequanian .

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن هناك تشابهًا حيوانيًا مع حفريات العصر الجوراسى الأعلى فى كل من الصومال والحبشة ، والتى صنفها ووصفها كل من داكيو Dacque وفوتر Futter، وأن تلك الحيوانات تمتد أيضًا إلى كل من حيوانات أوروبا والحيوانات البريطانية . وبناء عليه ، وحتى الآن يمكن اعتبار تلك الحيوانات من العصر السكوينى (المرجانى) - الكمريدى ، على الرغم من أننا نأمل الحصول عن طريق الاستكشافات المستقبلية ، على تشكيلة أكبر من العينات الوفيرة المحفوظة حفظًا جيدًا ، الأمر الذى يمكننا من الحصول على المزيد من المعلومات عن تصنيف طبقات أرض الجزيرة العربية.

ونحن لا يسعنا إلا أن نهنئ السيد / فيلبى على استكشافاته ، وعلى عيناته الخاصة بعلم الحفريات القديمة ، التى زادت معلوماتنا بشكل كبير عن التركيب الجيولوجى لمنطقة وسط الجزيرة العربية ، الذى لا يزال مجهولاً إلى الآن .

الملحق رقم (٢)

قائمة المصطلحات العربية المستعملة فى الكتاب*

أ - الأشجار ، والنباتات ، إلخ .

(حققت جمعية بومباى للتاريخ الطبيعى القسم الأكبر من هذه المصطلحات) .

رقم مسلسل	المصطلح العربى	رقم مسلسل	المصطلح العربى
١	الأضيد	٢	الأصير
٣	الأبيبد	٤	الأجلة
٥	الأليجان	٦	الألقة
٧	الأمبوط	٨	النقوط
٩	العرفج	١٠	العرَة
١١	الأرطة	١٢	العسال
١٣	الشّرقان	١٤	العطاف
١٥	العوشاز	١٦	البان
١٧	عضو البان	١٨	البانة
١٩	البقرة	٢٠	البرية

* هذه المصطلحات شرحها المؤلف فى ثنايا متن الكتاب . (المترجم)

٢١	البرسيم	٢٢	البروق
٢٣	البطباط	٢٤	البطباط
٢٥	البطيخ	٢٦	البسباس
٢٧	الضَّاعة	٢٨	الضَّابية
٢٩	ذنب الثَّاب	٣٠	الضُّمران
٣١	الدُّرعة	٣٢	الفقع
٣٣	الغاضة	٣٤	الغاف
٣٥	الغلقة	٣٦	الغريرة
٣٧	الغراز	٣٨	الغُلسيرة
٣٩	الحبحب	٤٠	الحداج
٤١	الحاض	٤٢	الحلفة
٤٣	الحمة (الثعلوق)	٤٤	الحماة
٤٥	الحماة	٤٦	الحمبيز
٤٧	الحمباسيس	٤٨	الحمض
٤٩	الحمرور	٥٠	حمرور الجبل
٥١	الحراس	٥٢	الحرمل
٥٣	الحساك	٥٤	الحثارة
٥٥	الحوضان	٥٦	الحليوة
٥٧	الهيش	٥٨	الضَّريس
٥٩	العشب	٦٠	عشريق
٦١	الإثل	٦٢	إثلة

٦٣	الجاح	٦٤	الجهويان
٦٥	الجات (برسيم)	٦٦	جثجاث
٦٧	الجنة	٦٨	الكحيل
٦٩	الكراب	٧٠	الكارش
٧١	الكرَّاث	٧٢	الخضَّار
٧٣	الخضرى	٧٤	الخريت
٧٥	الخرشاف	٧٦	الخصَّاب
٧٧	الخاتمى	٧٨	الخطرة
٧٩	الخرِيَّة	٨٠	الخِيس
٨١	الخزامة	٨٢	الخُبَّيز
٨٣	الخُبيز	٨٤	الكداد
٨٥	كرمة	٨٦	لوبيا
٨٧	المكار	٨٨	المكويزى
٨٩	المرار	٩٠	المرخ
٩١	المليح	٩٢	مشط الذيب
٩٣	المسكانى	٩٤	المسبع
٩٥	المُسيْقة	٩٦	بنت السيف
٩٧	نجيعة	٩٨	النق (نقط أو نقوط)
٩٩	الثيشة	١٠٠	النوسى
١٠١	القيصوم	١٠٢	قرنوط السهل
١٠٣	قصبة	١٠٤	القاسيس

١٠٥	القطاى	١٠٦	القطيَن
١٠٧	القرضة (القرضى)	١٠٨	القشر
١٠٩	قلقلان السهل	١١٠	قوريس (كرَّاث)
١١١	قطن	١١٢	قويفة
١١٣	الرُغال (الرَّغَّال)	١١٤	الرَّاك
١١٥	الرمرام	١١٦	الرَّقم
١١٧	الرَّقِّى	١١٨	الرقروق
١١٩	الرِيَّة (السميمة)	١٢٠	الرِّبلة
١٢١	الرِّمض	١٢٢	الرُّخَيْمة
١٢٣	الرُّطبة	١٢٤	السَّبت (السُّبَات)
١٢٥	السَّعدان	١٢٦	الصَّغْرى
١٢٧	السَّلام	١٢٨	السَّماع
١٢٩	السَّمار	١٣٠	السَّمْنة
١٣١	سمنة (خرِيَّة)	١٣٢	السرجا
١٣٣	الشُّفلَّة	١٣٤	الشَّين
١٣٥	شجرة الدَّاب	١٣٦	الشرر
١٣٧	الشبرام	١٣٨	الشَّيْنان
١٣٩	الشِّقَّارة	١٤٠	الشَّرشير
١٤١	الشُّقالة	١٤٢	السَّدْر
١٤٣	السِّيح	١٤٤	السِّليج
١٤٥	السِّيرى	١٤٦	الصُّفارة

١٤٧	السَّلَيْقة	١٤٨	السَّلَيَّان
١٤٩	السميمة (الرِّبة)	١٥٠	السُّواد
١٥١	الطلح	١٥٢	التنضدام
١٥٣	التُّنُّوم	١٥٤	الطَّرفة
١٥٥	الطَّرثوث	١٥٦	الثَّايل
١٥٧	الثَّعلوق	١٥٨	الثعلوق (الحمة)
١٥٩	الثَّمام	١٦٠	الثَّرار
١٦١	الثُّبدَة (النقوط)	١٦٢	الطُّورابخ
١٦٣	الوهت	١٦٤	الزهار
١٦٥	الزَّرية	١٦٦	زرِّية الجبل
١٦٧	زوب البان	١٦٨	عضو الحماد (الطرثوث)

ب – حيوانات ، وطيور ، وزواحف ، وحشرات .. إلخ .

١	أرنب	٢	عَرْقى (عرقية)
٣	دَاب	٤	دبَّاس
٥	دراج (درَّاج)	٦	ضبع
٧	ضبٌّ	٨	ظبى
٩	ذلول	١٠	حبس
١١	رهية	١٢	حجلة
١٣	حمَّارة	١٤	حنيش

١٥	حُبَارة	١٦	إدمى
١٧	جخًاخ	١٨	جرب
١٩	جربوع	٢٠	جضا
٢١	جيلة	٢٢	نعام
٢٣	ناقة	٢٤	نسر
٢٥	قعود	٢٦	رأس مريضان
٢٧	ريم	٢٨	رُباع
٢٩	رُبيان	٣٠	صبرى(سلاد وأسراد)
٣١	سلوقى	٣٢	سماق
٣٣	أم سالم	٣٤	وعل
٣٥	وجوج	٣٦	وضيحى

ج – الزراعة ، والرى ، والمراعى ، ألخ .

١	عمار	٢	عريش
٣	دراًجة	٤	ديمال
٥	غدير	٦	خطر
٧	همج	٨	حمى
٩	عدًة	١٠	حالب
١١	جِلًة	١٢	جلطة
١٣	جاو	١٤	كدًاد

١٥	كاريز	١٦	خفس
١٧	خيُول	١٨	خراب
١٩	خراز	٢٠	خريمة
٢١	كوس	٢٢	مهالة
٢٣	مخرج	٢٤	موسم
٢٥	مرْكة	٢٦	مشْعاب
٢٧	مشعاب	٢٨	نُعيِم
٢٩	قيض	٣٠	قصر
٣١	قربة (جمع قراب)	٣٢	ربيع
٣٣	روضة	٣٤	سبخة
٣٥	صفرة	٣٦	سيف
٣٧	سيل	٣٨	سماد
٣٩	ساقى (سواقى)	٤٠	شعب
٤١	شوًان	٤٢	سموم
٤٣	ثميلة	٤٤	ثقب
٤٥	ثُوريا	٤٦	وادى

د- الدين

١	أذان	٢	أهل كتاب
٣	عشاء	٤	عصر
٥	بين العصرين	٦	ظهر
٧	حديث (أحاديث)	٨	حج
٩	عيد	١٠	الجاهلية

١١	إحرام	١٢	إخوان
١٣	إمام	١٤	إسلام
١٥	الجاهلية	١٦	جامع
١٧	جهاد	١٨	جن
١٩	جمعة	٢٠	كعبة
٢١	كافر	٢٢	خطبة
٢٣	ليوان	٢٤	مغرب
٢٥	مالكي	٢٦	مسجد
٢٧	محراب	٢٨	مؤذن
٢٩	مُدَيَّن	٣٠	مشرك
٣١	مسلم	٣٢	مطوّع
٣٣	نائب	٣٤	قضاء
٣٥	قاضي	٣٦	قبلة
٣٧	قرآن	٣٨	ركعات
٣٩	صلاة المغرب	٤٠	شيخ
٤١	شرع	٤٢	شيعة
٤٣	شرك	٤٤	سورة
٤٥	تفسير	٤٦	طاغوت
٤٧	تخفيف	٤٨	تلاميذ
٤٩	طلاق	٥٠	تقصير
٥١	علماء	٥٢	وهابي

هـ - الحرب ، السفر ، الإدارة ، النقود ، الملابس ، ومتنوعات أخرى

١	عباءة	٢	أخاوة
٣	أمير	٤	عند رون (فارسية)
٥	عقيل	٦	عرب
٧	عريفة (عرافة)	٨	بدو
٩	بيرق	١٠	بيت
١١	بيت	١٢	بيت الحكم (حكومة)
١٣	بيزة	١٤	برحة
١٥	براخيس	١٦	بشت
١٧	برغل	١٨	شباطى (هندية)
١٩	دفتر	٢٠	دهو
٢١	دهان	٢٢	ديرة
٢٣	ديوانية	٢٤	فلج
٢٥	فروة	٢٦	غرامين
٢٧	غزو	٢٨	غزو عام
٢٩	غزو خاص	٣٠	قوم
٣١	حضر	٣٢	حجر
٣٣	حاكم	٣٤	هالا
٣٥	حملة	٣٦	حمَّام
٣٧	هنشالى	٣٨	جريم
٣٩	حرَّة	٤٠	حسا

٤١	حسا أحمر	٤٢	حسا أخضر
٤٣	حومة النقيان	٤٤	إقط
٤٥	جَنْبيَّة	٤٦	جريش
٤٧	جص	٤٨	كافيَّة
٤٩	كاتب تخريجية	٥٠	خشم
٥١	خشيم (خُشيِّم)	٥٢	كتاب
٥٣	رلبن	٥٤	مضيف
٥٥	مفتول	٥٦	مهنذة
٥٧	مجلس	٥٨	منزل
٥٩	مقيل	٦٠	مراح
٦١	دولار ماريا متزايد	٦٢	مارو
٦٣	مسلوت	٦٤	مدخان
٦٥	مبرَّز	٦٦	مدير
٦٧	مهلَّبي	٦٨	مُنْشي
٦٩	نفود	٧٠	نائب
٧١	نرجيل	٧٢	نقاع
٧٣	نورة	٧٤	بيزة (هندية)
٧٥	بارة (تركية)	٧٦	باشا (تركية)
٧٧	بلاف (تركية)	٧٨	قيمات
٧٩	قيمي	٨٠	قائم مقام
٨١	قسطرة	٨٢	قين

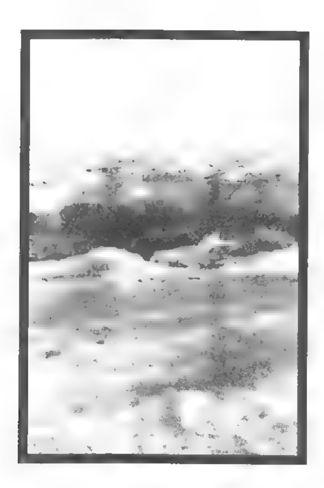
٨٣	قمرك (تركية)	٨٤	رفيق
٨٥	ربع	٨٦	ريال
٨٧	صاع	٨٨	صلبوخ
٨٩	سمن	٩٠	سميل
٩١	سَمْ	٩٢	سراى (تركية)
٩٣	شيخ	٩٤	شرطة
٩٥	الشيوخ	٩٦	سروال
٩٧	سلطان	٩٨	سُنَافرة
٩٩	سوق	١٠٠	تبريز
١٠١	كاتب التكريجية	١٠٢	تنوين
١٠٣	تعْس	١٠٤	طويلة
١٠٥	ثوب	١٠٦	سَمَّان (تمِّين)
١٠٧	عشر	١٠٨	وكيل
١٠٩	والى	١١٠	وسم
١١١	وزنة	١١٢	ولايات
١١٣	يوزباشى (تركية)	١١٤	زابون
١١٥	زكاة	١١٦	زكاة الأروض
١١٧	زرنيخ	١١٨	زنجبيل

الملحق رقم (٣)

الصور



ليلى ، عاصمة الأفلاج



عين سامحة ، واحدة من البحيرات السحيقة فى الخرج



بقايا اليمامة ، هى والتلال الرملية التى تكاد تلامس حزام النخيل



العقير – جيتى ، المخازن والميناء



حطام فرزان وبقاياها



البحيرة الكبرى فى أم الجبل فى الأفلاج



خزان مقران ، وجبال الدواسر تشرب منه



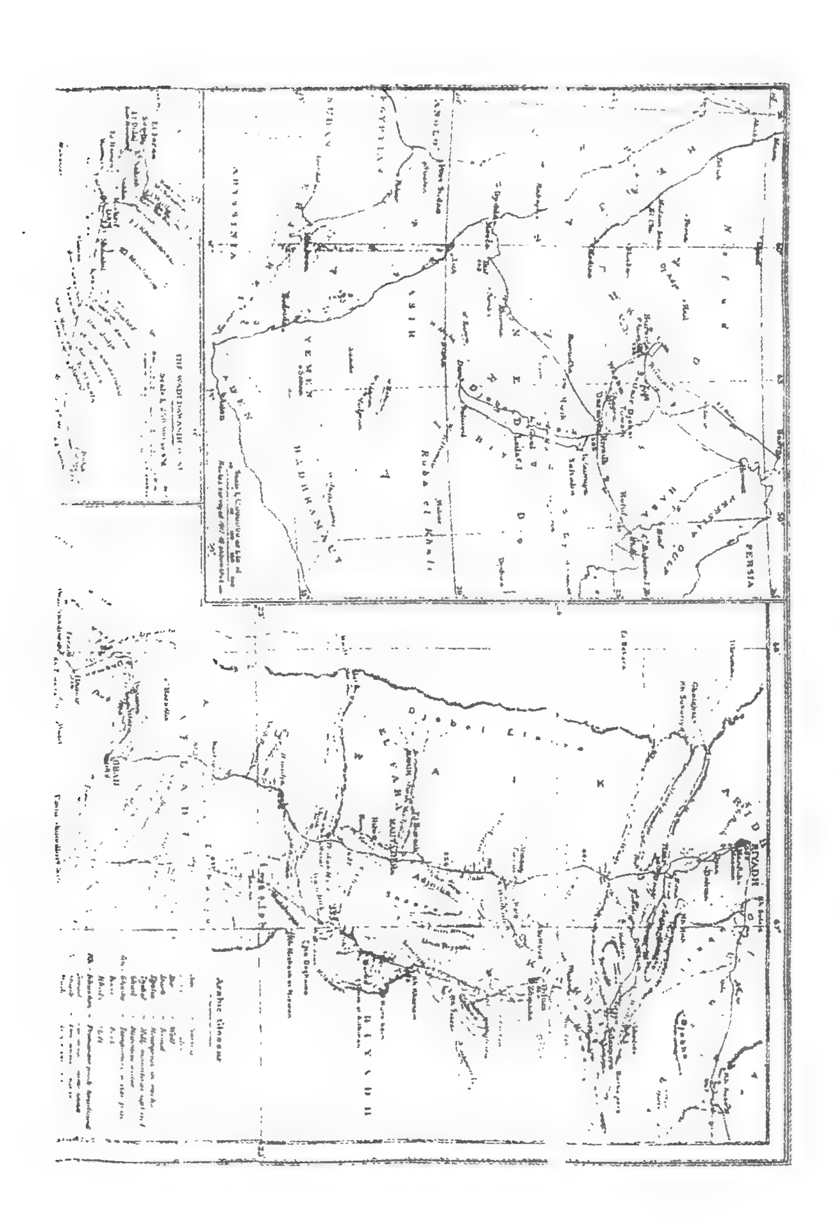
هجرت الحنيش فى وادى السليل

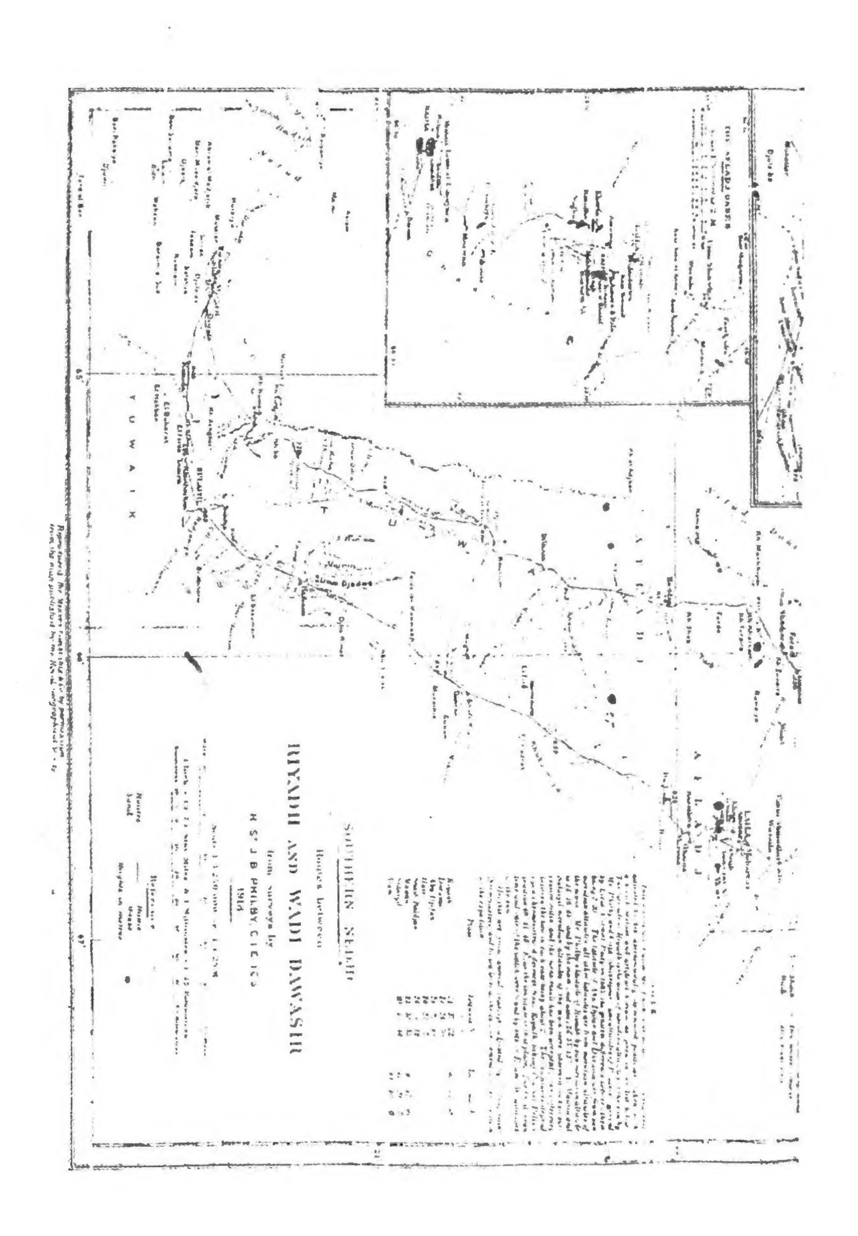


قرية تمرة فى وادى الدواسر

الملحق رقم (٤)

الخرائط


ABYSSINIA
ADEN
YEMEN
PERSIA
RIYADH
Arabic Glossary


RIYADH AND WADI DAWASIR
H. St J. B. PHILBY, C.I.E. I.C.S.
1918

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــــى: حســـن كامـــل